

الياوران

الياوران

رواية

رامي رأفت

تصميم الغلاف: محمد عيد

تدقيق لغوي: سامية أبو زيد

رقم الإيداع: 2015/ 11804

I.S.B.N: 978-977-488-407-8

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،

المرج الغربية، القاهرة

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 – 01147633268

E-mail: daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، 2015م

جميع الحقوق محفوظة ©

دار اكتب للنشر والتوزيع

الياوران

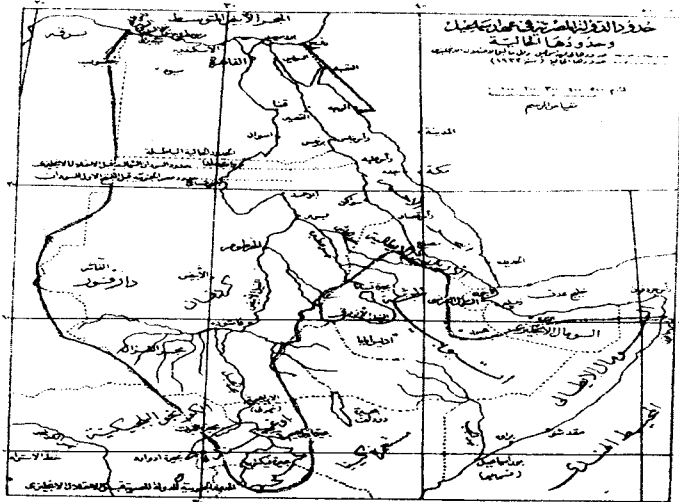
رامي رأفت



دار الكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى من ثاروا في زمن اكدوبت فيه الظهور وأنخت الهامات.
إلى من جالدوا وناجزوا الظلم والفقر والجهل دون أن ترهبهم الزنازين،
فباتوا مطاردين وصبحوا خائنين ومأجورين.
إلى الأرواح المسافرة إلى رحاب العدل والنعيم المقيم .. لا تحزنوا .. فكل
ثمر يقذف بالحجارة.
إلى أُمي الغالية التي بذرت بداخلي البذرة وتعهدها بالعناية.
إلى زوجتي الحبيبة التي شجعتني ولم تدخر جهداً في تحفيزي على
إتمام عملي هذا.
إلى روح أبي التي لا تنفك على التطواف من حولي.
إلى ابني الصغير أحمد.
وإلى أصدقائي الذين آمنوا بي.



١- عصر إسماعيل

أقصى اتساع للدولة المصرية قبل الاحتلال الإنجليزي للبلاد، فقد احتلت إنجلترا أوغنده وأنيورو ومنطقة البحيرات والجزء الجنوبي من مديرية خط الاستواء، كما احتلت زيلع وبربره (الصومال الإنجليزي) وأخذت إيطاليا مصوع (إريتريا) ورأس جردفون (الصومال الإيطالي) وأخذت فرنسا تاجوره وجيبوتي (الصومال الفرنسي) وأخذت الحبشة (إثيوبيا) بلاد هرر وبني شنقول ليتقلص حجم السودان المصري قبل أن يعاد ترسيم الحدود بين السودان ومصر سنة 1899 لتتقلص حدود مصر الجنوبية مجدداً لصالح السودان المتبقي

استخدمت في كتابة الرواية بعض المراجع التاريخية والفنية مثل:
تاريخ مديرية خط الإستواء للأمير عمر طوسون
حرب القرم للأمير عمر طوسون
بطولة الأورطة السودانية المصرية في حرب المكسيك لعمر طوسون
عصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعي
تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل لإلياس الأيوبي
كشف الستار عن سر الأسرار لأحمد عرابي
القاهرة الخديوية لسهير حواس

27 يناير سنة 1856

بوغاز البحر الأسود

الجندي محمد السعداوي

&&&

أن تستمع إلى بطولات حربية وتقرأ عن معارك وتطالع صوراً وخرائط
تحمل خط سير حملات وتجاريد لبلادك، لا تجد من يوقفها فيمتلاً قلبك
فخراً وسروراً شيء، ومواجهة المشقة، وعناء الزحف، والمسير، والموت،
والخوف الآخذة رانحته في الانتشار من حولك، شيء آخر.

في الأولى، ترى الجندي بمخيلتك قوياً، متحفزاً، متحمساً لتسجيل
انتصارات سياسية وعسكرية لصالح بلاده، وفي الثانية، تجد الجندي وهو
بعيد عن دفة الوطن، متحفزاً للدفاع عن حياته، وحياة أقرانه على
اختلاف قراهم، ونجووعهم، ومحافظاتهم وقد صاروا مع الوقت أقرب إليه
من عائلته البعيدة، يود لو انتصر فتنتهي الحرب ويعود إلى أهله وداره.

دخلت المدرسة الحربية وأنا متحمس لذلك الجيش الذي قاده إبراهيم
باشا، وكسر الجيش العثماني مرات في طريقه في الشام والأناضول كصل
حاد يقطع ولا يُكسر، حتى خيل إلينا ونحن نلتمس أخباره أننا نشهد مولد

خلافة إسلامية رابعة، كانت فتوح وإنجازات محمد علي باشا، وأبنائه إبراهيم، وطوسون في الشام، والأناضول، والحجاز، والسودان، واليونان، وكريت مثيرة بحق.

لازلت أذكر ما حدث من سنوات ثلاث كأنه البارحة، أعلمونا أننا بأمر من عباس باشا سنشارك الجيش العثماني حربه دفاعاً عن حدوده الشرقية من هجمات الروس المتكررة، فقد أرسل القيصر الروسي نيقولا الأمير منتشيكوف يطلب من الباب العالي الاعتراف بحق القيصر في حماية المسيحيين الأرثوذكس في الدولة العثمانية وهو الحق الذي فقدته روسيا وفق معاهدة المصائق، فأبى السلطان العثماني عبد المجيد، وفي 5 مايو 1853 زحف الروس على ولايتي مولدوفيا وفلاخيا (1) لتشتعل الحرب، ويؤسس العثمانيون تحالفاً ضم الإنجليز، والفرنسيين، والنمساويين، ومملكة الليمونت في إيطاليا، والسويد ضد الروس، زادت حماسي حين علمت أن الجيش وقوامه عشرون ألفاً مكون من مشاة وسواري (فرسان) وطوبجية (مدفعية) سيكون بقيادة سليم باشا فتحي رئيس أركان حرب الجيش في عهد محمد علي باشا، وأحد تلامذة سليمان باشا الفرنساوي، وأحد القواد الذين حاربوا تحت لواء إبراهيم باشا وإلى جوار عباس باشا في حروب سوريا والأناضول، بالإضافة إلى أسطول بقيادة الأدميرال (أمير البحر) حسن باشا الإسكندراني أحد خريجي البعثات في عهد محمد علي. كان أمراً مثيراً لي أن أشارك في جيش يشارك فيه عناصر مصرية، فالجيش كان مقصوداً على الترك، والأرناؤوط، والمغاربة، والأرمن، والمماليك، والبدو من قبل، أبحرت قوتنا المؤلفة من عشرين ألف جندي على ظهر العمارة المصرية ووصلنا إلى الآستانة، مجد الدين وعاصمة الدنيا، عسكر الجيش في ميناء "بيكوس" القائم على البوسفور تجاه "طراية"، على منبسط

فسيح من الأرض تغطيه أشجار الدلب الضخمة وتحيط به سلسلة من الروابي.

كان من سخرية القدر أن كان ذلك الموضع هو نفس الموضع الذي عسكر فيه الجيش الروسي من عشرين سنة حين استدعاهم السلطان العثماني محمود ليعاونوه في الحيلولة دون تقدم جيش إبراهيم باشا الظافر إلى الآستانة، وضع القادة المصريون مضاربهم قرب الحجر الذي نصب ليخلد ذكرى إقامة الجنود الروسية في هذا المكان وقد نقش عليه بالتركية:

"في هذا السهل حلت الجنود الروسية ضيوفاً كما غادروه ضيوفاً، ويتمنى الذين أقاموا هذا النصب التذكاري الذي كالجليل في شموحه أن يبقى أثراً وذكرى، وأن يظل التحالف بين الدولتين في رسوخ هذه الكتلة الحجرية وصلابتها، وأن يدوم رمز الصداقة هذا كالتحالف بينهما إلى الأبد.

برنو باشا سنة 1833"

وعند استراحة الجيش شرف السلطان العثماني الجيش المصري بزيارته رغم أنه لم يفعل الأمر نفسه مع الجيوش العثمانية لا عند ذهابها للحرب، ولا عند عودتها منها، فأهدى القادة علب تبغ مرصعة بالماس، وأهدى الضباط وصف الضباط راتب شهر.

كنت فيمن نزل "كموشخانة" (بيت الفضة) على رأس جبل بين مدينة "طرابزون" على البحر الأسود، ومدينة "أرضوم"، اجترنا المروج والوديان والجداول التي تجري فيها مياه شديدة البرودة مستمتعين بنسيم يهب على وجوهنا، وخليط من الروائح الطيبة أزكت أنوفنا، حيثنا فزاعات بأشكال

غربية ورأينا ثياباً مغسولة معلقة حديثاً أمام بيوت ريفية ترفرف بجنون في جميع الاتجاهات، شاهدنا الخضرة الياقة، والفتيات التركيات الجميلات في الطريق كجنان مزدهرة ترعاها غيد حسان، ينظرون لنا ويضحكن عن ثغور تسطع نوراً، تذكر أغلبنا قراهم، والنسوة المتشحات بالسواد في الحقول المصرية، والأطفال العرايا قرب الترغ في أطمارها، وذباها الذي يأكل أهدابهم، والكلاب الناجمة، فتعالت التعليقات، والضحكات، والمقارنات بين ما تركناه وما نراه، وكأننا نسير في نزهة لا حرب، لم نكن وحدنا المنفصلين عن الواقع فيما يبدو فلم يكن هناك أي أثر للملاحم القلق أو التوتر التي تصاحب الحرب على ملاحم القرويين والقرويات، لكن سرعان ما تغير كل شيء، تباعدت بيوت القرويين وتغيرت فصارت أضعف وأكثر فقراً، تغيرت الرائحة وصارت أسوأ قبل أن تختفي نهائياً، اختفت الحقول وصار المشهد أكثر كآبة، حتى الطقس أصبح أكثر برودة، عرفنا أننا نقرب من حدود القتال وساحاته، مضينا إلى مقر الدانوب ورابطنا في "سليستريا" التي كان يهاجمها الروس باستمرار.

كسرنا هجمات الروس، وأقمنا حصناً أسماه سليم باشا طابية العرب، استمرت الحرب حتى بتغير الوالي وتقلد سعيد باشا الولاية، حاصر الروس "ايباتوريا" لكننا دافعنا عنها باستماتة وصرفناهم عنها على أننا فجئنا حين وجدنا سليم باشا مقتولاً إثر رصاصة أصابته في جبهته، سرعان ما بدأ الحال يسوء، جزء من الأسطول المصري ساهم في الحرب البحرية فسار إلى شواطئ الأناضول الشمالية بالبحر الأسود، وهناك أغرقته السفن الروسية، الشتاء هنا يكون شديداً إلى درجة التجمد، يعاني الكثيرون من أعراض نزلات البرد والإسهال، كثيراً ما سقط منا رجال أملوا أن يعودوا إلى أهلهم قلى البرد، وعلى وجوههم وشفاهم زرقة الموت التجمد، وعلى

أجسادهم ندف من الثلج لم ينفض من فترة، كل ذلك والملاعين الروس معتادون على هذا الطقس، أخبرني أحدهم أن جيش نابليون العظيم هزمه البرد نفسه حين قرر غزو روسيا.

ردد البعض أن الجنرال "اسمونت" أحد قواد الجيش الفرنسي في هذه الحرب يفضل أن يحارب إلى جوار فرقة مصرية على أن يحارب إلى جوار فرقتين تركيتين، لم يعد هذا مهماً الآن فالجميع يتساءل متى نعود؟

أخيراً سمعنا خبراً مفرحاً، سقطت قلعة "سباستبول" الأهم بين قلاع شبه جزيرة القرم (2) في أيدينا، ربما تنتهي الحرب الآن باستسلام الروس.

شارد الذهن في الضباب المتكاثف من حول السفينة المصرية "مفتاح الجهاد"، على متنها تسعمائة وستون جندياً وبحاراً، ومثلهم على ظهر السفينة "البحيرة" في طريقنا إلى الآستانة لإصلاحهما من أثر المدافع الروسية، أفكر في والدي وأمي وإخوتي، ترى كيف سيستقبلني أهل القرية؟ لا بد لي أن أبحث عن عروس فور عودتي فالعمر يمضي بسرعة، ما إن اقتربنا من مدخل البوغاز حتى هبت علينا ريح قوية ترنحت على إثرها السفينة، تلاعب الموج بالسفيتين فاصطدمتا، اندفعت المياه الباردة إلى درجة التجمد نحو القمرات بسرعة.

سرعان ما امتلأت السفيتان بالماء، فثقلتا وبدأتا رحلة هبوطهما إلى القاع المظلم، في دقائق كنا نصارع الموت فيصرعنا، ونغالب القضاء فيغلبنا، نشد بعض الهواء غملاً به رئاتنا التي تعاني الصقيع فبحال دونه، تجمدت الأطراف، وانقطعت السبل، وغرق كل من في السفيتين.

وجة مجانية ضخمة من ألف تسعمائة وعشرين ضابطاً وجندياً وبحاراً قدمت قرباناً للأسماك بحر غريب وبعيد عن بلادنا اليوم، من لم تنهشه الأسماك قبل وصوله إلى القاع ستغذى عليه في القاع آكلات الجيف.

بعد الحادث بست سنوات

قرية الرجدية - طنطا

أحمد مرزوق السعداوي

&&&

فتحت عيني على هذه الحياة فشاهدت الحضرة من حولي تغزو كل مكان، عدا السماء كانت زرقاء صافية أغلب شهور السنة، يحيط بيتنا الصغير شجر وعشب أخضر تعلوه تيجان ثلجية في موسم الحصاد، فإذا ما جاء يوم الحصاد خرجنا مع أبي مرزوق السعداوي أنا، وإخوتي حسن وعبد الرحيم وزينب نلهو ونتقافز حوله سعداء بما نجّمعه من محصول القطن، نكدسه فوق بعضه البعض بشكل هرمي فإذا ما انتهينا، صعدنا التلة البيضاء التي بنيناها معاً، وأخذنا في التمرغ في الحصول الأبيض الذي أوجده الخالق من تربة سمراء ندية، اعتاد والدي أن يسملها ويحرثها بمحراث تجره جاموسة أسمتها أختي فتحية.

لون بيتنا من لون الأرض التي أقيم عليها، حتى يخيل إليك أنه خرج منها، يتكون من مضيفة أوسع نسبياً من الغرفتين الآخرين، الأولى لأبي وأمي، والثانية لزينب، تحوي المضيفة مصطبة بالكاد تكفي أحداً مستلقياً، نفرش أنا وإخوتي حسن وعبد الرحيم كل يوم بعد صلاة العشاء أرض المضيفة بمرتبة من القش خاطت أمي ملاءقاً، بعد أن أمرنا أبي أن نترك غرفتنا لأختنا زينب لتنام بها منذ عام.

في الصباح الباكر أذهب مع إخوتي إلى كتاب الشيخ يحيى نصرتلي إمام مسجد القرية، لتعلم تلاوة وحفظ القرآن الكريم، وهناك نجد أغلب

أطفال القرية، وبنات شيخ البلد محمد العطار، فوقية وبهانة، وأبناء عمدة القرية الحاج أمين الدسوقي سعيد ومرعي.

رغم أن عبد الرحيم أخانا الأكبر سناً، وأشدنا بأساً، إلا أنه أضعفنا حفظاً، وأقلنا تحصيلاً، فكثيراً ما كان يتناقل عن الذهاب إلى الكتاب، فقدرته على الحفظ ضعيفة مقارنة بقدرتي أنا وحسن، وكثيراً ما ضربه الشيخ يحيى بالفلكة على قدميه لضعفه في الحفظ وتلعنمه، هو يجد متعة أكبر في الزراعة، أما أنا فكنت أحب الذهاب إلى الكتاب، لم يكن ذلك حياً في تعلم القرآن والتعلق ببيان اللفظ وجماله فقط، لكن لأن الشيخ يحيى لا ييخل علينا بمحادثته ونوادره وقصصه المثيرة، فهو من أبناء قرية نصرتلي التابعة لدراما رزق، حدثنا مرة بفخر عن كون أمينة هانم بنت علي باشا مصري الزوجة الأولى لمحمد علي باشا الكبير بنفسه وأم أولاده إبراهيم باشا، وأحمد طوسون باشا، والأمير إسماعيل كامل باشا، والأميرة توحيدة هانم، والأميرة نازلي هانم من أثرياء قريته وأنه كان يعرف والدها الباشا.

كنا نستمتع إليه بانهصات مشدوهين، سعداء بالمرتبة الرفيعة التي يحوزها إمام مسجدنا، كما أنه قص علينا مرة أخرى كيف اعتلى محمد علي ولاية مصر، وهو لم يكن حينها إلا ضابطاً ألبانياً قدم من مقدونيا في ثلثمائة جندي لمحاربة الحملة الفرنسية على مصر فاستقر بها وتاجر في الدخان، كان أمراً مثيراً لي أن أعرف كيف ساقط الأقدار الفرصة على طبق من ذهب لمحمد علي الضابط وبنه ليصبحوا ولاية مصر والسودان وحكامها وأولياء نعمتها.

فإذا ما انتهى الدرس وانتهت القصص والنوادر وعدنا من الكتاب بعد صلاة الظهر، وجدنا موزع الماء يوزع علينا حصتنا من الماء ويفرغها في زير أمام البيت عبر قرية يحملها على ظهره، نغير ثيابنا ونذهب إلى أبي نساعد

في الحقل، وترك زينب مع أمي تساعدنا في أمور البيت من كنس، وتنظيف، وطهي، ورص لأقراص الجلة فوق السطح، نعود عند مغيب الشمس ونغتسل، ثم نجلس أرضاً حول طبلية مستديرة لنأكل، ثم نذهب لصلاة العشاء في المسجد خلف الشيخ يحيى مع أهل القرية وكبارها لنعود آخر اليوم إلى مراتبنا الوثيرة وننام قانعين.

عبد الرحيم

أشفق على أبي المسكين من كده في الحقل ليل نهار، إخوتي يحبون الذهاب للكتاب، أما أنا فأمل أن أرفع بعض الجهد عن كاهل أبي، كانت كل حاصلات قريتنا والقرى المجاورة ملك محمد علي باشا، فهو صاحب مصر ومحتكر حاصلاتها، أخبرنا حسنين البقال أن هذا جيد، لأنه بهذه الطريقة وحده محمد علي باشا من سيحدد سعر البيع للمشتريين الأجانب، فتزداد حصيلة البلد وفق هذا النظام، ويزداد ثراؤها، وأنه وحده الأدرى بصالح البلاد والعباد.

لم أكن مقتنعاً بوجاهة منطقته، فحسنيين لا يملك أرضاً، ثم أننا لم ننل في سبيل الحرث والزرع والحصد شيئاً يذكر، كانت الحكومة تضع يدها على الحاصلات وتتصرف فيها، وتحاسبنا بالسعر الذي تحدده ولا يكفي رمقنا، تحسنت الأمور بعض الشيء حين تولى ابنه سعيد باشا الحكم وأصدر اللائحة السعيدية، كان ذلك سنة 1858 السنة التي احتفلنا فيها بظهور حسن، أما أحمد فكان عمره حينها ثمان سنوات، وكان عمري عشر سنوات.

كان أبي سعيداً للغاية حين دخل الدار وشرح لنا أن سعيد باشا أقر للفلاحين حق تملك الأراضي، وحرية اختيار أنواع الزراعة التي يتغونها، وحرية التصرف في الحاصلات، وأنه أعفى الفلاحين من ثماني مائة ألف جنيه دفعة واحدة متأخرات ضرائب قاسوا كثيراً في توفيرها للجباة.

كنا من قبل ندفع الضرائب عيناً، سواء حاصلات، أو حيوانات وطيور، لأننا لا نملك نقود، وكنا نخلق شعورنا، ونباع احتياجاتنا ببضعة بيضات، ومشتة خبز بتاو، أما من الآن فصاعداً سنملك نقوداً مثل الأغنياء، وندفع ضرائبنا منها، كانت الأخبار مثيرة بحق، وتستدعي احتفالاً، وهذا ما حدث، فبعد جلسة سمر على مصطبة دوار العمدة حضرها رجال القرية دارت فيها أكوام الشاي، أخذنا والذي إلى مقام السيد البدوي في سهرة عائلية لن نتمحي من ذاكرتي، شاهدنا شيوخ الصوفية المغاربة يتلمس الفلاحين أردبتهم متبركين، واستمعنا إلى مغنوي ذي صوت ندي يقال له عبده الحامولي، هرب من أبيه أحد تجار طنطا، ليغني مع عازف القانون العجوز الذي يعزف إلى جواره في أحد الأركان، ركبنا المراجيح، وشاهدنا الحواة، والغوازي العجريات موشمات، شاهدنا التعابين تتراقص على موسيقى الرفاعية، وشاهدنا الأدبائية يلبسون طراير ذات شراشيب، ويدقون طارات نحاسية في أيديهم، يهتزون معها في شكل مضحك وهم ينشدون الشعر الحلمنتيشي

شرم برم والحال تعبان

ومراتي ولدت في الدكان

سبع قطط والباقي فران

ضحكنا وأكلنا أكواز الذرة والبطاطا المشوية، والأدباتي لا زال يهزج:

انعم بقرشك يا جندي

والا اكسينا أمال يا أفندي
لاحسن أنا وحياتك عندي
بقى لي شهرين طوال جعان
شرم برم والحال تعباني

كان أبي شديد الحماسة لسعيد باشا طوال عهده بعد هذا الحدث، فقد أكبر له في نفسه ما فعله مع الفلاحين وأحبه لذلك، حتى أنه لما تقرر تطهير ترعة المحمودية التي سبق وأن حفرت في عهد محمد علي باشا ومات في حفريها بعض أهالي القرية، وصدرت الأوامر إلى المديريات بتوفير العدد المطلوب من العمال، ذهب أبي إلى العمدة وطلب منه أن يشارك في الحفر حتى قبل أن يشرع العمدة في تنفيذ الأمر ويجبر بيوت القرية على توفير الرجال للعمل المطلوب، يومها ربت أبي على كسفي وقال لي أمام أمي وإخوتي الصغار: "انت دلوقتي راجل البيت ومكاني في الدار يا عبد الرحيم، خد بالك من أمك وإخواتك يا حبيبي".

يومها بكيت تأثراً، ورجوته ألا يذهب فاكفهر وجهه، ونهاني عن البكاء لأن الرجال لا يكون، ذهب أبي ولحسن الحظ لم يغيب إلا اثنين وعشرين يوماً أحصيتها يوماً تلو الآخر، أحاطنا فيها العمدة وزوجته بالرعاية، فالعمدة يحب أبي وطالما أشاد بأمانته، وكونه أحد أفضل الرجال الذين عهدهم، وروى لنا أن أبي سبق وأنقذه من الغرق في الترعة حين كانوا صغاراً يلهون، أخبرنا أبي حين عاد أنه وزع على كل خمسة فأس واحد، يحفر الأول، ويملاً الثاني ما تركه الأول من ردم، والثلاثة الآخرون يحملوا الردم إلى جانب الترعة حيث أمروهم ببناء طريق زراعي معبد.

كانت تجربة غياب أبي واستنمانه لي على البيت على قصر فترتها شديدة
الأثر بي، ازداد تعلقي بأبي، وأحببت لو أنه اعتبرني سنده وعكازه ورجله
عند الشدائد.

أحب إخوتي، لكن لزينب منزلة خاصة في قلبي وقلب أبي، تلهو وتلعب
حول الدار بجلبابها الوردي وضفيرتها المدلاة على ظهرها، فتضفي على
المكان بهجة خاصة، فإذا ما عدنا من الحقل ارتقت على أبي فيأخذها بعد
اغتساله ويجلس على المصطبة ويجلسها على إحدى ساقيه ليهدهدها.

العمدة الحاج أمين الدسوقي

لم أجد في البر بيوت مروءة قدر ما وجدتها في بيوت السعداوية، كان
محمد السعداوي مفخرة البلد كلها حين ذهب لقتال الكفار، وكذلك أخيه
مرزوق السعداوي، فهو أحد أولئك الرجال الذين لا يقبلون الضيم أو
الإهانة، والذين لا يخلون عن مؤازرة من يحتاج مساعدتهم طالما لهم في
ذلك استطاعة، لأجل هذه الأسباب، صادقته واستمرت صداقتنا طوال
العمر.

بدأت صداقتنا ونحن صغار حين كنت ألعب مع أولاد عمومتي، كنا
نقف على جذع شجرة مائل أعلى التربة ونمسك بالحبال ونقذف بأنفسنا
في الهواء متبارين أينما يستطيع الوصول إلى الطرف الآخر من التربة، ولما
حان دوري أفلتت يداي وسقطت في التربة، وكنت لا أقدر على
السباحة، صارعت الموت يومها حتى ظننت أن قابض الأرواح ملاقيني،
بينما أولاد عمومتي من بعيد شهود يصرخون لا يملكون ضراً أو نفعاً.

قفز مرزوق ورائي كالمسوع وحلني إلى البر وأنقذ حياتي، فرح أبي الشيخ الدسوقي لأجل ذلك وشكره وأراد أن يكرمه بمبلغ من المال على سبيل الشكر فأُكبر في نظره، وفي نظري.

ومن يومها ونحن متآخيان، وحين شينا وإذا ما أنا بأرض أبي، مر مأمور الري التركي نواحيناً فسخر من هيتي محدثاً صديقاً له، أمام الفلاحين الذين يزرعون أرضنا، فلم أتحمّل إهائته وأسقطته من على حصانه وضربته غير عابئ بالعواقب، سرعان ما أتت العواقب في نفر من الجند الأتراك اقتادوني إلى أرض المأمور، وأرادوا أن يحطوا من قدري فربطوني من قدمي في ساقية لأكون عبرة لغيري، والفلاحون وقوف ينظرون، ما إن علم مرزوق بما ألم بي، حتى هاج وماج وصاح في الفلاحين الذين لم يتدخلوا وأشعل في قلوب بعض الشباب منهم الحماسة والحمية، فانطلقوا إلى أرض المأمور التركي سهاماً حامية تصب غضباً هادراً، وخلصوني من أيديهم وتوعدوهم إذ هم كرروا تلك الأفعال.

ظن الناس به وبمن معه العقاب، إلا أن العقلية التركية المتقلبة فاجأهم، فإذا بالمأمور يهبط من على فرسه ويعتذر لي ولمرزوق ومن معه من الشباب المصريين الأشداء. لأجل هذه الأسباب وأكثر لمرزوق عندي وفي قلبي منزلة كبيرة، ولأننا تأخينا وتحابينا في الله، كذلك أردنا لأبنائنا أن ينشأوا معاً، فأولاده هم أولادي حتى يحضر، وأولادي لا شك أولاده سيرعاهم إن أنا غبت عنهم.

زينب

عندما عاد أبي من حفر ترعة المحمودية كان ينش أياماً من ألم في رأسه، فقد نال ضربة شمس، كان لدي أربع سنوات حين شاهدت الحمل في هذه الأثناء للمرة الأولى.

جريت إلى خارج الدار فوجدت فوقية وبهانة قرب محل عم حسنين البقال وقد جدلنا شعرهما في صفيرتين قصيرتين، أخذنا بأيدي بعضنا بعضاً وجرينا خلف الأطفال حتى وصلنا إلى طريق معبد قرب قريتنا اجتمع فيه الرجال والنساء لمشاهدة موكب الحمل.

مر الموكب في حراسة رجال الشرطة يسرون باعتداد وهامات مرفوعة، وفي الخلفية سار خفراء القرية، وحوهم صدح الموسيقيون، وقارعو الطبول بموسيقاهم، يتوسطهم جميعاً جهل في غاية السمنة، مخضب كله بالحناء، عليه حرير أصفر، يحمل هيكلًا خشبياً مخروطياً محلى بزينة فضية، ومزيناً بالنقوش والزخارف والألوان، سألنا الشيخ يحيى الذي وجدناه ضمن الحضور عن الكسوة فقال: هي في داخل الصندوق المخروطي أعلى الجمل، مزينة بخيوط الذهب والفضة، خاطها صناع مهرة في حي الخرنفش بالجمالية في القاهرة.

- وما القاهرة هذه؟

- المدينة الكبيرة التي يسكن فيها أفندينا الوالي.

- أين هي؟

- في نهاية هذا الطريق.

- لكنه طريق طويل! هل سترتدي الكعبة المشرفة في الحجاز، الثوب الذي صنعه الحياطون في القاهرة؟

- نعم، فقد اعتادت مصر أن ترسل كل عام كسوة الكعبة في احتفال سنوي يمر بالشوارع والطرقات، ويشهده والي مصر بنفسه، وشيخ الأزهر، وقاضي القضاة، والأمراء، وكبار رجال الدولة، حتى يصل الموكب إلى المعسكر الذي يضم الحجيج من مصر والآستانة وبلاد المغرب العربي خارج القاهرة.

- وكيف يسافرون إلى هناك؟

عبر الصحراء يا بني، يسافرون إلى السويس، ثم إلى قلعة النخل وسط سيناء، ثم العقبة وبعد ذلك جنوباً بحذاء البحر إلى ينبع ثم إلى مسكنه في الحجاز.

- لا أعرف شيئاً من هذه البلاد!

19 يناير 1863

قصر الجوهرة

&&&

في قصر الجوهرة بالقلعة يتحرك الجميع يومياً كالتحل في حركة لا تهدأ، كل يؤدي دوره بتناغم درجوا عليه حتى ألقوه، لكن ذلك لا يمنع أحدهم من سماع الصباح والتقريع من رئيسه من حين لآخر لأتفه سبب، وربما الجلد إن كان الخطأ عظيماً.

دومرتينو عشي باشا (ميتردوتيل - كبير الطهارة) في مطبخه مع الطهارة يعدون أصناف الأطعمة والحلوى المختلفة لعرضها على المتذوقين، خليل أغا كبير الأغوات وأغا الوالدة باشا بنفسه يباشر عمل الأغوات والغلمان الخاصي في خدمة الأميرات، وهم يقدمون لبن السوييا وشراب الفستق وشراب اللوز في خفة أتقنوها بملابسهم المميزة، الباش قلغا عصمت خانوم التركية بعصاها الغليظة، ومساعدتها من القلقاوات ثمراز، وشزيرة بملابسهن المزر كشة المميزة الشبيهة بملابس الرجال يلبن النداءات، ويتابعن حركة القصر والخدمات والدادات، الوصيفات يتفقدن جناح خوشيار هانم، مرجان السفرجي يختار من المستجدين القادمين من النوبة أشدهم

سمرة ليعملوا سفرجية تحت إمرته، الايج أجاسيه أو الخدم، والحجاب وقوف على أبواب القصر وغرفة أفندينا وغرف الأمراء في السلامك، وفي الخارج كان الجنانية يشذبون العشب في الحدائق، ومسيو ونسان أمير أخور (ناظر الاسطبل) الفرنسي يمر مع طبيب القصر البيطري على الخيول، حين وصلت المهتارية (الفرقة الموسيقية) و30 ضابط من الياوران (حرس الشرف) وقفوا بانضباط على جانبي الطريق يقودهم مأمور التشريفات الخديوية وقائد الياوران رستم باشا الشركسي.

بعيداً عن هذه الحركة المحمومة وفي أهم غرفات السراي كان الشماشجي بسيم بكامل هيئته يرتدي بنظالا أسود وقميصا أبيض وسترة سوداء مزررة بأزرار صفراء لامعة، على رأسه طربوش أحمر وقفازات بيضاء يساعد إسماعيل باشا على ارتداء حلته، في أول زيارة له للديوان، بعد الاحتفال بتنصيبه وتوليه الأريكة المصرية وعودته سالماً من الآستانة في زيارة قدم فيها ولاءه للسلطان العثماني عبد العزيز، توالى المشاهد سريعة في رأس إسماعيل، لم يقدر على كبح جماحها، تذكر قصر المسافرخانه في الجمالية الذي شهد ولادته وطفولته، تذكر جسارة والده وحضوره الطاغوي كرجل عسكري وحاكم ذي سطوة وهيبة، قضى أغلب حياته في الحرب، فلم يحظ بالكثير من أبوته لكنه رغم ذلك أحبه، ربما أحب فيه عظمته ونجاحه، تذكر دروس العربية والتركية والفارسية التي أصر والده على أن يتعلمها، تذكر حين اشتكى من الرمد وسفره وهو ابن الرابعة عشر من عمره ليعالج في فيينا عاصمة النمسا التي قضى فيها عامين، تذكر أيضاً سفره من فيينا إلى باريس العاصمة الأوربية العريقة ليتنظم مع أقرانه من الأمراء في سلك البعثة الدبلوماسية الخامسة مع أخيه الأمير أحمد رفعت، والأميران عبد الحليم، وحسين أعمامه وأولاد محمد علي باشا الكبير.

من هنا بدأ ينضج ويفهم أن زملاء البعثة هم منافسوه في المستقبل على الحكم، ذلك ما أخبرته به أمه خوشيار قادين ثالث زوجات أبيه ورددته على مسامعه مراراً، ف نظام الولاية في الأسرة العلوية لا يشترط أن يتسلم الابن الحكم من أبيه، فقط يشترط أن ينال الولاية الأكبر سناً في عائلة محمد علي، "أنت الأفضل يا أمير بين إخوانك أحمد رفعت ابن شيوه كار قادين، ومصطفى فاضل ابن ألفت قادين، ولابد أن تظل دوماً الأفضل" هكذا كانت تكرر على مسامعه، فنشأت الغيرة والتحاسد بينه وبين الأمراء منذ الصغر، خاصة مع أخيه أحمد رفعت الأكبر بأيام قلائل، فإسماعيل يرى في نفسه أفضلية عليه، كانت المنافسة بينهما تتجلى في التباهي بالملابس والندماء والاستعراض في دروس الفروسية واللغات، في باريس ازداد المنافسون عدداً لوجود أعمامه الأصغر سناً عبد الحليم، وحسين، عاد إلى مصر ولما مات إبراهيم باشا والده، اعتلى الحكم عباس باشا ابن عمه طوسون باشا، سرعان ما شعر بغلظته وجفائه لعمه الراحل إبراهيم باشا، وكرهيته له ولأبنائه، ازداد الاستياء بين الوالي الجديد من جانب والأمراء الأصغر من جانب آخر، خاصة بعد الخلاف حول تقسيم ميراث جدّهم محمد علي باشا، فارتحل إسماعيل وبعض الأمراء إلى الآستانة وهناك عينه السلطان عبد المجيد عضواً في مجلس أحكام الدولة العثمانية، ولم يعد إلى مصر إلا بعد مقتل عباس باشا عن طريق غلمان، وتولي عمه سعيد الحكم من بعده، عطف عليه عمه وعهد إليه برئاسة مجلس الأحكام أكبر الهيئات القضائية في البلاد، وأوفده عام 1855 في مهمة إلى البلاد التي أحبها وإمبراطورها نابليون الثالث تتعلق بسعي سعيد إلى فرنسا والدول الأوروبية في توسيع استقلال مصر بعد اشتراكها مع الحلفاء في حرب القرم، وقد وعده نابليون الثالث بتأييد المقترحات المصرية في مؤتمر الصلح بباريس، لكنه لم يحقق وعده، تذكر رحلته أيضاً إلى البابا الروماني بيو التاسع، قبل

خمس سنوات فقط من ولايته أزيح من طريقه نهائياً أخوه الأكبر الأمير أحمد رفعت الذي كان يحجب عنه ولاية العهد بعد أن مات غريقاً وهو عائد من حفل دعاهم إليه سعيد باشا، ذهب هو ولم يذهب إسماعيل، ليلقى حتفه وهو عائد على متن قطار سقط في النيل عند كفر الزيات، نجا الأمير عبد الحليم من الغرق ولم ينج الأمير أحمد رفعت، حينها قيل إن إسماعيل قتل أخاه لينال ولاية العهد لكنه لم يهتم، أدى إسماعيل مغتبطاً مهمامه الجديدة، فاستخلفه سعيد قائمقام أثناء غيبته عن مصر، مرة حين زار سوريا سنة 1859، ومرة حين ذهب إلى الحجاز سنة 1861، كما عينه سردار للجيش المصري (3) وعهد إليه إخماد ثورات بعض قبائل السودان فأدى المهمة دون سفك دماء، وفي 18 يناير سنة 1863 أدركت الوفاة عمه سعيد وأصبح هو الوالي والحاكم الفعلي الجديد لمصر.

وقف الباشا معتزلاً بنفسه يراقب انعكاس صورته في المرآة منتصب القامة، عالي الهامة، عليه بزة جديدة لم تنزل عليها تكسيرات الطي، لها قصبات ذهبية ثينة مثبتة على كتفيه العريضين، تلتصق النياشين على صدره الواسع المزخرف بنقوش ذهبية وأكمام مزخرفة، حتى أتاه صوت طرقات ثلاث على بابه، فصاح بقوة إحساس داخلي تمتلئ بالزهو والعظمة: ادخل. دخل مهردار ولي النعم (حامل الأختام) مصطفى رياض باشا وانحنى لمولاه.

— صباحك سعيد مولانا.

— صباح شريف باشا، قالها وهو ينظر إلى بسيم الشماشجي الذي رفل إلى الخلف مكرراً الإنحناء ومتقهقراً نحو باب الخروج.

— ما شاء الله، ليت إبراهيم باشا والدكم بيننا الآن ليراكم أفندينا.

- كان فارساً وبطلاً مغواراً يا باشا، أراد أن يؤسس مع جدي رحمة الله عليهما مملكة عظيمة حتى كادا أن يؤسسا خلافة جديدة لولا أوروبا وروسيا وموقفهم حينها.

- تستطيع أن تعيد مجدهما في عهدك السعيد أفندينا.

التمعت عينا إسماعيل باشا وعلى محياه ابتسامة نشوانة وهو يقول:
سيحدث يا صديقي، سيحدث، لكن لكل وقت حديث.

دار إسماعيل باشا على عقبيه وتوجه إلى النافذة المشرعة المظلة على الجنود الوقوف لتحيته، وجمال بنظره في الأفق قبل أن يقول بصوت هادئ النبرات: لقد صارت سراي القلعة التي بناها جدنا المعظم محمد علي باشا من التراث، سكنى القلاع لم يعد أمراً يليق بالملوك، لا بد لمصر من أن تحكم من قصر منيف، يعكس ما ستكون عليه في عهدي لؤلؤة باريسية في الشرق تحسداً للأمم والممالك.

اشتروا قصر قائد جيشنا عابدين بك من أرملته، وأقيموا عليه سراي عظيمة تنافس القصور الأوربية في عظمتها ويغبطنا عليها الباب العالي العثماني بذات نفسه يا باشا، أريد أيضاً أن تبنا سرايا في الإسكندرية تنتهي الأعمال بها قبل وصول السلطان عبد العزيز.

ثم نظر في وجهه وقال: ليكن هذا أول أوامري.

انحنى الباشا في تواضع وقال: رغبات أفندينا أوامر، سأبذل قصارى جهدي لأن يتم العمل في الموعد المحدد.

ابتسم إسماعيل باشا برضا وقال: عظيم، والآن هيا بنا.

خرج إسماعيل باشا كالتاوس يتبعه رياض باشا المهردار، فتسمر جميع من في طرقات القصر وصلاته على الجانبين منكسي الرؤوس ومحني الرقاب ومرخي السيقان، فلا يقارب أحدهم طوله ولا يجزؤ آخر أن يرفع عينيه في وجهه، وعلى باب القصر ودعه أولاده الأمراء توفيق، وحسين كامل مقبلين يديه، حتى إذا مر بفرقة الياوران ألقوا عليه التحية العسكرية وصعد هو بخفة إلى عربته الخضراء الملكية التي انطلقت تجرها أربعة جياد بيضاء.

أخذ الباشا يستنشق الهواء ويعبه كنوساً مترعة بانتشاء، مداعباً لحيته بأنامله، وسنابك الخيل تطرق الأرض المعبدة من تحته في تناغم راقص.

الديوان

هبط إسماعيل باشا من العربة وعدل هندامه قبل أن يتخذ طريقه واثق الخُطى إلى غرفة الديوان فانحنى الحضور حين دلف إلى القاعة، صعد درجات ثلاث ليجلس على أريكة هي أقرب للعرش خصصت له في مواجهة خاصته ومعيته السنية، تقدم منه رياض باشا المهردار ووقف جوار أريكته أسفل الدرجات الثلاث وأخذ يعرفه على الحضور الذين صافحوه واحداً تلو الآخر.

- نوبار باشا ناظر الأشغال العمومية، ابن مجرديتش نوباريان، معتمد جدكم محمد علي باشا في الأناضول، محمد شريف باشا ناظر الخارجية والداخلية، حافظ باشا ناظر المالية، شاهين باشا ناظر الحربية، عبد اللطيف باشا ناظر البحرية، إسماعيل راغب باشا باشمعاون جنابك، عبد الله باشا عزت رئيس مجلس الأحكام، أحمد خيرى بك المكتوبجي كاتب السر،

جودار باشا الفرنسي رئيس قلم التحريرات الإفريقية، حسن باشا رئيس قلم التحريرات التركية، عبد الله بك فكري رئيس قلم التحريرات العربية والعرضحالات، مسيو أدان رئيس المحفوظات.

دارت عينا إسماعيل باشا بين الحضور وبدأ يسترسل بألفة ولباقة:

أشكر حضوركم يا سادة، تعلمون أن جدي المرحوم حين تولى مصر وجدها خالية من آثار العمار، ووجد أهلها مملوئي الأمن والراحة، فصرف همته لتأمين الأهالي وتمدين البلاد، وكان والدي عوناً ونصيراً له في حياته، ومقتضياً لأثره بعد مماته، ثم انقلبت أحوال مصر من بعدهما إلى ما قدره الله، وإني أود أن تساعدوني على إعادة البلاد إلى مسارها الذي كانت عليه.

هز نوبار باشا الأرميني رأسه، وكان ذا شارب أشيب كث، وهو يقول: بالتأكيد يا مولانا، نظن ونأمل فيك الخير كله.

استطرد إسماعيل باشا قائلاً: أود أن ينال عمي سعيد دفنة لائقة في الإسكندرية التي أحبها وسكنها طوال حياته، أيضاً أصدرت أوامري إلى رياض باشا لشراء قصر المرحوم عابدين بك قائدنا من أرملته، وضم الأراضي التي حوله وإنشاء سراي عظيمة مكانه تكون مقراً لسكني وسكن العائلة المالكة من بعدي.

انحنى حافظ باشا علامة الصدوع للأمر.

والآن، أخبروني عن حال الخروسة وشعبها.

أخرج نوبار باشا أوراقه وبدأ يقرأ منها ما سبق وأن جهزه: جلالتيكم تحكمون قرابة الخمسة مليون مصري غير رعاياكم من السودانيين والأرمن واليونانيين والإيطاليين والفرنسيين في حدود تشمل وادي النيل وملحقاته،

حدود مملكتكم الشمالية البحر المتوسط والشرقية سيناء والعقبة حتى بلدة الوجه في صحراء الجزيرة العربية (4) وصحراء العرب (الصحراء الشرقية) حتى البحر الأحمر وغرباً صحراء ليبيا (الصحراء الغربية) حتى واحة جغبوب (5) وجنوباً امتدت فتوحنا في عهد جدكم محمد علي باشا في السودان فوصلت شرقاً إلى البحر الأحمر وضمنت اقليم الناكاف شرق نهر عطبرة (6) بعد فتح سلطنة سنار ووصلت من جهة الحبشة إلى القصارف والقلايات فدخلت سواكن ومصوع في نطاقها وبلغت حملات وتجاريد محمد سليم باشا قبودان (7) في عهده حتى جزيرة جونكر تجاه غندكرو الواقعة على النيل الأبيض.

- اطلبوا من رجالكم أن يعدوا لنا خريطة بحدودنا يا شاهين باشا.

- رغبات أفندينا أوامر.

- ماذا عن الحالة المالية؟

- عقد سعيد باشا سنة 1862 قرض ثابت من بنك فروهلنج وجوشن قدره 2,242,800 جنيه انجليزي بفائدة 7% تعهد فيه بوفاء الدين على 30 سنة، بخلاف ديون سائرة بواسطة سندات يتم تحريرها على الخزنة بالقيمة المقترضة، لكن الحالة المالية جيدة والميزانية تشهد زيادة في المدخلات على المصروفات.

- وماذا بقي من المدارس العليا؟

- ألفت أغلب المدارس التي أنشأها محمد علي باشا في عهد عباس باشا، وسعيد باشا للاقتصاد في النفقات، حالياً لا يوجد سوى مدرستين، المدرسة الحربية بالقلعة السعيدية في القناطر، ومدرسة الطب بالقاهرة، غير مدارس الجاليات الأجنبية والإرساليات التبشيرية.

- وماذا عن الجيش والبحرية؟

تولى شاهين باشا الرد فقال: تبلغ قواتنا البرية خمسين ألفاً من الأرناؤوط والشركس والمصريين، ولدينا أورطة سودانية في المكسيك تقاتل إلى جانب الأرشيدوق مكسمليان النمساوي والجيش الفرنسي، أما عدد القطع البحرية فهي قليلة، أربع قطع فقط جلالتك، خسرنا الكثير من القطع البحرية في حرب القرم التي دعتنا السلطنة العثمانية إلى المشاركة فيها، ولما حاولنا إصلاح السفن الحربية وإنشاء أخرى اعترض الباب العالي بإيعاز من إنجلترا، فلما رأى سعيد باشا أن السفن الراسية في دار الصناعة بالإسكندرية لا تصلح للقتال إلا بعد إصلاح جسيم، وأنها إذا تركت أصابها التلف، أمر بتكسيروها وبيع أخشابها وإحراق ما لا يصلح منها.

تألم إسماعيل باشا لما سمع، وظهر على ملامحه شيء من التأثر فتنهد قائلاً: وكيف للأتراك والإنجليز ألا يخشوا يا باشا؟ كان أسطولنا الأقوى، استسلام الأسطول العثماني لأسطولنا قبالة الإسكندرية ذكرى سيئة للأتراك وخبر مفزع للإنجليز يودون ألا يتكرر.

أطرق الجميع في صمت فاسترسل وهو يدير عينيه بأناة في الحضور: حسناً اسمعوني جيداً، سنتهض بالجيش ونزيد عدده، وسنبني السفن ونستعيد عظمة أسطولنا، سنعمد على السفن الحربية البخارية المبنية من الحديد بدلاً من السفن الشراعية القديمة، سنبني المدارس، ونعبد الطرق، وننشئ القصور، ونمد خطوط السكك الحديدية والتلغراف في كل مكان.

جرت الحماسة في الحضور ولاحت البسمات على شفاههم فأكمل إسماعيل باشا: سنبني مصر من جديد وستشاركوني منذ اللحظة كل خطوة نخطوها، أما الآن فدعونا نتم بزيارة السلطان، غداً سأقيم حفلاً أقبال فيه قناصل الدول الأوروبية وبعض الأصدقاء الأوروبيين في سراي الجيزة، أود أن

أراك قبل الحفل بساعة نوبار باشا مع تقرير عن مشروع قناة السويس الذي اتفق عليه سعيد باشا.

— بأمرك أفندينا.

في الصباح الباكر دخل الشماشرجي بسيم على مولاه، وأخبره أن أخاه في الرضاة إسماعيل صديق بانتظاره، سر الباشا لمحبي أخيه كثيراً، ساعده الشماشرجي على ارتداء زيه الصباحي، ونزل إلى البهو حيث كان إسماعيل صديق يقف متوسطاً القاعة بطول متوسط يرتدي حلة زرقاء وطربوشا قصيرا، وقد هذب لحيته وشاربه.

صاح الباشا وهو يفتح ذراعيه مرحباً: إسماعيل، متى وصلت من أسيوط؟

لتوي يا مولاي، أردت أن أكون أول المهنيين.

أنا سعيد برؤيتك، كيف حالك وكيف حال الوالدة؟

بخير يا مولاي، قد سرت كثيراً بخبر توليكم الأريكة المصرية، وأرادت أن تأتي لتهنئك لكي أشفقت عليها من وعناء الطريق.

بل أنا من سيذهب إليها.

هل يعقل أن تذهب بنفسك إلى هناك؟ سأتيك بها.

ما الذي تقوله يا رجل؟ خيراً أن شعرت أُمي خوشيار قادين بجفاف في ثديها، لتصير أُمك مرضعتي ويصير لي أخاً مصريةً إلى جانب إخوتي أحمد رفعت، ومصطفى بهجت فاضل.

ذلك شرف عظيم لنا يا مولاي، لازالت أُمي تذكر خدماتها في بلاط
أبيكم إبراهيم باشا بأنه أفضل أيام حياتها.

أخبرني، ماذا تعمل الآن؟

كانت أولى الوظائف التي تقلدها جلالتك مسير ركائب، ورئيس
اسطبلات في عهد سعيد باشا، ثم أنعم عليّ وجعلني مفتشاً بمديرية الشرقية.
استعد إذن للذهاب إلى مدينة السنطة فستكون مفتش عموم الدائرة
السنية.

لم يصدق إسماعيل صديق ما سمعه، فشكر الباشا كثيراً على جزيل عطفه
وعظيم هباته.

لكن قبل أن تذهب، سأقيم حفلا الليلة في سراي الجزيرة، بودي أن
تحضره.

لكني جلالتك، غير معتاد على الحفلات.

فحض الباشا مبسماً وأذنأ بانتهاء الحوار: اعتد عليها إذن يا إسماعيل،
فأنت ستشاركني في الكثير منها من الآن فصاعداً.

سراي الجيزة

20 يناير 1863

&&&

بدأت القاعة الرئيسية تغص بالزائرين تدريجياً، فكان بها أرقى الرجال والسيدات، وهم خليط متباين الأعمار والجنسيات والطباع، لكنهم متمثلون في الفلك الذي يتحركون فيه.

دارت الكؤوس المترعة على الجميع، وصدحت الموسيقى تعزف مقطوعة الدانوب الأزرق ليوهان شتراوس، كان أول من حضر القنصل الفرنسي مسيو فرانسوا بيري وزوجته الجميلة سيرينا بثوب وردي يبرز وسطها عالياً بذلك النوع من الفساتين المسمى داريكاتور، ويكشف عنقها وكفها، وقد تدلت على جيدها قلادة ماسية، يصاحبها فرديناند ديلبس ببذلة رمادية لاءمت خصلات شعره الفضية، ثم القنصل البريطاني مستر بروس بستر بستر طويلة وقبعة طويلة على موضة ذلك العهد والتي حلت محل القبعات ذات الطبقات الثلاث، وفي يده عصا طويلة بصحبة زوجته إلينا وقد التحفت بوشاح طويل من الفرو كانت ترخيه كالمنزr، وقصت شعرها الأشقر قصيراً ومشطته بطريقة تمكنها من ارتداء قبعاتها ذات الأطراف العريضة، خلعت إلينا وشاح الفرو وتركته للخادم، فظهرت

فتنتها بالغة في فستان كحلي ذي فتحتين دائريتين من الأمام لإظهار مفروق
ثدييها، ومن الخلف لإظهار جزء من ظهرها عارياً، وقد أحاطت وسطها
بحزام لامع من البطن إلى آخر الصدر فبدأ وسطها نحيفاً وردفها ممتلئاً،
وأخيراً القنصل الهولندي الأرمل مسيو رويسنر.

كما حضر من كبار الأمراء الأمير مصطفى بهجت فاضل بلحيته التي
تخفي النصف السفلي من وجهه العريض نجلى إبراهيم باشا بصحبة ألف
قادين أمه، والأمير محمد عبد الحليم ابن محمد علي باشا صاحب الملايح
الدقيقة والعيون الحادة، ومن الأمراء الأصغر سنّاً الأمير الوسيم محمد
طوسون ابن سعيد باشا مديد الطول، مهيب الهيئة، بشعره الأشقر، وشاربه
المهذب، وملاحمه الدقيقة، وقد ارتدى حلة حمراء مزخرفة بخيوط ذهبية،
والأمير إبراهيم إلهامي بن عباس باشا وماهوش قادين بسترة أميرية داكنة
أخفت جزءاً من سمته وقفطان أحمر مائل يشبه القفاطين المغربية، والأمراء
إبراهيم أحمد، وأحمد كمال أنجال الأمير الراحل أحمد رفعت، ومن الأميرات
الأميرة شمس أمهما، والأميرة فاطمة كريمة إبراهيم باشا وسارة قادين
بفستان سماوي مطرز واسع كان رائعاً وملانماً لعينيها الزرقاوين وشعرها
الموج الفاحم، فبدت فاتنة رغم تخطيطها الثلاثين من العمر، هي أخت
إسماعيل باشا التي يحبها كثيراً والتي سمى ابنته الأولى الجميلة من شهرت فزا
هانم على اسمها.

هبطت السلم تلك الأميرة الصغيرة الجميلة التي تسمت على اسم
عمتها بفستان أحمر قائم يظهر كنفها عارين، وتكثر فيه الأشرطة، مزيل
بالكرينولين في عدد من الجونلات أعطتها شكل الجرس، وقد صفقت
شعرها الكستنائي إلى أعلى بطريقة البومبادور، زاد من جماله تاج ماسي
ارتدته، كانت الأميرة تمشي بخطوات قصيرة متأنية، داخل جونلاتها الجرسية

وترتب بين الحين والآخر في مرح ثانياً ثوبها، موزعة بسماتها على الحضور، فكان كل من يتحدث معها قليلاً ويرى ابتسامتها المشرقة وأسنانها اللامعة يخيل إليه أنه ظفر في هذه الليلة بفوز ميين.

قال الأمير طوسون: ألا ما أجمل الأميرة فاطمة الليلة.

نظر الأمير إلهامي حيث يرنو محدثه بنظره، فوجد الأميرة فاطمة تجلس على أريكة قرب سيموفار فضي تحدث عمتها، وجعلت تتحسس بأناملها من حين إلى آخر قطعة كبيرة من الزمرد غلفتها زخارف فضية تدلت على رقبتها حتى خيل للناظرين أن كل ما تصنعه مهرجان احتفالي بها، فابتسم مؤيداً: هي الأجل بين العائلة.

كان ذلك حين حضر علي بك مبارك بلحيته البيضاء الكبيرة في ستره سمراء واسعة قصيرة وعلى رأسه طربوش أحمر فاتحه إليه لطيف باشا الذي بادره وعلى وجهه ابتسامة ود قائلاً: ميروك يا بك انضمامك إلى المعية السنية، قد مررت بظروف صعبة وahan الوقت لتنال حظك ومكانتك التي تستحقها.

- محمد الله يا باشا.

- سمعت أنك اضطررت إلى المتاجرة في الأشياء المستعملة بعد أن كنت ناظراً للمهندسخانة.

- أن يظن المرء أنه آمن على نفسه من مكر الولاة والملوك، حماقة لسنا بباليها يا باشا فرضاؤهم غير مأمون، وأنا كل مشكلتي أنني كنت مقرباً من عباس باشا فلما جاء سعيد باشا أبعدني.

- لا توغر صدرك يا صديقي والتمس له العذر، قد أراد ندماء عباس باشا منعه عن الحكم وإعطاء الفرصة لإلهامي ابن عباس باشا بدلاً منه، فأثر

إبعادهم جميعاً دون تمييز. من حسن حظك أن إسماعيل باشا كان يعرفك ويعرف قدرك.

على مقربة منهم وقف نوبار باشا وشاهين باشا يتحدثان عن قناة السويس حين نحا فرديناند ديلسيس في حلقة نقاشية مع القنصل الفرنسي وزوجته.

- هل أطلعت إسماعيل باشا على تقريرك معالي الباشا؟

- نعم، وقد استاء كثيراً من تفاصيل التعاقد.

- كلنا مستانون يا باشا، وما فعله سعيد باشا غير مفهوم بحق، بالتأكيد لم يقرأ شروط التعاقد المجحفة للحقوق المصرية وإلا لما وافق عليها، ثم إنه عاضد المشروع فيما بعد بدافع حمية لصديق وكلمة قطعها على نفسه.

- اخفض صوتك يا باشا.

- لا تنس أنه بعد رفض تركيا وإنجلترا للمشروع ومعاودة سعيد باشا له وصلت بريطانيا بأسطولها إلى ثغر الإسكندرية في يونيه 1859 في تهديد صريح.

- نعم، لم نجدنا حينها إلا الحرب التي شبت في ربوع إيطاليا بين فرنسا والنمسا فمالت فرنسا إلى محاسنة إنجلترا، وكاتب سعيد باشا المسيو ديلسيس يطلب منه وقف العمل في حفر القناة بعض الوقت.

- كيف لنا أن نتنازل للشركة مجاناً عن جميع الأراضي المطلوبة لإنشاء القناة المالحة وترعة المياه العذبة المستمدة من النيل وتوابعها بعرض كيلومتريين من الجانبين مع إعفائها على الدوام من الضرائب، وأن نتنازل أيضاً عن الضرائب على الأطنان التي ستزرعها الشركة على جانبي الترعة

مدة عشر سنوات من تاريخ استثمارها، وأن يخول للشركة حق انتزاع الأراضي المملوكة للأفراد مما تراه لازماً لأعمال الحفر، وأن تمنحهم طوال مدة الامتياز الحق في أن يستخرجوا من المناجم والحاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المباني والصيانة دون رسوم أو ضرائب أو تعويضات، وأن نعفيهم من الرسوم الجمركية والعوائد عن الآلات والمواد التي يستوردونها من الخارج، ثم إنه وبعد مرور 99 عاماً تؤول القناة إلينا بشرط أن ندفع قيمة كل المعدات المخصصة لأعمال البناء والتي ستكون خردة لا شك بعد مرور كل هذا الوقت.

- وأن نجبر على توفير أربعة أخماس العمال لهم من المصريين!

- ماذا قال لك أفندينا بعد أن أطلعت على هذه الشروط؟

- قال "أود أن تكون القناة لمصر لا مصر للقناة"

بعيداً وفي مكان قصي أخذ المسيو فرانسوا بيري يهدئ من روع صديقه ديلسبس ويطمئنه أن إسماعيل باشا سيساند المشروع لا شك فهو صديق شخصي لجلالة الإمبراطور، وفي حلقة أخرى وقف المستر بروس ممسكاً بكأسه يتحدث إلى القنصل الهولندي وقد اكتست سحنه ملامح عجوز حنكه الحياة قادر على سبر الأغوار واستشراف المستقبل فكان واضحاً على عينيه المبصرتين أن التفكير العميق ألقى على وجهه غلالة حجبت عنه المرئيات وهو يقول: إن فتح القناة سيؤدي إلى ازدياد المواصلات التجارية بين أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأحمر، وستنشأ طبعاً مراكز للدول الأجنبية في هذه البلاد، لاشك ستحدث منازعات بينها وبين تلك الشعوب فتتخذ الذرائع للتدخل المسلح في شئون البلاد وهذا التدخل يفضي إلى الاحتلال الدائم وربما يحدث ذلك في مصر ذاتها.

- هل تظن ذلك حقاً مستر بروس؟

قال مستر بروس وقد بدا سادراً في تفكيره، أكثر من كونه متبعاً لسياق الحديث: بل لا شك عندي في ذلك مسيو تريكو، لو أنشئت القناة لن يمر نصف قرن على إفريقيا إلا وهي كلها محتلة.

اقتربت خطوات مسيو فرانسوا وهو ممسك بأحد الكؤوس ويصيح بفرنسية أرستقراطية لويسية: فيم يتحدث السادة؟

لاحت على وجه مستر بروس ابتسامة سرعان ما اختفت ليستبدلها بمجياه الدبلوماسي المخادع قائلاً: كنا نتحدث عن الحرب في المكسيك، هل تظن مسيو فرانسوا أن الإمبراطور نابليون الثالث يريد أن يؤسس لفرنسا مستعمرة هناك؟

أجاب مسيو فرانسوا بفرنسية متقاة دون أن تتغير نبرة صوته التي كانت قلة المبالاة بل والتهكم واضحين فيها أسفل قناع التهذيب والدبلوماسية: ومن قال إن إمبراطورنا العظيم يسعى لإقامة مستعمرة يا صديقي؟ أصدقاؤنا في المكسيك ثاروا على حكم المسيو جوارز فنشبت حرب أهلية تضرر فيها رعايانا، طالبنا الحكومة المكسيكية بتعويضات فرفضت، فجردنا عليها حملة تأديبية، لا أكثر ولا أقل.

ذارت عينا العجوز رويسنر تبحث بين الصديقين اللدودين فأراد أن يشعل الحادثة بينهما، ويستمتع بمشاهدتهما يتباريان فقال: ربما أراد الإمبراطور نابليون أن يؤسس في القارة الأمريكية حكومة ملكية كاثوليكية تضمن التوازن في هذه البلاد مع نفوذ الولايات المتحدة فاتفق مع أسبانيا وبريطانيا على تجريد حملة قبل عامين، قبل أن تفض الأخيرتان أيديهما عن الحملة وتترك الفرنسيين وحدهم هناك يضطرون لطلب المعونة من المصريين.

في ذلك الحين كانت علائم عدم الارتياح بادية على أسارير الأميرين محمد عبد الحليم ومصطفى هيجت فاضل، وهما يتحدثان عن زيارة السلطان المرتقبة، وعن ذلك المصري الغريب عن الوسط الذي وجد نفسه فيه، إسماعيل صديق وقد دلف إلى القاعة منفرداً لا يدري ماذا عليه أن يفعل، مستهجنين المنصب الذي ناله رغم عدم معرفته بالتركية والفرنسية، بل إنه حتى لا يجيد كتابة العربية.

غير بعيد كانت حلقة أخرى تشكلت من زوجتي القنصلين الإنجليزي والفرنسي إلينا وسرينا والأميرتين فاطمة مع أخريات يتحدثن فيها عن آخر الحفلات اللاتي حضرنها في أوروبا، وعن حفلات الباللو التي تقام في قصر باكينجهام في بريطانيا، وقصر شون برن بفيينا، وقصر آل رومانوف في سان بطرسبرج، وقصر الإليزيه في باريس، وعن الإنجليزي تشارلز فريدريك وورث مصمم فساتين الإمبراطورة أوجيني الخاص، الذي افتتح ميزون دي فاشون كأول بيت أزياء في باريس قبل خمس سنوات دأب فيها على أن يخرج مجموعتين من تصاميمه سنوياً في عرض للأزياء، حين توقف العزف بغتة، وعلت الأبواق تحية لإسماعيل باشا الذي هبط الدرج الرخامي بعد الهوانم زوجاته اللاتي تقاطرن تبعاً واحدة تلو الأخرى، توسط الباشا الحضور يخطب فيهم في خطبة اعتبرها الجميع حين وجهت إليهم الدعوات خطبة العرش:

أشكر جميع من تكبد عناء الحضور إلى حفلتنا هذه، خاصة أصدقائنا وكلاء الدول الأوروبية، أعلم أن الكثيرين منكم ينتظرون الإعلان عن مخططاتي وسياستي التي سأنتهجها، أنا ملتزم ببناء مصر حديثة على الطراز الأوروبي، بمبادئ رحية، وحدائق غناء، وأنابيب شرب، ومسارح، ودور

ثقافة ومدارس، وبخصوص قناة السويس فأنا ملتزم بكل ما انتهتم إليه مع سعيد باشا، فهو مشروع عظيم سيخدم الإنسانية والبشر أجمعين.

إن أساس الإدارة هو النظام والاقتصاد في المالية وسأبذل قصارى جهدي في اتباع قواعد النظام والاقتصاد، وقد عازمت أن أرتب لنفسي محصنات محدودة لا أتجاوزها أبداً، وسأعمل على إبطال السخرة التي اعتمدت عليها الحكومة في أعمالها ومحاربة الرق والعبودية والنخاسة وآمل أن تؤدي حرية التجارة إلى نشر الرفاهية والرخاء بين جميع طبقات الشعب، وسأعني كل العناية بتوطيد دعائم العدالة.

صفق الحضور للبasha الذي أنهى كلامه ليشير بإصبعه للفرقة الموسيقية فاستأنفت عزفها.

اتجه فرديناند ديلبس إلى إسماعيل باشا قائلاً: أحييك معالي الباشا، ذلك ما تحتاجه مصر، حاكم عصري ذو عقلية متفتحة.

- أشكرك مسيو ديلبس، أعلم أنك كنت صديقاً مقرباً لسعيد باشا رحمه الله.

- صحيح، لقد شرفني الباشا بصدافته.

- كان عمي يحب الفرنسية، والثقافة الفرنسية، مثلي تماماً، فهي أمة عظيمة، كما أنني مكثت في باريس فترة ليست بالقصيرة، حتى جيشنا أقامه جدي محمد علي باشا على النظام الفرنسي واستقدم ضباط أكفاء لأجل ذلك من جيش بونابرت، أنتم أمة عظيمة تحسن التخطيط والتقدير، لكني أخشى ألا تكون شركتك قدرت الأمور حق قدرها.

قطب فرديناند حاجبيه وهو يتسائل في قلق: كيف ذلك أفندينا؟

الاتفاقية ظالمة للحقوق المصرية وأنا لدي اعتراض على بضع نقاط فيها أطلب مراجعتها، النقطة الأولى هي تعهد الحكومة بتوفير عشرين ألف عامل لحفر القناة باستمرار ومطالبات الشركة بالتعويض في حال تقصير الحكومة أو عجزها عن تقديم العدد، فإن كنت أود أن أجعل من مصر دولة أوربية وإن كانت سياسي في ذلك مناهضة للسخرة فأكيف أوفر لكم هذا العدد المطلوب؟ في هذا العدد إقرار فعلي بالسخرة، ناهيك أن ذلك العدد الضخم يؤثر على الزراعة واقتصاد البلاد، بإمكاننا أن نوفر ستة آلاف للمشروع، النقطة الثانية متعلقة بمسألة الملكية، ملكيتكم لترعة المياه العذبة واستغلالكم للأطيان المملوكة للأفراد على جانبيها مقابل أجر تحصلونه وفق تقديركم، وملكيتكم لجميع الأراضي التي ترون أنكم في حاجة إليها لقوانين الدولة العثمانية الخاصة بملكية العقارات لا تحيز التنازل لأجانب عن ملكية الأراضي والعقارات، بوسع الحكومة أن تحفر لكم تلك الترعة العذبة في القسم الممتد بين النيل ووادي الطميلات، ووصلها بالجزء الذي أنشأتموه فنوفر على أنفسنا صداع نزع ملكية الأطيان المملوكة للأفراد إذا احتاجت إليها الشركة.

بدا القلق على ملامح فرديناند وكان كلما توتر احمرت وجنتاه فقال وقد غزا الاحمرار وجهه: جنابك تطلب إجراء الكثير من التعديلات، وجميعها ستعرضنا لخسائر فادحة، سأدرس مع زملائي ما بوسعنا فعله، ياذنك.

- تفضل.

استمر الحفل بهياً، كان الخدم يقدمون فيه المأكولات الخفيفة والمشروبات الروحية، حتى إذا ما نصب معين الكلام، وأذن الباشا لضيوفه بالرحيل، خرجت السيدات والسادة من البهو، ووقف الحجاب بجانب عربات المدعوين يسوقونها تبعاً أمام القصر في تناغم، تبادل الضيوف بينهم

وبين بعضهم البعض عبارات التوديع بالفرنسية، ووقف الخدم بالقرب في أدب، وفي أيديهم الشالات والسترات والقيعات التي تركها الضيوف لديهم حين دلفوا إلى القاعة، ريشما ينتهون من أحاديثهم، مصغين إلى رطانتهم التي لا يفهمون منها شيئاً، وعلى وجوههم أمارات كاذبة لفهم لا يريدون أن يظهروه، حتى رحلت آخر العربات بآخر المدعوين.

صعد الباشا بعد الحفل إلى غرفته، قبل أن تستأذن شفق هانم زوجته عليه في الدخول، فأذن لها وكانت امرأة ذكية، سودانية الأصول، أم أكبر أولاده من الذكور الأمير توفيق، وهو يحبها ويقدرها لأجل هذه الصفة كثيراً.

- هل أعجبتك الحفلة يا هانم؟

- أعجبتني تألقك يا مولاي وخطبتك التي خطبتها وسط المدعوين فملكت بها شغاف قلوبهم وأثرت إعجابهم.

- لا تبالغ يا هانم.

- يؤسفني أنك لا تقدر نفسك حق قدرها يا مولاي.

- أشكرك.

- فقط لم يقلقني في الحفل إلا أمر واحد.

قطب إسماعيل باشا حاجبيه وسأل: وهو؟

- الاحتراب الذي كان بين سمو الأميرين مصطفى فاضل وعبد الحليم.

أطرق الباشا إلى زوجته وهو يدير كلامها في رأسه قبل أن يستطرد:

ماذا تعنين بذلك؟

سمو الأميرين تجنبنا الحديث مع دونهما من الضيوف، وظلا يتهاامسان طوال الحفل، لاحظت علامات عدم الرضا بادية على وجهيهما، وخشيت أن يصيبك شيء من حسدهما، ألم تلحظ ذلك يا مولاي؟
هز إسماعيل باشا رأسه وهو يقول: بوسعي أن أتفهم أسباب الغيرة والحسد.

فقط حاذر يا باشا، وراقب أصدقاءك وأعداءك جيداً، لا تأمن إلى الأخ فلطالما قتل خلفاء بني عثمان إخوتهم، وضم أنجالك تحت جناحك، أدام الله أعمارهم الأمراء توفيق، وحسين كامل، وحسن، وإبراهيم حلمي، ومحمد حمدي، فهم وحدهم الأقرب إليك.

ثم انخست وهي تستأذن في الخروج وتتمنى للبasha أحلاماً سعيدة. في هذه الليلة لم يترك الوسواس رأس البasha فظل يحدث نفسه، هل يمكن حقاً أن يتآمر الأخ على أخيه؟ ولم لا؟ ألم يتهموه همساً بقتل أخيه الأمير أحمد. رفعت؟ ألم يظل قتل الأخ لإخوته شريعة ثابتة مقترنة بحفلات تنويج خلفاء بني عثمان لأكثر من أربعمئة سنة؟ لماذا لا يتخلص من حساده ويقطع عليهم طريق ولاية العهد ومن ثم التصارع على حكم مصر ويجعلها في نسله وأولاده من بعده فيبعد عنه شرورهم وأطماعهم ومكائدهم؟ هل يمكن أن يجيب له السلطان مطلباً مثل هذا؟

فبراير 1863

قرية الرجدية - طنطا

أحمد

&&&

بعد صلاة الجمعة في الجامع الأحمدي، والعودة إلى القرية، وتحت شجرة
جهيز يجري في أصلها جدول يسبح فيه بط وإوز من خلفنا، جلست أنا
وحسن وسعيد ومرعي نراقب الهداهد تنقر الأرض بحثاً عن رزقها.

مرعي طيب القلب، أمرد، فيه تلك السمينة التي تقربك إلى صاحبها
فتحسن الظن به وتحبه، عيناه ضيقتان بنيتان وخداه متوردان، كنا نسخر
منه لحبه أكل العسلية ونبوت الغفير، ربما حبه للحلوى هو ما حجب ظهور
ذلك الزغب الأخضر الخفيف الذي خط تحت أنوفنا مبشراً بشوارب
عظيمة، أما سعيد فهو صديقي الأقرب إلى قلبي، مغامر جريئ، عاشق
للطيور وأنواعها، يتمنى لو اقتنى يوماً أحد الصقور، حسن أصغرنا عمراً
وأضعفنا بنية وأكثرنا تعلقاً بالقراءة، يتمنى لو أكمل تعليمه أو سافر إلى
بعثة من البعثات التي نالها الحظوظون في عهد محمد علي باشا ليشهد الدنيا

مثلما شاهدوها فقد قرأ مرة ما كتبه الشيخ رفاعه الطهطاوي في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وفيه يصف مشاهداته في بلاد الفرنج.

قال سعيد: عرفت لكم خبراً خطيراً.

سألته: أي خبر؟

أجاب بصوت خفيض كما لو أنه يخشى أن تسمعا الهداهد فتنقل أخبارنا إلى سليمان آخر في مكان قصي: البارحة سمعت أبي يتحدث مع مدير المركز عن زيارة للخليفة العثماني إلى مصر.

شهق حسن بصوت مسموع متسائلاً: الخليفة بنفسه؟

— نعم، السلطان عبد العزيز سيزور بنفسه مصر في شهر إبريل القادم، يقول أبي إن الشوارع في القاهرة والإسكندرية ازدانت لمقدمه.

قلت: أظنها المرة الأولى التي يأتي فيها خليفة عثماني زائراً إلى مصر منذ أن أتاه سليم الأول غازياً.

دمدم سعيد: ربما هم أصدقاء!

قال مرعي: وهل سيزور الخليفة قريتنا؟

نظرنا إليه باستخفاف ولم نعقب، قال حسن: هل تذكرون الاحتفالات الضخمة التي أقامها إسماعيل باشا في كل ربوع مصر قبل شهور قليلة، حين تولى ولاية مصر بعد عمه سعيد باشا؟

قال سعيد: نعم، الأطعمة والحلوى التي وزعت في كل مكان، المهرجون، والألعاب النارية، والحيوانات، وتحت المنشدين والمغنويات، وطواير الدراويش براياتهم، لم تتم القرية وربما مصر كلها تلك الأيام.

رد مرعي: لقد حضرت تحت الشيخ المقدم واستمعت إليه.

تسائل حسن: ترى ما هو شكل الخليفة، وما هي حلته؟ كم عدد الجواهر التي ترصع عباؤه؟ كيف سيستقبلونه؟

وقلت: كيف يبدو حرس السلطان؟ وماذا عن أميرات البيت العلوي والأميرات التركيات؟ هل هن جميلات حقاً يرتدين أفخر الثياب؟

أطرق سعيد وقال: ذهبا إلى القاهرة لرؤية السلطان، وحده القادر على الإجابة على هذه الأسئلة.

قال حسن أتمنى لو ذهبت إلى القاهرة وتعلمت وصرت أديباً معروفاً، وقال مرعي: أتمنى أن أذهب إلى القاهرة وأن أعمل في إحدى الشركات وأصبح ثرياً، فقلت أما أنا فأتمنى أن أدخل المدرسة الحربية وألتحق بالجيش مثل عمي محمد الذي يحارب الروس في أوروبا، ابتسم سعيد وكأن الفكرة أعجبهت وقال: وأنا أيضاً.

قلت لهم: علينا إذن أن نساعد بعضنا البعض على تحقيق أحلامنا وأن نتعاهد على ذلك.

ضموا أياديهم فوق يدي وقالوا: نتعاهد.

حسن

كانت شجرة الجميز هي مكاننا المفضل الذي نلتقي فيه دوماً، أنا وأحمد مع سعيد ومرعي فتحدث عن أي شيء وكل شيء، وبينما نحن عائدون من إحدى جلسائنا تناهت إلى مسامعنا جلبة وصرخات متداخلة، انفصلنا وهرونا كل إلى داره، وفي طريق عودتنا أنا وأحمد إلى الدار فوجئنا بفرسان

أرناؤوط يعتلون خيلهم ويشهرون مسدساتهم وكراييجهم، يثون الذعر في نفوس الفلاحين في حقولهم، تسمرنا في أماكننا بذهول مشدوهين لا ندري ماذا نفعل، شاهدنا المطاردات غير المتوافقة وكأنهم ذئاب جائعة تطارد فرائسها، من الفلاحين من استطاع الفرار والنجاة بحياته، ومنهم من غالب فغلبوه وقهروه، ومنهم من ناله كرباج على ظهره أو شج رأسه فأفقده الوعي وأسال دمه، عدوا العشرات الذين سقطوا بأيديهم أو استسلموا لهم وربطوا أيديهم ورقابهم في طابور طويل بحبل سميك ثم اعتلوا خيلهم وأخذوا بأطراف الحبال يجرون خلفهم الفلاحين المساكين حفاة.

سرعان ما ساد المرح والفرح بعد رحيل القافلة التي أثارت خلفها زوبعة من الفرع والأثرية، استفقنا من ذهولنا على عويل بعض النسوة وتجمع بعض رجال القرية؛ حسنين البقال، والشيخ يحيى، وشيخ البلد محمد العطار وآخرين.

- ماذا حدث؟

- لقد أخذوا الرجال؟

- من هؤلاء؟

- جنود أرناؤوط!

- لماذا؟

- ربما أخذوهم للحفر في إحدى الترع.

- يقولون إن التربة الجديدة ستكون ناحية السويس.

- هل يعلم الحديوي بما حدث؟

- هلموا بنا إلى العمدة.

استفقت من دهشتي التي كنت عليها حين وكزني أحمد يستحطني على
العودة إلى البيت، هرولنا إلى البيت فوجدنا الباب مشرعاً وأمي جالسة
على الأرض تهيل التراب على رأسها باكية، وأبي خلفها على المصطبة عيناها
مغرورقتان بالدموع ومعلقتان بسقف الغرفة يحبط رأسه إلى الخلف في تتابع
كئيب، وزينب واقفة بجوار حجرهما تنظر إلى أبويها بعينين دامعتين.

تحجرت عيناى على هذا المشهد وأحسست بغصة في حلقي وبجمرة
مشتعلة تحرق أمعائي، صرخ أحمد مسائلاً: ماذا حدث؟

فلم يجبه أحد، سألهم هذه المرة عن عبد الرحيم فولولت أمي المسكينة:
أخذوك يا ولدي أخذوك .. على وين يا ولدي هيوودوك!

اتضح الأمر بغتة وبدأ عقلي الذي شل قبل لحظات في استنتاج ما
حدث، لقد أخذ الظلمة أخي للعمل سخرة لحفر ترعة بعيدة ناحية
السويس، لم يعد أحد من أولئك الذين ذهبوا في حفر هذه الترعة منذ
سنوات أربع، لم أستطع معاودة التفكير أو التصريح بالفكرة الأخيرة فسال
الدمع حاراً على وجنتي في صمت.

مارس 1863

السنة - قرب طنطا

إسماعيل المفتش

&&&

كان إسماعيل صديق قد نجح في إدارة التفتيش، وضبط كشوفاته، فأثار إعجاب الباشا وعينه مفتش الأقاليم البحرية وأسماه إسماعيل المفتش فصارت الصفة التي اقترنت باسمه ولازمته فيما بعد، وبينما المفتش يتفقد على حماره الأطيان، مر بالقرب من وابور خلج الأقطان في أرض تتبع أحد الأثرياء الإنجليز، وإلى جواره أحد الغفر ممسكاً بمظلة تقيه حر الشمس، وموظف ممسك ببعض الدفاتر، فقال للموظف: أرسل أمراً إلى جميع المديرات الواقعة في نطاق التفتيش بتحرير كشوفات بما امتلكه الأجانب فيها للمراجعة والتأكد من سلامة موقفهم من العوائد والرسوم المقررة لمنع التهرب الذي يحدث من بعضهم حفاظاً على المال العام، أخبرهم أيضاً أن يشددوا على منعهم من إقامة وابورات خلج الأقطان دون الحصول على تراخيص من الحكومة، وأني سأمر عليهم بنفسي للتأكد من تطبيق تلك الأوامر.

أتاه مسؤول العزبة مهرولاً يدعو للفضل بالجلوس، فشكره وأخبره أن ذلك الوابور غير مرخص، ولا بد من نزع، وأن الأهالي اشتكوا مما يترتب عليه من روائح كريهة، وحرائق لقربه من المساكن، وأنه إذا أراد أن

ينال ترخيصاً للوالبور فعلى سيده أولاً أن ينال موافقة الحكومة وموافقة مفتش الهندسة.

لكن جنابك، بهذه الطريقة لن ننهي الإجراءات وإن نلنا الموافقات سنكون خسرنا الكثير.

ليست مسئوليتي، ذلك هو القانون، وسيدك لابد وأن يحترمه.

يا بك كلك نظر، ونحن تحت أمرك.

صاح به المفتش متועداً: كلمة أخرى، وأمرهم مجلدك، أتريد رشوتي؟

حاشى لله يا بك.

نفذ ما آمرتك به.

معلوم جنابك.

هكذا كان المفتش دقيقاً في عمله، لا مجال لشراء ذمته، وإن كان البغض الآخر يؤكد حصوله على الرشى من كبار التجار المصريين، وأنه مناهضاً للعناصر الأجنبية ومشجعاً للعناصر المصرية ليس إلا، وكان يجرى الأطيان على المصريين دون تمييز، رغم أن الأوامر كانت تقضي بعدم توزيعها على الأهالي حفاظاً عليها من البوار، وقد أعجب الباشا من دقة كشوفاته فأرسل نماذج منها إلى كل مديريات الوجه القبلي لتكون نموذجاً لضبط وتنظيم كشوفاتهم، وأتاح له حق فصل وتعيين المستخدمين في المديريات الواقعة في إدارته حتى منصب الوكيل، وكان ذلك من صلاحيات الباشا الوالي وحده، فصار من حقه أن يعين ويفصل العمدة ومشايخ البلاد والمأمور والناظر فعلاً ونجماً، واتسعت ثروته، وازدادت شهرته، وكثر حساده، ولما اقترب موعد وصول السلطان العثماني أمره الباشا بالحضور ليكون معه في استقباله وضمن معيته، حيث أنعم عليه بالباشوية ومنحه النيشان العثماني من الدرجة الثالثة.

7 ابريل 1863

الصدر الأعظم محمد فؤاد باشا

&&&

وصلت إلى مصر بصحبة السلطان عبد العزيز، ونجله الأمير يوسف عز الدين، والأمراء مراد، وعبد الحميد أبناء السلطان السابق عبد المجيد رحمه الله، مع عدد من الوزراء، فقد بر السلطان بوعده لإسماعيل باشا وتكرم بإجابة طلبه وقبوله زيارة مصر، وصلت السفينة السلطانية "فيض جهاد" ميناء الإسكندرية بعد أربعة أيام قطعنا فيها البحر فوجدنا إسماعيل باشا وقد حضر بنفسه لاصطحابنا، نزلنا في قصر رأس التين يومين، قبل أن نركب العربة السلطانية المخصصة لنا في طريقنا إلى القطار، وقف الكثير من المصريين على جانبي الطريق لتحية سلطانهم، من حولهم الجنود يرتدون الزي الخاص بجنود الدولة العلية، كان تجوالنا في الشوارع المصرية أمام المتجمهرين حدثا غير مكرر سيتحكون عنه لأحفادهم.

لاحظت السعادة بادية على وجه السلطان من حفاوة الاستقبال، ركبنا القطار لأول مرة بصحبة الباشا الوالي فأشار مضيفنا أنه يربط بين ثلاث بلدان في ثلاث محطات، من الإسكندرية إلى كفر الزيات، ومن كفر الزيات إلى طنطا، ومن طنطا إلى القاهرة، وأن هذا الخط الذي يربط بين مدينتين عريقتين في مصر هو الخط الحديدي الأول في الشرق كله، كنا نجد في كل محطة عشرات المصريين يهتفون باسم السلطان ويرحيون بمقدمه في سعادة.

سألت إسماعيل باشا: متى سيتم هذه السكة الحديدية؟ فأجاب أن هذا الخط تم الانتهاء منه على ثلاث مراحل في ثلاث سنوات متتالية من سنة 1854 إلى سنة 1856 في عهد سعيد باشا وأن الاتفاق كان في عهد عباس باشا مع روبرت ستيفنسون مخترع القاطرة البخارية، وأنه هناك سبعة خطوط أخرى جميعها أنشئت في عهد سلفه ويتوي مضاعفتها في عهده لربط كل ربوع مصر ببعضها البعض.

وصلنا القاهرة وشاهدنا الآثار الفرعونية القديمة في مبنى واسع في بولاق، ونزل السلطان في قصر الجوهرة بالقلعة، وصلى الجمعة بجامع محمد علي حيث زار قبر الباشا في بادرة طيبة منه، وزار الأهرام في 14 أبريل، كما ترأس حفل خروج المحمل، أخبرنا إسماعيل عن مشروعه الطموح في تحديث القاهرة وشوارعها وميادينها وأنه يعتزم إطلاق اسم السلطان على أحد شوارع القاهرة الهامة تخليداً لذكرى زيارته (8)، قضينا في ضيافة الباشا ثمانية أيام لقينا فيها من مظاهر الإكرام والحفاوة البالغة ما جعل لإسماعيل منزلة كبيرة عند السلطان، ولا غرو فالسلطان عبد العزيز هو السلطان العثماني الوحيد الذي شرف مصر بزيارته المباركة.

عندما قرر السلطان العودة، خلع على إسماعيل باشا سيف الشرف العثماني، وعلى أمه أكبر وسام عثماني فصارت والدة باشا، وقد رد الباشا الجميل للسلطان وحاشيته بهدايا ثمينة وتحف فاخرة، حتى ملأ بها سفينة بأكملها، وقد همس بأذني أنه ترك لي هدية متواضعة في غرفتي يرجو لو قبلتها، فإذا بها ستون ألفا من الجنيهات.

الباشا الوالي ذكي، وأنا أفهم مراميه، هو يود لو نال الاستقلال عن السلطنة الذي أراده جده محمد علي باشا دون سفك دماء، ذلك لأن أكثر ما يؤرقه أن استقباله في الممالك الأوروبية يتم كوزير للخليفة العثماني وليس

كحاكم لمصر، كما أنه يرغب على ما يبدو في تغيير نظام الوراثة فقد أشاد بالأمير يوسف عز الدين ابن الخليفة أكثر من مرة وذكر أنه يصلح لأن يكون خليفة عظيماً كأبيه حين وجد ميلاً عند الخليفة لذلك، على أن الخليفة لا أظنه سيقدم على تغيير ما هو موروث من تقاليد عن آل عثمان.

يحدد ولاية الحكم في مصر فرمان سنة 1841 بأن تؤول ولايتها إلى أكبر أفراد الأسرة العلوية سناً، على أن الغيرة بين إسماعيل وأخيه مصطفى فاضل وعمه عبد الحليم لا تخفى علينا، فالشقاق والشحناء بينهم ملحوظ، وإسماعيل الذي يسعى إلى شراء ممتلكاتهم منذ وصوله إلى العرش ليرحلوا عن البلاد، يسعى على ما يبدو الآن لحرماتهم من وراثة الحكم، وجعله في ذريته من صلبه لأكثر أولاده الأمير توفيق. عاد السلطان إلى الآستانة مغتبطاً مما لقيه من الإكرام وعدت معجباً بذكاء الوالي الجديد ومتخوفاً من سقف طموحاته العالية.

مايو 1863

زينب

&&&

مضت ثلاثة أشهر منذ رحيل عبد الرحيم لم يعد أبي فيها كسابق عهده، لم ينفك عن سؤال الفلاحين والتجار من البدو عن نواحي تلك التربة البعيدة، منهم من قال هي في السويس عند البحر الأحمر، ومنهم من قال في الطينة (بورسعيد) عند البحر الأبيض ومنهم من قال بل هي إلى غزة أقرب.

هنزل جسده، وصار واجهاً كثيراً ما يشرد، فأهمل الحقل وأهمل زراعته، تألم جميع من في القرية لمآله، لكن المصائب كانت ألت بكثيرين غيره، شغل من في القرية عن نجدتهم أو ربما حاروا في كيفية نجدتهم.

وفي ليلة قارسة البرودة وصغير الرياح يعصف بالأشجار، لم يكن مؤذن الفجر قد أذن لصلاة الفجر بعد، ولا ديك الجارة صاح صياحه المتكرر بعد، حين شق سكون الليل صرخة طويلة لأمي، هرونا إليها فوجدناها في صدمة وأبي مسحى على السرير هادئ القسمات كأنما هو نائم لم يصح بعد، رحل أبي عن دنيانا دون أن ينذر أهل الدار، أوى إلى فراشه وهناً، فراغها وقد اعتادت على التكبير بصحوها قبل الفجر للصلاة، وإشغال

القرن للخيز، أنه لا يكاد يشعر بحركتها على غير العادة، هزته وحادثته فوجدته قد أسلم روحه لبارئته حزناً على ولده.

أهزنا جميعاً باكين، فلم نعد نميز من الداخل ومن الخارج، وصل بعض الجيران على صوت صرخة أمي وبكائنا فاستشهدوا وحوقلوا ووجدوا الله، أتتهم نسوqهم بماء دافئ ليسكبوه على الجسد المسجى دون حراك فعلا النشيج وصار عويلاً، انتحبت أمي، وصوت الحاج أمين السعداوي يطالبها بالصبر والثبات، وينهاها عما تفعل فهو محرم عند الله، ثم إن زوجها عبد صالح طلبه ربه وإنه ملاقيه فلا يجوز ما تفعل.

ارتفع صوت الشيخ يحيى في الحضور يقرأ من آيات الذكر الحكيم، ونساء الحي يقمن بإعداد القهوة للمعزين الذين توافدوا على البيت.

حين انتهى المغسلون من تكفين الجثمان، قال أحدهم:

- هلموا بنا إلى المسجد لصلاة الضحى ثم الجنائزة.

حدقت فيهم وهم يرفعون أي مكفنأ على أكتافهم فسرت في جسدي رجفة، واختنقت بغصة في الحلق، واحتبست الدموع لوهلة، نادى الرجال على إخواني وأخذوهم إلى جوارهم وذهبوا جميعاً إلى المسجد.

سبتمبر 1863

أحمد

&&&

لاشك أن ما مررنا به قد أنضجنا قبل الألوان بأوان، هكذا كنت أقول
لنفسى، توافد المعزون على البيت، وطوال ثلاثة أشهر لم ينقطع سؤال
الأهل والجيران، كانت النسوة يأتين إلينا بالطعام ويقمن بمهام البيت
فيغسلن الغسيل، وينشرون، ويكنسن، ويمسحن الأرض، ويغسلن القليل،
ويرصنها في صينية على حافة النافذة، كنا نرى الرثاء في عيون الرجال،
جميعهم أراد أن يقدم خدمة كل بطريقته، منهم من عرض المساعدة في
زراعة الأرض التي أهملت، ومنهم من تحدث عن تزويج زينب، ومنهم من
أراد أن نكون مسؤولين منه وأن ننقل إلى السكن بداره مع أولاده، رددنا
جميع هذه العروض بشكر وود، كانت نظرات الرثاء وعروض الشفقة
تقتلنا، الأكثر من ذلك أنه لم يعد لدي أنا وحسن أية رغبة في البقاء بالقرية
بعد رحيل أخينا ووفاة أبينا، وحدها أُمي التي رفضت الرحيل، كانت تقول
لو تركت داري سأموت، أما زينب فكانت مسكينة حائرة بيننا لا رأي لها.

ذات يوم سألت أمي ماذا بقي لنا هنا؟ القرية كلها لم نعد نتحمل المكوث فيها، ولا عيون أهل القرية بوسعنا تحملها، ثم إن الزراعة لا فائدة ترجى من ورائها، ومخاطرها لا تنتهي أبداً ما بين فيضان، أو جفاف، أو اختطاف للعمل سخرة، أو إجبار على بيع الأرض لأحد البشوات، أو للبasha الوالي بنفسه الذي يهب الأراضي بالمئات من الأفدنة لحاشيته وضباطه ومعيته.

صمتت ولم تعقب فأكملت حديثي: دعينا نبع الأرض ونذهب إلى القاهرة، فندرس أنا وحسن، لابد أنهم سيطلبونا بعد الدراسة للتحق بالعمل في إحدى الوظائف الحكومية، في القاهرة قد يكون لنا شأن ومستقبل، أما هنا فلا، ثم بإمكاننا أن نسأل هناك عن مكان الحفر وتلمس أخبار عبد الرحيم.

أسلمت أمي قلاع رفضها وانهار تمنعها حين أوجدت في قلبها أمل إيجاد عبد الرحيم، ندمت على استغلالي مسألته في إقناعها وأحسست بدناءة مقصدي لعلمي أن فرصة الوصول إليه ضئيلة، لكني عدت وهونت على نفسي فإحياء الأمل والعيش به أفضل من فقدانه كلية على كل حال.

اشترى الحاج أمين أرضنا وأكرمنا في ثمنها، بعد إلحاح أن نرسل له بأخبارنا وعنواننا فور أن نستقر، وفي خلال أسبوعين كنا نودع أهل القرية وسعيد ومرعي بعيون دامعة، على رصيف القطار في محطته بطنطا.

كانت زينب تمسك بجلباب أمي التي كلما انتهت من مصافحة البعض أحاط بها آخرون، فإذا ما انتهت جرجرتنا خلفها وصعدنا إلى القطار الحديدي، الذي زجر بصوت عالٍ وأصدر دخاناً كثيفاً ثم بدأ يتحرك، كانت هي المرة الأولى التي نراه ونركبه، وصلنا إلى محطة باب الحديد في القاهرة، وهالنا اتساعها وكثرة الخلق فيها، الحمالون هنا ذوو عيون

متفرحة وسيقان متورمة، ولدى بعضهم أجزاء أخرى في أبدانهم منتفخة
نتيجة حملهم أحمال ثقيلة جداً، فالحمالون أقوياء للغاية، حاول أحدهم أن
يحمل أحمالنا فنهرته أمي وأبعدته.

خرجنا إلى الشارع وكان عظيم الاتساع فيه الكثير من المحال يقوم
على خدمتها صنوف شتى من الأعراق والأجناس والأديان، مصريون
ويونانيون وإيطاليون وأرمن وأقباط ويهود، أوقفنا عربة يجرها حصان قوي
ووضعنا حولتنا وطلبنا من سائقها أن يصحبنا إلى مكان بوسعنا أن نجد فيه
سكنا رخيصاً للإيجار، التفت السائق إلينا وكان ذا شارب عريض ويرتدي
جلاباً صعيدياً فضفاضاً وسألنا: فلاحين؟

- من طنطا.

- شي الله يا سيد يا بدوي.

- وانت؟

- محسوبكم عوض، صعيدى من قنا.

- أجدع ناس.

- وايه حدفكم ع البندر؟

- المر يا ولدى.

- ولا يهملك يا ست، عملتم طيب، ربنا يحب القاهرة وأهلها ويبص
عليهم سبع مرات في اليوم، انتم ولاد حلال، جنبنا واحدة يونانية عندها
بيت فيه شقة في السطوح فاضية، سعرها هيكون مهاود، تشوفوها؟

- الحقنا بيها الله يبارك لك.

دارت بنا العربة في الشوارع ونحن متنبهون ومشدوهون من العالم الآخر الذي أخذنا إليه القطار، وكان لا يفصلنا عنه إلا ستة وثمانون كيلومترا مثلما أخبرنا المحصل ورغم أننا قطعناها في ساعة، إلا أننا بدت في هذه اللحظة كما لو كانت المسافة الفاصلة بين السماء والأرض، بين مجتمع وآخر، كان عم عوض أثناء ذلك يتولى لنا مشكوراً الإرشاد.

خلوا بالكم على فلوسكم، أولاد الحرام كثير هنا، الست اللي هتشوفوها خوجاية صحيح لكن طيبة.

مرت العربة على ميادين واسعة ثم دخلت في حواري جانبية ضيقة يسير فيها الكثير من الخلق، كنا كثيراً ما نسمع عبارات "وشك"، "زهرك" فراكبوا الحمير هنا كثر، علاوة على الراجلين وراكبي الخيل والحناطير، كانت المآذن السامقة منتشرة في المنطقة، والمشربيات تكاد تكون متلاصقة، أما الروائح فكانت نفاذة، خليط من التوابل والبهارات والشطة السودانية.

المنطقة دي اسمها الغورية، على اسم السلطان المملوكي الغوري.

توقفت عربتنا أمام أحد البيوت، ونزل عم عوض من العربة فترلنا وهمنا بحمل متاعنا المكون من عدد من القفف وثلاث زلعات وبعض الطيور ومشنة عيش بتاو وجبنة قريش ومخلل حضرهم النسوة لنا قبل السفر، فنهانا عن حمله ونادى صبي القهوة المقابلة علاء، وطلب منه أن يرعى حاجتنا حتى نزل فأجاب طلبه، أخبرنا عم عوض أن نترك أي شيء في العربة إلا المال.

صعد عم عوض معنا إلى الدور الأول وطرق باب الشقة ففتحته امرأة أميل إلى البدانة، شعرها أشقر باهت ووجهها أبيض، منتفخ، مشرب

بحمرة، ترتدي منظارا طيبا وعباءة مزلية، غريبة السمات في الخامسة والأربعين من عمرها، واضح عليها الإعياء، وكان بطؤها المتعمد في حركتها وحديثها بسبب إعيائها يضيفي عليها وقارا.

- صباح الخير يا ست ماريكا.

- صباح الخير يا عوض، ازيك.

- الحمد لله بخير.

استغربنا معرفتها للغتنا ويبدو أن استغربنا كان بادياً مما دعاها لأن تضحك ضحكة عذبة قصيرة لتسألنا: انتم مستغربين اني بتكلم عربي؟

أجابتها زينب بإماعة فقالت: أنا جريجة عايشة في مصر من عشرين سنة، جيت هنا مع جوزي خوليو الله يرجمه الأول في اسكندرية، قعدنا فيها خمس سنين بعدها جينا القاهرة، واشترينا البيت ده من كوهين اليهودي، وانتم بقى منين؟

ردت أمي: من طنطا.

- أهلاً وسهلاً.

تنحج عم عوض وقال: دول אחتي وولادها يا مدام، بيستأذونوكي يشوفوا الشقة اللي في السطوح.

- انت هتضحك عليّ يا واد يا عوض؟ منا عارفة انك صعيدي!

ضحكنا وضحكت قبل أن تعقب: قوي، قوي، ثواني أجيب المفتاح.

خرجت الست ماريكا بالمفتاح وفي يدها لمبة جاز فصعدت ببطء السلم، حتى وصلنا إلى السطوح ووجدناه يحتاج إلى تنظيف، أدارت المفتاح في الباب فأحدث صريراً عند فتحه، دخلت باللمبة وأشرعت النوافذ

فوجدناها تطل على بيوت مجاورة تعلوها عيش وأبراج حمام، الشقة صغيرة تتكون من صالة صغيرة فيها ركنة ومقعدان وطبلة مستديرة من الخشب، وغرفتان في كل منهما سرير وتسريحة، أعجبتنا الشقة على بساطتها، واتفقت أمي والست ماريكا التي يبدو أنها ارتاحت لنا على الإيجار المطلوب.

أمرتنا أمي بالزول وحمل متعلقاتنا ففعلنا، وتولت هي محاسبة عم عوض الذي أبي أن ينال أجرته لولا القسم الذي أقسمته عليه فرضخ.

- أنا ساكن جنبكم، إذا احتجوا أي حاجة إسألوا عني في القهوة يذلوكم على مكاني، بالإذن.

- إذنك معاك، متشكرين.

حسن

حين انتهينا من التنظيف كان البيت والسطوح قد صارا أفضل، أكلنا بعض الجبن والمخلل والفجل ثم نزلنا أنا وأحمد لصلاة المغرب، بعد الصلاة جلسنا مع عم عوض وحكيّا له قصتنا فثأّر، أراد عم عوض أن يخفف عنا فقرر أن يعرفنا بالجيران وبالمنطقة فأخذنا في جولة صغيرة طفنا فيها على رفاة الطرايشي صاحب محل الطرايش، وصبحي أفندي العامل في معمل الورق في بولاق، وهنداوي العامل في معمل ضرب الطوب في قليوب ولا يأتي القاهرة إلا لزيارة عمه الأستاذ عبد العزيز أفندي موظف التلغراف، ثم صحبنا بعربته في نزهة في القاهرة طفنا فيها عبر الأزبكية التي ترجع تسميتها إلى الأتابك أزيك بن طغج أول من سكنها وبني فيها قصراً وبركة

ومسجداً كبيراً عند مدخل شارع الأزهر، وميدان الخازندار حيث كان يسكن أحمد أغا الخازندار أحد أمراء محمد علي باشا، وشوارع الأزهر وخان الخليلي والغورية والموسكى والجمالية والمشهد الحسيني حيث صلينا العشاء، وشارع الخليفة الفاطمي المعز أكثر الشوارع ثراءً بآثار الفاطميين والأيوبيين والمماليك وبيوتهم ومساجدهم وأسبلتهم، وشارع السيد أحمد الرويعي شاه بندر التجار، كما شاهدنا قصر الأمير المملوكي محمد بك الألفي الذي اتخذ نابلون بونابرت مسكناً له، ثم أصبح مقراً لقيادة القوات الفرنسية بعد سفره، وفيه قتل كليبر على يد الطالب الأزهري السوري سليمان الحلبي، كان عم عوض خير مرشد في جولة بتلك المدينة المسرلة في التاريخ.

- كيف تعرف كل هذه المعلومات يا عم عوض؟

- تلك المهنة ورثتها عن أبي وجدي الذي جاء إلى القاهرة في شبابه فتزوج وعاش بها يا حسن.

انتهت جولتنا المثيرة وقد حلقنا فيها عبر أجنحة الزمن، فعدنا عبر شارع إبراهيم باشا (شارع الجمهورية الآن)، أخبرنا عم عوض أن الشارع يفصل بين القاهرة المملوكية القديمة وبين القاهرة الحديثة التي شرع الباشا في إنشائها، شاهدنا الفندق البريطاني شبرد وميدان العتبة الخضراء حيث طفنا حول قصر برهني قادين الذي بناه لها ابنها الوالي السابق عباس باشا ثم عدنا إلى الغورية.

شكرنا عم عوض كثيراً وصعدنا إلى المنزل فوجدنا ماريكا جالسة بالقرب من الباب وقد تركته مشرعاً، ألقينا عليها التحية فابتسمت ورددها، ماريكا طيبة، تعاملنا كبنائنا، أشفق عليها فهي وحيدة بعد وفاة زوجها خوليو وسفر ابنها دانيال الذي تزوج ويعيش حالياً في إيطاليا.

15 أكتوبر 1863

الديوان

&&&

- اسمعوني جيداً يا سادة، الخلافة العثمانية العلية عظيمة الاتساع، عالية الشأن مهابة عند الجميع ولا يتجرأ عليها سوى الروس فلهم فيها أطماع، لكنها لم تعد قوية مثلما كانت، وأصعب الاختبارات التي جابهتها وفضحت ضعفها هو اصطدامها بجدي محمد علي باشا، فلم ينجدها منه حينها إلا أوربا التي ارتعدت فرائصها، فأنتهى الأمر بمعاهدة لندن، أنا أسعى لدى الباب العالي لأكون رجلهم القوي في المنطقة، فالمهمات التي يحتاجها الباب العالي كثيرة ولا تنتهي، ولم يعد يقدر عليها الجند العثمانية كما السابق، فإذا ما أديناها لهم وجعلنا اعتمادهم الكلي علينا، تمكنا من تحقيق الاستقلال الذي ننشده، وبعثنا برسائل قوية لجيراننا، وبقية الممالك الأوروبية. يا شاهين باشا، هل جهز رجالك الخرائط التي طلبتها؟

- نعم جنابك.

تقدم ضابطان يحملان خريطة كبيرة ملفوفة بعناية ففرشا بها الأرض من تحت إسماعيل باشا ومعيته وهم وقوف، فاستطرد إسماعيل وهو يشير بعضا

مزخرفة بالفضة إلى الخريطة: أرسل لي الخليفة العثماني قبل قليل يخبرني أن الأمير محمد بن عائض أمير العسير قام بثورة وقصد الاستيلاء على قمامة اليمن، فحاربه متصرف الحديدة وصده عن بعض المواقع، لكن الأمير استفحل أمره واستولى على بعض المدن، فلجأ الخليفة إلينا يطلب إخماء المسألة، تلك هي الفرصة التي انتظرناها، من ترشحه لقيادة قواتنا هناك يا باشا، وما الذي ستحتاجه تلك الحملة برأيك؟

- يكفيها ثلاث أورط من المشاة نزودهم بالمدافع وكتائب الفرسان يا أفندينا، أما لواؤها فيمكننا أن نعقده للأمير الای إسماعيل صادق بك.

- لك ذلك، ستنقل الحملة بحراً بالتنسيق مع لطيف باشا إلى جدة، وهناك سيدعمكم الوالي العثماني بجنود عثمانية فتهجمون معاً من جهة قنفذة وتحمدون الثورة وتأتونا بذلك الأمير الثائر.

- بأمرك أفندينا.

- الآن وقد شرحت لكم مرامي سياسي، أود زيادة عدد الجيش وتحديثه، أعد لي يا باشا قائمة بخمسة عشر ضابطاً من خيرة ضباطنا سيسافرون في بعثة حربية على ظهر السفينة الحربية "شير جهاد" ليقضوا وقتاً في فرنسا يدرسون فيها النظم العسكرية الفرنسية والاستحكامات والناورات العمومية وغير ذلك من فنون الحرب والقتال، وليجمعوا أيضاً ما يتيسر من المؤلفات الحربية المشتملة على أساليب الجيش الفرنسي ونظامه ليأتونا بها في مصر، اتفقت أيضاً مع المسيو فرانسوا بيري على أن ترسل فرنسا بعثة حربية مؤلفة من بعض الضباط الفرنسيين لتنظيم المدارس الحربية المصرية التي نعتزم إنشاءها، ولتكن المدارس في صحراء العباسية ليتسنى للطلبة القيام بالتمريبات الحربية وضرب النار وليستغلوا في ذلك

السراي التي أنشأها عباس باشا لتكون مقراً لإدارة واحدة تجمع جميع المدارس.

- ما هو حال اقتصادنا حافظ باشا؟

- الحال جيد يا مولانا، الحرب الأهلية الأمريكية كانت في صالحنا، فقد حاصر الشماليون الموانئ الجنوبية ومنعوا تجارة القطن، فقط بعض التجار البريطانيين بنوا سفناً صغيرة وسريعة للتجارة في الأسلحة والكماليات التي تجلب من برمودا وكوبا وجزر البهاما في مقابل التبغ والقطن الذي شح، مما جعل الطلب على القطن المصري في تزايد.

- هؤلاء الأمريكيان همج، منذ ثورة العبيد في "سان دومينغو" في هايتي في مطلع هذا القرن والعالم يطالب بتحرير العبيد، القيصر الروسي أصدر أوامره بتحرير العبيد عام 1861، وقبله وفي عام 1855 أصدر سعيد باشا أمراً عالياً يعطي حرية ترك العبيد لسادتهم في مصر إن هم رغبوا في ذلك، وفي أوروبا لم يختلف الأمر، العالم كله يسعى لمحاربة استرقاق البشر بينما هم لازالوا يحبون في زمن كان يتزل فيه الرجال البيض الأوروبيون في غرب إفريقيا ليسرقوا مواطنيها الأصليين من قراهم، لعرضهم في ساحات الحيوانات الأوروبية كمسوغ ودليل على أنهم خاضوا في أحراش القارة السوداء بالفعل، أو لاسترقاقهم وجعلهم خدماً لديهم من الدرجة الثالثة.

قال شاهين باشا: ليسوا جميعهم كذلك يا مولاي، سبع ولايات جنوبية هي التي حاربت حملة لينكولن الخاصة بإلغاء الاسترقاق وأعلنت انفصالها عن اتحاد الولايات الفيدرالية لتؤسس الولايات الكونفيدرالية المتحدة برئاسة جيفرسون ديفيس، بعد نجاح إبراهيم لينكولن في الانتخابات وقبل توليه.

- هل لديك أخبار عن الحرب هناك يا باشا؟

- سألت القنصل البريطاني مستر بروس عنها بالفعل، بدأ الكونفيدراليون الحرب بمهاجمة الاتحاد في 12 ابريل 1861 فأمر لينكولن بتشكيل جيش من المتطوعين من كل ولاية، وهو ما حدا بأربع ولايات جنوبية أخرى إلى الانفصال والانضمام إلى السبع الأولين، سيطر الاتحاد على الولايات الحدودية في وقت مبكر من الحرب وفرض حصاراً بحرياً، بينما الكونفيدراليون بقيادة الجنرال لي يسجلون انتصاراتهم في الولايات الشرقية حتى هزموا مؤخراً في جيتسبرغ ويبدو أنهم توقفوا عن التقدم شمالاً عند هذه النقطة، لا تزال الحرب سجلاً ولا يبدو شيء في الأفق بعد.

تخطى إسماعيل باشا حديث وزيره كأخ لا يعنيه، رغم ما كان يديه من إنصات واهتمام وتوجه بحديثه إلى إسماعيل المفتش كأخما تذكر أمراً أهم: إسماعيل باشا، ستولى أمر إنشاء خط سكة حديد بين بنها وقلوب لتسهيل حركة الأهالي هناك، عليك أن تدرس المشروع وتتولى تنظيم عدد الحرفيين وأمورهم حتى الانتهاء من الخط.

ثم توجه إلى نوبار باشا قائلاً: كيف كانت أسفارك التي أوفدتك فيها إلى الآستانة وفرنسا يا باشا؟ وكيف كانت الاستجابة لديهم؟

- نقلت وجهة نظر معاليكم حول الاتفاق مع شركة قناة السويس وشروط التعاقد، لمست في الآستانة تفهماً من السلطان وصدوره الأعظم ومعاوضة، لكنني لم ألاحظ الأمر نفسه مع الفرنسيين رغم استقبالهم الطيب لي، ربما في الأمر علاقة بالقرابة البعيدة التي تجمع ديلبس بالإمبراطورة الفرنسية أوجيني.

- هل أرسلت ما أخبرناك به في رسالة إلى شركة قناة السويس؟

- أرسلت لهم قبل ثلاثة أيام رسالة طلبت فيها إنقاص العمال من عشرين ألف إلى ستة آلاف، كما طلبت زيادة أجور العاملين في الحفر وجعلها فرنكين لكل عامل في اليوم، وإلغاء امتياز ملكية الشركة للأراضي في مقابل أن نأخذ على عاتقنا إتمام الترخية العذبة وتعويض الشركة عن القسم الذي أنشأته منها.

- وماذا كان ردهم؟

- عارضت الشركة المطالب بحجة أن إنقاص عدد العمال سيعطل إتمام المشروع ويطيل مدة العمل فيه من ثلاث سنوات إلى عشر سنوات، وأن تملكها للأراضي القابلة للاستصلاح وللترخية من المسائل الجوهرية التي لا تتنازل عنها.

قطب إسماعيل باشا حاجبيه ونهض عن أريكته ونزل الدرجات الثلاث عاقداً ذراعيه خلف ظهره وهو يقول: في هذه الحالة لم يعد لدي إلا أن أطلب تحكيم إمبراطور الفرنسيين، الإمبراطور نابليون الثالث بنفسه.

الأمير محمد بن عائض أمير العسير

وصلت القوات المصرية إلى جدة ومنها إلى مكة لتهدئة مخاوف أشرف الحجاز، ومنها سارت إلى القنفذة لمواجهة، أثارت نجاحاتنا في التوسع بالإمارة الحساد من أشرف الحجاز وأشرف أبو عريش، وكان أكثر ما ساعدهم المناوشات التي أحدثناها مع العثمانيين حين أخرجنا حاميتهم من المخلاف السليماني، وهاجمناهم في مرفأ جازان وهدمنا ثلاثة عشر برجاً، قبل أن نرحف على الحديدة، فأرسلوا قواتهم وطلبوا من إسماعيل باشا أن

يرسل قواته وكنا لا نزال نحكي عن انتصارات الجيش المصري في عهد
جده محمد علي، في حملته على الوهابيين.

ورغم التنازل عن معظم المخلاف السليماني وساحل اليمن للعثمانيين
لتجنب معركة مفتوحة معهم ومع المصريين، استمرت الوشايات من
الأمراء، والأشراف تصل تباعاً إلى الباب العالي، وإسماعيل باشا صاحب
مصر الذي أرسل لي مكاتبات يهددني ويحذرنى إن أنا أصرت على شق
عصا الطاعة على الدولة العثمانية، ويمتنى بمنحه لي لقب أمير الأمراء إن أنا
استسلمت. ولعلمي أنه لا قبل لي بالجيش المصري المجهز الذي قاده
الأميرالاي إسماعيل صادق بك والجيش العثماني الذي قاده رديف باشا
آثرت الاستسلام، بعد توسط من إسماعيل باشا لدى السلطان عبد العزيز
في العفو عني وقبول شفاعته فقبل وأقرني في الإمارة.

6 يوليو 1864

سراي بولاق الدكرور

&&&

في حديقة سراي بولاق الدكرور سار إسماعيل باشا برفقة مسيو
مارييت أوجست فرانسوا يتجاذبان أطراف الحديث

- كيف أخبار دار العاديات التي افتتحناها في بولاق يا باشا؟

- بخير يا مولاي، الآثار كثيرة وقد بدأنا في تنظيمها في المخازن.

- أحياناً ما أتساءل كيف تسنى للملوك المصريين أن يتركوا كل تلك
الآثار لتخلد ذكراهم؟ تزخر الصحاري ببقايا مدنهم الضائعة تطل على
الفراغ، تاريخ ممزق يتعالى ويقاوم السقوط، هل تعلم أن عباس باشا أهدى
للأرشيدوق ماكسمليان كل ما كان من آثار في دار الآثار؟

- أعلم يا مولاي، كذلك جدكم محمد علي أهدى إنجلترا وفرنسا
مسلات فرعونية عربوناً للصداقة.

- تلك الآثار تراث أمة ولا يحق لنا التصرف فيها، أنا درست في
فرنسا وشاهدت أوروبا وأعلم مبلغ اهتمامكم بتراثكم.

- أصبت يا مولاي، الفراعنة المصريون خلفوا حضارة هائلة وتراثا إنسانيا ضخما، لا زال يتحفنا ويفاجئنا بالكثير.

- المصريون شعب مطوع، لا يحتاج إلا إلى حاكم كفء ليخرج أفضل ما لديه، بالمناسبة أنا كنت أتابع حفائرك في سقارة وعرفت باكتشافاتك في مدفن العجول السرايوم ومعبد دندرة وأبيدوس، وأعلم أنك نقلت الكثير من الآثار إلى فرنسا منذ أن جئت مبعوثاً منها للبحث والتنقيب عن الآثار والمخطوطات في بلادنا، حتى عينك سعيد باشا بعد مجيئك بثمان سنوات مأموراً لأعمال العاديات بمصر.

لم يدر مارييت ماذا عليه أن يقول فتردد قبل قوله: أرجو أن أكون وفقت في عملي ونلت رضاكم ورضا سعيد باشا يا مولاي.

في هذه الأثناء وصل أحد الخدم وانحنى لمولاه وهو يقول: جناب القنصل الفرنسي يطلب مقابلتكم يا مولاي.

- فليتفضل.

- اسمح لي إذن يا مولاي بالانصراف.

- حسناً مسيو مارييت، إن جابجت أية مشاكل اعلمني.

تقدم مسيو فرانسوا القنصل الفرنسي وحيا إسماعيل باشا بلطف: صاحبك سعيد مولاي، لدي رسالة من جناب الإمبراطور.

- هل وصل رد الإمبراطور على طلبنا تحكيمه؟

- نعم يا مولاي.

فض إسماعيل باشا الرسالة وبدأ يقرأها وكانت صادمة ومحففة على غير ما توقع، تحوي تعويضات ضخمة للشركة، فعلم أن الشركة نجحت في

حشد الصحف والدوائر السياسية والمالية والمعارضة في فرنسا لتدافع عن حقها في النزاع القائم ضد مصر، فكان الإمبراطور في النزاع الخصم والحكم، لا يقدر أن يجابه وحده الجبهة التي أنشأتها الشركة في فرنسا بعد الاتفاق على قرار التحكيم، ثم ماذا عليه أن يفعل الآن وقد وافق على التحكيم من البداية؟

تضمن قرار الإمبراطور إبطال حق الشركة مطالبة الحكومة المصرية بتقديم العمال المصريين، وتنازل الشركة للحكومة عن كل حق في ترعة المياه العذبة، والتزام الحكومة بإتمامها مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بها، وإعادة بعض الأراضي غير المستغلة إلى الحكومة في مقابل تعويضات ضخمة.

- تلك أرقام ضخمة جداً، إجمالي التعويضات 84 مليون فرنك، أي ثلاثة ملايين ونصف جنيه، ألا يعلم جناب الإمبراطور أن رأس مال الشركة في الأصل لا يتجاوز ثمانية ملايين جنيه؟

أطرق القنصل ولم ينس بيت شقة وهو يدرس خلجات إسماعيل باشا التي اضطربت فقدر ما يعتمل في نفسه وآثر الصمت.

تهدد الباشا وشرذ ببصره قليلاً، وقد تغير لونه، وشكر القنصل، وأبلغه أن يشكر الإمبراطور ويبلغه التزام الحكومة المصرية بقراره، ثم دخل القصر وطلب ديوانه أن يتعقد فأتوه على وجه السرعة.

أخبرهم الباشا بفحوى الرسالة وتباحثوا فيما عليهم فعله.

قال إسماعيل باشا موجهاً حديثه إلى حافظ باشا ناظر المالية: اطلب لنا قرصاً يا باشا بقيمة 6 مليون جنيه.

- لكن التعويضات لا تتجاوز 3 مليون ونصف يا مولاي، كما أن ميزانية العام تشتمل زيادة في الدخل على الخراج.

رد الباشا بضيق: لدينا طاعون بقري، ولدينا قروض سعيد باشا نود ردها، ولدينا التعويضات.

- حسناً ما تراه يا مولاي.

ثم أشار بإصبعه وكأنه تذكر شيئاً: ولا تنس أن تشتري لي قصر ميركون في الآستانة على ضفاف اليوسفور لأنزل فيه كلما ذهبت في زيارة إلى هناك، ما أخبار البعثة العسكرية الفرنسية يا شاهين باشا؟

- حضرت البعثة برئاسة الكولونيل مرشر ومعه ثلاثة ضباط آخرون هم رباتيل ولارمي وبولار.

- الحقهم بالمدارس الحربية التي سقيمها وولهم عليها، وضم إليهم دوبرناردي الذي يخدم في الحكومة منذ عهد سعيد باشا.

- بأمرك مولاي.

- الدولة العثمانية تواجه الكثير من القلاقل، ثار الجبل الأسود فأرسل السلطان العثماني ثلاث فرق عثمانية لإخماد الثورة، تدخل الروس والفرنسيون وقبل السلطان إعطاء الجبل الأسود استقلالاً إدارياً، والآن ثارت البوسنة بتحريض من أمير الجبل الأسود، وقد أرسل السلطان يطلب أن أعزز جيوشه في الرومللي بجيش مصري، أرسل يا باشا فرقة بقيادة علي غالب باشا إلى الآستانة لتعرض على السلطان ومنها تسير عن طريق سلانيك إلى مناستر(9)، والآن دعوني أخلد للراحة.

أحس الباشا أن أعصابه مرهقة وأنه بحاجة للتسرية عن نفسه فأرسل في طلب بشير أغا.

بشير أغا

قلما تجد لوحة رسمها مستشرق تحوي جوارى أو حريم دون أن تجد فيها ذلك العنصر الأسود المكمل لجمال اللوحة، أعني ذلك الصبي أو العبد الخصي الذي يقوم على خدمتهم، ثمن الطواشي مرتفع لأنهم يكونون شباباً حينما يتم خصيهم فلا يبقى منهم على قيد الحياة بعد الخضاء إلا القليل، إذ يموت أغلبهم بعد رحلة مؤلمة من العذاب، عادة ما ينمو جسد الطواشي الذين قدر لهم أن يحيا نواً هائلاً، وتكون رغم ذلك أصواتهم أنثوية كما يكونون مرداً لا ينمو الشعر في وجوههم.

ولغلاء أثافهم لا تجدهم إلا في القصور الأميرية وأسر الطبقات العالية، فهم مؤتمنون على الزوجات والحريم والسراري، يصحبونهم أينما ذهب، سواء ذهب إلى الأسواق، أو الحمامات العامة، حيث يثق سادتهم فيهم ثقة كبيرة، ويحترمونهم ويدعونهم بالقباب السادة، ربما يرجع ذلك لرغبتهم في أن يشعروا بالراحة والطمأنينة على زواجهم بين أيدينا.

على أنهم ليسوا جميعاً يستحقون المكرمة، فكيف تحفظ لمن لا شرف له شرفه؟ كنت أسكن إحدى قرى "بلاد شكا" بين بحر الغزال ودارفور حين قدم إلينا أحد النخاسين وابتاعني من أهلي مع عدد من شباب القرية مقابل حفنة من العملات المعدنية، وفي بحر الغزال قاموا بخصي وآخرين لأنجو في

النهاية من الموت وحدي، اصطحبوني مع عدد كبير من العبيد في قافلة من دارفور إلى أسبوط في صعيد مصر عبر طريق درب الأربعين، كنت أسير فيه مقيد اليدين إلى الأمام بالخيال، والحبل مشدود إلى عبد آخر أمامي مقيدة يده إلى الخلف منه وهكذا دواليك في طابور طويل، ومن أسبوط ركبنا الجمال شمالاً حيث باعوني في الأسكندرية إلى شاه بندر التجار، سمين بئس لا رحمة في قلبه، لم يكن يتورع عن إهانتني، والغش في ميزانه التجاري، وسرقة أموال الناس بالباطل، أردت أن أنتقم منه ففكرت في أن أؤنس شرفه، راوغت زوجته التي فوجئت بي أتحرش بها بعد أن عادت من أحد الحمامات العامة، حاولت التمتع لكنها استسلمت فقد درست حركاتي وأمتعتها دون جماع، فكان لي ما أردت وانتظرت اللحظة ليراني الزوج بأمر عينيه مع زوجته وقد عاد من حانوته.

انتابني نشوة غريبة حين التقت عيناى بعيني الزوج الذي طاردني كخنزير مذبوح، هربت منه ورحلت من الإسكندرية إلى دمياط، ومنها ركبت المركب إلى القاهرة فزلت في مينائها ببولاق، وكانت تعج بحركة تجار القمح والزيت والسكر وتزخر بالمدارس والمساجد والدور وتؤمها المراكب الشراعية المحملة بالبضائع القادمة من شمال البلاد، في القاهرة تعرفت على آخرين مثلي، كنا نعب الخمر عباً ونحضر حفلات نعوض أنفسنا فيها بمشاهدة آخرين أصحاء وهم يقومون بممارسة العملية الجنسية، أو أن نجتمع في حفلة ونتحلق في دائرة ترقص بداخلها وتتمايل الراقصات شبه عرايا.

ظللت على هذه الحال حتى كرهت حياتي، فلجأت إلى خليل أغا كبير الأغوات وناظر السرايات، بعد أن حدثني بعضهم عنه، وعن نفوذه الضخم، لدرجة استدعت بعض الوزراء تقبيل يديه! طلبت منه أن يعينني

في أحد القصور الخديوية ففعل، وهناك انتظمت والتزمت وتعلمت وتعلمت، كانت مساعدة خليل أغا لي مستغربة من الكثيرين فخليل أغا حين كبر سنه صار درويشاً، فالدروشة على ما يبدو عنصر موازن لحياة المملوك الباغية الأولى، حتى أني علمت أنه طلب من جناب الباشا أن يعينه على أن ينشئ مدرسة وتكية وكتاباً من ماله الخاص. (10)

لم تكن حياة كل الحصيان بئسة مثل حياتي، فبيننا من رضي عنهم الباب العالي وولاهم ولاية مصر، مثل سليمان باشا، وداوود باشا، وعلي باشا، وبيننا من صاروا بحكم رعاية ابن الحاكم حكاماً بدورهم لمصر مثل أبو المسك كافور في عهد الإخشيديين.

ذهبت إلى الباشا الوالي وكان بادياً عليه الإرهاق ويود لو أسري عن نفسه، فسألني عن أمتع الجوارى الحديثات فرشحت له فلك ناز، أمرني أن أرسل في طلبها وأن تجهزها له القلفوات.

القلفا نمرار

ولدت في أسرة يونانية تعود أصولها إلى "سلانيك" في "تساليا"، انتقلت مع عائلتي إلى "المورة" وأنا وليدة، كان والدي يعمل في مهنة الصيد حينما اندلعت ثورة المورة ضد الحكم العثماني، بعد ثورات كانت سبقتها في قبرص وكريت.

كنت أحياناً ما أخرج مع أبي في المركب أراقبه وأراقب حركات النوتي إلى جواره وسكناته وطريقة استخدامه المجاديف، كنت أشاهده كيف يجمع الشباك ثم يرسلها في البحر، ثم يعاود سحبها محملة بالأسماك، حين لاح

الأسطولان المصري والعثماني، اقترب الأسطول المصري من ميناء "مودون"، وأنزلوا قواهم إلى البر في فبراير 1825، تركنا كوخنا الصغير وآثرنا الهرب إلى "كورون"، ومن "كورون" إلى "نفارين"، والمصريون من خلفنا يدخلون المدن تباعاً بعد انتصارهم على الثوار، وبينما نحن في الطريق إلى "تريبولتزا" تصدى لنا بعض الجنود فقتلوا أبي وأمي ونهبوا ما معهما من مال وتركوني إلى جوارهم أبيكهم، لم أدر بعدها إلا وأنا محمولة على ظهر إحدى السفن إلى مصر.

على ظهر السفن اكتشفت أنني لست السبية الوحيدة التي عاد بها جيش إبراهيم باشا من المورة، وفي القصور المصرية خضعت لتنشئة دينية وتنقيفية، تعلمت عزف الموسيقى، والقصور وآداها بما يؤهلني للحياة الجديدة، كان يتم إهداؤنا أو تزويجنا إلى أمراء الأسرة العلوية، أو كبار ضباط الجيش، والوزراء، والمديرين من أعوان الباشا.

كان نصيبي أن عينت جارية لدى محمد علي باشا، لم ألبث أن تدرجت في المناصب وتعلمت الكثير حتى صرت قلفا والمساعدة الأولى للباش قلفا عصمت خانوم، لا يخلو بيت لأحد على القوم هنا من الجوارى والعبيد، والجوارى هنا أشكال وأنواع، يلائمن وظائف مختلفة وأمزجة مختلفة، فالجارية إما حورية شركسية بيضاء ذات ثمن يفوق كل تقدير، أو حمرية مسكرة، أو سمراء غانجة، أو حبشية شعرية ذات أعين بقرية، أو برونزية موشمة ذات نفود سفرجلية، أو سودانية فحماء متقدة الدم الهائج، أما البيض منهن فباهظات الثمن يجلبن سراري، من لم يجلبن من الحروب فيجلبن عن طريق النخاسين من أسواق القوقاز، وبلاد القبحاق (11) وسواحل البحر الأسود، وأما السود فمخصصات للخدمة، يجلبن من الحبشة أو السودان أو أراضي الجلاس فقد تعلمت أن جزءاً من تميز السادة وإحساسهم بعلو

الشأن مقترن بأن يقوم على خدمتهم السود، ذلك لأن إظهار التباين بين بشرة السادة البيضاء، وبشرة خدامهم السود محبب إلى النفس ومطلوب في الخدمة.

إن قامت علاقة بين الجارية البيضاء وسيدها فوضعها كخليفة له أفضل من وضع الزوجة، فالزوج قد يطلق زوجته لكنه نادراً ما يتخلى عن جاريته، وفق هذه القاعدة امتلأ الحرمك بالكثير من السراي والجواري الطموحات المخصصات للخديو، والحرمك يحوي جميع حريم الباشا من زوجات كن جواري، وشقيقات، وبنات، وجواري يعرفن بملكات اليمين، لا يجرؤ أحدهم أن يطلع عليهن بما في ذلك الأطباء أنفسهم، فقط الأغوات الطواشي (الخصيان) فهم مأمونون.

— أفندينا يطلب الجارية فلك ناز، جهزيها وارسلها إلى الخلوة.

كان هذا بشر أغا، أصابت الرعشة جسدي، فلم أكن شعرت بخطاه حين دخل، بشر أغا هو أحد أولئك الذين لا أحبهم في القصر، ولا أشعر تجاههم براحة، رغم أنه لم يسئ لي إلا أني أحس أنه يحمل شروراً وأوزاراً لا يعلمها إلا الله.

فلك ناز

صحيح أي كنت مغتبطة لكون الباشا طلبني لكن كان لابد لي أن
أبتسم أمامهن بغنج وثقة، فأحرق قلوبهن غيرة وحقداً، جميع البنات تتسابق
لقلب الخديوي، ويبدلن أقصى ما في وسعهن لينلن عطفه ورضاه، لعل
الباشا ينعم على واحدة بنظرة رضا فتفتح لها أبواب السعادة إن هم قادوها
إلى خلوته، فالباشا محب إلى التسرية عن النفس وكثيراً ما يتزوج من
جواريه.

أدخلتني غمراز إلى الحمام، وساعدتني على التحمم، وطبعتني، وجهازتني،
وبينما هي تزيني سألتها عن زوجات الباشا ومستولداته:

- أخبريني يا غمراز، هل شهرت فزا هانم، وشفق هانم، ونور فلك هانم،
وجنائار هانم، ومثل ملك هانم، وجهان شاه قادين، وهور جنان قادين
جميعهن كن جوارى للباشا؟

ردت بصوت هادئ وهي تمشط شعري:

- صحيح.

- وكيف أصبو إليهن وأصير مثلهن، وأحظى بما حظينه من شرف
وجاه ومال؟

ابتسمت وكأنها تتوقع السؤال: أن تلدي له ابناً أو ابنة.

جلت بخيالي في هذه اللحظة أتخيل نفسي مزينة بالجواهر والآلئ
أراقص الباشا في واحدة من حفلات الباللو التي ابتدعها في قصوره، والخدم
من حولي ينحنون، لن يهناً لي طعام أو رقاد حتى أستولي على قلب الباشا
مثلما فعلن من سبقني.

خرجت إلى جوار بشير أغا وغمراز من نواحي غرف الحريم، وسرنا عبر
الصحن الداخلي للحرملة إلى ردهة رخامية طويلة تنتهي بباب ضخم
مرصع بالفسيفساء، طرق الأغا الباب فانفتح، عبرنا حديقة داخلية صغيرة
ومن هنا صعدنا الدرجات إلى خلوة جناب الباشا، فتح الحاجب لي الباب
وولجت إلى الغرفة التي تحلم بها جميع جواري القصر، وكان الباشا هناك
بانتظاري.

أحمد

&&&

في تلك الفترة كانت مشاعري جياشة مضطربة ومتقلبة، حين أستلقي على فراشي أتخيل نفسي بالزوي العسكري بطلاً مكلاً يمضى بخطى ثابتة وقلب جسور، كنت أتمنى أن ألتحق بالجيش لكن كل شيء تغير الآن، لا بد أن أنسى ما تمنيت وأوثر المصلحة العامة على مصلحتي الخاصة، والمصلحة العامة تقتضي أن نتكاتف جميعاً وأن نختار الأفضل لصالح الجميع، فذهابي إلى المدرسة الحربية لن يكون إلا في صالحني وحدي، لم أكن أفهم عبد الرحيم جيداً لكنني أفهم الآن أنه كان يؤثر الصالح العام دوماً على صالحه، لكم اشتقت إليه، كيف يمكنني أن أصل إليه؟

منذ أن قدمنا إلى القاهرة ونحن نسأل عمن يدلنا إليه حتى فقدنا الأمل ولم يعد لنا ملجأ إلا الله نلجأ إليه بالدعاء لكي يجتمع شملنا من جديد، نهضت من على سريرتي فوجدت أمني على سجادة الصلاة تنظر إلى مسبحتها الكهربائية بين يديها التي ابتاعها لها أبي حين ذهب مع أحد أصدقائه لزيارة المرسى أبي العباس في الإسكندرية، تأثرت لحالها فهبطت جوارها واحتضنتها وبكىنا.

كفكفت دمعى ونظرت إلى وجهها المبتل وقلت: اسمعني يا أمي، لابد أن نقرر ماذا سنفعل.

- كان أبوكم يريد لكم أن تذهبوا إلى المدارس.

- دعينا أولاً نرى كيف سنكسب رزقنا، قبل أن ننفذ ما معنا من معين النقود، ما رأيك لو فتحنا محل بقالة؟ أنت وزينب بإمكانكما المساعدة بعمل الجبن والزبد، وأنا وحسن سنبتاع باقي المستلزمات من محال الجملة ونبيعها في متجرنا.

- وهل وجدت محلاً مناسباً؟

- لاحظت دكاناً مغلقاً في البيت المجاور، غداً بعد صلاة الجمعة سأسأل عنه عم عوض، لو أكرمنا الله سأتولى أنا وحسن إدارته.

- لو أكرمنا الله ستذهبون إلى المدارس فحاراً وتكثون في الحل ليلاً.

- ومن سيتابع الحل فحاراً؟

- أنا وأختك، لكني أريد منك قبل ذلك أن تذهب إلى عمك عبد العزيز موظف التلغراف، وتبعث بالتلغراف إلى عمك أمين الدسوقي تطمننه علينا وتخبره بمكان سكننا.

- حاضر يا أمي.

- كبرتم قبل الأوان يا ولدي.

ذهبت يوم الجمعة إلى الجامع الأزهر وصليت خلف الشيخ حسن الطويل، كانت خطبة الشيخ عن سماحة الإسلام ورحمة الله بعباده، ارتعش فؤادي لكلامه الذي نزل برداً وسلاماً وشعرت معه براحة تسري في أوصالي فتهدئ من روعي وتطفئ نار قلقي وتوترتي، يرزق الله الطير

فذهب خاصاً وتروح بطاناً، فكيف ينسانا أنا وأمي وإخوتي؟ شعرت بلذة الثقة بالله فرميت أحلامي من على كاهلي وقررت أن أترك أمري إلى الله يصرفه كيفما شاء.

فاتحت عم عوض بعد الصلاة في مسألة الدكان فتحدث بدوره هو وعبد العزيز أفندي مع صاحب المنزل واتفقا معه على الإيجار، كان الدكان فاتحة خير علينا فانتظمت أمورنا، كنا نتسابق في الوقوف بالدكان أنا وحسن وكثيراً ما كانت تزول لنا أمي وزينب بالطعام الذي صار أكثر تنوعاً فنأكل معاً ونحمد الله على رزقه.

وذاث يوم وبينما أنا وحسن وقوف بالدكان إذا بعلاء صبي القهوة المقابلة لبيتنا يأتينا وخلفه رجل وصبيان يسألان عنا، ما أن اقتربوا حتى أدركتهم، الحاج أمين الدسوقي ولديه سعيد ومرعي، ولكم كانت سعادتنا بهم عظيمة، سلمنا على الحاج أمين واحتضنا سعيد ومرعي بفرح كبير، أغلقنا الدكان وصعدنا إلى البيت وأكرمنا وفادقم، تحدث الحاج أمين وقت الغداء على القرية وكيف أنها ضربت بوباء الطاعون البقري الذي أثمر العديد من الخسائر لدى الفلاحين والملاك، وتحدث عن ظلم الفرسان الأرناؤط وتجيرهم، وعن الباشا الذي تملك أطيانا كبيرة بالقرب منهم ويجبر الفلاحين بين الحين والآخر على بيع أراضيهم له ليوسع أملاكه.

تأثرت بالحال السيئ الذي لقيت أهل القرية عليه، لكنني حمدت الله أن أنجنا من هذه المفرمة، بعد الغداء وأثناء شرب الشاي حدثنا الحاج أمين عن الأمر الذي أتى بهم من المركز بانتظام أولاد عمد البلاد ومشايخها في سلك العسكرية، وأنه جاء القاهرة ليرسل ولديه.

- وهل بإمكانك الانتظام في سلك العسكرية أنا أيضاً يا عمي؟
فكر الحاج أمين قليلاً وقال: ولم لا؟ دعنا نحاول وليفعل الله ما يريد.

شاهدت البشاشة في وجهي سعيد ومرعي خاصة بعد أن تحمست أُمي وزينب للفكرة، حسن هو كذلك سعد بالخير، فهو يعلم أن العسكرية كانت حلمي، وأن عمي محمد رحمه الله كان مثلاً أعلى لدي.

- حسناً، سأبيت الليلة في لوكانده وسآتي في الصباح لاصطحبك، والآن سأترككم لتناولوا قسطاً من الراحة ولأرتاح أنا أيضاً.

حاولت أُمي وحسن استبقاءه لكنه اعتذر ورحل، بعد أن ترك علي محياي ابتسامة رضا وسعادة.

لم أنم هذه الليلة، وظللت أفكر فيما سيحدث في الصباح، شاركني حسن سعادي وسهري الساعات الأولى من الليل، وحين أذن المؤذن لصلاة الفجر توضأت ونزلت للصلاة في مسجد قريب، وهناك بقيت بعد الصلاة أدعو أن يقبلوني في الجيش.

حين جاء الحاج أمين كنت مستعداً للذهاب معه، سلمت على أُمي وزينب وطلبت منهما ألا يوقظا حسن فهو لم ينل كفايته من النوم

يناير 1865

مدرسة البيادة

أحمد

&&&

تم قبولي أنا وسعيد في مدرسة البيادة، كانت سعادتنا بتجمعنا من جديد كبيرة، لم يفسدها إلا رفضهم إلحاق مرعي بالجيش فهو غير مناسب، لم يحزن مرعي كثيراً فهو لم يكن على ما يبدو راغباً في الأمر من البداية، أو هكذا خيل لي.

كان الحاج أمين يتمنى لو استطاع التوسط وإلحاق سعيد بمدرسة السواري (الفرسان) فترقياتهم في الجيش أسرع فناظرهم ضابط فرنسي يدعى بولار أو مدرسة الطوبجية (المدفعية) فناظرها الكولونيل الفرنسي لارمي، لكنه عاد وعدل عن رأيه حين وجد فرحتنا بزمالتنا لبعضنا البعض عظيمة.

كان عددنا في المدرسة أربعمئة وخمسين طالباً وكان ناظر المدرسة محمد أمين بك، لكنه لم يمكث طويلاً، وتغيرت النظارة إلى الناظر دي برناري بك، تعلمنا الإدارة العسكرية، واللغات العربية والتركية، والطبوغرافيا،

ورسم الخطط، والأسلحة والشئون الإدارية، والرسم والهندسة، والرياضة البدنية.

كانت أيام الدراسة جميلة، وكنا أنا وسعيد لا نفصل عن بعضنا بعضاً، تعرفت في هذه الأيام على شاب سوداني طويل البنية، أسمر الخلق، بشوش الوجه، هي الطلعة اسمه عبد العال فصرنا ثلاثة ندماء، كان سعيد كثيراً ما يقف مطالعاً لصورة إبراهيم باشا المعلقة قرب مكتب الناظر معجباً بما فيها يقف الباشا متقلداً شارة الميرمان على شكل هلال وثلاثة نجوم من الألماس، ويرتدي طربوشاً أحمر، وسترة حمراء مزدانة بالقصب، وخيوط الذهب، وعليه وشاح أخضر عريض، وبنطالا يشبه السروال الواسع يشد بتكة على الوسط ويربط على الركبة برباط الساق القلشين، وعلى خاصره حزام أصفر متمنطق يقبض من خلاله على سيف جعله في غمده.

كان محمد أمين بك يخبرنا عن معارك إبراهيم باشا ونحن حوله نستمع إليه مأسورين فيقول إن الشام ومصر كانتا دولة واحدة في حكم الطولونيين، والإخشيديين، والفاطميين، والأيوبيين، والمماليك ولم يفتقرا إلا في الحكم العثماني ولأن محمد علي باشا كان شغوفاً بالتاريخ ويعلم أهمية الشام لمصر أراد أن يضمها إلى حكمه، وطلبها من السلطان العثماني أكثر من مرة لقاء خدماته ولما لم يستجب له قرر انتزاعها بالقوة، وزحف بجيشه براً وبحراً فهزم العثمانيين في "عكا"، و"سهل الزراعة"، و"دمشق"، و"حمص"، و"مضيق بيلان" بين الإسكندرونة وحلب التي رأت هضابها السماء جحافل الأتوريين، والبابليين، والفرعنة والفرس، والإسكندر، والصليبيين وأخيراً إبراهيم باشا وجنده، ثم دخل جنوب تركيا فأخذ "الإسكندرونة"، و"أدنه"، و"ممر كوك"، و"مرعش"، و"هرقلة"، وفي "قونية" حارب الصدر الأعظم الرجل الثاني في الدولة العثمانية محمد رشيد باشا فأسره وألحق بجيشه هزيمة

كبيرة وأسر من العثمانيين عشرة آلاف وغنم كمية هائلة من الأسلحة والمدافع، حتى صار الطريق مفتوحاً إلى الآستانة على مسافة ستة أيام من السير بالجيش، انزعجت أوروبا كثيراً من نتائج الحرب ورأت أن القوات المصرية وصلت إلى مرحلة يتحتم معها وقف القتال قبل أن تقضي القوات المصرية على دولة الخلافة أو الرجل المريض الذي يستفيد منه الأوروبيون ويضمنون أن هذه المنطقة من العالم والتي تسيطر عليها تركيا لن تمثل تهديداً لهم، أما روسيا الملاصقة للعثمانيين الطامعة في الوصول إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط على حساب العثمانيين فرأت أن استبدال الدولة العثمانية المسلمة بأخرى شابة وقوية على رأسها حاكم طموح مثل محمد علي كفيل ينسف أطماعها فعرضت على الدولة العثمانية المساندة برأً وبحراً، وأرسلت أسطولها إلى البوسفور، وقوات برية إلى الشواطئ التركية وطلب الجترال الروسي مورافيف من إبراهيم باشا عدم التقدم أكثر من ذلك حتى يقابل والده، وصل الجترال الروسي مصر في 13 يناير 1833 ليعلن أن روسيا لن تسمح باحتلال الآستانة، ثم تدخلت فرنسا وطلبت تصفية النزاع ودياً فوافق محمد علي بشرط أن يعطيه السلطان حكم الشام كله و"أدنه" في جنوب تركيا، لم يوافق السلطان وعرض عليه ضم الجزء الجنوبي فقط من الشام.

تمسك محمد علي بمطالبه وجعل إبراهيم باشا يزحف بجيشه ويفتح "كوتاهية" و"مغنيسيا" وأرسل مندوباً عنه ليقم الحكم المصري في "أزمير"، لولا أن القنصل الفرنسي في الآستانة طلب منه أن يتراجع بجيشه عن "أزمير" كي لا يعطي لروسيا ذريعة للحرب ففعل.

وافق السلطان العثماني مضطراً وأرسل مندوباً منه مع سكرتير السفارة الفرنسية إلى "كوتاهية" ليتفاوض مع إبراهيم باشا، وفي إبريل 1833

أرسل السلطان فرمان يعطي محمد علي حكم مصر، وكريت، والشام، فلاحظ محمد علي أن السلطان تجاهل أمر "أدنه"، فعاد إلى التهديد ليصدر السلطان خطأ شريفاً في 6 مايو يعطيه فيه حق حكمها، كما ثبت إبراهيم باشا في ولاية "جدة"، ومشخة الحرم المكي، ومحصل "أدنه"، وفي 14 مايو تم التوقيع على اتفاقية كوتاهية بين إبراهيم باشا، والبارون روسان السفير الفرنسي في الآستانة ممثلاً لتركيا.

وكيف ضاعت تلك الأملاك العظيمة من مصر في النهاية؟

سألت البك وكأني بكتاب الشيخ يحيى نصرتلي على رأسي الطير أستمع إلى حواديته المثيرة مرهفاً أذني لسماع تمة القصة.

ما كان للسلطان العثماني أن يرضى بتلك الهزيمة القاسية، وبمفاتيح القوة التي نالها محمد علي باشا وولده إبراهيم باشا، فجهز جيشاً كبيراً وتحركت القوات التركية هذه المرة مدعمة بالخبراء الروس، وعلى رأسهم قائد ألماني شهير هو دي مولتك، وقائد تركي آخر هو محمد حافظ باشا نحو كوتاهية، وتخطوا الحدود المتفق عليها، أرسل إبراهيم باشا إلى والده يسأله عما يفعل فأمره ألا يكتفي برد الأتراك إلى الحدود بل لا بد له من تدميرهم نهائياً وأرسل له المدد المعين.

عبر الأتراك نهر الفرات، وتوجهوا نحو "نصيبين" على بعد ساعات قليلة من الحدود السورية واحتلوا بعض القرى فانضمت إليهم، تبين لإبراهيم باشا أن الأتراك حصنوا أنفسهم تحصيناً منيعاً يستحيل معه مواجهتهم فالتف حولهم، وعبر بقواته النهر في الليل وطوقهم، ففوجئ الأتراك في الصباح بالوضع الجديد، وأن كل التحصينات التي أقاموها لم يعد لها قيمة، التقى الجيشان في "نصيبين" في 24 يونيو 1839 ولاحظ إبراهيم باشا أن عدوه أهمل منطقة مرتفعة لم يحتلها فأمر قائده سليمان باشا الفرنسي ساوي

فاحتلها، وشحن إليها المدافع التي أصلتهم ناراً، حاول الأتراك احتلال الأكمة لتدارك خطأهم لكن القوات المصرية حالت دون ذلك.

نفذت الذخائر من القوات المصرية فتوقفت، وانكشف المشاة المصريون، فبدأوا في الانسحاب، لولا أن إبراهيم باشا نجح في وقف الانسحاب حتى وصلت الذخائر وعادت المدفعية للعمل، وعاد المشاة والفرسان للهجوم، وشدد إبراهيم باشا على ميسرهم حتى هزمهم فاستولى على كل ما تركوه من سلاح، صحت الدنيا بعد هذه الواقعة على أخبار أن الجيش المصري صار على بعد يوم واحد فقط من الآستانة.

مات السلطان العثماني في أول يوليو وكان مصاباً بالدرن قبل أن تصله أخبار الهزيمة في وقت كادت فيه الخلافة أن تقع، خاصة وقد قام الأسطول العثماني بالإنضمام محمد علي وسلم نفسه في ميناء الإسكندرية بعد الهزيمة الأخيرة لقواته البرية، تقدم خسرو باشا عدو محمد علي باشا اللدود فأعلن نفسه صديقاً أعظم، وصعد بعبد المجيد ابن السلطان المتوفي إلى العرش وهو لا يتعدى الثامنة عشر من عمره، أراد خسرو باشا أن يعرض على محمد علي باشا أن يعطي له حكم البلاد التي تحت يديه حكماً وراثياً كما يطلب لولا أن تدخلت روسيا، وفرنسا، وإنجلترا، والنمسا وطلبت منه ألا يتخذ أي قرار خاص بمصر دون عرضه عليها لخطورة الموقف فراجع، وفي 15 يوليو 1840 عقدت إنجلترا مؤتمرًا في لندن ضم تحالفًا بين إنجلترا، والنمسا، وروسيا، وبروسيا صدقت عليه الدولة العثمانية اتفقوا فيه على إعطاء محمد علي حكم مصر وراثياً وحكم جنوب سوريا (عكا) طوال حياته إذا قبل هذه المعاهدة في مدة لا تتجاوز عشرة أيام من تاريخ تبليغه بالقرار، مع الاشتراط بأن يدفع الجزية السنوية للباب العالي، وأن تعتبر قوات مصر البرية والبحرية جزءاً من قوات السلطنة، وتسري جميع

المعاهدات التي أبرمتها الدولة العثمانية، وأن يقوم بسحب قواته من كريت، والجزيرة العربية، وباقي بلاد الشام، والأناضول ويسلم الأسطول العثماني لتركيا، فإذا لم يقبل في المدة المذكورة يحرم من حكم عكا ويعطى مهلة عشرة أيام أخرى لقبول حكم مصر الوراثي، على أن يسحب قواته من جميع البلاد العثمانية مع إعادة الأسطول، فإذا انتهت المدتان يحق للسلطان العثماني حرمانه من ولاية مصر، وفي حالة رفض القرارات يحق للحلفاء اللجوء للقوة لتنفيذ الاتفاق واتخاذ الوسائل اللازمة لقطع المواصلات بين مصر وسوريا، ومنع وصول الإمدادات، ومساعدة الأهالي للثورة على الحكم المصري، وفي حالة تقدم القوات المصرية نحو الآستانة يتخذ الحلفاء كل الوسائل لحماية عرش السلطان، والمضائق من الاعتداء.

تضايقت فرنسا من كون إنجلترا لم تدعها للمؤتمر، فقررت الوقوف بجانب محمد علي وشجعتة على التمرد، بعد انقضاء المهلة الأولى أرسل الباب العالي مندوباً إلى محمد علي يبلغه أن المهلة الأولى قد انقضت، فرد عليه بأنه على استعداد لإعلان الحرب على أوروبا كلها وهدد بهدم الدولة العلية على رأس من فيها، لكن سرعان ما أدرك الباشا أن فرنسا لن تقف إلى جواره وقوفاً حقيقياً فعرض على مندوب السلطان وقناصل الدول قبوله حكم مصر وراثياً، وأنه يطمع في عطف السلطان فيما يخص حكم سوريا وراثياً أيضاً، إلا أن قناصل الدول رفضوا قبول العرض ما لم يسلم محمد علي الأسطول العثماني أولاً.

انقضت المهلة ووردت محمد علي رسالة من الصدر الأعظم بتاريخ 14 سبتمبر 1840 يبلغه فيها أنه بناءً على رفضه شروط المعاهدة فإن السلطان يسترد منه ولاية مصر، استعد محمد علي للحرب وهجمت البوارج الإنجليزية والنمساوية وأنزلت قوات التحالف في الشام وراحت تحرض

الشوام ضد محمد علي، وبدأ إسماعيل باشا في الانسحاب فانسحب من "أذنه" وشمال سوريا دون قتال وحين وصل فلسطين أرسل جزءاً من الجيش مع سليمان باشا الفرنساوي، وسار هو بالجزء الباقي في نهاية ديسمبر 1840.

اجتمع ممثلو التحالف من جديد في لندن في 14 نوفمبر 1840 ليبحثوا عن مخرج لمحمد علي بعد المأزق الذي وضعوه فيه فهو لا يزال لديه جيش كبير مدرب، وقرار استئناف الحرب سيكلفهم خسائر، كما أن نشوب حرب يشترك فيها الحلفاء قد يؤدي إلى حرب أخرى مع فرنسا لتعارض المصالح، وفي النهاية اتفقوا على أن يصدر السلطان العثماني فرمان بحكم محمد علي لمصر وراثياً على أن يكون للسلطان حق استرداد الحكم منه أو من أي وريث من ذريته إن خالف شروط هذه المعاهدة فقبل الباشا فرمان.

انتهى البك من القصة وابتسم لما وجدته علي وجوهنا من علامات التأثر والحزن والكدر مجد حازه الأجداد وضيعه الأغراب، في هذه الأثناء كنا نخرج لضرب النار في صحراء العباسية، أو في ميدان طرة بسفح جبل المقطم قبل إنشاء ميدان الرماية بالقرب من الجزيرة، وأحياناً ما يكون ذلك في حضور إسماعيل باشا وجميع رؤساء العسكرية، فكاننا بنظامنا ندخل السرور على قلبه.

زينب

التحق أحمد وسعيد بالمدارس العسكرية يدرسان فنون القتال، فاشتد عودهما وازدادت صلابتهما وتحولا من طور الشباب إلى طور الرجولة، شب أحمد يافعاً وسيماً في جسد رياضي، وأما سعيد فكان ذا جسد عظيم البنية، غزير الشعر، ذا راحة منبسطة، إذا ما شمر أكمامه بدا ظاهر يده وذراعه أشعر، كانا حين يعودان من المدرسة ويدخلان الحارة يتسابق إلى تحيتهما الجميع، بما في ذلك أوباش الحواري والأزقة، إذ كانوا يفخرون بأن تضم حارثهم ضابطين من أبنائهما في الجيش، كنت أرى النسوة والصبايا المراهقات يتسابقن إلى رؤيتهما حين يخرجان إلى المدرسة صباحاً أو حين يغدوان منها آخر النهار، حتى أن بدرية العايقة جارتنا في المنزل المواجه كانت تتحجج بنشر الغسيل وتصعد إلى السطح لتختلس النظر إليهما، وذات مرة ضبطتها وهي ترميهما بالعسلية لمشاغلتهما، فلم أحتمل المشهد واحتقن وجهي وهرولت إلى غرفتي وارتميت على السرير حيث انفجرت باكياً.

صعد سعيد مع أحمد الذي دعاه إلى الغداء، فجفقت دمعي وأسعرت بتغير ملابسي وفتحت لهما الباب فدخلوا، حيائي أحمد وهو يعطيني طربوشه فحيته ولم أرد تحية سعيد وخطفت منه طربوشه بحدة.

دخل أحمد إلى غرفته لتغيير ملابسه، أما سعيد فصار خلفي وسألني دون أن أجيبه: ما بك يا زينب؟ هل أغضبتك في شيء؟

رغمته بنظرة نارية وعقدت ذراعاي فوق صدري وسألته بغضب: هل دخلت الجندية لتكون صداقات مع بنات الحي؟

فقطب حاجبيه وقال: لا ليست الصداقات على الإطلاق هي السبب في دخولي الجندية، بل السبب أنني أشعر بميل إلى الجندية.

بدرية غير مهذبة، وأنا أعلم أنك وأحمد كثيراً ما تتحدثان معها.

ثم تركته ورحلت عنه حين عاد أحمد مرتدياً جلباباً ورمى إلى سعيد آخر وهو يقول: ارتد هذا كي لا توسخ ملابسك وتعرض في الغد للتعري.

صعد حسن بعد أن أغلق الدكان، وانضم إلينا وجلسنا جميعاً على الطلبة وكنت طوال الأكل لا أرفع عيني إلى سعيد، ولا أشارك في الحديث بينما تفرع الحديث بينهما عن طيب أكل أمي، وعن احتياجات الخمل، وعن الجديد في مدرسة أحمد.

في اليوم التالي وبينما أربعتنا جلوس على مائدة الإفطار قال أحمد موجهاً حديثه إلى أمي وهو يحدق بي باسمًا: البارحة طلب سعيد مني يد زينب للزواج، ويرجو موافقتك يا أمي لكي يرسل لأهله ليأتوا لزيارتنا وخطبتها له.

يا ألف فمار أبيض، سعيد ولد محترم، ربايته صالحة، وأبوه صديق أبوكم، وأمه ست الناس وحييتي.

لكني، أخبرته إن رأي زينب هو الأهم عندي، ما رأيك يا زينب؟

امتقع وجهي وزاغت عياني وأحسست بالسخونة تتدفق مني ويقلي
يكاد يقفز من حلقي لتسارع دقاته فقهقه حسن ضاحكاً وهو يقول: لكم
ترسم مكنونات الصبايا على وجوههن! الجواب مرسوم على وجه أختك
لا يحتاج إلى تفسير، آه يا شيطانة! كل ذلك وأنا لا أدري؟

ضحك الجميع لقوله وقمت خجلى إلى غرفتي وأنا في قمة سعادتي.

على بركة الله إذن.

قل له يا أحمد أهله يشرفون في أي وقت.

لم يمض سوى أربعة أيام، وفي اليوم الخامس وصل الحاج أمين الدسوقي
وزوجته محملين بالهدايا والأصواف والحريز حيث كان في استقبالهما أحمد
وحسن، وكانت أمي قد ابتاعت لي فستاناً جديداً وجلدت شعري بشريط
أحمر، قدمت أمي للضيفين الشربات وتعلقت عينا سعيد بي، بينما تكلم
الحاج أمين وتبسط في حديثه عن فوائد الزواج من تهذيب للنفس، وحفظ
للفرج، وإعمار للأرض التي أمرنا الله بتعميرها، وأنه استخار ربه ولم يجد
أفضل من بيتنا وبيت أبينا رحمه الله لمناسبته فنحن لديه بمنزلة أبنائه وأمناء
لديه بمنزلة أخته.

فأجابت أمي بكلام طيب عن سعيد وأصله الطيب وخيرة نسبه،
وتوكل الجميع على الله وقرأوا الفاتحة وحددوا موعد عقد القران وفيه:
"بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وأصحابه أجمعين.

أما بعد فهذا عقد قران على سنة الله ورسوله بين سعيد أمين الدسوقي
على البكر السعيدة زينب مرزوق السعداوي بعد أن فوضت أمرها إلى
أخيها أحمد مرزوق السعداوي وأشهدت له الشهود بتوكيلها إياه فقبل

وكالتها وأنفذ نكاحها، وأصدقها سعيد أمين الدسوقي خمسين قرش يعجل لها منها خمسة وعشرين قرش نقداً حالاً معجلاً ويبقى لزينب ابنة مرزوق السعداوي علي زوجها خمسة وعشرين قرش مؤخرين إلى خمس سنين أولهم شهر صفر سنة اثنان وثمانين ومائتين بعد الألف من الهجرة".

قبل الفرح بأسبوع فاح العرس فسبقت ريحه رائحة الفطائر والمخبوزات المحلاة التي خبزتها أمي وساعدتها فيه أم سعيد وعدد من الجارات حتى انتهين من رصها في سلال وصرر ملونة من الحرير، وجاء سعيد وحسن بثلاثة قدور من اللحم المشوي تعاون على حملها عم عوض والمكاري ورفعها إلى العربة التي ضمت سلال المخبوزات والمناشف والملابس والصابون المعطر، واللوف، وزيت المسك، والزيتون، وعجينة الحناء، وشراب الليمون الثلج.

تحركت بنا العربة والجارات يضربن الطبل والدفوف ويعنين حتى وصلنا إلى الحمام والذي يتضمن مدخلين أحدهما للرجال وآخر للنساء تتضمنهما الواجهة التي تحتوي على مقرنصات وزخارف إسلامية بديعة، باب الحمام ضيق يليه دهليز بنفس الضيق كي لا يتعرض الحمام للتيارات الهوائية ومنعاً للضوضاء، دخل الموكب النسوي الحمام فاختلط صخب الأطفال بزغاريد النسوة داخل ممر انفتح على المسلخ، وهو قاعة فسيحة يسقفها سقف خشبي مسطح تتوسطه شخشيخة للإنارة، وتوجد فيه مسطبة للحمامية المشرفة على إدارة المكان بمجوارها دولاب الأمانات ومتعلقات المستحمين، وكان الحمام يومها محجوزاً لنا ولذوينا فقط.

بعد القاعة مررنا بممر انتهى إلى باب يفتح على حمام تتوسطه فسقية من الرخام ترتفع متراً عن الأرض، وهي مثمنة الشكل يجرى عليها التدليك، على أرضية رخامية مبلطة بصفوف مختلفة الألوان ومرصوفة بفن وإتقان

بفسيفساء بارزة منقوشة في أشكال هندسية عربية الطراز، قاعة الحمام مظلمة لا تضاء إلا بنور ضئيل يرشح لها من قباب ذات فتحات صغيرة مستديرة أعلى الفسقية عليها كرات من زجاج ملون، والحمامات تختلف درجة حرارتها تدريجياً فالحمام الأول في حرارة الهواء الطلق، والثاني فاتر، ثم تزداد درجات الحرارة حتى آخر الحمامات حيث البخار يملأ جوه، على جانبي الفسقية تراصت مصاطب ينتظر عليها المستحمون دورهم في عمليكَ التدليك.

وفي ذلك الصحن تفتح عدة حجرات يصعد إلى بعضها بعدد من درجات السلم حيث بيت الحرارة المتضمن المغطس المملوء بالماء الساخن عن طريق ساقية ترفع الماء من بئر أسفل الحمام ويتم تسخينها عن طريق مستوقد خلف الحمام، كذلك يوجد بجوار حجرة المغطس دورات مياه وخلوات تتضمن أحواض مياه للاستحمام بعد الانتهاء من التدليك والبخار.

جلست النسوة على حصر ومساند ومصاطب معدة في الرواق ووضعن عنهن أحماهن ورحن يخلعن ملابسهن ويتأزرن بمناشف حول الحصر لا تستر فهودهن، ساعدتني أمي وخلعت عني ثوبي والخلي التي زيتتني بها، وحلت جدائل شعري، حتى جاءت المدلكة فباركت لي الزواج السعيد وقامت ونزعت عني الإزار الذي يسترني فذبت خجلاً وسرت النسوة للخلي وتوالت تعليقاتهن الجريئة عن جمال جسدي، وليلة العرس وأن الخجل فيها لا يصح وسط الضحكات.

أخذت المدلكة تدلكني بلوف التفريك لترع عن جسدي الدهون والأوساخ العالقة وتغترف بالطاس ماء ساخنا وتصبه على رأسي، والنسوة من حولها يزغردن ويفنن، حتى بدا جسدي متورداً من تدليكها، تحممت

النسوة بينما البلانة تدلك جسدي وتحفقه وتخنيه عند الكعبين والساقين واليدين، ارتديت ملابسي وحليي بعدها كاملة لتقوم الماشطة بتمشيط شعري وتزييني زيني الأخيرة.

وحين انتهيت خرجنا من غرف الاستحمام إلى غرف التبريد والراحة حيث بسطت المساند فقعدت النسوة ووضعت أمني لهن الطعام وشربن شراب الليمون ودارت عليهن أقذاح القهوة وجاءت المسنات منهن بالنرجيلات فتعالى الدخان المعطر حتى ملأ الأجواء، توالى من جديد أهازيج الفرع ثم خرجنا بموكبنا حين انقضى النهار وسط التبريكات والدعوات بالزواج الصالح.

سعيد

قبل الفرع بأيام اصطحبني أحمد وحسن وعبد العال إلى حمام المؤيد في حارة الأشرفية قرب جامع السلطان المؤيد. وضعنا أموالنا ومتعلقاتنا لدى الناطور فاستوصى حسن المعلم صاحب الحمام بي وأعلمه أنني عريس. مبارك الزواج إن شاء الله يا ولدي.

قام المزين بالحلقة لي أولاً ثم حممني المعلم وصار يدفق الماء الساخن على رأسي، ثم أتبعه أحد صبياناه من المكيساتية فقام بتدليكي وصفرة جسدي الذي التهاب من شدة فركه ومن سخونة المياه، وكان القهوجي بين الحين والآخر يأتينا بالمشروبات.

حمل الجهاز إلى البيت الجديد في باب الخلق وسط الأهازيج والزغاريد واحتفاء النسوة، وفي ليلة العرس أقيمت الزينات في الحارة وعلا صوت

المطربين والموسيقين ورقص أبي على دق العود وصفقات الأيادي المنتظمة، قام بعده عدد من الرجال ليرقصوا حتى توسط أحمد الجمع حاملاً نبوتين يحملان عددا من الدبابيس المغروسة أتى بهما من فتوات الحارة فأشار لي بأحدهما ويريد بذلك أن يتحداني في التحطيب فأجبت طلبه ونهضت فهلل الرجال وتصايحوا وتصاعدت الزغاريد من الأزقة والبيوت لنسوة كانت تراقبنا من الشرفات وخلف المشربيات، وبينما نمارس التحطيب بمجد، وصل زملاء الدراسة بصحبة عبد العال الذي راح يرقص ويراقصني طوال الفرح دون أن يتعب أو يكل حتى فناه حسن متدخلأً بغمزة وهو يقول: دع له بعض القوة تلك الليلة فسيحتاجها.

على أن مفاجأة الحفل بحق كانت عيده الحامولي الذي أحيا الفرح بغنائه، وكم كانت مفاجأته سعيدة حين أعلمه أحمد وحسن بأنهما سبق وأن استمعا إليه حين كان شادياً صغيراً عند مقام السيد البدوي.

- 6 -

يونيو 1865

سراي الزعفران بالعباسية

&&&

جلس إسماعيل باشا مع معيته على مائدة الغداء يحتفل بالأخبار السعيدة التي وردته من الباب العالي ومن حكمدار السودان، فقد ورد فرمان من السلطان العثماني يدخل سواكن ومصوع فثانياً ضمن الأملاك المصرية بعد أن أعفى السلطان مصر من دفع إيجار سنوي قدره 25 ألف جنيه كانت تدفعه منذ عهد محمد علي باشا لأجليهما، وسواكن ومصوع ولايتان في شمال السودان متاحتان للبحر الأحمر حتى بوغاز باب المنذب فهو بذلك يضمن أن تظل بلاده المفتوحة مرتبطة عبر النيل وعبر البحر، كما وردت الأخبار من حكمدار السودان جعفر صادق باشا بدخول القوات المصرية فاشودة واحتلالها رسمياً (12)، وأنه تم اتخاذ نقطة حرية دائمة بما لمنع تجارة الرقيق، فسدت الطريق أمام النحاسين الذين كانوا يجلبون الأرقاء عن طريق النيل من أقاليم بحر الغزال وخط الاستواء، لتؤسس مديرية جديدة هناك باسم فاشودة.

قال المفتش معجباً وهو يغترف من طبق حسائه: لكن كيف تمكنت من الحصول على سواكن ومصوع يا مولاي؟

فقهقه الباشا قائلاً: تلاعبت بالجميع يا إسماعيل، أرسلت إلى الآستانة مذكرة أقول فيها أن الأجانب يحرضون القبائل التي تقطن بين مصوع وأثيوبيا وإقليم التاكا على الاستقلال والخروج على الإدارة المحلية التركية تحت ستار الدين والمدنية، وفي حالة نجاحهم ستنتشر الفوضى والاضطرابات في المنطقة مما قد يؤدي إلى تدخل ملك أثيوبيا ليستخدمهم لمصلحته ضد أملاك السلطان، أما إذا كانت هذه المنطقة خاضعة لنا، فإن انتقالنا إليهم وقيامنا بالمراقبة وتوطيد الأمن سيكون أسير، وذكرتم بمحاولات الإرسالية الكاثوليكية لفرض الحماية الفرنسية على المنطقة وسكانها، وتدخل قنصل فرنسا في بوجوس، وقلت له نري بولر السفير البريطاني في تركيا، أي سأعمل على إبطال تجارة الرقيق إن حصلت على تلك الموائى وهو ما لن يفعله العثمانيون، ثم ذكرته بشكل غير مباشر باستيلاء الفرنسيين على "أوبوك" (13) خارج مضيق باب المندب، قبل أن أطلب منه التوسط لدى الباب العالي ليعطيني الإقليم لمواجهة كل هذه التحديات.

قال شاهين باشا: سواكن المنفذ الوحيد لإقليم التاكا على البحر الأحمر يا بشوات، وبالتالي كانت أعظم مركز تخزين للغلال والبضائع من وإلى صعيد مصر، هذا بالإضافة إلى سرعة الاتصال بالسودان، أما مصوع فتنبع أهميتها من أن من يسيطر عليها يستطيع فرض سيادته على الساحل و"إقليم سمهر" (14) الذي يسيطر على الطرق المؤدية إلى أثيوبيا، فمصوع هي منفذ أثيوبيا الوحيد على العالم، الآن نستطيع مراقبة تحركات القبائل

المغيرة على الحدود السودانية، ومن يدري ربما نرسل يوماً قواتنا منها لغزو الحبشة.

- وماذا عن فاشودة؟

- فاشودة هي مفتاح النيل الأعلى لوقوعها على ملتقى الطرق المختلفة من الخرطوم والحبشة إلى جنوبي السودان، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل كنهـر سوباط، وبحـر الغزال، والنيل الأبيض، وبحـر الزراف، بوسعنا أن نتخذ من فاشودة مركزاً لحملاتنا وفتوحاتنا في إفريقيا إن أردنا.

نظر إسماعيل المفتش للجلوس وقال: فاشودة بوابة الجنوب يا باشا، لكني أتساءل هل لدينا عدد كافٍ من الجنود في السودان للقيام بمهمات جديدة؟

فقال شاهين باشا: لدينا ثلاثون ألفاً من الجنود النظاميين والباشوزق.

وقال إسماعيل باشا: عظيم، سيكونون نواة تؤسس بها أول إمبراطورية عظيمة في إفريقيا يا سادة.

قال لطيف باشا: قد اتسعت دولتنا بالفعل كثيراً يا مولاي.

- وستتسع أكثر، سنؤسس دولة مهابة الجانب من الجميع، لكن يهمني على ذلك أن نوفر وسائل اتصال سهلة بـرجالنا في شتى البقاع.

رد نوبار باشا: نحن لدينا خطوط تلغراف بالفعل.

- لا بد من التوسع فيها وإنشاء خطوط منها في الوجه القبلي، والسودان، وغرة، ووصلها بأوروبا بحراً من الإسكندرية عن طريق مالطة، وصقلية، ووصلها بآسيا عن طريق السويس إلى عدن، والهند.

ابتسم الجميع لأحلام الباشا الواسعة ابتسامة رضا، فاستطرد وقد وعى ما يدور بخلداهم: أنا عاشق لتلك البلد، وقد عاهدت نفسي أن أجعلها قبلة العالم وواحة أوربية بين رمال الشرق.

التفت إسماعيل المفتش إلى الباشا وقال: لدى المسيو موتسي إدارة توزيع بريد بين مصر وأوربا، نالت شهرة في الآونة الأخيرة، لماذا لا نشترىها يا مولاي ونلحقها بالحكومة المصرية؟

- فكرة طيبة يا باشا، اشترؤا تلك الإدارة واجعلوها فرعاً من فروع الحكومة باسم مؤسسة البريد المصرية.

تتحنح حافظ باشا وقال: صحيح أن صادرتا أكبر من واردتنا هذا العام بنحو سبعة ملايين وثلاثمائة ألف، لكن مخصصات تلك المشاريع ومخصصات إنشاء القصور قد تكون أكبر، خاصة أننا لم نرد قرض سعيد باشا بعد وسحبنا قرضاً جديداً العام الماضي، ولدينا هذا العام مشكلة جديدة فالحرب الأهلية الأمريكية انتهت والقطن الأمريكي عاد للأسواق وعادت أسعار القطن المصري لما كانت عليه سابقاً، والفلاحون لدينا في سنوات السعة الماضية اعتادوا أثناء رفع أسعار القطن أن يتفقوا بكثرة ويستدينوا المال من المرابين الأجانب بفوائد ضخمة قد تصل إلى 4% في الشهر الواحد أي بواقع 48% في السنة على أمل السداد من ثمن القطن في الموسم المقبل فلما هبطت الأسعار وقعوا في أزمة شديدة، وعجزوا عن وفاء ديونهم.

ظهر الاهتمام والتأثر على الباشا وقال بصوت بدا عميقاً: هؤلاء المرابون مصاصو دماء، كان لدى بونايرت كل الحق في محاربتهم. ثم نظر في عيني الباشا واستطرد قائلاً: احصروا ديون الأهالي وسددوها عنهم للدائنين على أن ترجع على المدينين مقسطة على سبع سنوات بفائدة 7%، اقترض من بنك الأنجلو إذا أردت لإيجاد السيولة اللازمة.

بينما هم كذلك يخططون لمستقبل واعد تنأى إلى مسامعهم صرخة وجلبة، فهض الباشا من خلف المائدة إلى إحدى الطرقات حيث الصرخة

يتبعه مسؤول الجناح الملكي فوجد خادماً يتلوى على الأرض وقد صارت
التشنجات تهر كل عضلة في جسده.

صرخ الباشا: اطلبوا الطبيب.

جاء الطبيب مهرولاً ونظر إلى الخادم المسكين واستفهم منه عن آلامه،
قبل أن ينهض متراجعاً إلى الخلف ويقول بصوت مرتعش: أخشى أنما
الكوليرا يا مولاي.

احمر وجه الباشا وارتعشت خلعجته وهو يصرخ غاضباً: في قصري؟
كيف ذلك؟

تلثم الطبيب وكأنه يستجدي الرحمة مدافعاً: يا مولاي الكوليرا وباء
سريع التأثير قد يكون المرضى صغاراً ذوي سحر وجاذبية في الصباح ثم
يكونون حطاماً ذابلاً في الليل بجلد أزرق داكن وعيون غائرة وأسنان نائمة.
تراجع الجميع في دعر بعد هذه الكلمات، فقال الباشا بتوتر: وكيف
وصل الوباء إلى هنا؟

- سيكون أتى بكل تأكيد عن طريق أحد الموانئ، الوباء يستوطن الهند
وكثيراً ما ينتقل عن طريق البحر إلى مسقط والخليج الفارسي، وقد ظهرت
آثاره بكثرة في هذه المناطق ويقال إنه ظهر في بغداد أيضاً، المرض ينتقل عبر
شرب مياه ملوثة بالبكتريا، والبكتريا قادرة على أن تكمن أياماً داخل
خزانات المياه.

أشار الطبيب إلى الخدم كي يحملوا زميلهم إلى أحد المستشفيات وأخبر
الباشا أنه لا بد من إقامة حجر صحي على كل من يشك في إصابتهم
بالمرض لمنع انتشاره فأمر له بما يلزم.

في هذه الليلة مكث الباشا مع زوجاته اللاتي يكنن خوفاً وأولاده توفيق، وحسين كامل، وفاطمة، وتوحيدة، وزينب، وإبراهيم حلمي، ومحمد حدي، والرضيعة أمينة فقد خشوا جميعاً أن يناموا متفرقين ورجوا والدهم أن يمكث معهم، فكان الباشا بمكوثه بجانبهم يسعى لطمأنتهم.

سألته فاطمة: هل كل من يمرض يموت؟

فأجاب: أن الطبيب أخبره أن البعض يموت، ولم يخبرها أن أولئك قلة قليلة وأنهم غالباً ما يصابون بدوب دائمة أو عرج أو إعاقة في الكلام، ثم سألت توحيدة: وهل نحن هنا آمنون؟

- بالتأكيد يا عزيزتي، قد شددنا على النظافة العامة والنظافة الشخصية ثم إن الأطباء الآن يذرعون القصور جيئة وذهاباً بحثاً عن مرضى لوضعهم في الحجر الصحي.

أردف توفيق: وماذا عن أولئك الذين خارج القصر يا مولاي؟

- أطباء الحجر الصحي سيمرون على بيوت الأهالي ويوعوهم بالمرض ويقدمون لهم الإرشادات اللازمة، والآن اخلدوا للنوم فقد سهرتم كثيراً الليلة، تصبحون على خير.

- وحضرتكم بخير.

حسن

انتشر الوباء في البر المصري وعلمنا فيما بعد أنه كان قد ضرب ضربته في عمان، والخليج، والجزيرة العربية فكان المرضى يموتون في ثلاث ساعات إن لم تقدم لهم الرعاية الطبية، وكانت الأعراض تبدأ بالآلام في الرأس، وقئ

وإسهال شديد يؤثر كثيراً على شكل المريض، وقد يوصله إلى الجفاف فتحدث له تشنجات عضلية.

تساقط الكثيرون صرعى كالذباب من حولنا، وعشنا أياماً وليالياً من الرعب، ازدحمت فيها المساجد والكنائس بالمصلين، قال المشايخ إن ما يحدث غضب من الله على عظيم أفعالنا، وقال البعض إنها نهاية الدنيا ومقدمات القناء، وقامس آخرون أن السبب غزو الأجانب واليهود للبلاد وفتحهم للمواخير ومحال البغاء التي بدأ أهل البلد في إدمانها وإنشاء مثلها.

ازدحمت المستشفيات بالمرضى، وضربت حولهم الملائات البيضاء في كل مكان، إلى حد دعا بعضها إلى أن تضرب خياماً حول مبانيها، أقيمت فيها مخيمات للحجر الصحي أحاطوها بالأسوار كالعسكرات، حتى خشى الخلق الاقتراب منها.

استمر الأمر بضعة أشهر عانينا فيها الوباء، وأزكم الخوف برائحته الأنوف، لاحقنا فيها الرطوبة اللزجة الحانقة، والحر القانظ الذي لا يطاق، كأنه النار تصلينا أحياء، حتى يخيل إليك أنه إن جن الليل ليرسل نسماته، أرسلت الريح بدلاً من ذلك شواظاً من لهب.

كنا أحياناً ما نرى موتى في الدروب والأزقة، يرميهم أهلهم إلى الخارج خوفاً من مDAHمات رجال الحجر الصحي وخوفاً على أنفسهم، وعلى أبدان هؤلاء زرقاء الموت وغياب الحياة وقد صفى الإسهال والقئ المستمر أجسادهم من المياه وتركهم جثثاً هامدة جافة غارقة في برازها كآخر ما أخرجهم المرض للعين من أبدانهم الناحلة.

خسرنا الكثير من الأحبة في منطقتنا، فقد ماتت المسكينة ماريكا ولم ندر بموتها إلا بعد ذلك بأيام، وحينها داهم القائمون على الحجر الصحي

مرلها وأحرقوا الكثير من أرديتها وملأها ثم دفنوها بمعرفتهم، دون أن يجرو أحد على أن يفتح داره ويسأل أين ستدفن وكيف سيخبرون ولدها؟ فقد رفع الجميع شعار "نفسي .. نفسي"، كما مات عم عوض في الحجر الصحي وكنا نجده قبل ذلك ذابلاً من أثر المرض، وبينما سعيد قادماً من مدرسة البيادة مع أحد مرة راعنا بكأؤه وبالسؤال علمنا أن مرعي قد راح ضحية الوباء هو أيضاً وكذلك كثير من الفلاحين، فظلت زينب إلى جواره ترعاه وتشد من أزره.

غلف الموت الكتيب الدنيا، وخيمت ظلمة الحياة ووحشتها، ولجأ الكثيرون إلى الله هرباً، فلا ملجأ منه إلا إليه، وهجوا بالدعاء والبكاء في المساجد، وعلى قبور الأولياء والصالحين، وقد ظنوا أنهم قانون لا محالة، حتى رفع الله الغمة وفك الكرب بمعجزة حرفيه الكاف والنون.

مر عام على انتشار الوباء في البر المصري على أنه تم السيطرة عليه حتى اختفى، وبقي الرعب منه في النفوس قائماً، وفي 27 مايو 1866 أصدر السلطان العثماني فرماناً استجاب فيه إلى إلحاح إسماعيل باشا بتغيير نظام توارث ولاية مصر وجعلها في أكبر أنجال ذرية إسماعيل، بشرط أن تؤدي مصر جزية سنوية قدرها 750 ألف جنيه عثماني بدلاً من 400 ألف التي كانت تؤديها، فقبل الباشا سعيداً يلهج بعبارات الشكر والثناء، كما أمر السلطان بانتقال مسند ولاية مصر وملحقاتها وقائمقامتي سواكن ومصوع إلى أكبر أولاده الأمير توفيق ومن هذا إلى أكبر أبنائه وهلم جرا، كما نص الفرمان على إمكانية زيادة عدد الجيش المصري إلى ثلاثين ألفاً وكان يزيد بالفعل عن هذا العدد من قبل، وإقرار حق مصر في ضرب نقود مختلفة العيار عن نقود السلطة العثمانية، ومنح الرتب المدنية لغاية الرتبة

الثانية، وقد أبلغ الباب العالي الفرمان إلى الدول العظمى التي اشتركت في إبرام معاهدة لندن سنة 1840 مما جعل له صفة المعاهدة التي تربط الدولة العثمانية بإزاء مصر بحيث لا تملك تبديله إلا بموافقة مصر.

سر إسماعيل بالفرمان الأخير كثيراً فقد كان يرى أنه خطأ بذلك خطوة كبيرة إلى طريق الاستقلال، كما أنه أمن بذلك ونهائياً على نفسه وأبنائه من شر المتربصين والراغبين في الحكم، أما توفيق فكانت سعادته أكبر فقد أدت التعديلات التي أجراها والده إلى أن صار ولي عهد مصر ووالي قائممقامي سواكن ومصوع، فعين له ياوران وزاد عدد خدمه وعلت منزلته في القصر بين إخوته ووسط حرمه وحشمه الخاص، وحدهما الأميران مصطفى فاضل وعبد الحليم كانا الأكثر غضباً من التعديلات الأخيرة وأرادا أن يقلبا الأسرة العلوية والشعب ضد مليكهم.

يناير 1867

أحمد

مضت أعوام ثلاثة قضيتها بين المدرسة، ومساعدة أمي في الدكان حتى أتى مدرستا في يوم من الأيام زائر هام لم نعلم كنهه، لكننا لمسنا أهميته من مسارعة الأساتذة لاستقباله.

دخل الزائر غرفة الناظر وطلب أن يعرض عليه الأوائل في صف الدراسة وكنت منهم، كان متوسط الطول، أبيض البشرة، ذا ملامح تركية أو شركسية، شاربه ضخم معقوف لأعلى، يرتدي سترة حمراء موشمة بخطوط ذهبية، وبنظالا داكنا ويتدلى من حزامه الجلدي سيف عربي، عرفنا بنفسه أنه رستم باشا قائد الياوران في معية الخديوي ومأمور التشريعات

الخدوية، أمرنا الباشا أن نقف في صف فوقنا بانضباط مشدودي القامة، متفتحي الصدور، أخذ يمر علينا ويسألنا عن بلادنا وأعمارنا وأسمائنا ونجيبه حتى انتقاني واثنين آخرين هما علي إبراهيم ومحمود حماد.

- حضرات الضباط، من الآن فصاعداً ستعملون في معية أفندينا المعظم، في فرقة الياوران، سأكون قائدكم، من اليوم انتهى ارتباطكم بالمدرسة، اذهبوا واجمعوا أغراضكم لأنكم سترحلون حالاً.

لم أكن أصدق في أفضل الأحوال أن يأتي يوم أدخل فيه قصر جناب الخديوي، وأن أطلع رعد الحياة التي يحياها، وأشاهد بمرأى عيني أمراء وأميرات البيت العلوي الذين أحببت في يوم من الأيام أن أهرب من القرية وأذهب لمشاهدتهم حين زار السلطان العثماني عبد العزيز مصر، ظننت أنني قد بلغت مبلغ سعادتي بالفعل حين دخلت مدرسة البيادة التي ستضمن لي انتظاماً في السلك العسكري، لكنني لم أكن أدري حينها ما كانت تجربته لي الأقدار من خير، فله الحمد والمنة.

كان رستم باشا ذا خبرة وفراصة قوية، وكثيراً ما كان يكشف دخيلة محدثه من أول نظرة يوجهها إليه، كان كل الخدم يخشونه، وكانت القلقاوات وخليل أغا يجللنه، كان رستم باشا يوزعنا على القصور الأميرية ولا يبقينا في مكان واحد، فتارة أكون في معية جناب الخديوي في قصر الجوهرة بالقلعة، وتارة أكون معه في سراي شبرا القائمة على النيل، وتارة أكون في معية الوالدة باشا في قصر المسافرخانه، كنت مجداً في طاعته فقربني إليه وتعهدي برعايته.

حتى كان عملي في سراي الجزيرة التي قطنها الباشا لبعض الوقت، أحببت السراي على اتساعها، بدورها الأول والثاني مع جدران سامقة، ونوافذ مستطيلة، ضخمة، مرتفعة، وشرفات واسعة مزينة بأعمال من

الخشب الأرابيسك، وما تطل عليه من مشهد بديع يزحف فيه العشب الأخضر المشذب على كل ما يرنو إليه بصرك، عدا بركة صغيرة احتلت المشهد لتعكس صورة القصر المنيف على صفحتها الفضية المتراقصة، يلتمع باطنها بصنوف من الأسماك مختلفة الألوان والأحجام، والقصر شأنه في ذلك شأن القصور العثمانية يتكون من قصرين متقابلين السلالمك وفيه غرفة الباشا وأماكن اجتماعاته الغنية بالفرش والبسط والأثاث الكثير، والحرمملك وفيه أجنحة الهوانم وزوجاته ومستولداته وبناته وجواريه.

وفي أحد الأيام وبينما أجوب الحديقة خارج السراي أمرني رستم باشا أن أقف بالقرب من البوابة الرئيسية للحرمملك استعداداً لوصول الأميرات فاطمة، وتوحيدة، وأمهم شهرت فزا هانم، والأميرة زينب، وأمها جنانيار هانم واللاتي سأقود مجموعة حراستهن وأصبحهن حتى سراي حلوان، التي ابتناها الباشا خصيصاً لخوشيار قادين أمه بالقرب من حمامات الاستشفاء بحلوان.

اصطفيت عربتا الدوكار تجر كل منهما أربعة خيول قوية، واصطفقنا بدورنا محني الرقاب في أدب حتى تمر الأميرات، سمعت الأصوات الأنثوية المختلطة تقترب وكنت أتوق لأن أرى الأميرات فلم أمنع نفسي ورنوت ببصري بينما أنا محني الرأس معتدل الوقفة، فلمحت الأميرة زينب بملامح تركية وشعر كثيف وطويل مضفر، والأميرة توحيدة بوجه مملئ صبح، والأميرة فاطمة أكبر بنات الباشا صاحبة الجمال الوضاء، كانت تمزج أختيها بصوت عذب، لم أدر إلا وقد رفعت رأسي رغماً عني أسيراً لسحرها، فشاهدتها وعلى شفيتها المكترتين على دفتها ابتسامة عذبة، وفي عينيها اللوزيتين الناعستين أمواج متلاطمة لبحر لا قرار له، غادة حسناء هيفاء، هبطت من الفردوس إلى الأرض، كلما خطت وزعت البهجة في

القلوب المنكسرة، في ثوب وردي مزين بالدانتيل والورود القماشية حول
خصرها وقرب نحرها، وقد وضعت وردتين ورديتين زادتاها جمالاً بين
خصلات شعرها الكستنائي الطويل الذي صفف لأعلى فبدا كتاج ازدانت
به عمن سواها من بنات البشر، باستثناء بضع خصلات كانت نعومتها
واسترسالها مرهقة لأعصابي، تتحرك كلما رنت أو التفتت في نعومة
خشيت أن تجرح رقبتها الملساء البيضاء البضة، فتمر أقراطها الماسية الطويلة
في أذنيها الصغيرتين فيهتز معها قلبي ويضطرب، كنت كالنوم والمأخوذ
بقوة أقدر مني فلم أدر بنفسي إلا وزميلي يلكرني، فاستفقت وحللت
أغلال أسرها وعدت إلى وقفي المنضبطة ووجهي إلى الأرض.

مر الجمع مسرعاً في توتر فبدوا كما لو أنهم جميعاً لاحظوا حلقتي،
ففزعوا منها وركبوا العربات واعتلينا نحن خيولنا المسرجة، أشرت إلى
الجنود أن تحركوا ففعلوا.

اقرب مني زميلي علي إبراهيم بفرسه وصاح بي: يخرب بيتك ايه اللي
انت هبته ده؟

- ايه؟ حصل ايه؟

- بتسأل؟ في حد يبخلق كده؟ انت عاوز تروح في داهية؟

- هو حد خد باله؟

- حد خد باله؟ قول فيه حد مخدش باله؟

- انت أخرجت الأميرة، لأ وكمان قدام أمها ومرات أبوها واخواتها.

لم تسعفني الكلمات فصمت مما شجعه على الاسترسال: ربنا يستر وما
يشتكوش للباشا الكبير أو حتى لرستم باشا.

- ايه ممكن يرفدوني؟

- ويرفدوا أبوك كمان، دي أقل حاجة ممكن يعملوها.

دب القلق في صدري ورددت: ربنا يستر.

الأميرة فاطمة

ترى من هذا الشاب الجريئ الذي تخللني بنظراته المقتحمة من منبت شعري حتى أخص قدمي متعدياً مساحتي الخاصة؟ لأول مرة أشعر بهذا القدر من الحرج، كانت نظراته الساهمة تذيبني، حتى أني اضطربت وشعرت أن صوتي يح بغتة، فتوقفت عن مزاخة أختي وأسرعت الخطى متعثرة في أذيال ثوبي تجاه العربية، لعلني أهرب من هذا الموقف الذي وجدت نفسي فيه عاجزة عن الإتيان بالفعل المناسب، ومغرورة بدمع لا أدري متى ولماذا ذرفته؟ وكأنما قد وقع بي اعتداء لم أدر كنهه وماهية سببه.

داخل العربية صعدت أُمي وكانت مغتظة، قالت وهي تجز على أسنانها: وددت لو صفعتة على وجهه أو شكوته للباشا.

فضحكت جنانيار هائم وقالت في جذل: وتقضين على مستقبل المسكين؟

قالت أُمي باستنكار: مسكين؟ Cette situation est inacceptable هذا غير مقبول، كيف يرفع وجهه في سمو الأميرة؟

فقال جنانيار: ربما هو جديد، ولم يتعلم بعد ما عليه اتباعه.

ثم أضافت: وعلى كل، لا ذنب له.

قبل أن تتبعها بضحكة قصيرة أخرى، نظرت أُمي إليها باستغراب وقالت: كبرش (15)، أنا لا أفهم فيم ضحكك، وكيف تقولين إنه لا ذنب له؟

- إهدأي يا عزيزتي، ابنتك الفاتنة كبرت، وهي تخطف الآن قلوب الرجال المساكين بسحرها وجمالها، وما هذا الفارس إلا أولهم، فاسعدي بها وبمظهرها من الجمال، وارأني حالاً بهذا المسكين فلا حيلة له أمام جمال ابنتك. ابتسمت أُمي رغماً عنها ونظرت لي تطالعي، وكذا فعلت جنائير هانم وكنت لا أزال مضطربة مصفرة الوجه، فنجلت منهما وأشحت بوجهي، فضحكنا بمرح سلطوي أنثوي لعوب.

ظللت صامته طوال الطريق، بينما انشغلت الهوام بالحديث عن الحرم ملك وأموره حتى وصلنا إلى سراي الوالدة باشا في حلوان فزلت من العربة متأبطة ذراع أُمي وملت برأسي إلى الخلف أختطف نظرة سريعة إلى ذلك الفارس الجريء، فوجدته طويل القامة، منتصباً مخني الرأس في تأدب، عريض

الصدر، وسيم الملامح، ذا بشرة قمحية، وشارب معقوف إلى أعلى، وطربوش عزيزي قصير، كان تقدمه خطوة عن باقي الجند والاختلاف الطفيف في ملابسه يوحي أنه الأعلى رتبة بين الضباط والجنود.

صعدنا الدرجات الرخامية حتى غرفة جديّ الوالدة باشا خوشيار قادين، التي سرت بمجئنا كثيراً فقالت وهي تمازحنا:

- أخيراً جئتموني؟ يبدو أن ابنا أراد ينفيني وحدي في تلك الأرض المفقرة حتى أموت، فالصحراء حولي في كل مكان ولا آثار للعمران.

قالت أمي: حاشى لله يا مولايّ، الباشا لم يأمر ببناء حمامات حلوان، وتلك السراي الفخمة على النيل، إلا حينما تبين مزايا مياهها المعدنية الكبرى، فخطط ذلك الطريق المعبّد إلى هنا، ورغب إلى البشوات السكن فيها بأن أمر بمنح كل راغب في البناء أي مساحة من الأرض يريدّها بشرط أن يبني خمسها في مدة محدّدة، كما جعل لكل خمسمائة متر مبلغاً رمزياً قدره جنيه واحد فقط، كل ذلك كي لا تشعري جنابك بالملل أو الوحدة.

أردفت جنائير هامم: صحيح، سمعت أيضاً أن الباشا سينشئ داراً للاستشفاء، وفندقاً للمسافرين، وعدداً من المتّهرات، وسكة حديدية تصل القاهرة بحلوان.

- حقاً؟

- نعم جلالتك.

- سيوفر ذلك الكثير من الوقت، لكنني لازلت أشتاق إلى سراي المسافرين، فهناك قضيت

أغلب عمري وهناك ولد إسماعيل.

- ليتك تسكنين معنا يا مولايّ.

- لا أحب سكن القلعة.

- لكننا لا نسكن سراي الجوهرة في القلعة، فقد بنى الباشا الكثير من القصور.

- هل كانت رحلتكن شاقة؟

- قليلاً.

- استرحن إذن.

نادت خوشيار قادين على خليل أغا الذي قضى في خدمتها عمراً
مديداً وطلبت منه أن يأتينا بشراب الفستق المثلج ويحضر لنا الحمامات
الدافئة.

- لابد لكن أن تجربين تلك المياه الكبرى فهي عظيمة.

قالت زينب بحماسة طفولية: دعينا أولاً إلى الحواديت، قد وعدتنا أن
تحدثنا هذه المرة عن جدنا الأكبر محمد علي باشا.

- سأفعل، لكن عليك أولاً أن تصدعي إلى أوامر جدتك.

نمضنا باسمات وقبلنا أياديها وذهبنا إلى الحمامات التي كانت منعشة
بحق، ولما خرجنا بملابس جديدة، وجدنا جدتي تنتظرنا في متكأ توسطته وقد
امتلاً بالطنافس من حولها، تحمسننا لحواديتها التي نجها وأخذنا أماكننا بين
يديها فشرعت تقص ما لديها بأسلوبها السردي الحبيب.

" ولد جدكم الأكبر محمد علي باشا لأسرة ألبانية في أحد الموانئ
الصغيرة الواقعة على الحدود بين ترافية ومقدونية، وكان أبوه إبراهيم أغا
رئيس الحرس المنوط به حراسة الطريق ببلدته، توفي والده فكفله أمه التي
ماتت هي أيضاً وهو في سن الطفولة، فكفله عمه طوسون الذي ما لبث أن
وافته المنية أيضاً بعد مدة وجيزة، لذا فقد عاش جدكم حياة اليتيم من
صغره إذ حرم من الأب والأم والعم وحتى الإخوة فقد كان له سبعة عشر
أخاً لم يعيش منهم سواه، ولأنه حرم من الأسرة من صغره سترونه يقدرها
كثيراً ويؤسس فيما بعد واحدة من كبرى الأسر، ورغم أنه لم يخالط أباه
وعمه كثيراً إلا أن افتقاده لهما ولدفاء أسرتة دعاه لأن يسمى أبناءه الأول
بهم، بعد وفاة عمه كفله أحد أصدقاء والده حاكم "قولة" إسماعيل
الشوربجي باشا فتبناه حتى بلغ الثامنة عشرة من العمر، عني به الشوربجي

باشا وعلمه الفروسية وزوجه إحدى قريباته ذات المال والجمال، خدم جدكم تحت حاكم قولة فأبلى بلاءً حسناً، واستخدم ثروة زوجته في الاتجار في الدخان فخسر الكثير من المال، أنجب محمد علي باشا إبراهيم، وطوسون، وإسماعيل على أسماء أبيه، وعمه، وراعيه، فضلاً عن بنتين هما توحيدة، ونازلي، فلما قررت الدولة العثمانية إرسال جيش إلى مصر لإجلاء نابليون بونابرت وجيشه عنها، كان جدكم هو الضابط الثاني لفرقة صغيرة من ثلاثمائة جندي ألباني وكان رئيس هذه الفرقة هو علي أغا ابن حاكم قولة الذي ما إن وصل إلى مصر لم يطق المكوث بها، فعاد إلى قولة ليصبح جدكم قائد الفرقة بدلاً منه."

استمرت جدتي تقص علينا قصة صعود جدي الباشا، وكيف انهزمت الحملة التي كان فيها وأنه رمى بنفسه إلى البحر مع بقية الجيش العثماني هرباً من الفرنسيين ليكون على موعد مع القدر ليحكم ونسله من بعده مصر أو يموت وينقطع دابره، فتشاء الأقدار أن ينتشله ضابط إنجليزي على واحدة من سفن الأسطول الإنجليزي، ليكتب له أن يعود إلى مصر من مع جيش عثماني جديد، وكيف أوقع بالولادة العثمانين، وحارب المماليك في الصعيد، ثم استثار الناس على جيش الدلاة الذي أتى به الوالي العثماني، حتى ولاه المصريون رغم أنف الخليفة الولاية دون أن يطلبها.

نهضت وفي نيتي أن أراقب ذلك الفارس، نزلت الدرجات حتى شاهدته يسامر زميله، وأشارت إليه أن يأتي حين التفتنا تجاهي وأحسا بي، كاد قلبي أن يتوقف حين اقترب مني لكنني تثبتت، وقف ونظره إلى الأرض فسألته عن اسمه فأجاب أنه أحمد وأنه الضابط المكلف بحمايتنا.

- ومراقبتنا أيضاً.

اعتذر متلعثماً، فحاولت أن أبدو أكثر ليناً وأنا أقول: أنا لست غاضبة، أنا فقط أرجو منك ألا تكرر لها لأنك أخرجتني كثيراً.

- أعدك بذلك يا مولائي وأكرر إعتذاري.

ابتسمت ورحلت عنه، بينما ظل هو واقفاً مكانه، صعدت الدرجات فوجدت توحيدة تسأل جدي عن مذبح القلعة.

- تلك قصة أخرى، سأقصها عليك في المرة المقبلة، فقد بدأت الشمس تميل إلى الغروب، هيا حتى لا تتأخروا.

هضنا جيعاً وقبلنا أيديها ورجونا لها الصحة، وبقيت هي في شرفتها تودعنا حتى ركبنا عرباتنا مجدداً.

أحمد

لم أصدق عيني حين رأيت الأميرة وقد هبطت من القصر إلى صحنه الداخلي منفردة ودلفت إلى البوابة لتشير لي أن آتياها، سقط قلبي بين ضلوعي، ترى ماذا ستفعل؟ هل ستوبخني؟ توجهت إليها وما أن اقتربت حتى اشتممت عبيرها الذي ملأت رائحته الطيبة الأثر، سألتني بصوت عذب خفيض، كأنها تخشى أن يسمع، وبندرة لم تخف اضطرابها عن اسمي ورتبتي فأجبت، أشارت إلى ملاحظتها مراقبتي لها حين خطت إلى العربة، فاعتذرت خجلاً، على أنها عطف علي ورأفت لحالي وأبت أن تتركني خجلاً أسفاً ومحرجاً، فابتسمت ابتسامة افتر لها ثغرها وأخبرتني أنها غير غاضبة، على أنها رجتني ألا أكررها.

ثم رحلت وتركني راکعاً في معبدها، أسيراً لها، ألملم شعاث قلبي
ومستجمعاً رويتي وأناي، هل أحببتها حقاً من أول نظرة؟ وهل هناك حب
من النظرة الأولى؟ أم أنه إعجاب لا يرقى للحب؟ وكيف يكون حباً؟ هل
جنت وفقدت صوابي لأحب إحدى أميرات البيت العلوي؟ وليست أي
أميرة، بل هي بكريّة ولي النعم أفندينا المعظم حاكم مصر والسودان بنفسه،
لا بد أن أنهى نفسي عن تلك الحماقة وأنسى ما حدث وأحد الله أن الأمور
لم تتطور إلى ما هو أسوأ.

ما إن وصلنا السراي وترجلنا عن خيلنا قرب الاسطبل، حتى جذبني
علي إليه وحثني أن أقص عليه ما دار بيني وبين الأميرة، فقد خشى أن
تتحدث في الطريق أمام الجند فيسمعنا أحدهم، ذكرت له ما جرى فحمد
الله على انتهاء الموضوع، وخوفني من العقاب إذا علم أحدهم بما كان،
وطلب مني أن أكون راجح العقل وألا أكررها فطمأنته.

- هل تدرون ما الذي يعدونه في المطبخ الآن؟

كان هذا محمود حماد وقد عاد من دوريته.

سأله علي: ماذا؟

- شوربة الكونسوميه يا صديقي

ضحك علي ورفع يده داعياً ربه أن يهبنا ما وهب به أقواماً آخرين،
فاشترك معه محمد في الضحك.

سألته عن هذه الشوربة التي أضحكتهما، فتولى علي الشرح: تلك
الشوربة يا عزيزي مرتبطة بطقوس توجب التوجه إلى الحرم الملك، ثم عاود
الضحك.

ابتسمت وسألت: لم؟

أجاب علي: لأن تلك الشورية ليست عادية، إذ يؤتى بأكثر من ثلاثين زوجاً من الحمام ويتم وضعها في خلّاط كبير ليتم فرمها فيه تماماً، ويتم تصفية خلاصتها وتنقيتها من الشوائب ليشرّبها الباشا.

ثم ألحق عبارته بابتسامة وضيعة، فابتسمت بدوري مستغرباً، بينما اعترض محمود قائلاً: من قال لك هذا الهراء؟ الشورية تعد من لحم جاموسي كبير توضع في إناء ضخم جداً يسع خمسين كيلو جراماً من اللحم وتسلق مع البصل والجزر والطماطم من الساعة السابعة صباحاً حتى الساعة العاشرة مساءً وكلما نقص الماء يتم تزويده تدريجياً إلى أن ينهري اللحم والخضروات تماماً فتصفى بالمصفاة ثم بالشاش وترع عنها الدسم لتوضع في الثلاجة لتبرد ثم ترع الدهون مرة أخرى بالشاش على مراحل وتقدم في النهاية باردة.

استطرد علي مناكفاً: يبدو أن محمود يعمل مساعد طبّاخ كل يوم بعد انتهاء دوريته، أياً كان، لها طقوس مرتبطة بالذهاب للحرملك.

فأجاب محمود مؤكداً وعلى محياه ابتسامة: لها طقوس مرتبطة بالذهاب للحرملك.

-7-

حسن

&&&

ازداد تعلقي بالأدب والأدباء منذ أن وفدنا إلى القاهرة، كنت كثيراً ما أحضر دروس الأزهر وأتابع حلقاته، حيث حضرت هناك حلقات الشيخ محمد عبده وهو من أبناء طنطا مثلي، ثم كان تعرفي بالشاعر والمؤرخ عبد الله أبي مسعود أفندي ذي السابعة وأربعين عاماً والذي عرف شغفي برفاعة بك الطهطاوي فعرفني بنفسه على أنه تتلمذ على يديه في الألسن، فكان لي نعم المعلم والصاحب.

كنا نحضر دروس الأزهر معاً ونستمع إلى حلقات الشيخ حسن الطويل في المنطق والفلسفة والعلوم الشرعية، وكان عبد الله أبو مسعود أفندي فوق اهتماماته الدينية والأدبية متقناً للفرنسية والإيطالية وناظراً لقلم الترجمة وأستاذاً للتاريخ بدار العلوم.

صحبني إلى عالم رحب في الأدب والثقافة فجالست كبار الأدباء والشعراء والقصاصين وحضرت معه مجالس الأدب التي يعدها شاعر الخديوي الشيخ علي الليثي، وصالون الأميرة فاطمة أخت الخديو وكانت من القلائل المهتمات بالحركة الأدبية.

ولجت إلى قصر الأميرة فهالني فخامة بهوه، والثريا الرائعة المدلاة من السقف، كانت الجدران تزخر بلوحات لكبار الرسامين الغربيين من أمثال الهولندي جوهانز فيرمير، والبريطاني فريدريك لورد ليتون، والفرنسيان جوستاف دوريه، ومجموعة خلاصة لجان ليون جيروم ضمت رحلاته في مصر التي أهداها للخديوي إسماعيل، أشار الخادم لنا أن ننتظر في الصالون الشرقي من قاعة الاستقبال الكبيرة، فاتجهنا حيث أشار، ووجدنا صالوناً لويسياً مذهباً يدع الصنع محاط بفازات خزفية ثمينة ضخمة، قلت في نفسي إن كان ما أراه هو قصر الأميرة أخت صاحب مصر فترى ما الذي يراه أحمد في قصور صاحب مصر نفسه؟

كان الضيوف متباينين ومختلفي الهيئة والأعمار، البعض شباب في أوائل الثلاثينيات والبعض شباب، البعض على سيماهم آثار الثراء والدعة بشواربهم المنتفخة المهذبة ووجوههم الخليقة يرتدون بدلات افرنجية، ويقبضون على عصي بمقابض من الفضة المزخرفة، والبعض متبسط في رداءه يرتدي رداءً أزهارياً وعمة أزهرية، أو رداءً شرقياً بمجلباب ونطاق وعباءة.

قلت في همس لعبد الله أفندي: ما هذا التباين؟

فأجابني قائلاً: إن صالون الأميرة فاطمة مفتوح للجميع، وكل من تراهم الآن هم على تباينهم كبار أدباء هذه البلد، هذا الشاب الثلاثيني هو محمد بك عثمان جلال، أيضاً من تلامذة الطهطاوي وهو ميل للفرنسي الروائي يجيد تعريب وتقصير الروايات الغربية، عرب رواية "بول وفرجين" لبرناردين دي سان بيير عن الفرنسية و"ترتوف" لمولير وأسماها في نسختها المصرية "الشيخ متلوف" هو شديد الحماسة لعرضها في المسارح المزمع إنشاؤها وفق تخطيط المدينة الجديد، وهذا الذي على اليسار هو الشيخ عبد

الهادي نجا الإيباري ابن العلامة الشيخ رضوان الإيباري، معلم أولاد الباشا الوالي، ومن تلامذته الشيخ حسن الطويل الذي حضرنا معاً دروسه والشيخ محمد البسيوني، وهذا الذي إلى جواره عبد الله باشا فكري، أيضاً أحد معلمي أنجال إسماعيل باشا وكاتب رسائله، وهذا هو الشيخ حسن المصرفي شيخ الأدباء، وهذا السيد هو إبراهيم بك المويلحي ابن أسرة المويلحي ذات الأصول الحجازية، كان جده من كبار موظفي محمد علي باشا وأبوه من سرقة مصر له بيت تجاري كبير باسمه اشتهر بصناعة الحرير وتجارته، ولما مات أبوه وهو لا يتجاوز العشرين وتولى وأخوه تجارة أبيهما وخسرا في سبيل ذلك الكثير تدخل إسماعيل باشا وأنعم عليهما بأن سدد ديونهما، قام مؤخراً مع محمد عارف باشا بتأسيس جمعية المعارف التي تقوم بإعادة إصدار الكتب العربية التراثية القديمة، وهذا هو علي الليثي شاعر الباشا أنت تعرفه، وهذا الذي إلى جواره الشاعر علي أبو النصر المنفلوطي، جعله الباشا منشئاً بالمعية السنية، وثالثهما هو الشاعر محمود صفوت الساعاتي، أيضاً ضمن المعية السنية.

في هذه الأثناء نزلت الأميرة فاطمة على الدرج في فستان فيكتوري ذهبي ذي أكمام واسعة، وتوسطت الصالون فوقف الجميع لمقدمها فحيتهم وطلبت منهم الجلوس وأخذت في مسامرتهم والترحيب بهم والسؤال عن أحوالهم واحداً تلو الآخر، بينما وقف إلى جوارها خادمها لعلها تحتاجه.

قدمني عبد الله أفندي للحضور لكوني عضواً جديداً في الصالون بوصفي صديقاً وقارناً فتما معجبا بتراث الطهطاوي، فرحب الجميع بي بود صادق وحفاوة بالغة أكبرتها وأجللتها كثيراً في نفسي.

افتتح علي الليثي الصالون بقصيدة جديدة من نظمه أعجبت الحضور ونال ثناءهم عليها، وبينما الجلوس كذلك وصلت سيدة ملتحفة بعباءة

ووجهها مغطى بالشمك بصحبة فتاة جميلة في الرابعة عشر من عمرها، يتبدى وجهها في هالة بيضاء مشربة بحمرة، صافية العينين الخضراوين كأنها ذات أصول تركية أو شركسية، قامت الأميرة للسيدة ورحبت بها واحتضنتها وانكبت عليها تقبلها في حرارة فتحيها الضيفة بمثل حرارتها، وتقيل أول موضع تصادفه من وجه الأميرة، بدت السيدتان برغم التباين في مظهرهما تجمعهما صداقة حميمة وأنهما لم يتقابلا منذ فترة طويلة.

- أنا سعيدة بوجودك.

- شكراً لك سمو الأميرة.

- هل هذه ابنتك؟

- نعم، هي توحيدة ابنتي، سلمى يا توحيدة على سمو الأميرة.

مالت توحيدة بجذعها قليلاً إلى الأمام وثنت ركبتها تحية إلى الأميرة قبل أن تسلم عليها، فابتسمت الأميرة في حبور، ولامست وجنتيها وهي تقول: ما شاء الله، أسأل الله أن يبارك لك فيها، ابنتك جميلة، في صوغها دسامة وفي سجيته رزانة.

استغربت المشهد كثيراً، فابتسم عبد الله أبو مسعود أفندي حين رأى أمارات الدهشة بادية على محياي فتدخل موضحاً: هذه هي عائشة عصمت تيمور، لعلك سمعت بها، المصرية الوحيدة التي نبغت في الشعر والأدب، أبوها هو المرحوم إسماعيل باشا تيمور رئيس قلم التحريرات الفرنجية السابق لإسماعيل باشا، وأمها ماهيتاب هانم الشركسية، وشقيقها العلامة أحمد باشا تيمور، درست في قصر أبيها في درب سعادة العلم والأدب فنظمت الشعر بلغات ثلاث، الفارسية والعربية والتركية، زوجها هو

المرحوم محمد بك توفيق بن محمود بك الاسلامبولي، وهذه التي إلى جوارها توحيدة ابنتها.

- يبدو أنهما صديقتان مقربتان.

- صحيح، عائشة منذ وفاة زوجها لزمت البيت ولم تخرج منه لتنضم إلى الصالونات الأدبية إلا الساعة.

جلست عائشة وأجلست ابنتها توحيدة إلى جوارها بعد أن خلعت اليشمك فبدت بفساتها وشعرها المذهب أنها تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية حقاً، قالت الأميرة: هل صحيح يا عائشة أنك تتلقين الآن دروساً في النحو والعروض؟

- نعم يا مولاي.

قال الشيخ عبد الهادي: وهل يدرس لك غريب يا عائشة ونحن موجودون؟

- لك العمر والفضل كله يا شيخ عبد الهادي، لا أود أن أثقل عليكم فأنا أعلم مشاغلكم جميعاً، أنا أتلقى دروسي على يد فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلابية.

قالت الأميرة فاطمة بحماسة: عظيم يا عائشة، عوداً أحمد.

قال محمد بك عثمان جلال: "نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال" قصة أدبية جميلة كتبها عائشة بنظام المقامات، وهو نظام تراثي رائع، أنا فقط أتمنى لو استطعنا أن نقدم الرواية الغربية للناس فيحبوها.

- لا تيأس يا بك، فكل جديد وغريب صعب في البداية.

قالت الأميرة لعائشة: أود أن أسمع قصائدك من جديد، أنا أقرأ الآن ديوانك الفارسي "شكوفة" وهناك بعض ما لا أفهمه ووددت أن أستفهم منك بخصوصه.

- كلي رهن إشارتك يا سمو الأميرة.

منحتها الأميرة ابتسامة امتنان وهي تتمم: ليس الآن، فليكن ذلك بعد العشاء، هلموا بنا يا سادة.

كان العشاء فاخراً زاخراً بما لذ وطاب، وبعد فترة راحة قصيرة دارت أقداح القهوة والشاي والحلوى الغربية واستؤنفت النقاشات ونظم الأشعار والحديث عن آخر أخبار الساحة الأدبية حتى حان موعد الانصراف.

كان يوماً مميزاً ومثيراً لي، شكرت عليه صاحبي كثيراً، أراد عبد الله أفندي أن يوصلني بعربته فرفضت في أدب وأخبرته أنني أفضل السير حتى البيت، صعدت إلى غرفتي وصرت أتأمل ما تم في هذه الليلة، كنت أقول أتمنى لو تركت اخل وتفرغت للأدب ودراسته وكتابته فأصير مثل أولئك العظماء، ثم تذكرت الفتاة الفاتنة توحيدة وكم بدت جميلة وناجحة غير مهتزة أمام كل ذلك الحضور، تثابت وأغلقت عيني وعلى شفتي ابتسامة يوم ممتع وحافل.

سعيد

أول اختبارات الجنديّة الحقّة، هكذا أعلمونا في المدرسة حين اختاروا بعضنا وكنت منهم للذهاب في حملة عسكريّة إلى جزيرة كريت للقضاء على تمرد الثوار هناك بطلب شخصي من السلطان العثماني إلى خديوي مصر، ودعت عبد العال زميل الدراسة وثالثنا أنا وأحمد.

- أشوفك بخير يا زول.

- أشوف وشك بخير يا سعيد.

- متعرفش هيوزعوك على فين؟

- لسه مجاش الخبر بس أكيد في السودان.

- يا بختك يا سيدي رايح تشتغل جنب أهلك، ناس تركب البحر وتسافر وناس تمسك البندقية بالنهار وتقعد على الطبلية في دوارها آخر الليل.

احتضنته على أمل بلقاء قريب، وذهبت إلى المنزل أحمل الخبر إلى زينب التي بكت بحرقة فلم أكن أود أن أتركها في حملها وهي بدورها لم تكن تود أن تضع مولودها الأول دون أن أكون إلى جوارها، كنت أهدئها وأطيب خاطرها بأني لن أمكث هناك كثيراً في الأغلب وأنها لازالت في الشهور الأولى من الحمل وربما أحضر في اللحظة المناسبة.

جهزت لي زينب حاجاتي وفي المساء زارنا أحمد وحسن لتوديعي فطلبت منهما أن يرسلأ لأبي وأمي ويخبراهما بسفري لأني لن أتمكن من زيارتهما قبل السفر فوعدا بأن يفعلا.

في الصباح ذهبت إلى وحدتي ومنها تم الترحيل إلى الإسكندرية حيث تحركنا في عشر سفن حربية عقد لواؤها للأميرال قاسم باشا، حيث حملنا معنا القوة المصرية المربطة في "مناستر" في الهرسك، واتجهنا معاً في عدد يزيد عن الخمسة آلاف مقاتل إلى جزيرة كريت، وكريت جزيرة مستطيلة ذات طبيعة خلابة يبلغ أقصى عرض لها خمسين كيلومتر، نزلنا في واحد من الخليجان الشمالية للجزيرة التي تصلح لأن تكون موانئ طبيعية حيث أعجبنا بمشهد الجبال المطلة على الساحل الأزرق، شاهدنا حين رسونا بعض صيادي السمك والإسفنج الذين لم يعيرونا اهتماماً، أقمنا قاعدتنا قرب الميناء، وفي الصباح تحركنا إلى الجنوب الغربي للجزيرة وكنا كلما توغلنا في الطريق ارتفعت بنا الأرض إلى جبال "ايدهي أوروس" في الوسط، وجبال "أستروسيا" في الجنوب، كان الجو لطيفاً على أن الرطوبة تكون عالية نسبياً في النهار، شاهدنا أنهاراً قصيرة ليست بامتداد النيل واتساعه، سرية الجريان تعكس زرقة السماء وترى من خلالها الأرض الصخرية التي تنحرفها بعكس النيل ذي التربة الطينية العكرة، انحدرنا في طريقنا فشاهدنا الفلاحين يزرعون قمحاً وذرة، وشاهدنا أشجار الزيتون والليمون وكرمات العنب، لابد أن الصيادين والفلاحين قد طاروا بأخبار نزولنا الجزيرة إلى الثوار الذين يعيدون ترتيب قواهم الآن لا شك.

كانت الوديان تعكس قعقة العجلات، وعربات المدافع، ووقع حوافر الخيل، فكان كل شيء هادئاً في الجزيرة على عكس المتوقع حتى سرت إشاعة تقول إن الثوار فروا إلى "غابة ميسارا" على الساحل الجنوبي حين

علموا بوصولنا، لم تكن تلك المرة الأولى التي يتزل فيها الجيش المصري إلى كريت، فقد سبق وأن نجح الأسطول المصري في القضاء على تمرد جزيرتي كريت وقبرص بين عامي 1821 و 1823 من قبل، وبينما نحن كذلك أوقع بنا الثوار في منطقة تسمى أبو قرون وجرح اللواء إسماعيل صادق باشا جرحاً بالغاً، فاشتبكنا معهم وحين انتصف النهار كانوا قد أدخلوا مواقعهم وفروا ليحاربونا من يومها بنظام حرب العصابات، ونعجز نحن أن نحاربهم حرباً نظامية، نقل اللواء إسماعيل جريحاً إلى مصر وتبدلت القيادة العامة للجيش وبينما نحن كذلك نجحت فرق الاستطلاع في رصد تحركات الثوار الذين نجحنا في التضيق عليهم ومنع هربهم في واقعة "أرقاذي" التي هزمناهم فيها هزيمة كبيرة.

كنت في آلاي راشد بك حسني، أكثر الآلاي إقداماً وغميراً، وكان الرجل طيباً لطيف المعشر لأجل ذلك أحبه جنوده وخدموه بإخلاص، كان يشركني وباقي ضباطه في تنظيم الصفوف وكان إذا جن الليل هبط إلى الجند يتفقدهم ويسامرهم في مجالسهم حتى يألفوه، لكنه لم يكن مستريحاً لآلاي محمود سامي بك البارودي، إذ كان يراه شاباً شركسياً مغتراً منعماً وذات يوم وبينما الجند عائدون محملون بأكداس الدريس (التبن) والمؤن نشبت مشاجرة بين حوذي من آلاي راشد بك وحوذي سليط اللسان من آلاي محمود سامي بك على النسبة المخصصة للفريقين فطار راشد بك إلى المكان على فرسه غاضباً وأراد أن يضرب الحوذي الذي هلع لمقدمه بالكرباج، لولا تدخل البارودي الذي أجبر جنديه على الاعتذار إلى زميله وإلى راشد بك وأعلن أنه يرتضي قسمة راشد بك، فأكبرناه لرجاحة عقله وطيب خلقه، ليصيرا منذ تلك الواقعة صديقان لا يفترقان.

صحيح أن محمود سامي بك شركسياً ولد في باب الخلق لأسرة تنتمي إلى الممالك، حكام مصر القدامى إلا أنه محب لبلده وأهلها وكان يعلق على ذلك بقوله: لم أعلم لي وطناً سوى هذا الوطن، فكيف لا أحبه؟

وعن لقب البارودي قال إن أحد أجداده كان ملتزماً من قبل الدولة العثمانية لبلدة إيتاي البارود، توفى والده وهو في السابعة من عمره وكان من أمراء المدفعية في الجيش وكان والياً على مديرية "دنقلة" في السودان، فالتحق بالمدرسة الحربية مثل والده ثم سافر إلى الآستانة للعمل بنظارة الخارجية حيث تعلم اللغتين التركية والفارسية فصار ينظم الشعر الذي أحبه بهما وبالعربية، حتى سمع به الخديوي وجعله في معيته وجعله بكباشي ثم قائداً لفرقتين من الفرسان ثم أرسله في بعثة عسكرية إلى فرنسا.

- وماذا حدث ليغضب عليك الباشا ويخرجك من معيته إلى أرض المعارك والحروب؟

هز كتفيه وقال ببساطة: خانتني زوجتي مع أحد الموسيقين فقتلتها وكانت إحدى الجواري زوجني بها الباشا فغضب مني وأراد أن يرسلني إلى السودان، القطر الذي لا يعود منه أحد لولا توسط بعض الأصدقاء فأرسلني في النهاية إلى كريت.

كان البارودي يجيد إخفاء أوجاعه، وآلامه، والصدفة وحدها هي التي قادتنا لاكتشاف جراح نفسه هذه، كنا نطيب خاطره ونمازحه، وكان هو كثيراً ما يتلو علينا أشعاره.

حسن

رحل سعيد إلى كريت، وسافر عبد العال إلى السودان، وانشغل أحمد بعمله في القصور الخديوية والأميرية، فلم أجد مسرة أجهل من الباب الجديد الذي فتحه لي عبد الله أبو مسعود أفندي، كان يأتي بي بعض الكتب لأقرأها ثم نناقشها معاً على أحد المقاهي، أو نذهب معاً إلى الصالونات الأدبية المختلفة، وبينما نحن جلوس في واحدة من مقاهي السيدة زينب فاتحن في رغبته في إنشاء جريدة سياسية جديدة تصدر مرتين في الأسبوع.

- وهل هذا ممكن؟

- وما المانع؟

- تقصد صحيفة مثل الوقائع المصرية؟

- نعم

- هل يمكن للأشخاص أن يؤسسوا جرائد فضلاً عن كونها سياسية؟

حتى الآن لم يحدث أن أسس شخص في مصر جريدة، في عهد محمد علي باشا وبعد إنشاء مطبعة بولاق صدرت "الوقائع المصرية" و"الجريدة العسكرية"، و"الوقائع الكريتية" حين كانت جزيرة كريت محافظة تابعة لنا، وفي عهد إبراهيم باشا ظهرت صحيفة "التجارة" و"الزراعة"، ثم جاء عهد عباس باشا فأغلقت الجرائد ولم تصدر للوقائع المصرية إلا أعداد قليلة، وفي

عهد سعيد باشا وبعد أن تعطلت الوقائع المصرية عاماً كاملاً أهدى مطبعة بولاق لعبد الرحمن رشدي وهو ما فتح الباب لأول صحيفة أهلية لا تخرج بلسان حاكم مصر فكانت صحيفة "السلطنة" لإسكندر شلهوب بإيعاز من السلطان العثماني عام 1857.

- ثم وصل إسماعيل باشا إلى الحكم فأعاد شراء مطبعة بولاق من عبد الرحمن رشدي ليصدر الوقائع المصرية من جديد، وأنت الآن تريد إعادة تجربة إسكندر شلهوب لإصدار صحيفة أهلية جديدة على ألا تكون ناطقة بلسان الوالي أو السلطان.

- صحيح.

- وكيف ستفعل ذلك؟

- أفكر في هذه الجريدة منذ فترة وسأعتمد إلى مفاتحة إسماعيل باشا في الأمر في أقرب فرصة.

- هل تظنه سيقبل؟

- ومن كان يتخيل أن يصير إلينا قبل عام مجلس شورى نواب برئاسة إسماعيل راغب باشا قبل الدولة العثمانية نفسها لولا قناعة الباشا بضرورته.

- لكنه ليس سوى هيئة استشارية تزيد من رونق الحكم وبهائه ولا تنازع الحكومة أو الحاكم على الحكم، ونفوذه يكاد يكون شكلياً، ثم إن نظام الانتخاب حصر حق الانتخاب في العمد والمشايخ فصار جديراً بأن يسمى مجلس الأعيان، في حين غاب عنه المتعلمون والمثقفون والعائدون من بعثات الخارج، ناهيك أنه لم تسبقه حركة مطالبة مما جعله يأخذ شأن المنحة.

- قد يكون ما تقوله صحيحاً، لكنه على أية حال أفضل من لا شيء،

بكل تأكيد إسماعيل باشا أفضل من عباس باشا وسعيد باشا.

- وما الذي ستقدمه في الجريدة الجديدة؟
- الحق أقول لك، أنا غير راضٍ عن أداء الوقائع المصرية، فهي تابعة للبasha الوالي، نحن بحاجة لصحيفة أهلية ثورية تهتم بحال المواطن وتلقي الضوء على معاناته وتناقش ما يناقشه النواب في اجتماعاتهم أو تحثهم على مناقشة بعض الأمور.
- بالتوفيق يا صديقي.
- انفعَل عبد الله أفندي قائلاً: وهل أشركك في أمري لتقول لي بالتوفيق؟
- وضع القهوجي الشاي وصرت أنظر إلى الدخان المتصاعد من كوب الشاي قبل أن أقول: وماذا تريدني أن أفعل إذن؟
- أريدك إلى جوارِي، أن تكتب معي في الجريدة الجديدة؟
- هل أنت جاد؟ لكني لا أصلح لهذه المهمة.
- من قال ذلك؟ أنت ستكون من أفضل كتابها فحدسي لا يكذب.
- لكني لم أخرج من مدرسة الألسن أو دار العلوم أو الحقوق أو أيًا من المدارس العالية.
- لا يهم كل ذلك، أنت ثقفت نفسك بنفسك، وتملك حصيلة لغوية وذائقة أدبية جيدة.
- تلك شهادة أعتز بها.
- لا يهم.
- ثم ابتسم قائلاً: ما قولك؟

رشفتم شيئاً من كوب الشاي وفكرت برهة ثم قلت: توكلنا على الله،
هل ستفتح البابا في الأمر غداً؟
- نعم، وحسبي أنه سيقبل.

مايو 1867

قصر طولمه باغتشه - اسطنبول

&&&

ركب الباشا القطار في اتجاه الإسكندرية ومنها إلى قصر رأس التين، حيث صعد يخطى الخروسة، المستلم حديثاً من لندن.

كانت الأوامر لدى البحارة أن تكون وجهتهم الآستانة، حيث سيقضي الباشا ليلته الأولى في قصر ميركون الذي اشتراه على ضفاف البوسفور، رغم عدم حاجته لشراء القصر، فالسلطان يستقبل ضيوفه في مجموعة من القصور السلطانية الضخمة على ضفاف البوسفور، على أن الباشا كانت له وجهة نظر مختلفة في مثل هذا الترف، كان يهمله أن يظهر بمظهر الملك أو السلطان ليتسنى له أن يحصل على استقلاله فيصير ملكاً أو سلطاناً، ورحلته إلى الآستانة هذه المرة متعلقة بالأمر ذاته، فقد ألمه كثيراً أن يتم استقباله في الممالك الأوروبية كوالٍ أو صاحب إيالة من قبل السلطنة العثمانية أو كوزير في أفضل الحالات للسلطان العثماني، وهو يسعى الآن لأن ينال لقباً أهم.

قضى الباشا ليلته في قصره الجميل، وفي الصباح ذهب إلى "قصر طولمه باغتشه" الذي بناه السلطان عبد المجيد ليكون المركز الإداري الرئيسي

ومقر الحكم في الدولة العثمانية منذ عام 1856، بعد أن كان الباب العالي من قبل ولمدة 380 سنة يحكم من "قصر طوب جاي" الذي بناه السلطان محمد الفاتح.

تمتد واجهة القصر على مدى ستمائة متر كميناء رخامي ضخمة على الساحل الأوربي لمضيق اسطنبول، شيد القصر في 12 عاما على يد غرايت عمرا باليان وابنه نيجوغوس باليان في مزيج غريب، فقد تم تطبيق الطراز المعماري الباروكي الفرنسي، والروكوكو الألماني، والنيو كلازم الإنجليزي، والروناسانس الإيطالي على شاكلة معقدة فخرج تحفة معمارية يصعب تكرارها، على البوسفور يطل القصر الصيني (السلاملك) حيث غطت الجدران بأجل القطع الخزفية، وإلى جواره القصر الكبير، ثم يتلوه قصر العمدان الرخامية، وقصر المابين، وقاعة الديوان، وهناك الحرملك، والقصر الزجاجي الذي يتكون من هوين يربطهما ممر زجاجي، وتتوسطه فسقية من الكريستال.

توقفت عربة الباشا بعد أن طافت في حدائق القصر أمام القصر الكبير، حيث ترجل وحياه جنديان من الحرس السلطاني يرتديان سترة البلاط المطرزة بالقصب، خرج الصدر الأعظم فؤاد باشا بنفسه لاستقباله فحياه بود، وأعلمه أن السلطان سيقابله في القاعة الحمراء.

يتكون القصر من طوابق ثلاثة بأبعاد كبيرة جداً، بنيت الجدران الخارجية للقصر من الحجر، والجدران الداخلية من الطابوق، أما النوافذ والأبواب فمن الخشب، تقدم الباشا إلى صالة مابين (المخصصة للرجال) حيث كان يسير منها السلطان أعمال الدولة فراخته الأعمدة الرخامية الستة وخمسون السامقة المزينة بأطنان من تراب الذهب، والثريا الكريستالية الضخمة المضادة بسبعمائة وخمسين شمعة وتزن سبعمائة وخمسين طناً والتي

صنعت في بريطانيا خصيصاً، والدرج الكريستالي الذي يربط المدخل بالطابق العلوي، أما الأرضية فكانت مغطاة بخشب الباركيه شديد الزخرفة، وأما الفرش فكانت من السجاد الحريري والصوفي الثمين، كان في البهو صالون السفراء المستخدم لاستضافة السفراء، والقاعة الحمراء التي كان يستخدمها السلطان لاستقبال زواره، بشكل يبرز الفخامة التاريخية للسلطنة العثمانية.

كان الباشا قد أصبح أثراً لعظمة السلطنة والسلطان العثماني بالفعل، وعليه الآن أن يراعي اختيار عباراته، قال فؤاد باشا بعد أن أجلسه: كيف حالك يا باشا، وكيف أحوال رعايا السلطان في مصر؟

- بخير حال يا باشا.

- وما أخبار الأميرين مصطفى فاضل وعبد الحليم؟

- تقبلا الأمر يا باشا، فماذا عساهما أن يفعلا؟

قال فؤاد باشا بنبرة هادئة أراد أن يبرز فيها حرصه ورزاقته: لا بد أن تأخذ حذرک، علمت أنك تشتري الكثير من ممتلكاتهما.

فوجئ إسماعيل باشا من متابعة الصدر الأعظم للموقف وملاحظته للمستجد من أحداث فلم يملك إلا أن يؤكد للباشا صحة المعلومات، فلم يكن يعلم أنها صحيحة لما قالها.

- أنت تريد أن تنال فرصة حكم البلاد دون منغصات أو منافسين، وذلك أمر مشروع وذكاء منك، فقط خذ حذرک فما تفعله يكسبهما المزيد من الغضب والحق ضدک.

أوماً إسماعيل باشا برأسه فسأله فؤاد باشا: هل تعلم أن الأمير مصطفى فاضل أرسل رسالة إلى السلطان يعدد له فيها مساوئ إدارتك للحكم؟

- كيف يجرؤ؟! لا لم أعلم يا باشا.

- لا تقلق فقد قللت من أهميتها عند السلطان، كان خطابه حول المحاكم القنصلية وانهيار أسعار الأراضي الزراعية ، فقط خذ حذرك.

دخل السلطان عبد العزيز محاطاً بالأهمة والعظمة والخيلاء مرتدياً بدلة أوربية سلطانية كالتي يرتديها ملوك وقيصرة أوروبا، فقد تخلّى سلطنة آل عثمان عن العباءة التي ارتداها أجدادهم، وأقروا اللباس الأوربي رسمياً، وخلعوا العمامة ليرتدوا الطربوش، كما تخلّوا عن الكثير من ثقافتهم وبدأوا رحلة التغريب والأخذ عن أوروبا منذ عهد السلطان محمود الثاني الإنقلابي، نهض إسماعيل باشا وفؤاد باشا حين دخل عليهما السلطان وانحنيا احتراماً له، فجلس وأجلسهما.

- كيف حالك إسماعيل باشا؟

- بخير حال يا مولاي.

- علمت أنك نزلت ليلتك الأولى في قصر اشترите على البوسفور.

- هو كوخ مقارنة بعظمة وأهبة قصرك المنيف يا مولاي.

ضحك السلطان ملء شذقيه بجاملة الباشا الذي استرسل قائلاً: جئت محملاً بهدايا قيمة وتحف وجوارٍ تليق بالتجديدات الكبيرة في قصور مولاي.

- نقبل هداياك بشكر يا باشا.

قال إسماعيل باشا بنبرة لم تخل من التزلف: فقط كنت أرجو من السلطان أن يشملني بعطفه ويخلع عليّ لقباً يميزني عن غيري من الولاة، ويناسب مكانتي ومكانة ولاية مصر والسودان وسواكن ومصوع لديه.

ابتسم السلطان لقول إسماعيل باشا وسأله: وما اللقب الذي تريده؟

- ما رأي جلالتك في "عزيز مصر"؟

هنر السلطان رأسه علامة إعجاب باللقب فخشى فؤاد باشا أن يوافق سلطانه على ما أرادته إسماعيل فتدخل قائلاً: أخشى أنه لا يصح مثل ذلك اللقب يا مولاي.

توجهها الباشا والسلطان بعيونهما إلى فؤاد باشا الذي استطرد: عزيز مصر لقب خلع على سيدنا يوسف وحده، ولا يصح إطلاق محمد علي مثل هذا اللقب على نفسه من قبل، ثم إن مولاي اسمه عبد العزيز.

تمتم إسماعيل باشا معترفاً وأنه لم يقصد، ثم قال: ما رأي جلالتك بخديوي إذن؟

- لقب فارسي جميل، حسناً يا باشا، ستكون من الآن وكل من ينال الولاية من بعدك خديوي مصر والسودان.

ثم نظر إلى صدره الأعظم فؤاد باشا وأكمل: وسيخاطب صاحب هذا اللقب بلقب الصدارة العظمى "فخامتلو"، هل يرضيك ذلك يا باشا؟

- بالطبع يا مولاي، لكنني آمل أن تقبنا بعض الاستقلالية في عقد المعاهدات وإدارة شئون البلاد.

- كما نقر لك حق الحكومة المصرية واستقلالها في إدارة شئونها الداخلية والمالية وحقها في عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب في داخلية البلاد وشئون الضبط للجناليات الأجنبية.

سر الباشا بالفرمان السلطاني كثيراً، رغم ما كلفه من هدايا قدرت بالملايين من الجنيهات فقد حقق مآربه في الاستقلال الذي أرادته، على أنه اكتسب حسد وعداوة فؤاد باشا الذي اعتبره خطراً يهدده ويهدد نفوذه

لدى السلطان، فهل يحظى إسماعيل باشا باللقب الجديد مكانة أكبر عند السلطان؟ وهل مخاطبته بلقب الصدارة العظمى مقدمة لاستغناء السلطان عن وزيره ورجله؟ منذ أكثر من أربعمئة سنة والصدر الأعظم هو ثاني أقوى وأهم رجل في السلطنة العثمانية من بعد السلطان العثماني، فهل يسعى إسماعيل لأن يكون الرجل الثاني ونائب السلطان هو واليه على مصر والسودان؟ لماذا يشاطر السلطان أحد الولاة مهما كان تميزه نفوذ صدره الأعظم؟ وهل ينبغي إسماعيل باشا مشاطرته نفوذه أم أنه يسعى إلى الانفصال؟ ظلت الأفكار تنهش عقل فؤاد باشا فهشاً حتى أضناه التفكير وعزم أمره على التخلص من إسماعيل باشا قبل أن يستفحل أمره أكثر مما كان.

- 8 -

قصر تويلري - باريس

15 يونيو 1867

&&&

مكث الباشا في الآستانة 21 يوماً كان ضيفاً فيها على السلطان العثماني، توجه بعدها في 15 يونيو إلى فرنسا لحضور معرض باريس إثر دعوة من الإمبراطور نابليون الثالث الذي أراد تهنئته باللقب الجديد، ففرح الباشا بالدعوة ووجد في المعرض فرصة لأن يظهر بمظهر الملك المستقل، وأن يقيم لمصر في المعرض قسماً مستقلاً يحيطه بصنوف البهجة والعظمة، خاصة أن المعرض ستدعى له 32 دولة، حيث سيحضر فيه كبار الملوك والأباطرة والسلاطين، فالإمبراطور نابليون يريد أن ينشئ معرضاً أعظم من الذي أنشأه الإنجليز في لندن سنة 1851 يتحاكى عنه ضيوفه لفترة طويلة.

وصل الباشا بيخته إلى "مارسليا" ومن هناك ركب إلى باريس وتم استقباله فيها استقبالا حافلا حيث نزل في القصر الإمبراطوري تويلري Tuileries Palace وهو القصر ذاته الذي يسكن به الإمبراطور نابليون الثالث وزوجته، يقع القصر الفخم بقبته المربعة الضخمة المميزة على ضفاف نهر السين بالقرب من متحف اللوفر، والقصر على مساحة

شاسعة، تم بدء العمل فيه أول مرة سنة 1564 في أعقاب موت الملك الفرنسي هنري الثاني، واستمرت الإضافات فيه في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر فأعطته زخماً ورونقاً، رحل لويس السادس عشر وأسرته إليه واستقروا فيه هرباً من قصر فرساي بعد أن ثار الجياع عليهم واقتحموا قصرهم، كما سكنه نابليون بونابرت قنصلاً وإمبراطوراً قاطعاً الطريق على آل بوريون في العودة إلى الحكم، ولما انتخب نابليون رئيساً ثم أقام الإمبراطورية الثانية في فرنسا وتسمى بنابليون الثالث انتقل من مكتبته الرئاسي في الإليزيه وسكن القصر، كما حلت به الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت ضيفان في زيارتهما التاريخية لفرنسا سنة 1855.

كان الباشا يعرف تاريخ القصر جيداً فهو معجب بفرنسا وآدابها وثقافتها وشعبها، وكان إعجابه مصدره الفترة التي قضاها في فرنسا في شبابه حين انتظم في سلك البعثة الدبلوماسية، فكان وجوده في فرنسا يذكره بأيام صباه وشبابه، على أنه هذه المرة قبول في فرنسا بترحاب خاص بوصفه صاحب مصر، دخل الباشا القصر العظيم فنادى الحارس معرقاً: الخديوي إسماعيل ملك مصر والسودان.

سر الباشا للتعريف الأخير كثيراً فهذا ما يستحقه، لو سمع السلطان العثماني بما سمعه الآن لربما توقف قلبه من الغضب، أضحكته تلك الفكرة.

سار الباشا في البهو حتى وجد صديقه الإمبراطور الفرنسي على عرشه، وإلى جواره زوجته، لكم تمنى أن يؤسس لنفسه عرشاً عظيماً مثل هذا العرش على أراضي شاسعة في مصر والسودان وإفريقيا، بدلاً من العراق على ولاية الشام وحدها والتخلص إلى الأبد من الولاية للسلطنة العثمانية الضعيفة، لكن للأسف الأمور ليست بهذه السهولة، ولا يكفي امتلاك قوة

جيش يصد هجمات العثمانيين ويكسرها فقط، فقد حاول أبوه وجده وفشلا، حين وقفت أوروبا وروسيا في وجههما.

لا بد من علاقات متوازنة وقوية مع أوروبا تضمن لها مصالح مع مصر فتقف بجانبها في أي نزاع مع العثمانيين، وها هو الآن يمتن علاقاته بزيارته تلك ويقوي نفوذه بالحصول على المزيد من الاستقلال عبر فرمانات من السلطان العثماني، وفي الوقت ذاته يضمن تحديث جيشه وتقويته ليكون على أهبة الاستعداد دوماً.

كان الإمبراطور على عرشه ذا شارب طويل مهذب ولحية قصيرة، مرتدياً سترة حريرية داكنة مزركشة بالقصب، وبنطالا أبيض شديد الالتصاق بفخذه، وحذاء أسود طويل، فبدأ شبيهاً بعمه يونابرت دون القبعة البونابرتية الشهيرة، وقد تدلى على كفيه أربعة أمتار من فراء الفاقم عليه نقاط من جلد الفقمة، ومزين بالساتان الحريري، جالس وإلى جواره صولجانه الذهبي، وزوجته الإمبراطورة الصهباء أوجيني بالغة الجمال، وقد ارتدت تاجها في ثوب أبيض أنيق وواسع من الحرير والبروكار المطرز برسوم الزهور ومذيل بساتان أخضر حريري، الجميلة الأسبانية التي ولدت بغرناطة ماريا اوجينيا ابنة الكونت تيبا والكونتيس دي مونتيجو التي أصر الإمبراطور على الزواج بها رغم رفض العائلة المالكة وأعضاء الحكومة.

سلم الباشا على الإمبراطور ولثم يد الإمبراطورة الفتاة في إعجاب قائلاً: سيدتي، أخشى أن القمر سيغار من سطوع نجمك الليلة.

ضحكت الإمبراطورة بعدوية دون غنج قائلة: أنت مجامل رقيق يا باشا.

ربت الإمبراطور على ذراع الباشا قائلاً: هل اختلفت فرنسا كثيراً عما

تركها عليه؟

هز الباشا كتفيه وأسبل جفنيه وهو يقول: أنا دوماً مسحور بجمال وثقافة المجتمع الفرنسي ولا سيما السيدات اللواتي تفضلن باستقبالي.

ثم انحنى إلى الإمبراطورة في احترام وعلى وجهه ابتسامة.

ضحك الإمبراطور قائلاً: الآن أفهم لماذا ملوك الشرق مزواجين.

فضحك الباشا وضحكت الإمبراطورة.

- هل نزل السلطان العثماني هنا؟

- لا، فقد نزل في قصر الأليزيه هو وقيصر روسيا ألكسندر الثاني وإمبراطور النمسا فرانسوا جوزيف الأول.

- تعال لنأكل شيئاً فأنا جائع.

اصطحب الزوجان الباشا إلى قاعة الطعام وكانت المائدة فخمة من طراز لويسي قد رصت بأطباق حساء اللحم مع الشبنندرة، وجبن الروكفور من لبن "أفيرون" غير المبستر، وسلطة التين بالجبن وأوراق النعناع، وسلطة الهندباء مع القشدة، وكعك التفاح بشراب كالفادوس الذي تشتهر به مقاطعة "نورماندي".

سألت الإمبراطورة قائلة: هل يختلف الطقس في مصر كثيراً؟

- الطقس مشابه لطقس إيطاليا سيدي.

قال الإمبراطور وهو يغرس شوكة في إحدى قطع اللحم ويقطعها بسكينه: بمناسبة الحديث عن إيطاليا، هل يقلق العثمانيون من نتائج حرب النمسا ضد بروسيا وإيطاليا الأخيرة؟

- لا أظن، فالباب العالي منشغل بثورات البلقان وكريت المتتالية.

- أظن أن الحرب الأخيرة أضعفت النمسا، وقوت مركز بروسيا وسمارك كثيراً ومشروعه في توحيد الألمان تحت قيادة ملك بروسيا فيلهلم الأول، وهو منتشٍ كثيراً الآن بنتائج حروبه مع الدنماركيين، ثم مع النمساويين في حرب الأسابيع السبعة.

- إيطاليا أيضاً ضمت "فينيسيا" إلى أراضيها على حساب النمسا.

- إيطاليا غير مهمة، "فينيسيا" كانت معنا ثم أصبحت مع النمساويين والآن هي للإيطاليين، الحرب أدت إلى توسيع الفيدرالية الألمانية في عيون الألمان وزيادة التعويل على بروسيا في تحقيق ذلك المشروع، وخاصة بين اللوثريين في الشمال و"بريمن" و"هامبورغ" و"جadanسك".

- هل صحيح أن القيصر الروسي ألكسندر الثاني باع جزءاً من أراضيه إلى الأمريكان مقابل سبعة ملايين دولار؟

- نعم، لقد باع "الاسكا"، أرض نائية جليدية في شمال القارة الأمريكية، أظنهم اشتروها ليكونوا القوة الوحيدة في القارة لا أكثر ولا أقل.

- ذلك يذكرني ببيع الإمبراطور بونابرت مستعمرة "لويزيانا" لهم بأقل من ثلاث سنتات للفدان الواحد من قبل!

- بكل أسف كان مضطراً لذلك يا باشا، فقد كانت طبول الحرب بينه وبين بريطانيا تدق وكانت الخزانة خاوية، وكان سيخسر أراضيه في كل الأحوال لو أن البريطانيين زحفوا عليها من مستعمراتهم الكندية في الشمال.

- الولايات المتحدة قوة وحيدة في قارة شاسعة لا يقاسمها فيها أحد، بعكس أوروبا، فالمساحات تضيق بالدول القوية التي فيها والتنافس فيما بينها شديد.

ظلت أوجيني أثناء حديث السياسة رقيقة لبقة تتخذ سيماها تعبيراً عميقاً يدل على الاحترام والاهتمام دون أن تشارك في الحديث الذكوري بين زوجها وضيفه.

كان الباشا قد انتهى من طعامه حين استأذن في الذهاب فقال الإمبراطور: سترك ترتاح الآن يا صديقي، وغداً سيكون حفل على شرف الحضور.

تبادل الباشا مع الزوجين عبارات الشكر والأمنيات بأحلام سعيدة، وصعد إلى غرفته مع مسؤول الجناح الإمبراطوري.

وفي الغد كانت الأوركسترا الإمبراطورية تعزف الكونشرتو الخامس الإمبراطوري لبيتهوفن والإمبراطور منشغل في حديث ما مع أحد مدعويه، بينما الباشا يراقب حركة الإمبراطورة التي أسرته بجملاتها وطيب مضيفها وعذوبة حديثها وحضورها الطاعني في الحفل، كان كثيراً ما يعجب بفكرة الدور السياسي والاجتماعي الذي تلعبه زوجات الحكام النبيلات والمتعلمات في أوروبا.

الملكة أو الإمبراطورة أو الأميرة الجميلة قرينة الحاكم يوسعها أن تصفي نحة إنسانية وعاطفية محبة على صورة الحاكم أمام شعبه، فتقترن مشاعر الرهبة والإجلال لديهم التي اعتادوا اختزانها لحكامهم، بمشاعر الحب حين يرونه محباً لشريكه، أو الأبوة حين يرونه في مشاهد عائلية مع أبنائه في حديقة من الحدائق بعيداً عن مجالس الحرب والسياسة.

ولقد قدمت الإمبراطورة أوجيني التي تجيد الفرنسية والإنجليزية والإسبانية الكثير من الدعم لزوجها وفرنسا بالفعل، رغم أنهم عارضوا زواجها من الإمبراطور في البداية ، فقد خففت من حدة التوترات بين فرنسا وانجلترا حين سافرت مع زوجها إلى هناك فأحبها الجمهور الإنجليزي واستقبلهما استقبالا حافلا، كما أنها ساعدته على خلق صورة مثالية للعائلة المالكة ليقبل الفرنسيون الإمبراطورية الفرنسية الثانية ويرتضوها بديلاً عن النظام الجمهوري فحظيت بشعبية كبيرة لدرجة دعت الفرنسيين أن يسموا ابنها الذي وضعته ابن فرنسا.

أخذ الباشا يفكر ويقارن بين أميرات أوروبا وأميرات الشرق، فالجهد منتشر بشكل واسع في قصور الحرملك، فنساؤه لسن أنداداً لسيدات المجتمع الأوربي، ثم أنه ولسوء حظه لم يتزوج أميرات مثلما يفعل حكام أوروبا فيصعدوا بهم ملكات وإمبراطورات إلى سدة الحكم، فيكونوا مثل كاثارين سليلة آل رومانوف إمبراطورة روسيا، أو أوجيني إمبراطورة فرنسا، أو فيكتوريا ملكة بريطانيا، فهو إن أراد الزواج لا يختار إلا من محظياته، لابد للتعليم أن ينتشر بين الإناث، ولابد للأميرات الصغيرات أن تتم تربيتهم مثل باقي الأمراء على الثقافة الغربية فيتعلمن العلوم والفنون، بل لابد للتعليم أن ينال قسطاً أكبر من الجهد في البر المصري كله بين الذكور والإناث لتتمكن مصر في يوم من الأيام من مجارة أمة عظيمة كالأمة الفرنسية.

تقدم الباشا من الإمبراطورة وسألها: هل تحبين الموسيقى؟

- ومن لا يحبها؟ لكني لا أحب كل ألوانها، أحياناً الموسيقى تبهجني وأحياناً تحمسيني وتثيري، وأحياناً تؤلني وتخزني.

- الموسيقى لغة كأى اللغات، فيها الكثير من المشاعر والأحاسيس المتباينة التي بالإمكان تصديرها إلى المستمع، هذا الكونشرتو مثلاً هل تعلمين لم سمي بالإمبراطوري؟

أشارت برأسها نافية فقال: لأنه يمتاز بالعظمة في الحركتين الأولى والثالثة، اسمعي.

ثم أشار إليها بإصبعه منصتاً: هاهي الحركة الثالثة والأخيرة تبدأ.

ابتسمت أوجيني في جذل حين لاحظت مقصده وقالت: يتهوفن فنان عظيم، وكان من المتحمسين للثورة الفرنسية ولنابليون بونابرت.

- كان من محبيه حين كان قائداً يتحدث عن الأقليات ويحارب ملوك أوروبا ويهاجم المالين والمرايين حتى أنه قام بتأليف مقطوعة موسيقية خصيصاً له، لكنه حزن كثيراً حين نصب بونابرت نفسه إمبراطوراً حتى أنه مزق الإهداء الذي كان كتبه له.

قالت أوجيني: نعم، سمعت بذلك، تلقيت تعليمي في دير القلب المقدس في باريس، حينها كانت الموسيقى التي نستمع إليها موسيقى يوهان سباستيان باخ.

- آه، التوكاتا والفوجا من أشهر أعماله، لكني أفضل الاستماع إلى لودفيج فان بيتهوفن، أو يوهان براهمز، أو بيتر إيلتش تشايكوفسكي عن سماع موسيقى باخ الكلاسيكية.

- أوه، أنا أعشق بحيرة البجع، كم أتمنى أن أسافر إلى سان بطرسبرج وأشاهد تشايكوفسكي يعزفها هناك مرة.

ابتسم الباشا لطريقتها الطفولية، وللحماسة التي أبدتها في جعلتها الأخيرة دون حرج، فابتسمت بدورها وكأنها أملت بما يدور بخلدته قبل أن تقول: لم أكن أعلم أنك تفهم في الموسيقى.

- الموسيقى غذاء الروح.

- هل لديكم في مصر موسيقيون؟

- لدينا موسيقيون، وآلات موسيقية شرقية، وجوار ذوات أصوات ندية، لدينا مغنية اسمها المظ، ولدينا أيضاً مغنٍ صوته عذب اشتهر مؤخراً اسمه عبده الحامولي، اصطحبه معي إلى الآستانة ليستمع إلى الموسيقيين الترك فابتكر ألحاناً جديدة هي مزيج بين الموسيقى العربية والتركية.

- وهل لديكم شعراء وعلماء؟

- لدينا شعراء، شاعري الخصوصي اسمه علي الليثي، وهناك شاعر آخر اسمه محمود سامي البارودي، ولدينا علماء أيضاً، العام الماضي محمود باشا الفلكي نقب في الخفائر واكتشف آثار مدينة الإسكندرية القديمة.

ابتسمت الإمبراطورة ابتسامة عذبة وهي تقول: أتمنى أن أزور مصر يوماً.

فقال الباشا حينها بحماسة: إن جئت لمصر حقاً سأقيم على شرفك أعظم حفل استقبال عرفه العالم.

سعدت الإمبراطورة لكلماته، على أنها اضطربت أيضاً، فقالت: البارحة أمتعنا الأمير مراد ولي عهد السلطنة العثمانية ونجل السلطان العثماني السابق عبد المجيد بعزفه على البيانو، لقد سر الملك فيلهم وزوجي كثيراً بعزفه، لم أكن أعلم أن الشرق فيه مهتمين بالثقافة الغربية سواك يا باشا.

ضحك الباشا وقال: الأمير مراد مدعوم من الممالك الأوربية وحركة الأحرار الإصلاحيين ولا ينازعه على ولاية العهد إلا رغبة السلطان عبد العزيز في تولية ابنه الأمير يوسف عز الدين ويدعمه في ذلك الروس.

كان نابليون الثالث قد انتهى من حديثه الجانبي واستمع إلى جزء من الحديث الدائر بين الإمبراطورة وإسماعيل باشا حين ابتسم قائلاً: وأنت يا باشا، ألم تدعم فكرة تولي الأمير يوسف وحاولت أن تغذيها في نفس السلطان؟

أشار الخديوي بيديه نافياً: أنا؟ لم يحدث أبداً!

- بالنسبة، لقد وصلتنا أخبار جديدة، ستعود الكتيبة السودانية المشاركة في حرب المكسيك إلى فرنسا في إبريل القادم، وهناك أخبار عن قتل الإمبراطور ماكسميليان رمية بالرصاص، أشكر لك مساعدتك يا صديقي وأقدرها كثيراً.
قالها وهو يصفحه.

- شئ مؤسف للغاية، كان نجاح الأرشيدوق ماكسميليان في تأسيس إمبراطورية في المكسيك سيحجم من قوة الولايات المتحدة في القارة البعيدة، على كل كان في الأمر مقامرة على كل حال، لابد أن إمبراطور النمسا فرانسوا جوزيف الأول حزين لوفاة أخيه الأصغر كثيراً.

أوماً الإمبراطور برأسه موافقاً، قبل أن يقول: والآن ما الذي تخطط إليه؟

- أفكر في مشروع حضاري كبير كنت قد بدأت في تنفيذه منذ أعوام وبت الآن أكثر حماسة له حين وجدت باريس وقد باتت أكثر جمالاً وتنظيماً استعداداً للمعرض العالمي، أتمنى أن أصنع من القاهرة باريس جديدة في

الشرق، أود أن أنظم شوارع وطرقا وميادين وكباري وأعمدة إنارة، أرغب في إحداث نهضة قوية ووثبة عالية آمل أن تساعدوني فيها بالمهندسين.

- لحسن حظك أن جورج هوسمان رئيس بلدية باريس ومخطط شوارعها والمسؤول عن تنظيم معرض باريس حاضر، سادعوه ليأتي.

أشار الإمبراطور بإصبعه فجاءه أحد المسئولين في البلاط ليقول له أن يطلب من مسيو هوسمان أن ينضم إليهم.

جاء المسيو هوسمان واقفاً بين يدي سيده، ذلك هو إذن صاحب مدرسة تنظيم المدن الحديثة التي اقتدت بها كثير من المدن الأوروبية في تخطيط عواصمها.

- مسيو هوسمان، الخديوي إسماعيل صديق عزيز، هو يحتاجك لإعادة تخطيط شوارع القاهرة، ستوفد من جانبنا لذلك الأمر وستعاقد معك رسمياً الحكومة المصرية.

- بأمر مولاي.

سأله الخديوي: هل زرت مصر من قبل مسيو هوسمان؟

- لا، لم أزرها من قبل جلالتك.

- أتمنى أن تسعد بمكوثك معنا هناك إذن، لكني أود منك أن تحضر معك كل بستاني وفنان مطلوب لتحقيق مخططك الذي ستضعه.

فالتفت هاوسمان إلى إمبراطوره قائلاً: إن نائب السلطان يطلب مني أن آتي معي بكل بستاني وفنان، حسناً لكن آمل أن يكون في مصر من يعمل هؤلاء المأفونين يعملون.

قضى إسماعيل في فرنسا وقتاً طيباً اتفق فيه على تحديث الأسطول المصري بمدمرات حديثة من فرنسا والنمسا حيث قابل السفير النمساوي هناك، وفي الأول من إبريل استقبلت "حدائق الشامب دي مارس Champ de Mars" أكثر من خمسين ألف عارض، منهم أكثر من خمسة عشر ألفاً من فرنسا ومستعمراتها، وأكثر من ستة آلاف من بريطانيا ومستعمراتها، وسبعمئة عارض من الولايات المتحدة الأمريكية في حفل افتتاح فخم أعد على شرف ملوك وأمراء وأباطرة العالم وبينهم الخديوي إسماعيل الذي كان حضوره لافتاً ومؤثراً.

كان المعرض أكثر ما شاهدته الباشا فخامة، فكان حضوره الافتتاح إلى جانب السلطان العثماني عبد العزيز، والإمبراطور النمساوي فرانز جوزيف الأول، والملك البروسي فيلهلم الأول، ومستشاره بسمارك، والقيصر الروسي الكسندر الثاني مميزاً، شاهد الحضور رقص الباليه في المسرح الإمبراطوري، وحضروا بطولة العالم للتجديف عبر نهر السين التي فاز بها الفريق الكندي التابع للمملكة البريطانية، كما عرضت في المعرض العديد من المخترعات الحديثة مثل بدلة الغطس البدائية التي شاهدها جول فيرن في المعرض ومنها استلهم روايته الشهيرة "عشرون ألف فرسخ تحت الماء"، ومصعد هيدروليكي، وموتور ودينامو من شركة سيمر، وبنديقية من شركة كروب، وفي معرض التاريخ عرضت واحدة من أدوات إنسان ما قبل التاريخ، وفي معرض الصور الفوتوغرافية عرضت صور الإخوة عبد الله من تركيا ذوي الأصول الأرمنية التي أخذوها للسلطان عبد العزيز، وداوود باشا حاكم لبنان العام، وعدد من السيدات الجميلات في المعرض.

على أن أكثر أجنحة المعرض زيارة كان الحي الشرقي بمآذنه وقبابه وبواباته الضخمة وحوائطه مدببة الأطراف وكأنها مدينة شرقية نقلت إلى

باريس، ضم الحي الشرقي سراي باي تونس والحمامات التركية، والكشك العثماني، وبيت الشاي الصيني، والركن الياباني الذي شارك في المعارض لأول مرة وفيه ثلاث يابانيات يرتدين الكيمونو يتولين استقبالك، وإذا كان الحي الشرقي قد مثل جوهرة المعرض، فإن مصر قد مثلت جوهرة الحي الشرقي كله كما قال تيوفيل جوتيه **Theophile Gautier** حين زاره، والحي المصري مقام على مساحة 396 متر أشرف مارييت باشا على تصميمه بنفسه على هيئة مبنى مستوحى من هيئة المعابد الفرعونية تمر خلاله فتجد النقوش والرموز الفرعونية اختفت ليحل محلها المشربيات والقاعات العربية، ويستقبلك الرجال والنساء بملابس المصريين الحديثة فيعدون لك القهوة ويدعونك لاحتسائها، حيث توجد قاعة مخصصة للرقص الشرقي، وأخرى لعرض نماذج من المعروضات المصرية من مباخر وبخور وقلائد ومحاصيل مصرية كالقول والعدس وكل ما هو مصري النكهة والمذاق، كما ستجد الفلاح المصري يغزل القطن وعددا من الحرفيين، فهذا حداد، وذلك صانع سيوف، وذاك نحاس، أما إذا أردت أن تتعرف على مستقبل مصر فيكفيك أن تصعد الدرج في المبنى المصري إلى الدور العلوي لتجد مسيو فرديناند ديلسبس بنفسه في انتظارك ليشرح لك على خريطة مجسمة مشروع قناة السويس ويعرض لك بانوراما حية للقناة وأعمال الحفر وسير العمل فيها وما تم الانتهاء منه ليعلمك أن مصر على وشك افتتاحها.

كانت الأجواء احتفالية عظيمة، وكان الخديوي بمشاركته القوية في المعرض العالمي الضخم الأول من نوعه قد أرسى قواعد وأساسا قوية لدولة مصرية مدنية قوية لها سمعتها بين الأمم، وقد أعجب الحضور كثيراً بمشاركة مصر التي نالت ميداليتين من المعرض عن قناة السويس وزراعة القطن المصري.

سعيد

بعد واقعة "أرقاذي" وصلنا خطاب من الخديوي محمدا من قبل عبد الله باشا فكري ناظر قلمي التحريرات والعرضحالات قرئ في احتفال مهيب، كان يبارك لنا فيه النصر المظفر الذي أحرزناه، فارتفعت معنويات الجنود، ورقى راشد بك حسني إلى رتبة لواء، على أن الثورة لم تكسر مثلما ظننا فكان الكريتيون أشبه بالجبار أنتيوس في الميثولوجيا الإغريقية كلما يطرح أرضاً يستمد قوته من أمه جايا (الأرض) ويعود مجدداً للقتال دون كلل أو ملل، ولا غرابة في الأمر فهم يقاتلون بداعي الوطنية والرغبة في التحرر من نير الاحتلال والحصول على حريتهم التي سبقهم إليها إخوانهم في الأفلاق والبلغدان (رومانيا) سنة 1861 حين تولى أمرهم الأمير جان ألكسندر، أو مثل اليونانيين الذين بدأوا ثورتهم سنة 1821 فتغلبوا على العثمانيين وسيطروا على مناطق متعددة مما استوجب تدخل قواتنا من الجنوب وقوات الأتراك من الشمال، لتعمد في النهاية فرنسا وروسيا وبريطانيا إلى استخدام القوة العسكرية ضدنا ويدمروا الأسطولين المصري والتركي في معركة "نافرينو" أعقبها إعلان روسيا الحرب على الدولة العثمانية وانسحاب الأتراك من اليونان لمحاربتهم، ثم انسحابنا سنة 1829 لتعلن اليونان جزيرة

مستقلة تعترف بها الدول الأوروبية الثلاث ويتعهدون بحمايتها وينادى بأحد
أمراء الجزيرة ملكاً عليها سنة 1832.

هل يمكن أن تطول ثورة الكريتين مثلما طالت ثورة اليونانيين من
قبلهم؟ أصابني الكمد للفكرة، وما زاد من خشيتي الأخبار التي تواردت
عن دعم اليونان لثوار كريت بالمال والسلاح من خلال سفينتين اكتشفهما
العثمانيون وطاردتهما البحرية العثمانية، كان شوقي يزداد إلى زينب وإلى
ابني محمود الذي وضعته، وبينما نحن في حالات الكر والفر التي لا تنتهي،
تسربت المعلومات عن خلاف يتعاضم بين الخديوي والباب العالي حتى أنه
هدد بأن يستولى على الجزيرة أو يسحب جنده منها ما لم يحصل على طلباته
التي تبرع الكثيرون بذكرها، فمنهم من قال هو يريد ولاية الشام التي
أرادها جده الراحل، ومنهم من قال هو يريد أن يزيد عدد أفراد الجيش،
ومنهم من قال برغبته في لقب جديد.

كنا نشاهد زعماء الجزيرة يأتون لمقابلة شاهين باشا الذي كان يكرم
وفادتهم ويخرج للقائهم بنفسه فيخرجون من عنده محملين بالهدايا، فعلمنا
أن الإشاعات حقيقية وأن الباشا يبايعاز من الخديوي يسعى لتنفيذ تهديده
والانفصال بالفعل بالجزيرة، علمت الحكومة التركية بمساعيه من عيونها في
الجزيرة واعترضت لدى الخديوي الذي اضطر لاستدعائه واستبداله
باسماعيل سليم باشا على قيادة الجيش، حتى صدرت الأوامر لنا أخيراً
بالعودة إلى الوطن.

حسن

قبل الخديوي فكرة إنشاء جريدة أهلية جديدة على عكس ما ظننت، وجاء عبد الله أبو مسعود أفندي تطير فرحته وتسبقه ليبشروني بالخبر الجديد، استغل عبد الله أفندي إنشاء مجلس شورى النواب ليستحسن لدى الخديوي فكرة إنشاء جريدة تكون ناطقة بلسان الأعضاء ومهتمة بمجاسات المجلس فأعجب الباشا بالفكرة وأمر بتطبيقها وتنفيذها.

اتفقت مع أحمد على أن نبحث عن أحد المؤتمنين ليقف بالمكان مكاننا وننقده أجراً على ذلك، بدلاً من غلقه ففعلنا، وانتظم عملي بالجريدة وأخلصت لها فكافأني لقاء ذلك عبد الله أفندي الذي اكتشفت فيما بعد عشقه لوطنه وتعلقه به، كنا نجلب الورق من مصنع حسين حسني باشا ونطبع الجريدة في مطبعة بولاق التي يرأسها أيضاً من قبل جناب الخديوي، علم الوسط الأدبي بخبر إنشاء الجريدة فسعدوا لأجل ذلك كثيراً وهنأونا وقلدنا كل من إبراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال وأنشأوا بعد صدور جريدتنا جريدة أسبوعية جديدة أسموها "نزهة الأفكار" لم يصدر منها إلا عددان ثم عطلها الخديوي بنصيحة شاهين باشا وزير حربيته الذي حذره عواقب لهجتها وإثارتها للعوام ضد الحكومة، فكان مثل ذلك القرار

خبراً مؤسفاً ومنتقصاً من الحريات التي ظننا الباشا قد أتاحها لكتابه وأدبائه.

وبينما نحن على هذا الحال سألني عبد الله أفندي مرة: هل تحب أن تقابل رفاعه بك الطهطاوي؟

- هل تمزح أم تتحدث بجدية؟

- ولماذا أمازحك؟ نعم أنا جاد، هل تحب مقابلته؟

- هل هذا سؤال؟ بالطبع أحب وأتمنى أن أقابل الأستاذ.

- حسناً، حضر نفسك، ستزوره معي غداً وسيكون معنا محمد بك عثمان جلال، سنأتي لاصطحابك في الصباح الباكر.

في الصباح الباكر صحتني عبد الله أفندي ومحمد بك عثمان إلى سراي رفاعه بك الطهطاوي وكانت سرايا جميلة تحيط بها حديقة همة المنظر، دخلنا البهو الداخلي للسراي فصحبنا الخادم النوبي إلى غرفة المكتب الخاصة ببيده، راعتني ضخامة المكتبة فتحركت أمام الكتب أطالع عناوينها، بينما خلع كل من صاحبي الطربوش وجلسا على مقعدين متقابلين أمام المكتب الضخم، "تفسير الفخر الرازي"، "مقامات الحريري"، "خزانة الأدب"، هذا الرجل مهتم بأمهات الكتب.

- صاحبكم يحب الكتب.

التفت إلى صاحب الصوت فإذا به رفاعه بك بنفسه، رجل في السابعة والستين من عمره قصير القامة، واسع الجبين، أسمر البشرة، مليح الملامح، متناسب الأعضاء، في عينه اليسرى ضعف طفيف دليل إجهاد واجتهاد في المطالعة والكتابة، ذو لحية وشارب مهذبين، على غير عادة أهل البلاد هذه

الأيام لا يرتدي طربوش أو بدلة إفرنجية، فقط عمامة بيضاء وعباءة وجلباب مزركش، لا ينقصه إلا نطاق يتأزر به ليبدو مواطناً مصرياً من عصر الولاية العثمانين، وكانوا حينها جميعاً على تلك الشاكلة الواحدة لا يميز بين المسلم والمسيحي فيهم إلا بلون العمامة فالمسلمون يرتدون عمام بيضاء، والمسيحيون يرتدون عمام بيضاء مخططة بخطوط زرقاء، وأحفاد الرسول يميزون عن غيرهم بالعمائم الخضراء، وكان لا يفاضل بين جميعهم قانون وضعي إنما هي العادة التي درجوا عليها، هل يعقل أن يكون هذا الرجل التراثي في ملبسه هو نفسه ذلك المصلح العظيم والمنور والداعي الأول للتأسي بمحضارة الغرب وأخذ النافع عنهم؟

حاولت تقبيل يده فانتزعها وأنا أقول: مقابلتكم شرف عظيم لي يا بك.

- أستغفر الله يا ولدي، كيف أحوالكم محمد وعبد الله.

- بخير يا أستاذ، مبروك إعادة فتح مدرسة الألسن من جديد.

قال وهو يتخذ مكانه فوق كرسيه خلف مكتبه: نعم يا عبد الله، لقد تقلدت يا ولدي عشرات الوظائف، إماماً لإحدى فرق الجيش الذي أنشأه محمد علي باشا، وإمام البعثة التعليمية إلى فرنسا سنة 1826، و مترجماً في البعثة، و مترجماً بمدرسة الطب، و مترجماً بمدرسة الطوبجية، و مدرساً في مدرسة الإدارة، و مدرساً في مدرسة التاريخ والجغرافيا، و ناظراً لمدرسة الألسن، و رئيساً لقلم الترجمة العربية، و مدرساً في السودان، و رئيساً لتحرير الوقائع المصرية، و أميرالاي و ناظراً لمدرسة الحربية، و ناظراً لمدرسة الهندسة و العمارة، على أن نظارة مدرسة الألسن كانت دوماً أقرب الوظائف إلى قلبي ففيها قضيت زهرة العمر.

- بالطبع يا أستاذ، فقد أشرفت وحدك على ترجمة أكثر من ألفي كتاب ورسالة في التاريخ والجغرافيا والأدب والميثولوجيا والهندسة والطبيعة والطب والاجتماع والفلسفة والمنطق.

- والقانون يا ولدي، هذه المرة الخديوي يطلب ترجمة قانون التجارة، والقانون المدني، والدستور الفرنسي، وإعداد أجيال من القضاة ورجال القانون، وإني أود أن أستعين بك وباقي زملائك من أمثال عبد السيد وصالح مجدي ومحمد قدرى ومحمد لاظ.

- أنا تحت أمرك يا أستاذ ورهن إشارتك.

- نحن تحت أمر البلاد وما فيه الخير للعباد يا بني، أخيراً اكتشفوا أهمية القانون والمساواة والحريات، أنا عاصرت ثورة الفرنسيين على ملكهم شارل العاشر سنة 1830 في فرنسا حين فرض الرقابة على الصحف بدون الرجوع إلى البرلمان، وحين تجددى قرار الأغلبية البرلمانية بعزل وزارة بوليناك وإبقائه لها رغم أنوف الفرنسيين فما كان منهم إلا أن طردوه شر طردة وعزلوه وولوا مكانه لويس فيليب، هناك علمت أن الخلاف دوماً بين الحاكم والمحكوم مرده التضييق على الحريات والحقوق، وعدم الفصل في السلطات، كل ذلك وبلادنا لم يكن لديها حينها إلا السيف والسطوط والحازوق، نعيش عصر الرق الأبيض والأسود، متخلفون فكرياً واجتماعياً وسياسياً عن القرن التاسع عشر بأربعة قرون على الأقل.

- تغيرت الأمور كثيراً في مصر بفضلك وبفضل البعثات التعليمية يا أستاذ، والحق يقال وبفضل محمد علي باشا وإسماعيل باشا، الحكومة لا تكف الآن عن الاستعانة بالخبرات الأجنبية بشرط تعليم المصريين، وتفتح المدارس، وتبني الكباري والطرق والميادين، إسماعيل باشا قفز فوق تلك القرون الأربعة بسرعة حتى صارت مصر في عهده قبلة للأوروبيين تعقد

المقارنات بين عاصمتها والعواصم الأوربية المختلفة، جاذبة لرجال العلم والفن والأدب، حتى أنه وبفضل دعاويك السابقة لتدريس علم السياسة في المدارس والحديث عن الدستور والفصل بين السلطات والحقوق المدنية كلّفك بإعداد مشروع مفصل بإنشاء مجلس النواب الذي خرج أخيراً إلى النور، ثم إنه سمح بإنشاء جريدة سياسية أهلية جديدة، وهاهو الآن يسعى لترجمة الدستور ودراسة القوانين الفرنسية.

- لاشك إن إسماعيل باشا يخطو خطى عظيمة في الحداثة، أسأل الله أن يوفقه فيها، بالنسبة للصحافة فعلى قدر ما سررت بخبر جريدتك الجديدة على قدر ما حزنّت لإغلاق جريدة محمد.

قال محمد وهو يهز رأسه بأسى: الحريات لم تكتمل بعد في بلادنا يا أستاذ.

- أصبت يا ولدي، لكن أئن يعرفني أحدكم بضيفي؟

تنبهت وكنت مصغياً للحديث الدائر وضحك عبد الله أفندي قائلاً: تلك غلطتي، أخذنا بمقدم الأستاذ ولم نعرفه بصاحبنا، ذلك هو حسن مرزوق السعداوي، كاتب معي بجريدة وادي النيل وشديد الإعجاب بسيرتك وتراجلك ومؤلفاتك يا أستاذ.

- تشرفنا يا أستاذ حسن.

- الشرف لي يا بك.

- حسن صحفي نابغ، تعلم في الكتاب بطنطا وبعد وفاة والده انتقل مع أسرته إلى القاهرة بالقطار حيث ثقف نفسه بنفسه وبدأ مشواره الثقافي والأدبي.

- عظيم، أنا أيضاً ولدت في سوهاج ثم سحت في أرض الله من طهطا إلى منشأة المنيرة إلى فنا ثم إلى فرشوط ولما توفي الوالد سافرنا إلى القاهرة،

لكن لم يكن هناك حينها قطارات إنما سافرنا عبر النيل في رحلة استمرت أسبوعين.

قلت: وكيف بدأت رحلة الترجمة والنقل يا أستاذ؟ فأنت أول من اهتم بالأخذ عن الحضارة الغربية.

- لست الأول يا ولدي، حين جاء نابليون بونابرت إلى مصر، لم يأت بالبنادق والمدافع فقط، إنما أتى بالعلماء الذين وضعوا كتاب "وصف مصر" وأنشأوا المجمع العلمي، والمطبعة الفرنسية فحدث أول تلاقح وتلاقح حضاري بين الحضارتين الشرقية والغربية على أرض مصر في وقت كانت حضارتنا الشرقية فيه الأضعف والحضارة الغربية هي الأقوى، بعد قرون من التلاقح الأول في الأندلس في وقت كانت حضارتنا الشرقية هي الأقوى والحضارة الغربية هي الأضعف، أنشأ الفرنسيون المعامل الكيميائية فترك ذلك أثره على مشايخ البلاد وكبارها من أمثال عبد الرحمن الجبري، وإسماعيل الخشاب، وحسن العطار والأخير هذا هو شيعي ومعلمي، فأما الجبري فقال في وصف المعامل "لهم فيها أمور وتراكيب غريبة ينتج عنها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا"، وأما إسماعيل الخشاب وكان شاعراً فرأس تحرير جريدة صحفية اسمها "التنبيه" في عهد الجنرال مينو، وأما الشيخ حسن العطار فقد قام بتدريس اللغة العربية لعلماء الحملة الفرنسية واتجه إلى الدراسات الغربية مقبلاً على كتب التاريخ والجغرافيا والطب والرياضة والفلك والأدب مما لا يدرس في الأزهر، فقد كان يتهم كل من يدرس تلك العلوم بالزيف عن الجادة والبعد عن علوم السلف وعما يجب أن يلتزمه رجل الدين، ثم سار في هذا الطريق من بعده كثيرون.

- لهذا الحد؟

- وأكثر، سأقص عليك قصة أوردها عبد الرحمن الجبرتي في سرده للتاريخ:

يقول إنه جاء إلى مصر أحمد باشا والياً تركياً عليها في منتصف القرن الثامن عشر، وكان من أرباب الفضائل وله رغبة في العلوم الرياضية، ولما استقر بالقلعة وقابله الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر والشيخ سالم النفراوي والشيخ سليمان المنصوري فتكلم معهم وناقشهم وباحثهم، ثم تكلم معهم في الرياضيات فأحجموا وقالوا (لا نعرف هذه العلوم) فتعجب وسكت، ثم إن الشيخ الشبراوي لما استأذن في الدخول عليه يوم الجمعة، قال له الباشا: المسموع عندنا بالديار أن مصر منبع الفضائل والعلوم، وكنت في غاية الشوق إلى المجيئ إليها فلما جئتها وجدتها كما يقال تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

فقال له الشيخ: هي يا مولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف.

فقال: وأين هي وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ونبذتم المقاصد.

فقال الشيخ: نحن لسنا بأعظم علمائها، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والموارث كعلم الحساب.

فقال الباشا: وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية، بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهلة.

فقال الشيخ: نعم، معرفة ذلك من فروض الكفاية، إذا قام به البعض سقطت عن الباقين، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كركة الطبيعة وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية (الفلك) .. وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء وأخلاق مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك.

فقال الباشا: وأين البعض؟

فقال الشيخ: موجودون في بيوتهم يُسعى إليهم. ثم أخبره عن حسن الجبرتي والد عبد الرحمن الجبرتي وكان عالماً رياضياً فلياً كبيراً في ذلك الحين، أرسل الباشا واستدعاه لمقابلته وسر برؤياه واعتبط به كثيراً فكان يتردد إليه يومين في الأسبوع وكان يقول: لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعي بهذا الأستاذ لكفاني.

يقول الجبرتي إن الشيخ عبد الله الشرفاوي كلما تلاقي مع والده يقول له: سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا.

- شئ مؤسف حقاً، أن تصير مصر إلى هذا الحد بعد أن كانت سيدة العالم بعلمها وفنونها وجنودها في عصر الفراعنة والبطالة والفاطميين والأيوبيين والمماليك، دخول مصر حظيرة العثمانيين أدخلها في سبات استمر قروناً طويلة، تقدم العالم كله من حولها فبلغها بعد أن كان خلفها وسبقها وتركها في ظلمات الجهل لا تقوى على نهوض.

- أنا سرت على نهج شيعي حسن العطار، ولما بدأ محمد علي باشا عصر البعثات العلمية رشحي الشيخ العطار الذي تولى مشيخة الأزهر أن أكون إمام البعثة العلمية بالخارج وأمرني بتسجيل كل ما أراه فعملت بما طلب مني، كنا نقرأ في الصباح تاريخاً ساعتين، ثم بعد الظهر درس رسم، ثم

درس نحو فرنسي، وفي كل أسبوع ثلاثة دروس من علمي الحساب والهندسة، لم أكف بتلك الدروس وأقبلت على شراء أخرى غير التي ندرسها واستأجرت معلماً خاصاً يدرس لي كنت أدفع أجره من راتبي الخاص، في نهاية العام الأول نجحت بتفوق فأرسل لي مسيو جومار مدير البعثة جائزة التفوق كتاب "رحلة أنرخسيس إلى بلاد اليونان" وفي نهاية العام الثاني نلت كتابين من تأليف المستشرق الفرنسي دي ساس، وفي باريس تعرفت على كبار المستشرقين أمثال سلفستر دي ساسي وكوسان دي برسيغال وارتبطت معهما بصداقة، وبعد خمس سنوات من الدراسة كنت قد انتهيت من ترجمة 12 رسالة من الفرنسية إلى العربية في مختلف العلوم.

- سيرة مثيرة جديرة بالاحترام يا بك.

ابتسم رفاعة بك وهز رأسه وشكرني قبل أن يضيف: الحمد لله، في سنوات قليلة قطعنا شوطاً طويلاً من التقدم، ورغم أن الطريق لازال طويلاً، إلا أنه وبعد أن كنا نرسل البعثات إلى أوروبا، صارت الدول المحيطة والبعيدة ترسل لنا بعثاتها إلينا، حتى أنه في سنة 1862 أرسلت اليابان وهي مجموعة من الجزر في أقصى شمال شرق الدنيا بعثة ساموراي زارت مصر في طريقها إلى أوروبا، رست سفينة البعثة في ميناء السويس واستقلوا القطار إلى القاهرة وكان لا يوجد مثله إلا في إنجلترا فقط، قضوا في القاهرة أياماً ثلاثة زاروا خلالها العديد من الأماكن كالقلعة ومسجد محمد علي والأهرام، ومن القاهرة استقلوا القطار ثانية إلى الإسكندرية، ليسافروا بعدها إلى أوروبا بداية بفرنسا، فأبدوا إعجابهم بالقطار، والتلفراف، وكانا من المخترعات الحديثة التي لم يروها من قبل، كما أعجبوا بالحمامات العامة ونظافتها، وبالرخاء الاقتصادي الذي تعيشه مصر. (16)

نظر محمد بك جلال إلى ساعته الذهبية المدلاة بسلسلة تمتد إلى جيب داخلي في جاكيت بدلته الطويل ذات الطراز الغربي وقال: لقد تأخرنا يا أستاذ، هلا أذنت لنا بالانصراف؟

- أئن تشاركوني الغداء؟ لعلهم قاربوا على الانتهاء منه.
- اعذرنا يا أستاذ، تأخرنا ومرتبون ببعض المواعيد.
- حسناً كما يحلو لكم، أود أن أراك يا حسن أفندي.
- بكل تأكيد يا بك.
- مع السلامة يا محمد، وأنت يا عبد الله تحدث مع زملائك وتعالوا لنوزع المهام.
- حسناً يا أستاذ، يا ذنك.

خرجنا إلى الحديقة ورفاعة بك يقف قرب الباب مستنداً على عصاه مودعاً، قلت وأنا أنظر إلى صاحبي: لم أشعر بمرور كل هذه الساعات طيلة حديثنا الشائق.

فقال محمد: أنا سعيد إنك سعدت بمقابلة البك، بالفعل الحديث معه شيق.

ثم استطرد ضاحكاً وهو ينظر إلى عبد الله أفندي الذي كان شاردًا: لكن العمل معه صعب ومرهق، كان الله في عونك.

فبراير 1868

&&&

كان أحمد يتمنى عبثاً أن ينسى طيف الأميرة فاطمة فيفشل وتذهب محاولاته أدراج الرياح، في النهار شارد الذهن يدور حول السراي كلما سنحت الظروف عله يظفر بنظرة أو يتسنى له رؤيتها مجدداً، وفي الليل يكون طريد السهر والسهد تعذبه وتفترسه أفكاره وخيالاته، وبينما هو جالس قبيل الفجر قرب البركة، تحفه الأشجار ويغشاه الليل شاهد ظلاً يتحرك تحت شجرة ويخرج منديلاً مدفوناً تحتها، فأوجس في نفسه ودب فيه ديب القلق، فلما أمعن النظر ودقق شاهده يخرج من المنديل خنجراً.

تبع أحمد الظل فتبين أنه أحد حراس القصر وكان قد دس الخنجر وأخفاه بين ملابسه وتحرك صوب السراي، لاحقه أحمد من بعيد كي لا يشعر به فلما دخل القصر من باب المطبخ، تحسس أحمد سيفه في غمده، ولما صعد الحارس السلم، خشي أحمد على الخديوي وأبائه واستل سيفه متبعاً الحارس في صمت، وما إن فتح الحارس باب غرفة الخديوي وأشهر خنجره حتى قفز أحمد خلفه وهوى بسيفه على الذراع الممتدة بالخنجر

فبترها، صرخ الحارس صرخة ارتجت لها جدران القصر ففزع الخديوي وشهق وهو يتراجع في موضعه بعنف متسائلاً عما حدث.

شاهد الخديوي أحد الحراس متكوماً على الأرض وقد انفجر الدم ملوثاً الفراش وأرض الغرفة من موضع بتر عند منبت معصمه، ومعصما ملقى على الأرض لازال قابضا على خنجر، وأحمد منتصب في تحفز وسيفه مشهور، فتبين ما حدث وما كاد ليحدث.

صرخ الخديوي بصوت جهوري قوي: يا حراس .. يا حراس!

جاءه رستم باشا والحراس من خلفه يهرولون، فنهض من مكانه ولطم وجه من أراد قتله: من أرسلك يا كلب؟!

لم ينطق الحارس ولازال في تأوّه وصراخه، فقال الخديوي لرستم باشا: لا تقتلوه، أود أن أستجوبه، أرسلوه للطبيب كي يوقف نزيفه وحاذروا أن ينتحر رغماً عنكم.

أوماً رستم باشا برأسه واقتاد الحارس الخائن إلى واحدة من الغرف السفلية حين وصلت فاطمة وأخواتها وبعض زوجات الخديوي ففزعن لما شاهدنه وصرخت إحداهن، لمح أحمد الأميرة وشاهد الفزع في عينيها الجميلتين وقد وضعت أناملها الصغيرة على فمها واختنق صوتها لبرهة فتمنى لو احتضنها وخفف عنها صدمتها، لكنه لم يفعل، والدها هو من فعل.

بدل الخديوي ملابسه وهبط الدرج بصحبة ولده توفيق وإسماعيل باشا المفتش الذي جاء فرعاً حين سمع بالخبر حتى وصلوا إلى حيث احتجز رستم باشا الحارس الخائن، وكان جرحه قد ضمد وتعرض لضرب مبرح حتى ينتزع منه اعترافاً بمن خلفه.

- هل اعترف من الذي حرصه؟
- أبي أن يعترف إلا في حضورك يا مولاي.
- من الذي حرصك على قتلي يا هذا؟
- زم الحارس شفتيه وقال بلهجة خاضعة متضرعة هي أقرب إلى البكاء:
اغفر لي وسامحي وآمني على حياتي يا مولاي.

صاح المفتش: كيف تجرؤ على طلب المغفرة بعد ما فعلته يا خائن؟
قال الخديو بنيرة صارمة: لا أستطيع أن أؤمنك على حياتك، لكني أعدك إن تحدثت وأصدقت القول، ستموت ميتة سريعة، أما إن كذبت أو أثرت عدم الحديث فستعذب حتى تمنى الموت كل لحظة، وسأقتل عائلتك أمام عينيك الواحد تلو الآخر قبل أن أقتلك في النهاية.

ظفرت دمعة يائسة من عين الحارس الذي قال في أسى: أسأل الله أن يغفر لي ويرحمي، اغفر لي وسامحي يا مولاي فأنا خشيت إن أنا رفضت أن يتم قتلي، لكنني كنت هالكا في كلتا الحالتين على ما يبدو، من أمر يقتلك هو الأمير محمد عبد الحليم، أرجوك سامحي.

وجم الجميع عند سماعهم الاسم وتمتم الخديوي قائلاً: معقول؟
ثم قطب حاجبيه موجهاً حديثه إلى الحشد: اقطعوا رأسه.

علا نشيج الحارس ونهيجه واختلط دمه بلعابه ومخاطه فسحبوه كاخترقة البالية دون أن يقوى على وقوف أو نهوض، فلما رأى الباشا ذلك المشهد رأف لحاله وأمرهم أن يحققوا له أمنية قبل قتله فطلب الصلاة لله واستغفاره فوافق، وحدد الشروق موعداً لتنفيذ حكم قطع رأسه في الباحة الخلفية للسلاملك.

وقف الباشا أمام أحمد وسأله: ما اسمك يا فتى؟

- أحمد يا مولاي.

- لقد أنقذت حياتي يا أحمد، وسأ كافئك لأجل ذلك، إسماعيل باشا، اطلب من رياض باشا المهردار أن يعين أحمد كبيراً للياوران بدلاً من رستم باشا، وأن يحال الأخير إلى المعاش، وأن يرفق كل من كانت نوبتهم الليلة في حراسة غرفتي بعد التحقيق معهم، ما لم يكونوا متواطئين ومشاركين في الجريمة، أما الأمير محمد عبد الحليم فأرسلوا قوة تذهب في طلبه للمثول بين يدي الخديوي.

- بأمرك يا مولاي.

سر أحمد كثيراً لأجل ترقيته وإن كان حزن لما أصاب بعض زملائه.

- اطلب وتمن مني أمنية أحققها لك يا أحمد، أي أمنية.

حار أحمد في الأمنية وإن تمنى لو طلب الزواج من سمو الأميرة فتحقق بذلك النهاية السعيدة لحواديت جدته العجوز حين يتزوج الشاطر حسن ابنة السلطان مكافأة على شجاعته وبجائه في تبات ونبات ويخلفان من بعدهم صبيان وبنات.

- قد كافأتني بالفعل برضاك عني يا مولاي، فريضك هو غايي ولا طلب لي سوى ذلك.

ابتسم الخديوي وربت على كتف أحمد وقال: سأفكر لك إذن في مكافأة مناسبة.

وفي الصباح جاء الأمير محمد عبد الحليم مضطرباً ومتوتراً وكان لا يدري سبب طلبه فخشي لو انكشفت محاولة القتل، تركه الخديوي فترة

طالت يرفل في قلقة راقب فيها حركاته وسكناته من زاوية في الطابق العلوي بحيث لا يكتشفه ولا يراه، ثم نزل الدرج متأنياً عاقداً ذراعيه خلف ظهره وقاطباً حاجبيه.

- كيف حالك يا أمير؟

ففض الأمير عبد الحليم من مكانه ورنا يبصره حيث الصوت وأجاب:
بخير، نشكر الله.

- لعلك تتساءل عن سبب طلبي لك.

- صحيح.

- ما رأيك في فتح فاشودة يا سمو الأمير؟

- فتح عظيم سيفيدنا مستقبلاً لا شك.

قال الباشا وهو يدور في المكان: صحيح، لقد غنيت بالجيش وأنشأت له مدارس حربية جديدة واستقدمت الضباط الفرنسيين الكبار من الخارج للتدريس لهم، كما أعدنا إنشاء مدرسة المهندسخانة، وأنشأنا مدرسة الحقوق، ومدرسة العمليات (الصنائع)، ومدرسة الزراعة، أمرت بزيادة عدد الأسطول البحري، أنشأت مجلس شورى نواب منتخب، وأنشأت مكتب بريد، ومخزناً للآثار القديمة، ومصلحة وابورات البوستان الخديوية لها نحو عشرين سفينة ترفع العلم المصري وتجوب البحر المتوسط في سوريا والأناضول واليونان وشواطئ الدردنيل والبوسفور وتغور البحر الأحمر محملة بالبضائع، وخصصنا لبواخرها معملاً في ترسانة الإسكندرية للصيانة، ننشئ حالياً أكبر ترعتين عرفتهما مصر هما الترعة الإبراهيمية في الصعيد، والترعة الإسماعيلية قرب قناة السويس التي سنحتفل بافتتاحها هي الأخرى بعد عامين، أصلحت القناطر الخيرية وغيرها من القناطر فزادت مساحة

الأراضي المرعرة زيادة كبيرة، أنشأت معامل سكر، ومعامل الجوخ، ومعامل الطوب، والدباغة، والزجاج، والورق، أعدت النشاط لمعامل النسيج، والطرايش، أنشأت الرصدخانة (دار رصد فلكية)، وزدت عدد المستشفيات، والبيمارستانات، خطوط السكة الحديدية والتلغراف تمتد الآن إلى كل مكان في مصر.

تخير الأمير ماذا يقول فعقب: عظيم، وفقك الله لما فيه الخير للروية.

استدار إسماعيل باشا حيث كان يتحدث وظهره إلى محدثه، وصاح فيه صيحة كادت أن تقتلع قلبه من مكانه: كيف جرؤت على التفكير في قتلي؟

تراجع الأمير عبد الحليم صعباً حتى كاد أن يتعثر: ما الذي تقول؟

- أقول كيف جرؤت على محاولة قتلي يا عمي؟ كيف طأعت شيطانك على أمر عظيم كهذا؟

- غير صحيح، من أخبرك بهذا كاذب.

صاح الباشا فيه صيحة جديدة ورفع إصبعه أمام عينيه محذراً وهو يقول: إياك والكذب، الحارس الذي أغويته اعترف بكل شيء، بوسعي أن آتيك برأسه التي قطعت هذا الصباح وأرميها في وجهك لترى نتائج أفعالك إن أردت.

اختل توازن الأمير وسقطت عنه عصاه التي يتوكأ بها وسقط هو خائر القوى على أقرب المقاعد إليه هلعاً وقد جف حلقه وزاغت عيناه.

بسط إسماعيل كفيه وهو يهتف حائقاً: عمي يود قتلي، أين أنت يا جدي وأين أنت يا أبي لتشهدا ما أشهده؟

تجاسر الأمير فقال: ولكنك خنتنا، وأبعدتنا.

ارتعش وجه الباشا غضباً وهو يقول: أنا من خان؟! آلائي وضعت ابني ولياً للعهد استحققت القتل بنظرك؟ النفس العالية لا تخضع للحوادث ولا تذلل من شأنها ولا تضعف أو تلين أمام النكبات والأرزاء مهما عظمت، يأتي ترفعها أن تنال حظها في هذه الدنيا سهلاً يسيراً بأساليب حقيرة لا مشقة أو اجتهاد فيها، لا تمتد عينها إلى فريسة غيرها ولا يهنا لها طعام غير الذي تجمعها بأنبيائها ومخالبها وجدها واجتهادها، وأنا اجتهدت لكي أصل إلى ما وصلت إليه.

ابتلع الأمير ريقه وهو يسأل بصوت مرتعش: هل ستقتلني؟

جز الباشا أسنانه وهو يقول: لست أنا من يقتل أحداً من العائلة، لست مثلك يا سمو الأمير، فقلبي لم يمض بعد.

ثم نادى أخاه في الرضاعة إسماعيل المفتش الذي كان غير بعيد يرقب المحادثة وقال له: جناب الأمير سينفى إلى الخارج وممنوع من العودة إلى مصر نهائياً، وزع المنشور على جميع المديریات والموانئ، اصطحبه إلى قصره حتى يجمع متاعه وراحل معه إلى الإسكندرية وتأكد من سفره هو وعائلته إلى حيث يريدون.

أوماً المفتش برأسه، وخرج الأمير خجلاً ومرتعداً دون أن ينبس ببنت شفة، أما الباشا فقد ساورته وغالبته مشاعر الضيق والكدر، فهاهو عمه يريد الفتك به، ولا يدري ماذا عليه أن يرقب من أخيه الذي كان ولياً للعهد وصار بالفرمان الأخير محروماً من الحكم، ماذا عساه أن يفعل معه؟ وكيف يأمن شره؟ وهل أخطأ حقاً حين أراد أن يؤسس نظاماً جديداً لتوارث العرش يضمن فيه عدم التراع والشحناء وتقليل عدد المنافسين؟ ظل مغرقاً في أفكاره التي تهشته دون شفقة أو رحمة حتى انفلت من بين رجاله وصعد غرفته.

لم يهنأ أحمد بالسرور كثيراً فقد اهتدى إلى أن يطلب من الخديوي معرفة أخبار أخيه عبد الرحيم وقص عليه قصته وكيف انتزع من أهله وكيف مات أبوه حزناً وكمداً عليه فتأثر الخديوي كثيراً بما سمع، وأوفد من رجاله من يأمر بالإتيان بعبد الرحيم، ومرت الأيام طويلاً حتى أتته الأخبار مؤلمة على غير ما أمل، أنهم لم يستدلوا على أخيه ولا بد أنه مات في احتفار القناة منذ فترة طويلة وأنه دفن هناك لا شك.

جلس أحمد ينظر في صفحة البركة وقد طفرت عيناه بدمع يرثي أخاه الذي دفع من جلده وطاقته بل وحياته ثمناً لفداء أهله، صحيح أنهم توقعوا فقدانه حين انقطعت بهم السبل عنه، وفشلوا بعد وفاة أبيهم في الوصول إليه لكنهم ظلوا مستمسكين بالأمل حتى آخر يوم.

لامست كتفه أصابع رقيقة حانية، فاستدار ليجدها الأميرة فاطمة متوردة في كامل جمالها ورونقها وأنوثتها ترتدي ثوباً جميلاً مطرزاً ومحلاة بتاج ماسي يتوسطه حجر العقيق الشب، لائم بروش كانت تضعه على شكل ريشة من الماس البرلنت يعلوها قلب من الحجر الكريم ذاته يخترقه سهم، وكانت قد اقتربت منه دون أن يسمع حفيف ثوبها، فأجفل ونهض مفاجاً ومسح دمه وبتسم ابتسامة حيا بها مقدمها.

- سمو الأميرة؟

تأثرت الأميرة فاطمة لمراى دمه لأول مرة فاكتست ملامحها الجميلة القلق والرأفة وسألته: ما الذي يبكيك؟

- كان لدي أخ تم اتياده لحفر قناة السويس وانقطعت أخباره عنا واليوم فقط علمت أنه مات.

حزنت الأميرة لما سمعت وقالت: ليرحمه الله، هل كان مقرباً منك؟

- بلى، كان مقرباً مني فهو أخي الأكبر.

- تصبر إذن.

ثم قالت: لعل الله يرزقك بصحبة جديدة.

أمعن أحمد النظر فيها محاولاً سر أغوارها وفك شفرة جملتها الأخيرة فاحمرت وجنتاها خجلاً وخرجت كلماتها متلعثمة:

- أردت أن أشكرك على إنقاذك حياة والدي.

- ذلك عملي وواجبي.

- مبروك، عرفت أنك ترقيت وصرت ياوران جناب الخديوي وأنه أنعم عليك بلقب الباكوية.

كان أسيراً لضمّة شفتيها في واو المباركة الأولى، فأسهب في خيالات جامحة، وغمغم بكلمات غير مميزة، قالت الأميرة وهي تزيح واحدة من خصلات شعرها الناعم سقطت على جبهتها خلسة: تستطيع الآن أن تتزوج أي فتاة تحبها وقد صرت في وظيفة مرموقة وتحمل الباكوية.

نظر أحمد إليها في افتتان فتشهد وقال بنبرة يائسة: لا أظن أنه بوسعي أن أتزوج بمن خفق قلبي لها حقاً فأنا مهما كبرت وعلا شأنني مجرد ضابط من أسرة متواضعة فقد فيها الأب والأخ.

لاحت بسمة باهتة على شفاه الأميرة سرعان ما أخفتها وقالت: هل هي أغنى منك؟

فقال: هي أغنى وأكمل، هي بدر مرمر في فضاء شاهق، لا قدرة لي على الوصول إليه.

قالت وقد كسا الخجل سحتها: وما أدراك إن كان يهملها فقرك أو غناك؟

- حقاً؟ .. أقصد، ماذا عن أهلها إن كان لا يهملها، فهي سليمة المجد والعظمة.

- لا يولد الجميع بالمجد والعظمة يا أحمد، هناك من يصنع مجده وعظمته، هل تعلم أن جدي الأكبر محمد علي باشا كان ضابطاً أيضاً؟ وكان يتيم الأب والأم والعم والإخوة؟ وأنه خسر الكثير من ماله في التجارة؟ وأنه كاد أن يموت غرقاً، لكنه مع ذلك لم يكن قد نال ما قسمه الله من حظه في الدنيا فلم يستسلم إلى أن صار ما بات عليه؟

تذكر أحمد حواديت الشيخ يحيى نصرتلي وهو يستمع إلى الأميرة ولا حظ لأول مرة التشابه بين أمره وأمر الباشا فجرت الحماسة التي دفقتها الأميرة في عروقه فانتشى وسر وسعد.

- لا تقنط ولا تيأس حتى تصل إلى بغيتك وحظك من هذه الدنيا.
- عاجلت جراح نفسي وأدخلت السرور إلى قلبي سمو الأميرة فشكراً لك.

ابتسمت الأميرة وقالت: حدثني عنك وعن أسرتك يا أحمد.

- ولدت في طنطا، والدي كان مزارعاً يزرع القطن، مات حزناً حين اقتيد عبد الرحيم أخانا الأكبر إلى الحفر، ولي أخ وأخت، حسن وهو قارئ مثقف، لديه شغف بالأدب، وزينب زوجة لضابط في الجيش، نعيش جميعاً في القاهرة ونزاور أختنا ونزاورنا باستمرار.

- تعيش حياة هائلة وسعيدة يا أحمد مع أسرتك.

ابتسم أحمد وقال: الحمد لله، هم كل ما لدي، وأنت سموك، ألا تعيشين حياة هائلة؟

اكتسى وجه الأميرة بتعبير أليم بدت فيه على شفير التصريح بسر خطير وهي تقول: قد تبدو أن متع الحياة بأسرها تكمن وراء هذه القصور العاجية، لكن ذلك غير صحيح، كل ما في هذا المجتمع الأبله هو أنانية وسطحية وهاقة وغرور، الجميع يتسابقون إلى الخديوي لينالوا عطفه وفئات مائدته، ولا يستحون أبداً من إظهار خضوعهم وخنوعهم وتزلفهم المفضوح، وهم غير ذلك يحبون حياة شهوانية متسبية، أما السيدات فمسألة أخرى حين تنظر إليهن من بعيد تحسبن على شيء لكنهن في الحقيقة خاويات، لا أفهمهن ولا أجد راحتي إلا بين القليلات، وهناك الحساد والمنافقون والخونة.

كانت الأميرة تتحدث بتوتر عصبي لم يعهده فيها من قبل، وكانت كلما تخرج دافقة الحيوية وعيناها تلتمعان ببريق أخاذ في مثل ثورات الضيق الوييل.

- حتى حياتك في هذا المجتمع يرسمها لك آخرون، لا يمكن لك أن تشذ عنها أو أن ترتكب حماقة لن تتمكن بعدها من إصلاحها، على الأقل أنت تملك في حياتك الخيار، وذلك في حد ذاته نعمة لا يملكها الكثيرون، أخشى أن تفهم كلامي على محمل خاطئ فانا أحب والذي كثيراً وأحب أسرتي لكني ببساطة أحتاج لأمر أخرى، ..آه، أنا لا أجيد شرح ما يعتمل في نفسي.

نظرت لأحمد فوجدته ينظر إليها نظرة حانية وهو يقول: بل أفهم سموك، أميرتنا الوديمة تملك قلباً ثائراً على قيود النظم والتقاليد وتتمنى لو

أتاحت إليها اختيارات أوسع، ترفض أن يفرض عليها شيء وتتأفف من التملق والإطراء في بلاط القصر.

- صحيح.

- أتفهم إحساسك، رغم أنه في أشد العلاقات مودة وبساطة قد يحتاج المرء بين الحين والآخر إلى التملق والإطراء، إلا أن كونك ابنة الخديوي جعلك محط أنظار الكثيرين ومركزاً لتملقهم وهذا ما لا يرضيك.

- سمو الأميرة.

جاءها الصوت منادياً خفيضاً من وصيفتها التي وقفت في الحديقة على مقربة منها، فأمسكت بأذيال ثوبها وقالت: لابد أن أعود إلى القصر الآن كي لا تقلق عليّ شهرت فزا هانم.

- لا تحرميني سمو الأميرة من طلتك بين الحين والآخر، فطلتك تحمي القلوب.

افتر ثغر الأميرة عن ابتسامة عذبة وعدلت من ثوبها وعادت إلى القصر.

كانت سعادة أحمد بمحدثه مع الأميرة أكبر من أن يحتزها في ذاته وحده، ويود لو وزعها على الجميع، فهل يسعد لتلميحات الأميرة؟ هل أعجبت به حقاً؟ أم أن عشقه لها هو ما صور له وجود تلميح؟ لكنها كانت تحجل في كل مرة يركز عينيه عليها، هل يعتبر تشجيعها كسراً لباب ظنه مغلقاً يحول دونه وإياها؟ هل عنت بكلامها أنها غير مهتمة بأي مجد أم أنها تشجعه على أن يصنع مجده الخاص؟ ماذا أرادت بمحدثها الذي دار بينه وبينها وفيه فتحت قلبها إليه وحدثته كالصديق عما لا يرضيها في حياة القصور، ظلت الأسئلة تدور في رأسه، وكل سؤال يولد من بعده عدد آخر من الأسئلة،

أما الأميرة فاطمة فلأول مرة تشعر بقلبيها يخفق لأحدهم، قنعت وصيفتها بالقليل مما قصته عليها من مقابلتها لأحد بعد إلحاح، وفضلت أن تحتص بأكثر ما لديها لأقرب صديقاتها إلى قلبها الأميرة حواء ابنة عباس باشا وشازدل قادين، فكتبت لها خطاباً بالفرنسية:

"صديقتي العزيزة، لكم اشتقت إليك وإلى الليالي التي شهدت نجوانا ووجدت بين قلبينا، فلطالما استمدت قوتي منك، لا حديث في القصر إلا عن محاولة القتل الآثمة التي تعرض لها والذي الحبيب، هل يمكن أن تبلغ الغيرة والتحاسد بين الأهل وبعضهم البعض أن يمحروا لبعضهم ويتحينوا الفرص لقتل بعضهم البعض؟ لماذا لا نتعلم من أولى جرائم البشرية، وأعني بذلك قتل هايل لأخيه قاييل فتقي أنفسنا شر الحسد وما يجلبه على صاحبه من الشرور؟ كدت أموت من القلق حين سمعت حديث شماشرجي أخي الأمير حسين كامل وما ذكره من تسلل قاتل إلى السلامك، ذهبنا إلى جناح الخديوي وهناك وجدنا القاتل مضرجاً في دمانه وأبي سالماً معاف، حاول القاتل أن ينفذ خطته الشريرة ريثما يغط الباشا في نومه لولا إرادة الله ويقظة أحد ضباط القصر اسمه أحمد، هو نفس الشخص الذي حدثك عنه في رسالتي السابقة، أعترف لك يا عزيزتي حواء أن إدراكي جد قليل لطبائع العلاقات بين الرجال والنساء، لكنني أجد نفسي الآن منجذبة للمكوث معه ومحادثته التي باتت عندي إحدى أهم الملذات والمسرات، ربما هي صداقة عذبة أو شاعرية بريئة أشبعت حاجة من حاجات قلبي، حقاً لا أدري.

احتراماتي لك ولوالدتك شازدل قادين وأعانقك عناق الحب ..
فاطمة"

"عزيزتي فاطمة، وصلني خطابك المؤرخ في 29 مارس 1868 وسعدت كثيراً به، نعم لقد سمعنا الأخبار المؤلمة وتألما كثيراً لمحاولة القتل الغاشمة التي تعرض لها جناب الخديوي، وحمدنا الله أنها باءت بالفشل وأن والدك خرج منها سالماً لم يمسه مكروه، ذكرتني تلك الحادثة بالحادث الخسيس الذي تعرض له والذي حين قتله غلماناه وفتياناه وتذكرنا آلامنا حينها إذ لم يتم الاقتصاص من قتلته، ولم نعلم من كان وراءهم، نعم يا عزيزتي الحسد آفة تدمر الحاسد والمحسود، فإذا كان الغنى والفقر سيكون سبب تعاسة البشرية وتحاسدهم أفضل أن أكون فقيرة وسعيدة على أن أكون غنية وتعيسة، آه يا عزيزتي الغالية كنت أعبطك لأنك لم تعرفي مسرات الحب وآلام الشوق الموجعة فالآلام عادة هي الأقوى، والآن أشفق عليك من تلك التجربة، لكنني لن أمنعك عنها ولن أشجعك على الهرب منها، بل خوضيها يا عزيزتي فمن حقك أن تحيها، أخبريني بالمريد دوماً عن فارسك الوسيم، ولا تنسي أن تقبلي لي أحاك الصغير الأمير فؤاد، قبلاتي وتحياتي"

دخل إسماعيل باشا المفتش مكتب الخديوي فوجده منكباً على بعض الأوراق كمدماً فأيقن أنه لازال تحت تأثير محاولة اغتياله فرأف لمصابه وأراد أن يخفف عنه

- هل تذكر يا مولاي، قطع النقود الذهبية التي كنت تضعها خلسة في حسائني وكنت توهمني أن الطباخ يضع قطعة كل يوم في الإناء الضخم وسعيد الحظ وحده هو من يحصل على القطعة؟

ابتسم الخديوي وقال: ما الذي دعاك لأن تتذكر هذه الوقائع البعيدة؟

- كنت تحب أن تكافئني وتأبى أن تجرحني، هل تذكر دروس الفروسية؟

- نعم، كنت تجمع الأولاد لتكون مجموعة من الندماء أكبر من مجموعة الأمير أحمد رفعت رحمه الله فيكون تشجيعكم أوضح وأكمل حتى يلحظني أبي فيخني عليّ ويغتاظ الأمير أحمد.

- ودروس الفروسية والنظام الغذائي القاسي الذي أعدته لك مريبتك الفرنسية حين زاد وزنك.

ضحك الحديو وقال: كنت ترأف بي وتأتيني بالشطائر الخلاة من صنع والدتك وتأكلها معاً محتبتين في اسطبل الخيل حتى لا ترائنا المربية أو خوشيار قادين .

ثم نظر في عيني أخيه وقال: كنت دوماً الأقرب إلى قلبي يا إسماعيل، كنت أقرب لي من إخوتي من أبي، كنت أقرب لي من أولئك الذين ربطتني بهم رابطة الدم.

قال جهلته الأخيرة وكأنه يغالب غصة في حلقه، فراقبه المفتش بتأثر وقال: ولازلت .. يا أخي العزيز، أنت عندي بمنزلة الأخ والصديق والسيد، وإني لشديد التأثر لحالك وأود أن تتعلم مما مر عليك فتخرج من مصابك أقوى.

رفع الباشا عينيه إلى حيث يقف أخوه الذي أكمل قائلاً: اكتساب ثقة الجميع وولائهم غاية لا تدرك، الحسد والجشع والغيرة آفات وأمراض وجدت في القلوب تبذر لأهون الأسباب وتكبر كلما كبرنا، من الصعب تجنبها، فحتى أعدل الحكام وأفضلهم تعرضوا لمحاولات قتل بسبب هذه الآفات، وهي أول ما يستغله الشيطان في الإنسان، فهي نقاط ضعف ولدنا

بها، لعبة الكراسي والحكم لعبة قاسية، يروح ضحيتها كثير، وإني مشفق عليك وعلى الطموحين لمنصبك منها، كم من إخوة انقلبوا على بعضهم بعضاً لأجلها، فحاذر يا أخي من أصدقائك وأعدائك على السواء، وحاول أن تحصد أعداءك وتخلص منهم قبل أن يبيتوا لك النية للتخلص منك.

- ومن هم أعدائي؟

- هم من يغارون منك ويتمنون لو كانوا مكانك ويؤلبون الرعية ضدك ويتحاكون عن مساوئ حكمك إذا ما أدت ظهورك إليهم.

- حين كنت في الآستانة علمت أن أخي الأمير مصطفى فاضل أرسل خطاباً إلى السلطان عبد العزيز يعدد له فيه مساوئ إدارتي للحكم، حدثه فيها عن انحياكم القنصلية التي تكون أحكامها غالباً ضد الحكومة المصرية وتجبرنا فيها على دفع أموال باهظة، وأن قيمة الأراضي هبطت هبوطاً حاداً بعد أن بدأ المرابون الأجانب بتملكها عن الفلاحين الذين عجزوا على أن يوفوا ديونهم.

- عليك إذن أن تعالج ما أخذه عليك وتأمين شره وتخلص من خطره في القريب، الأمير مصطفى فاضل حرم من ولاية العهد ولا بد أنه ناغم لأجل ذلك، ولا بد أنه يتمنى لو تمكن من أن يوغر قلب السلطان ضدك ليستبدله بك، ثم إن الأمير مصطفى فاضل أحد أغنى فروع العائلة ولديه ممتلكات كبيرة ورأس مال ضخم يستطيع أن يسخره خدمة لآربه.

- لا أود أن ألوث يدي بدماء أفراد عائلتي، لكن بوسعي أن أقص ريشه وأجبره على بيع ممتلكاته وأصادر بعضها الآخر.

- افعل ذلك إذن يا مولاي، واستغل محاولة قتلك لتفعل ذلك وانفه مثلما نفيت عمك الأمير محمد عبد الحليم.

نادى الباشا على حراسه فجاءه أحدهم والذي أمره أن يرسل في طلب البشوات لعقد الديوان في الحال، ثم نهض من على مقعده واتجه إلى المفتش وربت على كتفيه قائلاً: أخرجتني من حيرتي وخففت عني، فشكراً يا أخي ويا صديقي.

ابتسم المفتش قائلاً: حمداً لله على عودتك يا مولاي.

- والآن هلم بنا إلى الديوان.

هبط الباشا الدرج في خفة يتبعه المفتش فانحنى جميع من في القصر إليهما حتى إذا ما ركب الباشا عربته وأراد المفتش أن يركب أخرى أمره الباشا أن يركب معه وذهبا إلى الديوان معاً في عربة واحدة.

وفي الديوان قال الباشا للحضور: وصلتي الكثير من الشكاوى الخاصة بالحاكم القنصلية، ماذا عن هذه المخاكم يا نوبار باشا؟

- كان الوجود الأجنبي يا مولاي في القاهرة والإسكندرية منذ عهد محمد علي باشا متمثلاً في مجلسي التجار في البلدين وفيه الفصل في المنازعات التجارية بين الأوروبيين والمصريين، لكن في عهد سعيد باشا انتزع القناصل الأوروبيون بحكم العرف والعادة سلطة الحكم فيما يقترفه رعاياهم من الجرائم التي تقع على المصريين، والقضايا التي يرفعها رعاياهم على الأهالي، وحتى في أية منازعات بين رعاياهم والحكومة المصرية، حتى أن البالغ التي أجبرنا القناصل على دفعها لرعاياهم في أربع سنوات ما بين أعوام 1864 و 1868 بلغت 2 مليون وثمانمائة جنيه، وفي مصر يوجد الآن 17 محكمة قنصلية تحكم كل منها طبقاً لقوانين بلادها، وتلك المحاكم لا تقضي في المنازعات إلا قضاء ابتدائياً، وأحكامها تستأنف أمام محاكم الاستئناف في البلاد التابع لها، فإذا كان المدعى عليه فرنسياً يرفع

الاستئناف أمام محكمة اكس بفرنسا وإذا كان إيطاليا فينظر أمام محكمة انكونا وإن كان يونانياً ينظر أمام محكمة أثينا وإن كان إنجلترا ينظر أمام محكمة لندن وإن كان غمسياً ينظر أمام محكمة تريستا وإن كان ألمانيا فأمام محكمة برلين وإن كان أمريكياً فإلى محكمة نيويورك.

قال الخديوي: ذلك مضية للحقوق، تلك فوضى ومتاعب وعقبات ونفقات جسيمة ومضية للوقت ستؤدي لا شك إلى التنازل عن الخصومة والتسليم بالأحكام الابتدائية.

قال رياض باشا المهردار: حتى لو أدان الحكم الابتدائي في المحاكم القنصلية الرعايا الأجانب فإن تنفيذ الحكم يكون مقترنا بمحضور القنصل أو من ينوب عنه إلى منازل المحكوم عليهم من الأجانب وتحجم السلطات الأهلية عن اقتحام منازل الأجانب وحدها، فيضطر الأهليون إلى اللجوء للقناصل الذين يفصلون بأنفسهم في النزاع فيضطر المدعي مرغماً إلى قبول الوساطة بدلاً من الحصول على أحكام لا تنفذ.

قطب إسماعيل المفتش حاجيه وقال: ذلك ظلم بين!! ولماذا يا باشا لم نفعل مثلما فعل الأتراك؟ الدولة العثمانية لم تكن تعطي للأجانب حق تملك العقارات ثم خولت لهم هذا الحق العام الماضي نظير أن تقبل الدول الأوروبية خضوع رعاياها للوائح الضرائب العقارية والقوانين المالية والمحاكم العثمانية سواء كانوا مدعين أو مدعى عليهم؟

- كان علينا من البداية ألا نقبل بتملكهم الأراضي والعقارات إلا بتمير هذا الإنفاق مثلما فعل العثمانيون، أما الآن فماذا لدينا لنقايتهم به؟

قال الخديوي: بالإمكان الحصول على حل وسط، دون إغضاب الدول الأوروبية أو التفريط في حق رعايانا، بإمكاننا أن ننشئ محاكم مختلطة يكون

فيها القضاة مصريين وأوربيين للنظر في القضايا بين الجانبين، فلا نحن نخل بالامتيازات الممنوحة للأجانب ولا نحن نفرط في حق رعايانا، ستتولى أنت يا نوبار باشا مفاوضة الدول الأوروبية لإقناعها بتلك المحاكم ولتسمى "محاكم الإصلاح" وتختص بالنظر في القضايا بين المصريين والأجانب وبين الأجانب وبعضهم.

- بأمرك يا باشا.

- والآن، ماذا عن تملك الأجانب للأراضي وانخفاض قيمة الأراضي؟

قال إسماعيل المفتش: كان الفلاح في عهد سعيد باشا يؤدي الضرائب من غلة أرضه، فلما ارتفعت أسعار القطن خلال الحرب الأمريكية صار ما يباع من القطن من قبل بثلاثة جنيهاً يباع بثمانية أو عشرة جنيهاً، ولم ير الفلاح يسراً قدر ما رآه في ذلك العهد فقد هبطت أسعار القطن بعد الحرب وهبط الدخل هبوطاً جسيماً فاضطر الفلاح أن يوجد بكل ما عنده بعد أن اعتاد على مستوى معين من المعيشة حتى لم يتبق عنده إلا أرضه، حتى لوحظ أن سبباً من المربين الأجانب المضمولين بحمايات قنصلية كانوا يتبعون جباة الضرائب لدينا ليقترضوا الفلاحين المال المطلوب بفوائد قد تصل إلى 10% أو 12% في الشهر الواحد أي 120% أو 144% في السنة وهو ما أدى إلى هبوط قيمة الأرض فالفقدان الذي كان يباع بثمانين جنيهاً صار يباع بعشرين جنيهاً ولا زال في تناقص.

- يا الله .. لابد من توعية الفلاحين، وحصر ممتلكات الأجانب ومراقبة تصرفاتهم، والإسراع في إنشاء المحاكم المختلطة، لطيف باشا ماذا عن الأسطول الذي أمرت بزيادة عدده وتحديثه؟

- لدينا 18 سفينة حربية من فرنسا وإنجلترا وأمريكا وتريستا وواحدتان صنعتا في الإسكندرية، ثلاثة مدرعات وفرقاطة محمد علي من

الحديد والخشب والبقية من الخشب، إضافة إلى ثلاث بواخر حربية لركوب جلاتك هما المحروسة صناعة إنجليزية ومصر والغربية صناعة فرنسية وجميعها من الحديد، إضافة إلى تسعة طرادات وسفن نقل خمس منها من الحديد وأربع من الخشب جميعها صناعة إنجليزية باستثناء السفينة أسبوت صنعت في الإسكندرية.

- يعني المجموع 21 سفينة، رقم قليل للغاية لما كان عليه الأسطول أيام جدي الراحل محمد علي باشا، ماذا عن السفن الفرنسية والنمساوية المدرعة التي اتفقت لكم عليها؟

- بعد الانتهاء من بناء ثلاث بوارج مدرعة في فرنسا أرسلنا ضابطا لتسلمها، فجاءنا مندوب من السلطنة العثمانية يسلمنا اعتراض الدولة العثمانية بأن القرمات لا تبيع لمصر إنشاء سفن جديدة.

غضب إسماعيل باشا وقال: ولماذا لم تبلغوني؟

فقال نوبار باشا: انشغلنا يا مولاي بالحدث الأخير.

استمر الباشا في صياحه وكأنه يخاطب نفسه: ولماذا يمنعوننا من بناء أسطول خاص بنا، وقد قاموا بتحديث أسطولهم وإنشاء سفن كبيرة والإنفاق على إنشاء العديد من السفن الحربية في أحواض أوروبا؟ منذ زيارة السلطان عبد العزيز إلى بريطانيا ورؤيته أسطولها وهو يزيد من عدد سفنه حتى صار أسطولها ثالث أكبر أسطول بعد بريطانيا وفرنسا، لديه الآن 25 سفينة مدرعة بخلاف السفن الأخرى، فماذا يريد أكثر من ذلك ونحن لم نبخل عليه بأسطولنا في حرب القرم؟

أراد لطيف باشا التطوع بالمشاركة فقال: لا بد أن ذلك يبعاز من الإنجليز الذين يسوؤهم أن تجدد مصر قوتها البحرية.

وقال رياض باشا: أو هو الصدر الأعظم فؤاد باشا ساءه ما حظيت به عند السلطان.

فقال إسماعيل المفتش: العلاقة بيننا وبين الدولة العثمانية متوترة منذ فترة ليست بالقليلة يا مولاي، لعل جلالتك تذكر رفض طلبك من الباب العالي أن يوافق على حق تعيين سفراء لمصر لدى الدول الأجنبية وأن جلالتك هددت الحكومة التركية بسحب جنودك من كريت أو أن تستحوذ على الجزيرة إذا هم لم يجيبوا طلباتك، ثم اشتراكك في معرض باريس وظهورك بمظهر الملك المستقل والآن جلالتك تأمر بمفاوضة الأوربيين في المحاكم المختلطة دون وساطة الباب العالي، كل تلك الأمور تزيد من حساسية الموقف بيننا وبينهم.

- العثمانيون لا أمان لهم، وقريباً سنستقل نهائياً عنهم وعن تحكمتهم، أنا فقط أنتظر اللحظة المناسبة وقد صارت قريبة للغاية.

تبادل الجميع نظرات قلقة قبل أن يسأل الباشا: هل رجالنا لازالوا في فرنسا؟

- نعم يا مولاي.

- أرسل للعثمانيين يا نوبار باشا إذن، أنهم عليهم أن يشتروا السفن إذا أرادوا ألا تتسلمها، هل عاد شاهين باشا من فرنسا؟

- نعم يا مولاي، قد استعرض الكتيبة السودانية في فرنسا بصحبة الإمبراطور نابليون الثالث وهو في طريقه إلى البلاد الآن.

- سأقيم حفل استقبال لجنودنا حين عودتهم في رأس التين في الإسكندرية، لكني أود منه فور مجيئه أن يهتم بترميم الحصون القديمة وينشئ حصونا جديدة بين الإسكندرية وبورسعيد، اشتروا من معامل أرمسترونج بانجلترا مائتي مدفع سلحوا بها حصون الإسكندرية وأبو قير ودمياط ورأس البر، واشتروا بنادق جديدة للجنود، أما أنت يا لطيف باشا أود منك أن تعني بإصلاح ميناء الإسكندرية، لا يجب أن تراحم بورسعيد

الإسكندرية على التجارة وتحول إليها كل حركة التجارة الخارجية، انشئوا حوضاً عائماً جديداً من الحديد لإصلاح السفن بدل الحوض المبنى من الحجر من عهد محمد علي باشا، وانشئوا حاجز أمواج ضخماً يمتد من رأس التين إلى العجمي وفيه بوزار لممر السفن، وانشئوا كذلك أرصفة شحن وتفريغ، ولا تنسوا تسليح قلعة قايتباي بالمدافع الجديدة، انشئوا فنارات جديدة في البرلس ورشيد ودمياط وبورسعيد والعجمي وغيرها من الأماكن، كذلك اهتموا بإنشاء فنارات جديدة في البحر الأحمر لكثرة صخوره يكون أولها في السويس ورأس الغريب والوجه في ثغور الحجاز.

امثل الجميع لأوامر الباشا وإن كانوا لا يدرون هل أوامره طرفة جديدة وتحديث جديد يدخله على نواحي الدولة المختلفة، أم أن التحديثات المرادة للجيش وحصونه مردها اقتراب شيخ الحرب بعد تفاقم الأزمة بين مصر والدولة العثمانية مرة أخرى مثلما سبق وأن حدث بينها وبين جده محمد علي باشا من قبل؟ كانت طبول الحرب تفرع بالقرب من آذان الجميع.

قال حافظ باشا: لكن مالية البلاد لا تتحمل كل ذلك يا مولاي.

- حافظ باشا، أنت خدمتنا بإخلاص المدة الماضية لكنك غير كفء لهذه الوزارة، رياض باشا حرر أمراً خديوياً بتولية إسماعيل باشا صديق وزارة المالية.

سر المفتش كثيراً وشكر الخديو وهنأه الحضور وانسحب حافظ باشا بعد أن حيا الخديوي ثم منافسه الذي نافسه على مكانه.

قال الخديوي موجهاً حديثه إلى رياض باشا: أريد منك أيضاً أن تصدر أمراً بنفي الأمير مصطفى فاضل فقد ثبت لدينا تورطه في الحادث الأخير، واشتروا منه جميع أملاكه وأملاك عائلته.

لم يكن الخديوي إسماعيل يدرك تاريخ القاهرة القديم قدم الدنيا، لكنه كان يثق في أنها مدينة عريقة تستحق أن تصبح أفضل حالاً، وأن يمنحها وجهاً حضارياً متألّفاً، فكان يأمل أن يجعل منها باريساً جديدة في الشرق، لذا بكر في صحوه هذا اليوم مسروراً، فقد كان على موعد مع أحلامه العريضة التي أرادها لعاصمة ملكه، إذ كان سيقابل مسيو هاوسمان الذي انتهى من التطواف والتجوال في القاهرة أخيراً منذ أن أتاها مع الخديوي وبتكليف من الإمبراطور الفرنسي وباتفاق معه فوضع مخططة الأولى، كان الخديوي قد طلب أن يحضر المقابلة أيضاً إسماعيل باشا المفتش وعلي بك مبارك.

نزل الخديوي إلى حديقة قصره فوجد الحضور بانتظاره فحياهم باسماً ليبتدئ علي بك مبارك الحديث قائلاً: قد طفت مع المسيو هاوسمان طوال الأيام الماضية واستمع مني إلى وصف المدينة وتباحثنا فيما يود صنعه.

فقال الخديوي موجهاً حديثه لهاوسمان: أخبرني ما الذي وجدته في القاهرة وما الذي تنوي فعله مسيو هاوسمان؟

قال هاوسمان: مولاي، القاهرة تمتد من منطقة القلعة بسفح المقطم شرقاً وتنتهي حدودها الغربية عند مدافن الأزيكية وميدان العتبة والمناصرة، يفصلها عن النيل برك ومستنقعات وتلال ومقابر، أفكر أن نبدأ بتخطيط المدينة الحديثة من هذه الجهات.

قال الخديوي: أود أن تفكروا في طريقة لتغيير مجرى النيل وجعله يمر وسط العاصمة مثلما يمر نهر السين ويقطع قلب العاصمة الفرنسية باريس، وأن تقام عليه الكباري الضخمة.

قال علي بك الذي كان مهندساً قديراً محدثاً هاوسمان: أقمنا بالفعل حواجز خرسانية كمصد لتغيير مياه الفيضان لتتجه إلى الشرق وتنحرف في تربة الشاطئ الشرقي فيتسع النهر في هذا الاتجاه، ثم أقمنا حواجز ترابية لسد مدخل المجرى القديم، ثم أقمنا حواجز خرسانية بزاوية مناسبة لنعيد توجيه النيل من جديد إلى مجراه الغربي الأصلي عند منطقة امبابة وبولاق فتشكلت لدينا في النهاية جزيرة وسط النهر بين مجريه القديم والجديد، كما نتج عن انحسار مياه النيل أن تخلقت أراضٍ كثيرة غزيرة الطمي.

قال الخديوي: لتكن تلك الجزيرة مصيفاً لأهالي القاهرة ولتسمى الزمالك، على ألا تقام عليها مبانٍ ثابتة، فقط كبائن استحمام وحدائق عامة ومتزهات باستثناء سراي الجزيرة التي ستسكنها الإمبراطورة أوجيني حين تأتي لحضور احتفالات قناة السويس فقد أخبرني ديلبس أن الإمبراطورة وعدته بحضور حفل الافتتاح، أليست الإمبراطورة ذات أصول اسبانية؟

- وي مسيو، الإمبراطورة ولدت في غرناطة لكونت شهير هناك.

- إسماعيل باشا، أرسل في طلب مهندس البلاط الحديوي يوليوس فرانس، ومُره أن يبني سرايا على جزيرة الزمالك تليق بالإمبراطورة وأن تكون على غرار قصور الحمراء (الهميرا) في غرناطة، وأن ينتهي من البناء قبل بدء الاحتفالات بوقت كافٍ.

- بأمرك يا مولاي.

أود أن تشتمل السراي أيضاً على حديقة حيوان تفرش مساراتها وطرقها بالرمال والزلط الملون.

قال هاوسمان: عظيم، هناك أيضاً ملحوظة بخصوص مداخل القاهرة، فجميعها مدافن وخرائب وهي أسوأ دعابة لأي زائر للمدينة، لابد من إعادة تعميرها، لذا وضعنا مخططاً لتقييم ميداننا عند محطة القطار في المنطقة التي يسميها الأهالي بباب الحديد عند مدخل القاهرة الشمالي وكذلك نعيد تخطيط منطقة شبرا بالكامل حتى ترعة الإسماعيلية التي تغذي مدن القناة الجديدة بالماء، وننشئ شارع شبرا كمحور لمدخل القاهرة الشمالي ونجمله بالأشجار المستوردة من الخارج على جانبيه، أما المدخل الشرقي فنحوله إلى حي قصور وبساتين بدلاً من مزارع الفجل وعشش الفلاحين ساكني الفجالة، أما المدخل الجنوبي فيشمل تخطيط وتنسيق أحياء حلوان والمعادي وحتى مصر القديمة وتحويلها إلى بساتين ومشاتل أزهار، أما المدخل الغربي فسيكون شارعاً طويلاً مستقيماً من الأهرام حتى ميدان الجزيرة.

- جميل، أريد لهذا الشارع أن يردم موقعه بارتفاع أربعة أمتار، ورصفه ببلاطات حجرية وزراعة جانبيه بالأشجار الكبيرة ومنع البناء على الجانبيين لمسافة ستة أمتار، أريد أن ينتهي ذلك الطريق في القريب ليكون

متاحاً للزوار قبل احتفالات القناة، أما الأراضي المطلة على مداخل القاهرة والتي تريدون بناء القصور عليها فأنا أهيبها للأعيان وكبار رجال الدولة مجاًناً بشرط أن يقوموا ببناء قصورهم خلال عامين فقط.

- بأمرك يا باشا، لدينا أيضاً مخطط لربط أحياء القاهرة بعدد من الكباري والجسور، سننشئ كوبري قصر النيل ليكون أول كوبري في إفريقيا وأول جسر على النيل من منبعه إلى مصبه ليكون من أجل قناطر العالم حيث سترينه بأربعة سباع من البرونز ستحت له خصيصاً في إيطاليا، سننشئ أيضاً عدداً من الكباري الأخرى مثل كوبري امبابه ليسر عليه خط السكة الحديدية الخاص بالصعيد، وكوبري لربط الجزيرة بالقاهرة، وكوبري البحر الأعشى على السيلة التي تجف مياهها في غير أوقات الفيضان لربط ضفتي الفرع من جزيرة الزمالك وشاطئ الدقي بالجزيرة وكوبري الزمالك من الزمالك إلى الجزيرة.

- ومن سينشئ تلك الكباري والجسور؟

- راعينا أن تكون شركات أوروبية مختلفة ومصممين مختلفين يا مولاي لإضفاء التنافس بينهم، أحد مصممي الكباري هؤلاء سيكون جوستاف إيفل (17)

- رائع، وماذا عن المرافق؟

قال علي بك: لن تعتمد العاصمة على السقاية والإضاءة بالقناديل من جديد، سنجتهد في مد أنابيب المياه للشرب وري الحدائق والصرف الصحي والإضاءة بغاز الاستصباح وإقامة الشوارع والأرصفة ورففها بالبلاطات الحجرية وعمل أفاريز خاصة للمشاة.

- وماذا عن الحدائق؟

- سنجلب أشجاراً نادرة من الهند والسودان وإفريقيا والصين وأمريكا وأوروبا لحديقة الأزبكية ومعظمها أنواع استوردت لغاية "بولونيا" في باريس كما سننشئ حديقة النباتات بالجيزة في جنوب القاهرة وحديقة الأمير حسين كامل بالقرب من قصره (حديقة الأورمان فيما بعد) وحديقة الجزيرة (بقي منها الآن حديقة الأسماك).

قال علي بك: يشمل التخطيط أيضاً إنشاء دارٍ للآثار العربية، ودارٍ للكتب، ودارٍ للمعارف، ودارٍ للرصد، ودارٍ للجغرافيا، ودارٍ للعلوم، ودارٍ جديدة للآثار الفرعونية، ومصلحة للمساحة، ومدرسة المهندسخانة، ومدرسة الصناعات والحرف، وثكنات الجيش، والمدرسة الحربية بالعباسية، ودارٍ للأوبرا على طراز أوبرا لاسكال دي ميلانو ومسرحٍ للكوميديا (مبنى المطافي الآن) وآخر وطنياً (المسرح القومي).

- وماذا عن المساجد؟

- راعينا في التخطيط تخصيص مواقع لبناء المساجد وأضرحه آل البيت يا مولاي فاشتمل التخطيط على بناء مسجد سيدنا الحسين ومسجد وميدان السيدة زينب لكن تواجهنا مشكلة مقابر ومدافن العتبة الخضراء والأزبكية.

- لقد تحدثت مع شيخ الأزهر واتفقنا على إنشاء مسجد فوق عظام تلك المقابر ليكون مزاراً لأهالي المتوفين وليكن اسمه مسجد العظام، ماذا عن الميادين والأحياء الجديدة مسيو هوسمان؟

- سننشئ أحياء جديدة كاملة وميادين جديدة كميدان الخديوي إسماعيل (ميدان التحرير الآن) يكون مشابهاً لميدان الإيتوال في باريس، وميدان إبراهيم باشا (ميدان الأوبرا الآن) وميدان سليمان باشا وشارعه

(ميدان طلعت حرب وشارعه الآن) وشارع كلوت بك رائد الطب المصري، وأحياء التوفيقية، وعابدين، وميدان الأوبرا حيث ستقام الأوبرا، وشارع الفجالة الجديد، وشارع محمد علي، وشارع عبد العزيز بما يجعل المساحة الكلية للقاهرة ألفي فدان بحيث تتضاعف مساحتها أربعة أمثال مساحتها الأصلية وبقدرة استيعابية قدرها 750 ألف نسمة بينما الكثافة الحالية 350 ألف فقط، بما يعني انخفاض الكثافة السكانية في العاصمة إلى النصف، أيضاً جلالتك أمرت بإنشاء تماثيل لتجميل الميادين العامة أسوة بالبلدان الأوروبية.

- صحيح، ليكن لجدنا محمد علي باشا تماثيل في الإسكندرية، وليكن لإبراهيم باشا تماثيل في مدخل دار الأوبرا وليكن لسليمان باشا تماثيل في ميدان سليمان باشا (18). كل ما قلموه عظيم، المهم التنفيذ .. إسماعيل باشا، اقترض ما يوفي تلك المشاريع العظيمة.

- تفاوضت بالفعل يا مولاي على اقتراض 12 مليون جنيه من بنك أوبنهايم وخصصت لسداد أقساطه السنوية إيرادات الجمارك وعوائد الكباري وإيراد الملح ومصائد الأسماك والذي قدر دخلها بمليون جنيه في السنة لتغطية نفقات الإنشاءات الجديدة وحفلات افتتاح قناة السويس، على أنهم اشترطوا أن نكف على الاستدانة مدة خمس سنوات.

قال الخديوي غاضباً: من هؤلاء ليشرطوا علينا أو لا يشرطوا؟ ألا ينالون أقساطهم في النهاية؟ نحن أمة تسابق الزمن لتنهض.

- هون عليك يا مولاي، فقيمة القرض أكبر من كل ما سبقه من قروض، ثم إنه لا يوجد على هذه الأرض من يجبرنا على الاقتراض أو عدم الاقتراض، فنحن من نسير شئوننا.

كانت العلاقات بين الخديوي والآستانة قد ساءت كثيراً حتى ترددت الأنباء التي لم تكن بعيدة عن مسامع الباشا عن احتمالية إرسال الجيوش العثمانية إلى مصر، لأجل ذلك رأى أن يعيد تجهيز جيشه وترميم قلاعهِ وحصونه ليكون على استعداد لأي غدر، كانت خطته أن يفتح الملوك الأوربيين ضيوف الحفل في استقلالهِ عن السلطنة العثمانية وأن يعتمد عليهم لأجل ذلك وكان قد بالغ في التقرب منهم طوال الأعوام الماضية ليحصل في النهاية على دعمهم لمشروعه الكبير، فهو يعلم أن سبب فشل جده محمد علي في تحقيق الاستقلال الكامل عن الدولة العثمانية هو عدم اتفاق مصالح أوربا معه، أما هو فقد تعلم الدرس وراعى طوال مدة حكمه أن يوحد مصالحه مع مصالحهم.

أمضى الباشا مطلع ذلك العام في أسفار إلى مختلف الممالك والعواصم الأوربية في مواكب ملكية يحمل معه بطاقات من جلد الفيل مزينة بالنقوش يعلن فيها أنه يسره أن يدعو الأسرة المالكة ومن يريدون دعوته لحضور حفل افتتاح قناة السويس ليلمسوا مدى ما أحرزته مصر من تقدم مادي ومعنوي في السنوات الأخيرة، فلما علمت السلطنة العثمانية بأسفاره هاج الصدر الأعظم وأرسل إلى سفراء الدولة العثمانية في أوربا يأمرهم فيها بالاحتجاج الشديد على ما قام به إسماعيل، واعتبار زيارته وتوجيهه الدعوات للملوك والأمراء عملاً خارجاً عن حدود اللياقة، وأن الدعوة لحضور حفلات قناة السويس يجب أن تقدم باسم السلطان العثماني لا

باسم واحد من ولاته، فما كان من الخديوي الذي فضل ألا يدعو السلطان كي لا ينازعه ويسرق منه الأنظار ويحول الفضل والشرف إليه إلا أن أرسل مائة ألف جنيه للصدر الأعظم كي يشتري سكوته، ولما سئل من السفير الإيطالي عن ذلك لم يخش وقال له صراحة إن الأتراك إما أن تتعامل معهم بالرشى وإما أن تكشر لهم عن أنيابك.

على أن تلك الاحتجاجات التي قام بها السفراء العثمانيون سببت ربكة لدى بعض مدعويه بالفعل، فقد رفضت الدول الأصغر قريبة الصلة بالدولة العثمانية أن يوجه الخديوي إسماعيل لها الدعوة دون السلطان العثماني مثل اليونان، والسويد، والنرويج، وبلجيكا، أما بالنسبة لفرنسا فقد اعتذر الإمبراطور نابليون الثالث لانشغاله بافتتاح الدورة البرلمانية وأرسل زوجته الإمبراطورة أوجيني بدلاً منه، وقد وجد الخديوي مبرراً ليسعد على نحو ما باعتذار نابليون ومجيء أوجيني منفردة، ذلك لأنه سيسعد بصحبتها وحده، ومن النمسا حضر الإمبراطور فرانسوا جوزيف إمبراطور النمسا ومملكة المجر بصحبة الكونت دي بست والكونت أندراسي من وزراء النمسا والبارون بروكتش سفير النمسا في الآستانة، وبالنسبة لبريطانيا فقد اعتذرت الملكة فيكتوريا عن الحضور وأتابت عنها السير هنري إليوت سفيرها في القسطنطينية لحضور الحفل الذي جاء بصحبة عقيلته الليدي إليوت والأمير إدوارد ولي عهد التاج البريطاني، واعتذر ملك بروسيا الذي توجه إليه الخديوي إسماعيل في برلين لمرضه وكبر سنه وعدم مقدرته على القيام برحلة طويلة إلى مصر وأتاب عنه ولي عهده الأمير فريدريك ويلهلم، واعتذر ملك هولندا وأتاب عنه أخاه الأمير هنري وزوجته، وأتابت عنها روسيا سفيرها لدى الباب العالي في الآستانة الجنرال اجناتيف الذي جاء بصحبة

زوجته، وعدد آخر من الأمراء، ورغم كثرة عدد الضيوف الذين لبوا النداء في ضربة قوية من الخديوي إلى الصدر الأعظم ومحاولاته التي فشلت، أراد الباشا أن يوسع دائرة مدعويه فأمر نوبار باشا بدعوة ملك السكسون، وإمبراطور إيران، وملك البافار، وباي تونس على أنه تراجع في النهاية لأنه لو فعل ذلك لاضطر لبناء عشرة قصور أخرى في الإسماعيلية، المدينة الجديدة التي أنشئت على اسمه وتقرر أن تكون فيها الاحتفالات.

طلب الخديوي من الإمبراطورة أوجيني أن تبكر بحضورها إلى مصر قبل موعد الاحتفالات ليتسنى له الاحتفاء بها فأجابت طلبه وجاءت إلى الإسكندرية في يوم 23 أكتوبر 1869، في هذا اليوم دب النشاط في شوارع المدينة وطرقها وبالأخص بين أفراد الجالية الفرنسية المقيمة بالمدينة، والذين أرادوا استقبال إمبراطورهم استقبالاً يليق بها، فكونوا منهم لجنة استقبال وأخذت التبرعات تتوالى في مقر القنصلية الفرنسية، وبنك درفيو، وكافيه دي فرانس، ومكتب جريدة لونيل، فقد كان اليوم احتفالاً كبيراً بالنسبة إليهم.

عدل فرديناند ديلسيس ربطة عنقه للمرة العشرين منذ أن ارتداها هذا اليوم وهو يركب العربة إلى جوار مسيو فرانسوا بيرى قنصل فرنسا العام في مصر باتجاه ميناء الإسكندرية، وبمجرد أن لاحت الباخرة الإمبراطورية الفرنسية ليجل L'Aigle (النسر) التي تحمل الإمبراطورة وحاشيتها المكونة من ثلاثين خادماً وكوافير البلاط وعدد من الوصيفات حتى استقلا مركبا ليكونا أول من يستقبلاهما في عرض البحر ويحصلان منها على التعليمات الملكية.

وصلت أوجيني الميناء وكان في استقبالها الخديوي الذي حياها باسمًا
منحنيًا ليلثم يدها: مرحباً بك جلالة الإمبراطورة.

- مرحباً بك يا باشا.

- تشريفك شرف كبير، وأنا عند وعدي.

قطبت حاجيها الجميلين وهي تتساءل: أي وعد؟

قال مبتسماً وهو يستحنها على المسير إلى جواره: وعد قطعتة على
نفسي قبل عامين، أن أحتفي بجلالة الإمبراطورة احتفاءً يليق بها إن هي
شرفتني بالزيارة.

ركبت الإمبراطورة إلى جواره في القطار الخديوي في الطريق إلى
القاهرة، وكان كثيراً ما يصمت وتلوح على شفاهه بسمة باهتة لا ينع
معها ناظره من التمتع بجمال الإمبراطورة البديع، كان يرثي لحاله حين
يقارن بينها وبين زوجاته، لكن ماذا عساه أن يفعل رغم مكانته وغناه
الفاحش فإعجابه بالإمبراطورة مآله الفشل لا شك، فهي زوجة لإمبراطور
الفرنسيين وأم لصبي منه، نفى من ذهنه تلك الأفكار ورأى أن يستمتع
باللحظات التي أتاحت له وبالأيام التي ستقضيها في ضيافته وأن يكفي
بمشاعر الحب العذري والإعجاب الرقيق والبرئ الذي يكنه لها فهو يكفيه،
أما بالنسبة لها ولأنها أنثى ذكية فقد قرأت الإعجاب في عينيه منذ لقائهما
الأول، لم تتضايق أو تنفر منه بل على العكس فقد أسعدها أن ترى نظرات
الإعجاب في عينيه، علاوة على أنها اعتادت على تلك النظرات في عيون
الكثيرين من حولها فكانت تسعدها وترضي غرورها كأنثى طالما لا يتخطى
إعجاب الخيطين حدود اللياقة والأدب، هي امرأة جميلة، ذكية، غنية، على

قمة هرم السلطة في العالم فمن لا يتمناها لنفسه من الرجال؟ كان يطربها أن يهديها تفكيرها إلى هذا السؤال.

قالت بدلال وهي تغلق مروحتها: ماذا أعددت لي من مفاجآت يا باشا؟

- أولها المكان الذي ستقيمين فيه وآمل أن يحظى بإعجابك.

وصل القطار القاهرة حيث صحبها الباشا إلى سراي الجزيرة في عربة ملكية تجرها ثمانية من أجاويد الجياد السود وتحفها كوكبة من الفرسان سيوفهم مشهورة، فأعجبت لفخامة السراي ونوافذها العالية وبواكيها الأندلسية.

- لقد أعددتة خصيصاً على طراز قصور الحمراء في غرناطة موطن جلالته الإمبراطورة.

- أوه، أنت مجامل رقيق يا باشا، لقد أعجبني كثيراً.

تجولت الإمبراطورة في القصر وهي شديدة التأثر وقالت: لقد ذكرتني بإسبانيا، وزهور الكرز هناك.

أشار الباشا إلى أحد رجال الحاشية المائة الذين خصصهم للإمبراطورة وأغلبهم من الوزراء وأمره أن تزرع شجيرات الكرز أسفل شرفة الإمبراطورة في الحال، وهو يريد بذلك أن يثير إعجابها. انفت الباشا إلى الإمبراطورة التي بدت أكثر سعادة وتأثراً وحياتها ووعداها بمجدول حافل قبل أن يتركها للراحة هذا اليوم.

دخل المفتش على الخديوي في مكتبه هذه الليلة فوجده مسهداً يقف أمام النافذة شاردأ حتى أنه لم يدرك دخوله، تنحج المفتش فأحس به الباشا ونظر إليه قائلاً: أهلاً إسماعيل، منذ متى وأنت هنا؟

- دخلت لتوي يا مولاي.

- قل لي يا إسماعيل، كم بلغت عدد محظياتك حتى الآن؟ أنا سمعت أنك تكثر من شراء الجواري.

- ومن لا يجب شراء الجواري يا مولاي؟

- صحيح، النساء كالزهور، ألوان مختلفة وروائح مختلفة، أليس كذلك؟

- هو كذلك بالضبط.

- لكن ألم تعجب بزهرة ذات يوم، جعلتك تقارن بينها وبين ما عداها، فتمناها وتشقى لأجلها ولا ترتضي بمن سواها؟

- هل يقصد مولاي الحب؟

- نعم، هو ذلك، الحب.

- الحب إحساس جميل، لكنه مثل كل شيء في هذه الدنيا له بداية وله نهاية، أما بدايته فهي الإعجاب والشغف بالمحبة والشوق لها وتمنيها واختزال الحياة ومتعتها فيها، وأما انتهية فهي نوعان، إما أن يموت الحب وتنطفئ الأشواق وتهدأ جذوة نيران الحب في قلبه حين يحصل على بغيته وينال محبوبته، وإما لا ياتنها ويبقى على شغفه وشوقه حتى يقترب من دائرة المس والجنون فيصير ضحية لمحبوته يدور في فلكها ويلحقها ملاحة الدراويش والشعراء الذين صرعههم الحب.

وجم الباشا فتناول كوباً من الشاي وضع على مكتبه وجعل ينظر إلى الدخان المتصاعد منه وهو يقول: وجهة نظر جديدة بالتأمل، لكنك على ما يبدو لي لا تفرق بين حب الروح وحب الجسد.

- حب الرجل للمرأة لا يتجزأ ولا يتنوع يا مولاي، الحب واحد ويحمل كل تلك المعاني مجتمعة، فالحب يحب الجسد والروح معاً، لن يكتفي بالروح دون الجسد ولن يرتضي بالجسد دون الروح.

- فإن استحالت المحبوبة على الحب، كيف يكون الخلاص؟

- بأن يعلم الحب أن كل النساء سواء، وأن المرأة وحدها هي التي تنسي الرجل أخرى .. ألم يقل قيس بن الملوح: تداويت من ليلي بليلى عن الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمير؟

ثم ابتسم قائلاً: يبدو أن مولاي يحب من جديد.

تنهد الخديوي وقال: ربما.

- وما الذي يمنعك عنها، جنابك؟ مرها فتأتيك راحة.

- لا ينال المرء كل ما يتمناه يا إسماعيل.

- صدقت يا مولاي، دعني أساعدك وأنسيك تلك التي أرتكك إذن، لدي جارية جديدة مليحة إذن لي أن أرسل في طلبها.

قال الخديوي في ضيق: لا رغبة لي في جوارٍ جديدة يا إسماعيل.

صمت المفتش برهة قبل أن يقول: شاهدها يا مولاي، لن تخسر شيئاً فإن كانت لا تعجبك اصرفها.

- حسناً.

خرج الباشا من مكتب الخديوي وهبط الدرج إلى البهو الداخلي
للقصر حيث أمر الحراس أن يأتوه ببشير أغا.

- خير يا باشا؟

- اذهب يا بشير إلى قصري، واطلب من الأغوات هناك أن يأتوك
بالجارية الجديدة التي تتحدث الفرنسية وتعال بما إلى مولانا الخديوي.

- بأمرك يا باشا.

أمسك المفتش بذراعه قائلاً: انتظر.

ثم أتبع بصوت خفيض قائلاً: كن أنت مسئولاً عن تجهيزها: لجنابه،
اجعلهم يزنيوها ويصفقوا شعرها بنفس طريقة تصفيف شعر الإمبراطورة
أوجيني، هل تسمعي وتفهمي يا بشير؟ أريدها قريبة الشبه منها.

ابتسم بشير وهو يومي برأسه ويقول: مفهوم يا باشا.

رحل بشير أغا وابتسم إسماعيل باشا المفتش بدوره وكأنه يحكي ذكائه
وفطنته، ويقول بسخرية: حري بملكنا أن يضاجع فرنسا الآن فتهداً نفسه!

قضى الباشا في صحبة ضيفته أجمل أيامه وأروعها فقد صحبها في زيارة إلى متحف الآثار المصرية في بولاق حيث استمعت إلى شروح المسيو مارييت والذي أمر بإعداد كتاب عن الحضارة الفرعونية بالفرنسية لتقدمه إلى ضيفة الخديوي، كما ذهباً معاً إلى القلعة حيث استمعت إلى تاريخها، وإلى مسجد السلطان حسن، كما ذهبت معه إلى حدائق شبرا والغربة والمطرية، وكانت ترتدي في كل مرة ثوبا فاخرا جديدا، كما حضرت العديد من الاحتفالات في مختلف قصوره، وتعرفت إلى زوجاته، وشاهدت حفل زفاف في قصر الوالدة باشا، حتى أنها رافقته في رحلة إلى أسبوط حيث تمت ركوب الحمار فأمر بحمارين وسارا معاً بهما، كما سافرت إلى الأقصر وفي طريق عودتهما عرجت على منطقة سقارة ومنها اتجهت إلى أهرام الجيزة حيث تناولت العشاء معه في الشاليه الخاص به المطل على مشهد الأهرام، وفي 13 نوفمبر انتقلت إلى الإسكندرية حيث أمضت هناك يومين قبل أن تستقل مركبها لتصل في اليوم الثالث إلى بورسعيد وتكون في طليعة المدعوين.

وصلت السفن والمراكب تقل المدعويين وكان بينهم الإمبراطور فرانسوا جوزيف الذي تمكن من النجاة بسفينته من عاصفة هوجاء عند مغادرته ميناء يافا الفلسطيني ليصل في موعده حيث أطلقت المدافع تحية للمدعويين من واحد وعشرين طلقة وفي الطلقة الأخيرة أنير الميناء بالكامل وأثيرت الزينات عند مدخل القناة الشمالي وسط صياح الحضور وابتهاجهم، وبعد ظهر هذا اليوم أقيم على ساحل بورسعيد ثلاثة سرادقات ضخمة مكسوة بالحرير والديباج خصصت الوسطى أكبرها للخدوي إسماعيل وضيوفه من الملوك و الأمراء و كبار المدعويين والأمير محمد توفيق باشا ولى عهد مصر، والأمير طوسون باشا ابن محمد سعيد باشا الوالي السابق الذي وقع عقد امتياز حفر قناة السويس مع دى ليسبس، وشريف باشا وزير الداخلية ورئيس المجلس الخصوصي العالي المصري، ونوبار باشا وزير الخارجية، وشاهين باشا وزير الحربية، والمسيو فردينان دى ليسبس، والأمير عبد القادر الجزائري وغيرهم، وخصصت الثانية إلى اليمين لرجال الدين الإسلامي ومنهم الشيخ مصطفى العروسي، والشيخ إبراهيم السقا والثالثة إلى اليسار خصصت لرجال الدين المسيحي والمدعويين من الدرجة الثانية من أمثال الأديب العالمي إميل زولا، والمفكر جوتييه، ومن كبار الرسامين جيروم و فروممتان و تور نعيم، والمستكشف البريطاني السير صمويل بيكر وعدد كبير من العلماء والمفكرين والأطباء والمصورين والصحفيين الغربيين.

كان الجنود قد اصطفوا بين الميناء والمنصات الثلاث لحفظ النظام ومنع الازدحام وكانت السفن الحربية والتجارية تقف في البحر أمام ميناء بورسعيد على شكل قوس بديع المنظر، وبعد أن تناول الجميع الغداء على شرف الخديوي أخذت الموسيقى تصدح، وعزف النشيد الوطني الفرنسي

لتدخل الإمبراطورة أوجيني في صحة الخديوي إسماعيل إلى مكان الاحتفال وبعدهما كبار المدعويين حيث دوت المدافع من كل جهة في طلقات متتابعة.

وفي أعقاب ذلك قام علماء الإسلام بتلاوة القرآن، ثم ألقى الشيخ إبراهيم السقا شيخ الجامع الأزهر كلمة تبريك باللغة العربية ثم قام أحبار المسيحية فانشدوا نشيد الشكر اللاتيني (التدثيم) و شاركهم فيه كل من شاء من المسيحيين وفي مقدمتهم الإمبراطورة أوجيني والإمبراطور فرانسوا جوزيف حيث صعد المونسنيور باوير مرشد قصر التويلرى وكان يرتدى رداءً أرجوانياً وطاقيّة مربعة وألقى ثناءً على فرنسا الكريمة وإمبراطورتها الجسورة، وتحدث عن الحفل حيث وصفه بأكبر أعياد الجنس البشري وأكثر ساعات هذا القرن مهابة ففيه تقارب طرفي العالم شرقه وغربه.

تحركت السفن بينما وقف الأهالي بنسائهم وأطفالهم على خط القناة فانتشروا من فلاحين ونوبيين وعربان بملابسهم التقليدية تحية للموكب الإمبراطوري، وفي صباح يوم 17 نوفمبر دخلت السفينة ليجل تتبعها سفينة إمبراطور النمسا ثم أربعون سفينة أخرى قناة السويس حيث أقيمت أقواس النصر وبوابات للزينة على شكل أهرام شاهقة الارتفاع، وفي أثناء عبور الموكب أمام القنطرة قامت السفينة الحربية المصرية لطيف بإطلاق مدافعها وأقام عمال شركة قناة السويس على ضفاف القناة من الجهتين زينات رائعة الجمال بديعة كتب عليها بأوراق الشجر كلمات في تحية الإمبراطورة، وعندما وصلت السفينة الإمبراطورية إلى الإسماعيلية صعد الخديوي إسماعيل على متنها ليهنئ الإمبراطورة أوجيني بسلامة الوصول التي ما إن نزلت على ضفاف بحيرة التمساح حتى بدأت الأفراح.

أنبرت مدينة الإسماعيلية بالكامل، وامتطت الإمبراطورة جواداً عربياً مطهماً حيث ذهبت إلى قصر الخديوي على ضفاف البحيرة التي عكست صورته وتلألأت مياهها بأنواره.

لم يكن أحد يصدق ما يراه بأعينه وقد صاحب الخديوي في تحركاته من قبل وشاهد الكثير من المواكب الملكية والبذخ الخديوي لكنه أبداً لم يشهد شيئاً كهذا، كان قد تم استدعاء خمسمائة طبّاخ من "مرسيليا" و"جنوة" و"تريستا" لإعداد وليمة تلك الليلة، فأخذ يمر على الموائد الطويلة التي رصت بما لذ وطاب من أسماك البحر المتوسط من دنيس وقاروص ووفار وموسى، سمك من مدينة "نيراك" الفرنسية، لحم بقري مسلوق مطهي على الطريقة الإنجليزية، لحم على قاعدة هلامية من مدينة "برجيه" الفرنسية، فخذ خنزير مملح ومدخن، خبز باللحم الشامي، طيور الفسيانوس، والسمان، والنعام، ديك مضاف إليه عصير اللفت، فطائر محشوة بلحم جاموسي رضيع على الطريقة الإنجليزية، فيليه على طريقة قصر تويلري، فخذ ظبي، جيري مسلوق، سلطة روسية، هليون إيطالي مع زيت حار، ومن الحلوى بودينج الكريز وبودينج الكريمة والأناناس، بسكوت مزخرف بالشيكولاتة البيضاء، فخفخينة تركي مكونة من طبقات مختلفة، عصائر مثلجة وقوالب حلوى مختلفة ومئات اللترات من الخمور المعتقة المستوردة خصيصاً لحفل العشاء الأسطوري هذا، والقهوة العربية.

أخذ يسأل نفسه، كيف لأحد أن يشكك في ميزانية البلاد وقدراتها بعد هذا؟ ثم تساءل: ترى أين ستذهب كل تلك الأطعمة بعد أن ينتهوا من أكلهم؟ فهم لن يأكلوا ربع ما قدم لهم بكل تأكيد، كان غارقاً في أفكاره

حين تأبطت ذراعاه إحدى الجميلات وقد ارتدت قناعاً يداري وجهها وهي
تسأله: فيم تفكر؟

أيقن أنها أميرة قلبه فاطمة فاضطرب وتغير لونه واستدار هلعاً يميناً
ويساراً وكأنه يخشى أن يراها أحد فضحكت في جذل وهي تقول: لا تخش
أحداً فالجميع منشغل الليلة.

- اشتقت إليك كثيراً.

ابتسمت في خجل عذري بريء واهم وجهها حتى حاكى لونه
الأرجواني وقالت له: وأنت أيضاً. ثم سرعان ما انقلبت هرة عابثة وهي
تجرحه من يده إلى الخارج قائلة تعال معي.

- إلى أين؟

- لا تسأل.

أخذته إلى الفناء الخارجي للقصر ومنه شاهدا انطلاق الألعاب النارية
في السماء لتحيل ظلمة الليل نهاراً، كما شاهدا خارج القصر ألعاب
البرجاس على ظهور الخيول العربية المطهمة، دارا معاً حول القصر وسارا
على ضفاف البحيرة حيث كان الضيوف انتهوا من عشاءهم واستعدوا
لحفلة راقصة تصدح إلى الصباح، تقدمت أوجيني برداء راقص من الحرير
الشفاف الضيق بلون الفوشيا أبرز مفاتها وكشف جزءاً من ظهرها والذي
صار بعد هذا الحفل موضة الطبقات الأرستقراطية في أوروبا وأذنت ببدا
الحفل برقصة مع الخديوي.

شاهد العاشقان الملوك والأمراء أصحاب الهيبة والعروش وهم يرقصون
ويتمايلون على نغمات الموسيقى من نافذة جانبية حين سأله فاطمة: تعرف
ترقص؟

أشار برأسه نائياً فأخذته من يده إلى الفناء الخلفي للقصر بعيداً عن
العيون وأخذت تراقصه تحت جناح الظلام، حتى تعبوا وهنأ فتوقفا دون أن
ينفتلا، نظر أحمد إلى صدرها المرمري وقد ابتل بقطرات عرق تلالأت على
نحرها فبدا في عينيه مثيراً بعلوه وهبوطه جراء الجهد، وكانت لا تزال
شديدة الدنو منه، احمر وجهه حين استشعر دفء جسدها ينتقل إلى بدنه
وأطرافه للمرة الأولى فيضفي شيئاً من الخدر والاستسلام والنشوة عليه
فأسبل جفنيه مستجمعاً قوته وابتعد دون رغبته وروحه لازالت مشتعلة.

خلع سترته وافترشها لها على العشب الندي قرب البحيرة وتحت
شجرة ضخمة فجلست باسمة وجلس هو قربها فمالت برأسها إلى الخلف
وأسندتها على صدره وأسبلت جفניה في سكون، كانت أسعد لياليهما التي
سرقاها من العمر وتمتيا لو توقف بهما الزمان عند هذه اللحظة، لم يعد لدى
أحمد أدنى شك في أن فاطمة تحبه أما بالنسبة له فكان من الطبيعي أن يغرم
بها ويقع أسيراً لشوقها وهواها منذ النظرة الأولى، على أنه لأول مرة يخامر
الشعور بإمكانية الفوز بها فقد كانت من قبل حسناء بعيدة عن مناله كمن
ينظر وسط الضباب المتكاثف في صحراء قاحلة إلى عود عشب في
السهب، لكنها الآن بين يديه بوسعه أن يضمها إلى صدره إذا شاء أو أن
يهوي على شفتيها فيقبلها إن أراد وأن يحتلها من تلك الليلة مزيداً من
اللحظات السعيدة، ما المانع في أن يعترف للخديوي بحبه للأميرة فالخديوي
رجل راق يقدر الحب ويستمتع بالحياة، فلماذا يحرمه منها ويحرمها منه فهو
لم يعد يتحمل الحياة دونها ولا يظن أنها ستستمتع بالحياة دونه، ربما يوافق
الخديوي صاحب القلب الطيب ويبارك زواجهما ويعد لهما حفل زفاف
يتحاكى به أهل المحروسة، فلا الخديوي بحاجة إلى مزيد من المال ولا هو

بحاجة إلى جاه ليناسبه، ثم إن منصبه الذي يشغله كياوران ليس سيئاً وبوسعه أن يترقى إن رضي عنه الخديوي حين يتزوج بابتته، طاب له هذا المنطق، ثم إنه لم يبق من مجموعة أصحابه الكثيرون فسعيد تزوج، وعبد العال سافر وربما تزوج هو أيضاً، ومحمود حماد أيضاً تزوج قبل الاحتفالات بأسبوع، لا بد له من الزواج هو أيضاً واستكمال نصف دينه.

نظر إلى فاطمة فوجد رأسها وقد مال، وشعرها وقد تناثرت خصلاته على صدره وراحت في النوم، أيقظها برفق وقال لها: الوقت تأخر ولا بد أن تذهبي الآن حتى لا يقلقوا عليك.

فهمضت صغيرته كطفلة صغيرة وابتسمت له قبل أن تطيع على جبهته قبلة ناعمة ظل يستشعر ملمس شفتيها عليه حتى اختفت عن عينيه، نظر إلى القمر وملاً صدره بالهواء الحمل بعقب الياسمين من الورود المطروحة في الأرض من حوله، ثم همض وارتمى سترته وعدل هندامه واتجه إلى الأسوار الخارجية للواجهة الأمامية من القصر، وأخذ ينظر إلى النجوم يسامرها ويساهرها، قد أشرقت على نفسه شمس الحب فانتعشت ورفرفت بمجناتها في الفضاء الواسع، كانت فاطمة بالنسبة له الأفق الذي تشرق منه شمس سعادته فتتير ظلمة حياته، والنسيم البارد الذي يهبه الحياة، والزهرة البرية التي نبتت في تربته الظمأى، والمعراج الذي تعرج إليه نفسه المتعبة فترقى من المألأ الأدنى إلى المألأ الأعلى، لم يزل يفكر بهذه التصورات الشاعرية حتى انحدر برقع الليل وبدأت خيوط الفجر تشق سماء الكون، فلم يلحظ ظل شبح بشير أغا الذي سكن أسفل شجرة متربصاً، وكان قد وقف على كل ما جرى بين العشيقين يعيون تقدح شراً مستطيراً.

دام الرقص والاحتفال حتى الصباح وفي هذه الأثناء كانت المراكب ترسو الواحدة بعد الأخرى تباعاً على أرصفة بحيرة التمساح وتأخذ مكانها في أرجاء البحيرة الفسيحة، وفي صباح اليوم التالي أقيم حفل افتتاح ميناء البحيرة اخترق بعدها موكب من العربان شوارع الإسماعيلية ركبت فيه الإمبراطورة أوجيني وإمبراطورة النمسا وولي عهد بروسيا وباقي الأمراء الذين حضروا حفلات الافتتاح وسار الموكب بين نغمات الموسيقى وصفوف الجنود من مبنى شركة قناة السويس الذي صار فيما بعد قصرًا لدليبيس إلى قصر الخديوي بالإسماعيلية، وفي عصر ذلك اليوم شهد الضيوف سباقاً للخياد وعشاء في صحراء الإسماعيلية أعقبها مأدبة شواء ضخمة على الطريقة البدوية بين الرقص بالخيول والألعاب النارية.

وفي مساء يوم 19 نوفمبر 1869 تحركت السفن التي تحمل الملوك و كبار الضيوف إلى الجنوب حيث مدينة السويس و تقدم الموكب تقوده السفينة الإمبراطورية ليجل على متنها الإمبراطورة أوجيني وبعد نصف ساعة وصل الركب إلى منطقة جبل مريم الواقعة على بعد ثمانية كيلومترات جنوبي الإسماعيلية حيث تحدث الجميع كيف كان جبل مريم ضمن طريق دخول العائلة المقدسة إلى مصر، وكيف جلست مريم العذراء مع طفلها المقدس تحت إحدى الأشجار.

وعند البحيرات المرة أقيم حفلٌ تنكري كبير في إحدى الدهيات حضره كبار الضيوف من الملوك و الأمراء والوزراء والسفراء وقد ارتدى الجميع ملابس تنكرية نسجت من الأساطير المصرية والأوروبية تحدثت عنه العديد من الصحف الأوروبية في صدر صفحتها الأولى، وبينما الحفل في أوجه تقدم الأمير إدوارد ولي العهد الإنجليزي من إسماعيل باشا قائلاً: حفل بهيج يا باشا.

- سعيد أنه حاز على إعجابك يا سمو الأمير .
- مصر تخطو خطوات واسعة في عهدك يا جناب الخديوي .
- انتفخت أوداج الباشا فخراً وحمد ربه
- وددت أن أعرفك بصديق .
- تقدم رجل إنجليزي ملتج في الأربعينات من العمر لمصافحة الباشا .
- السير صمويل بيكر، أحد رجالنا المهتمين بإفريقيا والكشوفات الجغرافية فيها، لعل جلالتك سمعت برحلة الرحالتين اسبيك وجرانت الموفدين من قبل الجمعية الجغرافية البريطانية.
- نعم سمعت بها .
- واصل السيدان مسيرهما على طريق زنجبار فاكشفا بحيرة في 28 يوليو 1862 منها ينبع النيل أسموها باسم مليكتنا جلالة الملكة فيكتوريا، أما السير بيكر فقد خاض التجربة منفرداً مدفوعاً بحب المغامرة في عهد سعيد باشا فسار في طريق الخرطوم وصعد جنوباً في النيل حتى التقى بالرحالتين اسبيك وجرانت في أثناء عودتهما وهناك أخبراه أن الأهالي أخبروهما بأنه هناك بحيرة أخرى لم تكتشف بعد فسار إليها واكتشفها في 14 مارس 1864 وأسمّاها بحيرة ألبرت باسم الأمير ألبرت زوج ملكة إنجلترا.
- شيء عظيم أن تملك تلك الروح الثابرة والمغامرة مستر صمويل .
- كان لزوجتي فضل كبير في دعمي يا باشا فقد صاحبتني طوال تلك الرحلة الشاقة .
- يالها من امرأة نبيلة .

استطرد الأمير إدوارد قائلاً: جنابك مهتم بمطاردة الاتجار بالرقيق في السودان والقضاء عليه، وسير بيكر مهتم بإفريقيا، والليدي بيكر على استعداد لتحمل المشاق مع زوجها في تلك الأماكن النائية، فلماذا لا يستفيد الجميع؟ بوسع الحكومة المصرية أن تستفيد من خدمات السير بيكر في تلك الأصقاع، وبوسع السير بيكر وزوجته أن يحيا تلك التجربة المثيرة مرة أخرى.

- فكرة طيبة بالفعل يا سمو الأمير، لن أخذلك وأرد لك كلمة، سأصدر مرسوماً إلى السير بيكر أوليه فيه على بعض أقطارنا في الجنوب.

انحنى الأمير نصف انحناء علامة شكر أتبعها الباشا بانحناء مماثلة، ولهج السير بيكر بعبارات الشكر للأمير والخديوي.

في صباح يوم 20 نوفمبر وصل اليخت الى مدخل السويس. لتزل أوجيني والملك في قصر أوجيني الذي بناه الخديوي خصيصاً لها بمنطقة الحور بالسليمانية بالسويس حيث أرادت الإمبراطورة أن تزور المنزل الذي أقام به نابليون بونابرت حين زار مدينة السويس خلال الحملة الفرنسية على مصر كما اجتازت بوغاز السويس وركبت الجمل في زيارتها لعيون موسى، وفي يوم 22 نوفمبر 1869 استدار اليخت الإمبراطوري استعداداً لرحلة العودة فأقلع في نفس اليوم من السويس وقضى الليل في بحيرة التمساح وفي 23 نوفمبر بلغ بورسعيد، وفي الساعة الخامسة بعد ظهر يوم 24 أقلع اليخت الإمبراطوري في طريق عودتها إلى فرنسا بعد أن أمضت في مصر شهراً متمتعاً زارت فيه أغلب معالمها.

بعد أيام من حفل افتتاح قناة السويس وفي كنيسة (سان فرانسوا دى سال) فى الإسماعيلية وقف فرديناند ديلبس ذو الرابعة والستين من العمر بصحبة عروسته الجميلة الآنسة لويزا هيلين أوتار ذات الحادية والعشرين من العمر أمام القس، مجاورهما وصيفيهما أو كما يسميهما الإسبان المادريين والبادرينوس تحمل الأولى الزهور لصديقتها، ويحمل الثانى خاتم الزواج لصديقه، فلما أتما ترديد العهود أعلنهما القس زوجاً وزوجة.

كانت العروس التي ولدت فى ميناء "سان لوي" على "جزيرة موريس" قرب سواحل المكسيك ابنة القنصل المكسيكى العام فى مصر ذات لكنة إسبانية مثيرة، سرعان ما خضع وخنع لها العجوز ديلبس، حورية من حوريات الجمال اللاتينى ذات عيتين عسلتين، وشعر أسود فاحم مسترسل، وشفتين ممتلئتين، وجسد يانع مصقول ضاهى برسمه وجماله أجمل التماثيل الإغريقية، فى ثوب زفاف أبيض من تصميم تشارلز فريدريك وورث شديد الالتصاق يبرز مفاتها التي استسلم ديلبس لها، فصار يغترف من أمواله ليجاري جموح الشباب لديها عله ينال رضاها وإعجابها فى النهاية.

ساعد ديلبس عروسه على صعود عربة زفاف بيضاء يجرها جوادان أبيضان، فانكشف جزء من ساقها تابعه المدعون من أصدقاء ديلبس وحساده على زوجته الجميلة التي تصغره بثلاث وأربعين سنة بنهم كاد يسيل له لعابهم.

وصلت العربة إلى بيت الزوجية وكان باستقبالهما بالخارج فتيات صغيرات يمسكن بفوانيس يد بيضاء ليبدأ الاحتفال بمشاركة الأهل والأصدقاء، دارت كؤوس الشمبانيا، والسانجريا، وهو خليط من البراندي والبيذ الأحمر وعصير الفاكهة على الضيوف، بينما تقدمت فرقة موسيقية

من خمسة شباب يرتدون قمصاناً مكسيكية، وبناطيل ضيقة مزركشة في خطوط طويلة ذات شرائب من الجانبين، تعلوها أحزمة جلدية سميكة مرصعة بالنقود المعدنية المذهبة، على رؤوسهم قبعات الخسف الكبيرة، وفي أقدامهم أحذية ضخمة تضاهي أحذية رعاة البقر الأمريكيين، يعزفون موسيقى المارياتشي المميزة.

ولتكتمل الأجواء المكسيكية التي أعدها الزوج لزوجته مفاجئاً إياها، شملت موائد الحفل أطباقاً مكسيكية غنية بالخضراوات والبهارات الحارة، ضمت خبز الهلينو، وسلطة التاكو، وسلطة الديك الرومي المدخن مع الفاصوليا، وحساء الذرة، وحساء مينستروني بالفاصوليا البيضاء، ومرق الفلفل الحار، ولفائف النقانق، وتورتيلات الخضراوات المشوية مع جبن الريكوتا، والأرز الحار، وأطباق الدجاج، ولحوم البقر على الطريقة المكسيكية، أما كعك الزفاف فكان مشرباً بمشروب الروم كما هو العادة.

قال القنصل الألماني هر دي سورما: تقلد ديلبس في أيام قلائل أعلى الأوسمة من فرنسا، والدولة العثمانية، والنمسا، وبلجيكا، وإيطاليا، وهاهي الآن المكسيك تكرمه بزوجة تصغره بأكثر من أربعين سنة.

ضحك القنصل الفرنسي مسيو فرانسوا وهي يقول: هل تحسده على زوجته يا سيدي؟

- لا أبداً، البرلمان الإسباني أصدر منشوراً ذكر فيه أن الإنسانية كلها مدينة لديلبس بالفضل، وإمبراطور النمسا أعطى تعليماته لحكومته بمساندة ديلبس في رعايته وصيانه لقناة السويس، و قال إن الرجل الفرنسي القذ أهدى النمسا وصناعتها وتجارتها طريقاً مهماً، لكن لماذا لم يتذكر أحدهم الفلاحين المصريين الذين راحوا ضحية أعمال الحفر هذه

بطريق السخرة؟ ألم تكن بريطانيا تهاجم استخدام السخرة في أعمال حفر القناة؟

قال القنصل البريطاني مستر بروس: المصالح تحكم لعبة السياسة دوماً يا سيدي، لدي أخبار أن الأمير إدوارد ولي عهد التاج البريطاني ينوي تكريمه أيضاً.

قال المسيو فرانسوا: لا بد لكم من ذلك، فقد يسر عليكم الطريق إلى مستعمراتكم ومصالحكم في الهند.

- قناة السويس قد تكون تهديداً لمصالح بريطانيا في المنطقة وقد تكون مفيدة، الأمر يعتمد على الاستعداد في التعامل مع تلك المنطقة من العالم.

قال دي سورما لفرانسوا: هل قال فعلاً المؤرخ الفرنسي ارنست رنيان لدبلسيس في حفل تكريمه في الأكاديمية الفرنسية "كان مضيق البوسفور حتى اليوم موقعاً كافياً لإثارة الاضطرابات في العالم وقد أقمت أنت ممراً جديداً أخطر منه شأنًا ليكون موقعاً لمعارك الغد الخطرة"؟

- نعم، قال ذلك صحيح، هناك الكثير من المتشائمين من هذا المشروع العظيم.

ثم ربت على كفف مستر بروس ونظر في عينيه وهو يقول: والمسيو ارنست أحدهم.

تدخل قنصل الولايات المتحدة الأمريكية أدوين دي ليون قائلاً: الحق هو مشروع عظيم فعلاً، في هذا العام ربطت الولايات المتحدة الأمريكية المحيطين الهادي والأطلنطي بخط سكة حديد يقطع القارة الأمريكية، وربطت مصر البحرين الأحمر والمتوسط بقناة مائية، نحن نشهد ثورة ضخمة في حركة التجارة العالمية.

قال مسيو فرانسوا: كان حفل الافتتاح فخماً وعظيماً للغاية، حتى أن جلالة الإمبراطورة أبرقت إلى الإمبراطور قائلة إنه أعظم حفل شهدته.

قال مستر بروس: ربما كان يريد جناب الخديوي أن يفتح مصر نفسها في هذا الافتتاح لا القناة وحدها.

- أفهم ما ترمي إليه يا صديقي، رغبة الخديوي في الانفصال عن الدولة العثمانية معروفة، لكنه متعجل، يعجز عن اختيار الوقت المناسب.

- لا أظن أن حكومة جلالة الملكة ستقف عاجزة أمام أطماع الباشا ورغباته في تحدي السلطان العثماني، وعلى كلٍ هو لم يستفد شيئاً من تجاهل السلطان عبد العزيز وعدم دعوته إلى الحفل، والمبالغة في الإنفاق على الافتتاح، مثلما بالغ قبل عامين من قبل في الظهور بمظهر الملك المستقل في معرض باريس العالمي، إلا إغضابه الباب العالي في الآستانة الذي بعث برد قوي إليه.

- هل تقصد الفرمان الذي يحد من صلاحياته في اقتراض قروض جديدة دون أن يبين وجه الحاجة إليها وينال في سبيلها إذن السلطان العثماني؟

- هو بذاته، الفرمان لم يقرأ في احتفال حافل كما هو المعتاد في الفرمانات السابقة، إنما قرئ في سراي الجزيرة دون جلبة أو إعلان، العلاقات ساءت بين الطرفين بالفعل، ويبدو أن كل ما سعى إليه الباشا من صلاحيات واستقلال مالي وإداري سيخسره بعد احتفالات قناة السويس.

- هل تواجه المصريين مشكلة في دفع قروضهم؟

- لا أظن، مصر حالياً تشهد نهضة في جميع أوجه الحياة، واقتصادها ليس سيئاً على ما يبدو، المشكلة لدى العثمانيين برأيي، الذين اقترضوا بضمان أغلب مصادر دخلهم.

- كفانا حديثاً في السياسة ولنعد إلى الحفل الذي شارف على الانتهاء.

على ضفاف بحيرة قارون في الفيوم، وقف الحديوي إسماعيل بصحبة الأمراء توفيق وحسين كامل وطوسون وشريف باشا ناظر الداخلية، في رحلة لصيد البط دعاهم إليها، كان فيها أفضلهم في الرماية وأوفرهم حظاً في الصيد الناجح، أو ربما رأوا إنه من غير اللياقة واللباقة أن يزاحوا الحديوي وينافسوه فيهمزومه في الصيد، فتعمدوا أن تطيش بعض رصاصاتهم في الهواء بعيداً عن أهدافها، أيّاً كانت الحقيقة فقد كان لتفوق الباشا أثره على نفسه التي امتلأت فخراً وزهواً ونشوة.

ضحك الباشا حين طاشت إحدى رصاصات شريف باشا وقال: ضابطنا الفرنسي الهمام لارمي باشا كان قد فاتحنى في إنشاء بوليجون (ميدان للرماية العسكرية) قرب الجزيرة لتمرين ضباط المشاة والمدفعية على الرمي بالبنادق والمدافع، أنا الآن أشد تحمساً لمشروعه فجميعكم بحاجة للتعلم من جديد.

ابتسم شريف باشا وقال: جنابك كنت دوماً أفضلنا في الرماية يا باشا.

- أنت مرواغ كبير يا باشا، والآن هلموا بنا إلى خيمتنا لنرتاح قليلاً ريثما يطهو لنا الطباخون شيئاً مما اصطدناه.

كان البط شهياً، مشرباً بعصير البرتقال، ما أن انتهى الباشا من الأكل وأثر أن يسير قرب البحيرة ليشهد غروب الشمس هناك قبل أن يأذن

بالرحيل، حتى لحق به الأمير طوسون ووجدها الفرصة المناسبة لمفاتحته فيما ود أن يقاتحه به منذ احتفالات القناة.

- كانت احتفالات القناة عظيمة بحق جناب الخديوي، لا أظن سعيد باشا كان سيقم احتفالاً أعظم مما أقمته يا باشا.

- رحمة الله على سعيد باشا، أنا شاهدت كيف احتفت فرنسا بمعرضها العالمي، مثل هذه الاحتفالات والمظاهر خير دعاية للأمم العظمى وعنواناً على رخائها ومثانة اقتصادها فإذا ما دعت الحاجة لقرض أو معونة مادية أو سياسية أو حتى عسكرية وجدناها عند الذين أكرمناهم في بلادنا، لعلك تلاحظ أي لا أحسن استقبال الملوك فقط، بل حتى القناصل أرسل لهم الخيالة والعربات الخديوية ليأتوني بهم فإذا ما وقفوا بين يدي وجدوني في حلقة من وزرائي وأخصائيي ألحظ انهيارهم فيها فأكرمهم بسيف من السيوف المرصعة أو حصان من اسطبلاتنا العامرة، الدولة العثمانية مثلاً ارتفع مقدار العجز في ماليتها في بداية عهد السلطان العثماني عبد العزيز إلى 35 مليون، وهو ما استدعاه لأن يقتصد في بعض النفقات ويلغي نظام الحرملك، وفي ديسمبر 1865 استحققت سندات الدفع ولم يكن لديهم في الخزانة ما يكفي من الأموال لسداد الفوائد المترتبة، لذا فحينما كانوا يلجأون للاستدانة كانت البنوك الفرنسية والإنجليزية تخضم فوائدها سلفاً لضعف ثقتها في الاقتصاد العثماني.

- لماذا إذن لجأ السلطان العثماني إلى حرماننا من التفاوض حول المزيد من القروض؟

- فقط أغاظه ألا تتم دعوته إلى الحفل، وأن يلبي العالم كله دعوتنا، فرمانه غير مؤثر على السيادة المصرية، واقتصادنا متين بعكس الاقتصاد العثماني لفنقاظم باهظة والفساد والرشى والسمسرة لديهم كبيرة تبتلع أغلب الأموال.

- ليس لدي أدنى شك في حسن قيادتكم للسفينة المصرية جلالتك.
- هز الخديوي رأسه وعاود النظر إلى مغيب الشمس فمرت لحظة سكون قطعها الأمير طوسون من جديد قائلاً: لم يتسن لي أن أبارك لجلالتك على المولود الجديد الأمير رشيد، كيف حال فلك ناز قادين بعد الولادة؟ آمل أن تكون بخير.
- بخير والحمد لله.
- ساد صمت مرة أخرى، لم يستغله الأمير ليرحل فعلم الباشا أن لديه مطلباً يود قوله ويعجز عن التصريح به فسأله: ما الذي تود أن تخبرني به؟
- لدي طلب وحيد، أتمنى أن ينال رضا جلالتك.
- اطلب وتمن يا طوسون، تعلم أنك لدي بمزلة أبنائي.
- أعلم جلالتك، ولي الفخر في ذلك..تمنيت أن أطلب يد الأمير فاطمة من جلالتك، أنا معجب بها منذ فترة طويلة وطالما تمنيتها زوجة لي.
- ابتسم الخديوي وأمسك بكتف الأمير طوسون قائلاً: أبشر، فاطمة أقرب بناي إلى قلبي، ولن أجد لها زوجاً خيراً منك.
- متى نبدأ إذن بتحضيرات الزواج؟
- ضحك الخديوي قائلاً: لا تتعجل يا أمير، أود أن أزوج أبنائي في ليلة واحدة، في حفل زفاف لم تشهده مصر من قبل.
- رغباتك أوامر على رقابنا يا باشا.
- حضر نفسك إذن لتولي نظارة المعارف، لا بد لك من التمرس في النظارات.

29 يناير 1871

الديوان

&&&

كانت أوروبا في هذا الوقت أشبه بمرجل يغلي وكانت الأجواء منذرة بحرب ستغير معالم القارة الأوروبية وتمهد لنظام عالمي جديد فقد أوجد خلع الملكة الإسبانية إيزابيلا منذ الثورة الإسبانية سنة 1868 فرصة للممالك الأوروبية الكبرى في التباحث حول مآل العرش الإسباني، فبدأوا عملية الترشيحات لمنصب ملك إسبانيا الشاغر، كان لكون الإمبراطورة الفرنسية أوجيني ذات أصل إسباني، وكوفها ابنة نبيل إسباني سببا كافيا لدى فرنسا كي تهتم بالمسألة، وتشرف عليها، وترى في نفسها الأحقية في الاهتمام بالمسألة الإسبانية أكثر من غيرها، وكانت بروسيا التي خرجت منتشية من انتصارها على إمبراطورية النمسا - المجر في حرب الأسابيع السبعة وظهورها كقوة جديدة على الساحة الأوروبية ترى في المسألة الإسبانية فرصة للإعلان عن وجودها، والحصول على اعتراف القوى الأوروبية القديمة بها كقوة جديدة من حقها أن تشارك في التباحث حول القضايا العالمية المختلفة، وهو ما يخشاه جيرانهم الفرنسيون.

كان لنجاح أوتو فون بسمارك مستشار الملك البروسي، فيلهلم الأول، والزعيم الإسباني خوان بريك في إقناع الأمير ليوبولد ابن عم الملك

البروسي وأمير بيت هوهنتسولرن وابن السلالة البروسية الحاكمة في تولي
عرش إسبانيا الشرارة التي أدت لاندلاع الحرب، فقد احتج الفرنسيون
بعنف على الترشيح وهو ما أدى بالبروسيين إلى الرضوخ وسحبهم
الترشيح.

على أن الفرنسيين تعتوا حين أرادوا ضماناً بالأ يتم تولية أمير من بيت
هوهنتسولرن مطلقاً في رسالة بعث بها وزير الخارجية الفرنسي أنطونيو
غرامونت إلى الملك البروسي لهذا الغرض، فوجدها بسمارك فرصة نجاة
الفرنسيين، فضمن حياد روسيا، وإيطاليا، وبريطانيا وباشراً في تحضيرات
الحرب حين قام بنشر تفاصيل الاجتماعات والمداولات البروسية الفرنسية
تناول فيها ما جرى بين السفير الفرنسي والملك البروسي، وفضح محاولات
فرنسا ضم "راينلاند" و"لكسمبورج" و"بلجيكا" ليعبئ الرأي العام الألماني،
أعقبها برسالة شديدة الاستفزاز والإهانة إلى فرنسا تنجح من خلالها في
إغظة الفرنسيين وإلهاب شعورهم وجرهم إلى حرب يتفوق عليهم فيها
عدداً.

أعلنت فرنسا الحرب على بروسيا في 19 يوليو 1870 وكانت
بروسيا قد مركزت 380 ألف جندي من "اتحاد ألمانيا الشمالية"، وممالك
"بروسيا"، و"بافاريا"، و"بادين"، و"أوتربرغ" في الجهة الألمانية، بينما
وصلت العديد من الكتائب الفرنسية متأخرة مع نقص في الزاد والعتاد،
فتقهقرت، ثم سرعان ما كسرت الميمنة التي ضمت الجنرال ماك ماهون،
والإمبراطور نابليون الثالث بنفسه واستسلمت حين أحاطت بهم القوات
البروسية في "سيدان" في 2 سبتمبر 1870 حين منعتهم من الوصول إلى
الميسرة التي طاردها البروسيون حتى "قلعة متز" وحاصروهم فيها.

وفي 4 سبتمبر 1870 قام الثوار بإعلان قيام حكومة الدفاع الوطني وسقوط الإمبراطورية وتشكيل الجمهورية الفرنسية الثالثة حيث ركزوا قواتهم في العاصمة باريس، ثار الفرنسيون على أوجيني واعتبروها السبب في هزيمتهم حتى إن خدماها سرقوا ملابسها وجواهرها وهربوا من القصر، فتصحها البعض أن تخرج من أحد أبواب القصر الخلفية وتهرب، توجه وزير خارجية الحكومة الفرنسية لإجراء مفاوضات مع بسمارك، لكنها اءارت بعد أن اشترط الألمان التنازل عن مجموعة مدن "لورين" و"ألزيس"، وصلت القوات البروسية لأطراف باريس وضربت عليها الحصار، فقام أعضاء الحكومة المؤقتة بالفرار من الحصار باستخدام منطاد وقاموا بتشكيل قوات في الأرياف الخيطة للدفاع عن باريس، في هذه الفترة استسلمت الميسرة المحاصرة في قلعة متر وأسر الألمان 140 ألف فرنسي.

كان الباشا شديد التأثر بما آل إليه الوضع في فرنسا ولصديقيه الإمبراطور والإمبراطورة، وبالأخص أوجيني التي يكن لها مشاعر طيبة، لكنه لم يشأ أن ييدي شيئاً من مشاعره المضطربة تلك تجاه أخبارها التي يتلمسها بقلق مستمر.

في الديوان دلف الباشا القاعة بينما رجاله نوبار باشا وعلي باشا مبارك، وشريف باشا، وإسماعيل باشا المفتش، ولطيف باشا، وشاهين باشا، ورياض باشا، والأمير طوسون، والسير صمويل بيكر، والجنرال ستون وقوف تحية إجلال واحترام حتى جلس على أريكتة فجلسوا بدورهم.

- هل وصلت إلى شيء في مباحثات المحاكم المختلطة يا نوبار باشا؟

- لازالت تلاقي معارضة كبيرة من الكثير من الدول الأوروبية، لكنني لن أستسلم لجلالتك حتى أقنعهم بالتوقيع على معاهدة جديدة لتنظيم تلك المحاكم، مصر أشبه بعظمة ثمينة كبيرة لجلالتك يرغب فيها كلبان فيتنازعان

عليها ولا يجبرؤ أحدهما على اختطافها لخوفه من الآخر، وبينما يحملقان لبعضهما البعض ويزججران، يتسرب سرب من النمل إلى العظمة وينهشها ليسمن منها، ذلك النمل هم التجار والمرابون اليهود والجريك وغيرهم من المستفيدين من عدم خضوعهم للمحاكم المصرية.

زفر الخديو في ضيق وهو يقول: يبدو إن أحد الكليين افترسه مفترس ثالث يا باشا بالفعل.

ثم ولى وجهه شطر الكاتب وهو يقول: أكتب يا مكتوبجي هذا الأمر:

"نحن إسماعيل خديوي مصر قد أمرنا بما هو آت:

نظراً للحالة الهمجية السائدة بين القبائل القاطنة في حوض نهر النيل، ونظراً لأن النواحي المذكورة ليس لها حكومة ولا قوانين ولا أمن، ولأن شرائع الانسانية تفرض منع النخاسة والقضاء على القائمين بها المنتشرين بكثرة في تلك النواحي، ولأن تأسيس تجارة شرعية في تلك النواحي المشار إليها يعتبر خطوة واسعة في سبيل نشر المدنية ويفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى الواقعة في خط الاستواء بالمراكب التجارية ويساعد على إقامة حكومة ثابتة أمرنا بما هو آت:

تؤلف حملة لإخضاع النواحي الواقعة في جنوب غندكرو لسلطتنا، ولإبطال النخاسة وإيجاد تجارة منظمة، ولفتح طرق الملاحة مع البحيرات الكبرى الواقعة في خط الاستواء، ولإقامة خط من النقاط العسكرية ومستودعات للتجارة يبعد بعضها عن بعض مسافة ثلاثة أيام للماشي في أنحاء إفريقيا الوسطى ابتداء من غندكرو، وقد فوضنا رئاسة هذه الحملة إلى سير صمويل بيكر لمدة أربع سنوات، وبراتب قدره عشرة آلاف جنيه في السنة ابتداء من أول إبريل 1869 وقلدناه حقوق السلطة التامة المطلقة

حتى السلطة المتعلقة بحياة وإعدام كل من له علاقة بالحملة وقلدناه كذلك نفس هذه السلطة على كل النواحي التابعة لحوض النيل جنوب غندكرو"

ظهر السرور على وجه بيكر، بينما لاحت أمارات عدم الرضا والاستياء على وجهي شاهين ولطيف باشا الذي قال: ولماذا يا أفندينا لا نقتل ذلك الشرف لواحد من ضباطنا الشراكسة أو الأتراك؟

قال الخديوي بنبرة هادئة تخفي تهديدا بين طياتها: لم أعتد منك مناقشة قراراتي أو رفضها يا باشا.

- العفو يا مولاي، أنا فقط كنت أقترح ...

- لا تقترح يا باشا، واصدع للأمر، صمويل باشا خاض في تلك الأصقاع من قبل ويعرفها أكثر من غيره.

- بأمرك يا باشا.

- هل تعرفتم بالجنرال ستون؟

- ليس بعد.

تقدم الجنرال ستون وكان أمريكياً لم تخف لكنته جنسيته فلم يكن معها بحاجة إلى القبعة المميزة لرعاة البقر الأمريكيين.

سلم ستون على شاهين باشا ولطيف باشا، بينما استطرد الخديوي قائلاً: لسنوات سرنا على النظام الفرنسي في العسكرية المصرية، وكان في ذلك بعد نظر تميز به جدي رحمه الله، وأنا أنوي الآن أن أستفيد من خبرات الضباط الأمريكيين بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية فقد أظهروا فيها عبقرية أعجبت بها وتابعتها بنفسك يا باشا.

- صحيح جلالتك لكن إقحام عناصر غربية جديدة في الجيش، ربما لا يرضيه الضباط الأتراك والشراكسة والمصريون وتقابله معارضة شديدة.

- خذها قاعدة يا باشا، كل خطوة جديدة نخطوها للحدادة تقابل دوماً بالعائق، جدي رحمه الله حينما أراد أن يستفيد من خبرات الجيش الفرنسي قابلته معارضة شديدة من رجال الدين ومن الجيش على حد سواء، حتى أن بعضهم اعتبرها بدعة وضلالة وأمرأ يجرمه الدين، فما كان منه إلا أن أرسل عمي إسماعيل باشا على رأس جنوده الألبان والشراكسة إلى أقاصي السودان لفتحه ثم استدعى الضباط الفرنسيين وفتح المدارس الحربية وبدأ في إعداد جيش نظامي جديد بالاستعانة بالكولونيل سيف الذي أسلم وصار سليمان باشا الفرنسي، هموك يا شريف باشا.

أوما شريف باشا برأسه، فأكمل الخديوي قائلاً: وبوالدي إبراهيم باشا رحمة الله عليهم أجمعين، الجيش الجديد خريج المدارس الحديثة هو في النهاية الذي حارب تحت لواء والدي، وسليمان باشا في الشام والأناضول، وسجل انتصاراته على الجيش العثماني.

- رحمة الله عليهم.

- الجنرال ستون تخرج من أكاديمية وست بوينت العسكرية وحارب مع جيش الشمال الأمريكي في الحرب الأهلية، وعهد إليه بإنشاء التحصينات الدفاعية لمدينة "واشنطن" عام 1860، ثم عمل مهندساً للتعدين بعد الحرب، رشحه لي الجنرال شيرمان، الجنرال ستون سيكون رئيساً لأركان حرب الجيش، أنا كلفته بأن يسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعود ومعه زمرة من الضباط، والميكانيكيين، والمهندسين الحربيين، والجيولوجيين، والجغرافيين ليساعدوه في مهمته، وأن يشكل معهم هيئة أركان حرب جديدة بعد انسحاب ضابطنا الفرنسي المسيو بلانت، وأن يهتم اهتماماً أكبر بتحديث الطوبجية المصرية (المدفعية) وأن يضع لنا ورجاله خرائط طبوغرافية دقيقة لمصر والسودان، فقبل، وطلب

مبنى إنشاء مدرسة لأركان الحرب مؤلفة من عشرين ضابط، وقد وافقت على ذلك.

- وماذا عن مدرسة أركان الحرب بالعباسية التي يتولاها المسيو لارمي يا باشا؟

- ستكون بديلة لها.

- لكن أأمن تحتج بريطانيا، وفرنسا، والدولة العثمانية على الاستعانة بضباط أمريكيان؟

- بالطبع سيحتجون، بريطانيا وفرنسا لن يرحبا بمن يزاكما على النفوذ هنا، لكني لا أعمل إلا بما تقتضيه حاجة البلاد ومصالحها، وأما الدولة العثمانية فأني تحديث في الجيش يقابلونه دوماً بخوف، اتركوا لي التصرف معهم ولا تقلقوا.

- هل حالة مصانع الأسلحة والمدافع والبنادق بطرة جيدة؟

- نعم يا مولاي.

- وماذا عن معامل الخرطوش والقنابل؟ ومصنع البارود هل تم إصلاحه وصيانتته؟

- ومعمل الأسلحة بالإسكندرية أيضاً، الصناعة العسكرية جيدة يا مولاي ونحن على استعداد دائم لأي طارئ.

- عظيم، سلطان مراکش أرسل لي يستأذن في إيفاد بعثة من المغاربة ليتعلموا لدينا صناعة البارود والطباعة، أحسنوا استقبالهم، وبخصوص صمويل باشا، أريد منك أنت ولطيف باشا أن تتباحثا في خطط سير الحملة وتقدما له كل ما يحتاجه.

- بأمرك يا باشا، لكن هل كل هذه التغييرات الأخيرة بسبب الحرب الفرنسية البروسية؟

- تحديثاتنا واهتماماتنا بالجيش مستمرة، لكن لاشك الحرب الأخيرة لا بد وأن تؤخذ نتائجها في الحسبان، ما آخر الأخبار في فرنسا بالمناسبة؟

- البارحة سقطت باريس في يد القوات البروسية، وأعلن قيام إمبراطورية ألمانيا من داخل غرفة المرايا في قصر فرساي، فقد اقتحم الألمان العاصمة وقتلوا وأسروا الكثيرين، كما أنهم أضرموا النار في قوس النصر واضطر الفرنسيون للتنازل عن مدينتي اللورين والألزييس.

- يا الله، لقد تعمدوا أن يجرحوا كبرياء الفرنسيين جرحاً عظيماً، هم ينتقمون من دخول بونابرت عاصمتهم برلين قبل ستين عاماً، في شخص نابليون الثالث، وماذا عن الإمبراطور والإمبراطورة؟

قال نوبار باشا: الإمبراطور تم أسره، والإمبراطورة تمكنت من الهرب إلى إنجلترا في عربة طبيب أستان أمريكي.

ظهر الأسى والحزن على وجه الباشا في صمت احترمه الجميع قبل أن يقطعه محدثاً الجنرال ستون قائلاً: ما الذي يمكن إدخاله على الجيش للاستفادة من خبرات البروسيين في الحرب؟

- أنا أدرس فكرة تسريح نصف القوة بعد تمرينها، والإتيان بغيرها مكانها على طريقة الجيش البروسي ليكثر عدد المتمرين في البلاد، ويكونوا تحت طلب الحكومة إذا ما دعت الحاجة لحشدتهم تحت أي طارئ، بوسع هذه الطريقة أن ترفع عدد أفراد الجيش إلى ثمانين ألفاً يحشدون في ظرف شهرين، كذلك ندرس فكرة تسليح الجيش بأسلحة جديدة كبنكية شاسبو الجديدة التي لديهم.

- عظيم، ابدأ بتنفيذ ذلك المخطط في الحال.

فحض الباشا من على أريكته وسلم على طوسون قائلاً: أهلاً بك بيننا يا أمير، أتمنى أن تستفيد من تلك التجربة.

- لفظة كريمة من جلالتك أشكرك عليها يا باشا.

سلم باقي الوزراء على الأمير طوسون وتمنوا له النجاح، وانسحب الباشا لينفلتوا بعده تبعاً.

- 12 -

سراي الجزيرة

&&&

جلست الأميرتان فاطمة وتوحيدة إلى جوار معلم البيانو الخاص بهما يعزفان الواحدة تلو الأخرى جزءاً من مقطوعة باخ التي تتدربان عليها، كان المعلم عجوزاً إيطالياً ذا وجه جاف صارم وشعر مستعار لا تشعران بقربه إلا برائحة التبغ تصدر عن أنفاسه، ما جعل درس البيانو رغم محبتهم إلى الموسيقى جحيماً تتوق كل واحدة منهما إلى الهرب منه، حين جاءت وصيفة الأميرة فاطمة بخطاب وردي يحمل خطأً نسبياً مرسلاً إلى سيدتها، نظرت الأميرة توحيدة إلى أختها وسألتها بشغف: من المرسل؟

- لا بد أنه من الأميرة حواء.

- ليت لي صديقات خارج القصر مثلك يا فاطمة.

ابتسمت الأميرة فاطمة واحتضنت رأس توحيدة وقبلت جبينها، ثم استأذنت معلمها فأذن لها وقامت إلى غرفتها تفض الخطاب وتقرأ سطورها بنهم:

"عزيزتي فاطمة، أسأل الله أن تكوني بصحة وسعادة.

لا يدور في القصور إلا حديثان، حديث الحرب التي تدور رحاها في أوروبا واضطرار الإمبراطورة أوجيني إلى الهرب إلى "تشيزهيرست" في إنجلترا تاركة زوجها المسكين واقعاً في الأسر، وإنه أمر لجد عظيم، لازال الخالق يضرب أمثله للبشر عليهم يتعظون فدوام الحال من المحال.

وحديث الفرح، فالأنباء تتوارد بين الحين والآخر أن جناب الخديوي يسعى إلى مشروع زواج يضمك وإخوتك الأمراء توفيق وحسين كامل وحسن، فقد دار جناب الخديوي اليومين الماضيين على مدرسة الأميرات وعدد من القصور الأميرية في زيارات بدت عائلية لكنها حملت بين طياتها الرغبة في إيجاد الزوجات الملائمات، مما أشعل التباري بين الأميرات والأمهات على السواء في منافسة نجحت فيها الأميرة أمينة هانم ابنة الأمير إلهامي، والأميرة عين الحياة هانم ابنة الأمير أحمد رفعت رحمه الله، والأميرة خديجة هانم ابنة الأمير محمد علي الصغير، والأمير طوسون ابن محمد سعيد باشا.

والأمير على ما أعلمه عنه وسيم الملامح، حذق، وذو ثروة كبيرة، أمل أن تجدي إلى جانبه يا عزيزتي الراحة والطمأنينة والسعادة الأبدية.

صديقتك المخلصة حواء"

"صديقتي العزيزة حواء، والذي لم يفاتحني في أمر هذا الخاطب، لكنه قال لي فقط إنه يتوقع زيارته وأمه ملك هانم في القريب، لم أتوقع أبداً أن يكون في الأمر مشروع زواج، صحيح أن الزواج نظام قدسي شرعه الخالق لنا ولا بد من الخضوع إليه والقيام بواجباته، لكنني لم أتمن القيام بتلك

الواجبات مع الأمير طوسون أو مع أي رجل آخر، لقد كان قلبي وعقلي دوماً مع ذلك الفارس النبيل الذي حدثك عنه، ولا أتخيل نفسي مع أحد سواه، وإني الآن شديدة الارتباك بعد تلك الأخبار، ولا أعلم ماذا عساي أن أفعل، فقد استفقت على خبر مفزع بعد أن بنيت الأُماني أبراجاً عالية وقلاعاً منيعاً، وإني أصارحك لقد بكيت كثيراً حين قرأت رسالتك وعلمت منك بالخبر، ماذا عساي أن أفعل وأنا المحرومة من كل أعزائي ولولا تعزية خطابتك لكانت حياتي جحيماً، أشيري عليّ ماذا عساي أن أفعل؟

صديقتك المفضلة فاطمة"

"عزيزتي فاطمة، لكم يؤسفني أن أكون أول من ينقل إليك تلك الأخبار التي أزعجتك، فقد كنت أظنك على دراية بها، تقسو علينا الحياة كثيراً وتجبرنا على اتخاذ ما لا نرضاه من قرارات، ذلك إن ملكنا قراراتنا بالفعل، فهل نحن مسيرون أم مخيرون؟ بكل أسف لا يعنى الأهل بتفحص مشاعر بناتهم من هذه الزيجات، ومن يدري فرمما لم يختار أو يقنع أخواك بزواجهما أيضاً، لا حيلة لدينا يا عزيزتي أمام رغبات أهلينا، ولا طاقة لنا على معارضتهم واختيار الأنسب كما نراه، وقد تظنين أن أميرات أوربا أسعد حالاً وذلك ما لا أظنه، فكثيراً ما نسمع بالزيجات السياسية التي تصلح بين المتخاصمين فيمسي أعداء الأمس حلفاء الغد، كثيراً ما يقدر الله أموراً تعجز أفهامنا البشرية على استيعابها، فقط المؤمنون يقنعون بأنها الخير والأفضل الذي اختاره الله لهم، فلتؤمنني بذلك يا عزيزتي، فالأمير طوسون رجل نبيل كثير من البنات قد يتمنيهنه هن، ولتعتبري ذلك الفارس صديقاً، فلا أسمى ولا أجمل من مشاعر الصداقة التي تؤلف بين القلوب، ولعلك تذكرني أنها الصفة الأقرب التي وصفتي بها علاقتك به في رسالتك الأولى.

تجلدي وآمل أن تريحك رسالتي، وقدئى شيئاً من خاطرك المضطرب،
ولا تنسي أن تكتبي لي وتطمئني باستمرار على حالك."

وقف أحمد في الاسطبل يسرج جواد قبيح لكنه قوي من سلالة بولونية
لها رأس كبير ورقبة قصيرة وكفل عريض وساق رفيعة صلبة، إلى جوار
زميله محمود حماد، وعلي إبراهيم، وكانا قد انشغلا في حديث مع ناظر
الاسطبل الفرنسي المسيو ونسان في حديث ضاحك أرادا أن يستفزا فيه
حول عدم معرفته بالسرج المناسب لجواديهما، حين دخل عليهما إسماعيل
باشا المفتش اسطبل الخيول ففزع الرجل الفرنسي وجهد في مكانه وتمتم
قائلاً: أوه يا ربي، ماذا حدث؟ ليست تلك عادته.

لكنه محمود منتهراً ومنبهاً فانتفض وهرع إلى الباشا مرحباً: خطوة
عزيزة جناب الباشا.

- كيف حالك مسيو ونسان؟

- بخير ونعمة.

- هلا أسرجت لي أحد الخيول؟ أود أن أجرب جيادك.

- لدينا جياد كريمة ومهذبة يا باشا، ما رأيك في هذا؟

وأشار إلى جواد أسود قوي عربي أصيل.

- حسناً، جهزه لي، كيف حالكم يا ضباط؟

رد ثلاثتهم التحية، فاقترب من أحمد وسأله: أحمد ياوران الخديوي
أليس كذلك؟

- نعم جنابك.

- أعرفك جيداً، ولا زلت أذكر بطولتك ذلك اليوم.
- لم تكن بطولة يا باشا، أنا فقط أديت واجبي.
- وقد كافأك جناب الخديوي أليس كذلك؟
- ابتسم أحمد فقال المفتش: سمعت أنك فارس لا يشق لك غبار، لماذا لا نتريض بالخيـل معاً؟
- ذلك شرف لي معالي الباشا.
- عظيم، جهز خيل أحمد بك مسيو ونسان أيضاً.
- بأمرك يا باشا.
- خرج الباشا وأحمد على جواديهما بينما زميلاه محمود وعلي إبراهيم يحملقان في إثرهما بعيون حائرة فتمتم علي قائلاً: ترى ماذا يريد منه؟
- أسرع المفتش بجواده فأيقن أحمد أنه يريد التسابق، فلحق به، حتى إذا ما ابتعدا عن القصر وخدمه وجنحا بعيداً في الحدائق، حتى شد المفتش لجام جواده بعنف فصهل الجواد وتوقف فجأة بعد أن كاد أن يقف على قائمته.
- انزل من على جوادك.
- صدع أحمد للأمر حائراً ونزلاً ممسكاً بلجام جواده في إحدى يديه.
- ما رأيك في الأميرة فاطمة؟
- وجم أحمد وعقد لسانه فلم يجر قولاً.
- جميلة، أليس كذلك؟

تحفزت خلاياه وتعالّت ضربات قلبه وحارت عيناه يميناً ويساراً،
وتضاعفت كمية الأدرينالين لديه على أنه صمت ولم يعقب.

ثم صاح به الباشا فجأة: هل تظن أن أية شاردة أو واردة تحدث هنا لا
أحيط بها علماً؟ من تحسب نفسك؟ أنت نكرة! لا شيء! رصاصة واحدة
من مسدسي هذا كفيّلة بأن تقضي عليك.

وأزاح جانباً من سترته ليريه مسدسه المزخرف.

- حضرة الباشا، أنا لا أكن إلا الإعجاب والاحترام بحضرة الأميرة،
ولم أفعل ما يندى له الجبين ويدنس شرفي أو شرفها.

رفع الباشا إصبعه إلى أرنية أنفه محذراً وهو يقول: إياك وذكرها على
لسانك.

- يا باشا أنا فقط أحاول أن أفهمك أنني لم أفعل شيئاً يسيئ إليها.

- وماذا كنت تنوي أيها العاشق؟ أن تطلب يدها من جناب الخديوي
وتتزوجها؟

- وما المانع؟ ألسنا جميعاً بشراً سنقف موقفاً واحداً بين يدي الله في
يوم تشخص فيه الأبصار؟

- لا لسنا جميعاً بشراً من درجة واحدة، أنت فلاح، مكانك في الطين،
مهما علا شأنك ومهما منحك الخديوي من امتيازات، لا يعطيك ذلك
الحق على مزاحته ومناسبته، أما هي فهي ابنة الأكرمين، بكرية أهم رجل
في هذه البلد.

- وأنت يا باشا، ألسنت مصرياً مثلي، ولدت في قرية بأسويوط وتربيت
شأن المصريين في الطين، ثم درجت في المناصب وارتقيت؟

- صه، أنا أخو أفندينا المعظم، نائب ولي النعم وكاتم أسرارهِ ووزيرهِ
المفضل.

ثم انقلب صوته بغتة من الغضب الهادر إلى هدوء غريب يوحي بمقدرته
على السيطرة على انفعالاته قائلاً: اسمع يا بني، أنت شاب وحامسة الشباب
كثيراً ما تدفع المرء إلى ارتكاب حماقات، زواجك من الأميرة مسألة لا بد
وأن تمحوها من ذاكرتك لأنها لن تكون أبداً، الأميرة ستزوج الأمير
طوسون، لو علم الأمير أو الخديوي بما كان بينكما لقتلاك شر قتلة، لا
شك عندي في ذلك.

- ستزوج؟! -

- لو كنت تحبها بحق فعليك أن تتمنى لها الأفضل وألا تعرضها أو
تعرض نفسك لغضب جناب الخديوي بداعي الحماسة، عليك أن تنسحب
وألا تحاول رؤيتها.

- فهمت.

- هل اتفقنا إذن؟

- نعم، اتفقنا.

عاد المفتش إلى القصر وترك أحمد في مكانه واجماً بعد أن أفاقه من
أحلامه العريضة وتركه يلملم شتات نفسه، فكان كالطير الذي هبط من
القضاء الواسع إلى الأرض الموحلة، وبينما هو في الطريق وجد السير
صمويل بيكر في طريقه إلى الخديوي ليعرض عليه آخر أخبار الإعداد
للحملة.

- مرحباً سير صمويل، كيف أخبارك وأخبار الحملة على الجنوب؟
- مرحباً إسماعيل باشا، قاربنا على تجهيز البواخر اللازمة للحملة.
- لدي لك ضابط ممتاز، آمل أن تستفيد منه في الحملة معك.
- بكل تأكيد، من يكون؟
- أحمد بك السعداوي ياوران جناب الخديو.
- وهل لدى الخديوي علم؟
- اترك ذلك لي، سأحدث معه بنفسه، فالشاب يود أن ينال فرصة المشاركة في معارك مفتوحة ليكون جديراً بفرصة قيادة الجيوش مثل القادة العظام.
- أنت رجل نبيل، إسماعيل باشا.
- ابتسم المفتش وقال في تواضع: أشكرك يا باشا، بين الحين والآخر لابد من مساعدة الغير.
- قد أجعله على رأس كتيبة.
- لا أظنه سيكون كفواً لهذه الدرجة، لكنه قد يكون جديراً بقيادة إحدى الآلاي.

لم يجد أحمد ما يعزبه ويخفف عنه شيئاً مما يكابده من آلام هوميه وأحزانه، قضى ليلته حائراً شارداً زائغ البصر، كان يرى في نفسه ضعف البأس وقلة الحيلة، فلا يقوى على احتمال آلام فراق وعد به، وكانت أخبار اشتراكه في الحملة التي ستبدأ مسيرها في خلال أيام وصلته، وهو الذي تمنى أن يهنأ بفرصة تكون آخر عهده بفاطمة، يلقي عليها فيها نظرة

الوداع، فيقول ما أصعب الوداع، ثم يعود ليقول وما أصعب الفراق دون وداع.

كان المفتش غلواً منه في الحرص على عدم اتصاله بالأميرة أو إتيانه بفعل أخرق قد استصدر له قرار سفره مع الحملة، وأعطاه ما تبقى من أيام قبل تحركها إجازة لتحضير نفسه وإخبار أهله وتوديعهم، فحال دونه ودون اللجوء إلى الخديوي ودونه ودون الوصول إلى محبوبته.

شعر زميلاه محمود وعلي بما ألم به، وكان ذلك أكثر ما يخشاه، وسبق وأن حذراه من التماذي فيه.

قال له محمود: سبق وأن حذرتك يا صديقي من عواقب تطلعاتك العالية.

وقال علي بعتاب: هل ترى يا محمود أن الوقت مناسب لمثل قولك؟ ثم أضاف قائلاً: لا عليك يا أحمد، احمد الله أن الأمر انتهى عند هذا الحد، ما المشكلة في أن تسافر ضمن الحملة؟ قد تسجل انتصارات وتعود بعدها إلى هنا وأنت صاحب رتبة عالية.

- وما الفائدة إن كنت سأحصل على رتبة عالية أو لا أحصل؟ لم يعد للنجاح قيمة الآن دون هدف تاقت له نفسي.

- نجاحك في حد ذاته، لا بد أن يكون هدفاً كافياً لك.

- دعونا من هذا الآن، بما أنك ستسافر يا أحمد فلا بد أن تحتفل بك قبل سفرك.

- اعذروني يا محمود، لست في حالة تسمح لي بالسهر.

- بل أنت في حالة أدعى إلى السهر والسمر، فقط اترك لنا نفسك.

- لكني مرهق وأود أن أصل باكراً إلى البيت.

قال علي وهو يجذبه من ذراعه: الليلة كلها لنا، لن نترك حتى الصباح، الأمر غير قابل للنقاش، وأما أهلك فلديك خمسة أيام تقضيها معهم حتى موعد سفرك.

تأمل أحمد وبدا عليه عدم الحماسة فعاجله محمود قائلاً: أظن أن زماننا طوال تلك السنين تستحق منك أن تترك لنا نفسك تلك الليلة، فهل نطلب الكثير؟

لاحت الابتسامة ضعيفة على وجهه وهو يقول: لا أبداً.

- هكذا يكون الكلام، هيا بنا.

- إلى أين؟

- إلى شارع محمد علي.

تقدم الحنطور ماراً بالشارع وكانت الحكومة قد انتهت من توسعته في مخططها الجديد حتى بلغ طوله كيلومترين يصل بين ميدان العتبة، ومنطقة جامع ومدرسة السلطان حسن وجامع الرفاعي والقلعة، تراصت على الجانبين المباني مشيدة على الطراز الكلاسيكي ذات بواكي حجرية تغطي الأرصفة، وتظلل المارة من قيظ الشمس في النهار، والشارع على اتساعه انتشرت به بعض القصور والملاهي والكافيهات.

توقفت العربّة أمام ملهى الدورادو فهبط محمود وعلي وأحمد بعد أن نقدوا الحوذني أجره.

تخطى محمود وعلي مدخل الملهى فاستقبلهما حارس ضخم ذو شارب كث بحفاوة بالغة، بدا أنه يعرفهما جيداً، وهو يدعوها للفضل.

- هل تأتون هذا الملهى كثيراً؟

- ليس وحده، ملاهى محمد على، وعماد الدين، والأزبكية، وروض الفرج، وكلوت بك كلها لنا فيها صولات وجولات.

مر ثلاثهم بممر طويل مفروش بسجاد أحر تضيئه قناديل نحاسية على الجانبين حتى انتهوا إلى قاعة فسيحة ذات إضاءة هادئة امتلأت بدخان متصاعد من السيجار الفاخر الذي يدخنه رواد المكان، وأغلبهم ذوو ملامح يرتسم عليها الغنى والترف والنعيم المقيم، وفي صدر القاعة مسرح صغير، جلست فيه فرقة موسيقية تؤدي وصلة من الموسيقى اليونانية.

تقدمت إلى ثلاثتهم فتاة إيطالية جميلة بادرها علي سائلاً: الست شقيقة قدمت غمرها؟

- non ancora سنور

- عظيم، نريد إذن مائدة قرب المسرح يا حلوة.

أشارت إليهم بفتح أن يتفضلوا وابتسمت ابتسامة مثيرة قاذمهم بعدها إلى واحدة من الطاولات وقد فرشت بقماش الدانتيل وعليها قنديل يضم شمعتين، أضاءهما مدير صالة يوناني، طلب منه محمود زجاجة شبنانيا.

- أنا لن أشرب.

- وهل طلب منك أحد أن تشرب؟ أنا وعلي سنشرب.

انتهت الفرقة اليونانية من العزف، ليعقبها العازف الشامي أنطوان الشوا الذي عزف مقطوعته مستخدماً آلة الكمان، وكان أول من أدخلها في التخت الشرقي إلى جوار القانون والعود، بينما دارت عينا أحمد في المكان الذي بدا غريباً عليه، تراقب حركة البنات على الطاولات وهن

يجالسن الرواد في غنج ويحشنتهم على فتح المزيد من زجاجات الخمر على شرفهن.

انسحب أنطوان الشوا واعتلى مقدم الفقرات خشبة المسرح بدلاً منه ليعلم عن الفقرة التي طال انتظارها، فقرة نجمة المسرح وكل مسرح، شفيقة القبطية ورقصة الفتيار.

تعالى تصفيق الجمهور وعواؤهم الصاخب حين خرجت عليهم شفيقة بالكاد تسترها أستار شفافة، في موكب من ثماني بنات يصاحبنها بالطلبة، والزهر، والعود، ورنات آلات النقر، والأجراس الفضية والصاجات النحاسية، وتوسطتهم هي بتاج على رأسها فيغنين لها:

جوزيني ييامه جدع قيافة

كامل المحاسن واللطافة

وترقص هي وتدور وتمتز على إيقاع النقر والأهازيج في دغدغة حسية مصاحبة لحركة الطارات بين أصابع البنات من حولها، فإذا ما أجبت أنها نالت انتباه جميع من في الصالة واجتذبتهم إليها وتعلقت أعينهم الجائعة بها تنهشها فمها، فجرت الإثارة والنشوة في قلوبهم ومالت بمرونة إلى الخلف فوضعت إحدى البنات منضدة صغيرة على بطنها العارية، عليها أربعة أكواب من الخمر ووضعت أخرى على جبينها فتيار (شمعدان) مضاء بالشموع، أخذت ترقص وتمتز وتحرك ذراعيها وتدور بما عليها وفي يدها الصاجات فلا تسقط الأكواب ولا تترلق الشمعات، ليزداد الجمهور حماسة فوق حماسه ويتعالى التصفيق محمواً، وتحتم هي فقرتها وتريح الستار عائدة إلى غرفتها، غير آبهة بالجنيحات الذهبية التي تتناثر تحت قدميها تحية من

المعجبين والعشاق والتي انحنى لجمعها ثلاثة من خدمها اختلس أحدهم البعض منها ودسها في جيبه.

- من شقيقة القبطية هذه؟

- من شقيقة القبطية هذه؟! عار عليك يا رجل.

وأشار إلى رجل سمين يرتدى مجموعة من الخواتم الذهبية جلست إلى مائدته فتاتان من فتيات الصالة قائلًا: ذلك الرجل أمر ذات مرة بفتح زجاجات شمبانيا للخيل التي تجر عربتها، ألا تعرف أشهر عائلة في مصر؟

أجاب أحمد بسخرية: للأسف، لم يحصل لي الشرف.

تابع محمود غير عابئ بسخريته: شقيقة هي تلميذة شوق التي رقصت في احتفالات قناة السويس للإمبراطورة أوجيني، شقيقة لديها وحدها ثلاث عربات حنطور وعشرات الخيول الأصيلة، إذا خرجت صباحاً ركبت عربة كوميل وإذا خرجت ظهراً ركب تينو وإذا خرجت ليلاً ركب الفيتون المكشوف.

- لهذه الدرجة؟

وأكثر! أنا حتى سمعت أن خدمها كلهم طليان، تفصل لهم ملابسهم عند كلاكوت، وديفز براين، نفس الخياطين الذين يفصل عندهم نوبار باشا ملابسهم.

- على أحدنا أن يشتغل عائلة إذن، عله ينتشلنا من الفقر.

قال علي ضاحكاً: أنا أرشح محمود فنفاقته فيما يخص الغوازي والعوالم عالية.

فقال أحمد ضاحكاً: هنيتاً لك يا عم محمود، يا ريب الغوازي.

نظر إليهما محمود شرراً وقال متحدياً: ليست شفيقة وشوق وحدهما
من أعرفهما، معتوقة، وزهرة العربية، ونفوسة غرام، والعائلة التركية سلم،
إن كنت تود نسيان حبك فعليك ببنات الهوى والغوازي ينسينك اسمك، يا
سي أحمد.

فهمض أحمد وهو يحكم الطربوش حول رأسه ويقول: ربما، معك حق يا
محمود، لكنني غير مهتم أبداً، على الأقل تلك الليلة، سامحوني فأنا حقاً
لست في وضع يحتمل سهرة كهذه الآن، أشوف وشكم بخير.

- هل ستذهب؟

- نعم.

- لازال الوقت مبكراً، إن كان المكان لا يعجبك فبوسعنا أن نغادر
ونسهر في مكان آخر بعيداً عن العوالم والغوازي.

- سامحوني، لكنني بحاجة لأن أنفرد بنفسي قليلاً.

فهمض كل من علي ومحمود وسلمما على صاحبهما بحزن وهما يشدان
على يديه ويودعانه وانفلت هو من بينهما خارجاً.

قال علي دون أن يرفع عينيه عن أحمد وهو يغادر القاعة: ربما كان
علينا أن نصحبه إلى المسرح الكوميدي بدلاً من صالات الرقص والخمر.

- حتى لو فعلنا، كان سيفسد الليلة أيضاً.

- أنا مشفق عليه حقاً.

قطع أحمد الطرقات والأزقة سراً على الاقدام، حتى قادته خطاه إلى
بيت سعيد وزينب في باب الخلق فتسمر في مكانه لحظة نظر فيها إلى النافذة
المشرعة والنور المضاء خلالها، وتردد في الصعود، ثم حسم أمره وتابع سيره

حتى وصل إلى بيته في الغورية دون أن يدري كيف وصل إلى هناك، وكم أخذ من الوقت في سيره، ارتقى أحمد السلم ودس مفتاحه في الباب وأدأره بحذر كي لا يوقظ أمه.

- انت جيت يا أحمد؟

لم يكن يراها لكنه ميز صوتها قرب النافذة، كانت تنتظره كعادتها ولا تنام حتى تطمئن عليه في غير أيام البيت في السراي.

- أبوة يا أمي.

- أحضر لك العشا يا حبيبي؟

كانت عيناه بدأتا تعتادان الظلمة فبدأ وجهها مرهقاً وشعرها الأبيض مشعثاً ومتناثراً.

- لا يا أمي، اتعشيت في الشغل، ادخلي نامي انت.

دخل غرفته وأضاء نور إحدى لمبات الجاز، وخلع قميصه وحذاه على ضوئها المتراقص، فجاءت أمه في أثره

- مالك يا ولدي؟

تسمر أحمد وظهره إلى أمه برهة ثم استدار إليها وكانت عيناه دامعتين، ما إن رأتهما على هذا الحال حتى صكت صدرها براحة يدها وقالت: انت بتعيط يابني؟ مالك يا حبيبي؟

ثم أخذت برأسه إلى صدرها واحتضنتها بحنان، زفر أحمد زفرة حارة سيطر بها على انفعالات نفسه وحجب دمه الذي انفلت خلصة قبل لحظات وهو يقول: سأسافر ضمن الجيش الذي سيغزو منابع النيل بعد خمسة أيام.

تركت رأسه وقالت: يا خير، وهتسينا يا ولدي؟

- غصب عني يا أمي.

- طيب متكلم جناب الخديوي، مانت قريب منه يا حبيبي.

- الخديوي هو اللي عايزني أسافر.

- اعتذر.

قال أحمد بضيق: مينفعش يا أمي.

ثم استطرد في حماسة زائفة: هو كلفني بمهمة كبيرة ودي أكيد اختبار لولائي، والحملة دي فرصة علشان أترقي وأكبر كمان وكمان، بعدين أنا هكتب لحسن وأطمنكم عليّ باستمرار.

- يعني مفيش فايده؟

- معلبش يا أمي، انتي برضو تتمني لي الخير.

- طبعاً يا ولدي، بعيد المكان اللي هتروحو؟ وهتغيب هناك ولا لأ؟

ابتلع أحمد ريقه وقال: لا أبداً مش بعيد، ومش عارف والله هرجع امتي، إن شاء الله متأخرش.

- توعدي إنك تخلي بالك من نفسك؟

- أوعدك.

فهمت من جواره وهي تعد فرشته وتقول: نام يا حبة عيني دلوقتي، انت أكيد تعبان.

صحا أحمد على آذان الظهر، واستطال شاداً ذراعيه فانتبهت له أمه وكانت ترض أطباق الفطور.

- صح النوم يا ولدي، نمت كأنك منمتش من أسابيع.

- كنت تعباً فعلاً.

- ناموسيتك كحلي ياعم أحمد.

كان هذا حسن ملاطفاً.

قالت له أمه: يلا قوم افطر، انت على لحم بطنك من امبارح.

جلس إلى المائدة وهو يقول: طيب مش هتاكلوا معايا؟

- لأ احنا سبقناك، بس هقعد جنبك.

ثم سحبت أحد الكراسي إلى جواره وتابعتة وهو يأكل بحب، بينما كان حسن يقرأ العدد الجديد من جريدة الوقائع المصرية.

- خلص أكلك يا أحمد ونزل نقعد على القهوة شوية، سعيد هو كمان جاي.

جلس ثلاثهم على المقهى وقص أحمد عليهما قصته مع الأميرة فاطمة، والحب المتبادل بينهما، ثم افتضح أمره عند المفتش الذي سعى في إبعاده عن القصر بإشراكه في الحملة الأخيرة، فترك لديهما مشاعر مختلطة بين الدهشة والغضب والضيق.

قال سعيد: معقول يا أحمد تفكر في بنت الخديوي حنة واحدة؟

قال حسن بضيق: وايه يعني يا سعيد؟ أحمد ياوران الخديوي ومعاها باكوية وسنه صغير وفرصة في الترقية كبيرة، العيب مش عليه، العيب على إسماعيل المفتش، على الموقف السخيف اللي أخذه ضده.

- اهدا ياعم الثوري، هتودينا في داهية، الحيطان ليها ودان، اللي بتتكلم عليه ده تاني أهم راجل في البلد بعد الباشا الكبير.

- مهو شيء يفور الدم يا سعيد، هو كان ايه يعني قبل ما يوصل للي بقى فيه؟

- سيبكم من ده كله، أنا عايزكم تاخدوا بالكم من أمي وزينب.

قال سعيد: عيب توصينا يا أحمد، خلي انت بالك من نفسك يا صاحبي.

- متروحش الحرب يا أحمد.

- مينفعش يا حسن، مينفعش، أنا في الأول والآخر ضابط في الجيش، أنا مش شغال في طابونة.

كان هذا حينما اخترقت عربة تجرها أربعة من الخيول المظهمة الشارع يحيط بها اثنان من القمشجية ويتقدمها اثنان من السياس يصيحون في المارة: وسع .. وسع

تتم سعيد: لين الموكب ده يا ترى؟ شكله لواحد من الأمرا.

وقال أحمد بسخرية: أو لواحدة من العوالم!

فقال حسن في ضيق: أبداً، ده يعقوب بك قطاوي، رئيس الطائفة الإسرائيلية، هو ده حال بلدنا دلوقتي، خيرها مش لأهلها!

- هو مش مصري؟

- أبداً، هو معاه الجنسية النمساوية، ولقب بارون من النمسا، أبوه أليشع حيدر قطاوي جيه لمصر مهاجر.

- شئ غريب فعلاً، عدد اليهود في مصر تضاعف.
- اليهود عندهم قدرة غريبة يا سعيد على شم ريحة الفلوس والفرص، وبلدنا بتبني من جديد، مقيش فرص أكبر من كده لصيادين الفرص.
- علشان تحيب فلوس لازم يكون معاك فلوس، الفلوس بتجيب فلوس، علشان كده هنفضل نتفرج من بعيد على اللي بيغتني ويسمن من خير البلد من غير ما نشارك في الوليمة.

- 13 -

من أحمد إلى حسن

&&&

ها أنا ذا أكتب أول خطاباتي إليك كما جرى الاتفاق بيننا أعلمك فيه بكل ما يجري هنا وأطمئنتك على حالي، ولا أدري متى يتسنى لي أن أرسله لك ومتى سيصلك، لكنني آثرت الكتابة على كل حال ففي الكتابة شفاء للنفس، قليلون هم من تتاح لهم فرصتان لحياتين منفصلتين بتجارب مختلفة وخبرات جديدة، يؤمن الدروز بتناسخ الأرواح، وخروج الروح من جسد وحلولها في آخر، بما يمكن الروح من أن تحيا حيوات متعددة وتخوض غمار تجارب جديدة، فالروح قد تخلق في الفضاء في جسد طائر، أو تنمرغ في التربة في جسد زاحف، أو تسبح في أعماق البحار والمحيطات في جسد مخلوق بحري، ثم تحل في النهاية في الإنسان، هكذا كان شعوري تجاه رحلتي إلى إفريقيا، فرصة جديدة لحياة جديدة، وخبرات جديدة.

بعد أن سلمت عليكم توجهت إلى الحملة التي تألفت من 250 من السواري الباشوزق، وبطارتين من المدافع البرونزية الجبلية، و1400 جندي من البيادة مسلحين ببنادق سنيدر ينقسمون إلى أورطتين، أورطة مصرية، وأورطة سودانية وأغلب أعضاء الأخيرة من الذين شاركوا في

حرب المكسيك مع الجيش الفرنسي تحت قيادة المارشال بازين، كما صاحب الحملة جماعة من الإنجليز على رأسهم سير صمويل وزوجته ليدي بيكر، وابن أخيه الملازم جوليان ألين بيكر من رجال البحرية الملكية، ومهندس، وطبيب، ومدير المخازن، وسكرتير، ومهندس بواخر، وبناءو سفن.

وكان ضباط الحملة أمير الألاي رءوف باشا، والبكباشي التركي أحمد رفيق الذي شارك في حرب كريت قائداً للأورطة المصرية، والبكباشي السوداني الطيب عبد الله قائداً للأورطة السودانية، والبكباشي المصري عبد القادر قائداً لخرس سير صمويل بيكر، وأنا حيث كنت معاوناً للبكباشي أحمد رفيق في رتبة أقل مما أستحقها، وجال بخاطري أن المفتش لا شك السبب، لكني لم أكثرث أو ألقى للأمر بالآ.

كان مقرراً أن تتحرك الحملة في 6 بواخر من القاهرة، ثلاث منها تتم صناعتها للحملة خصيصاً في ترسانة الإسكندرية، و30 مركبا تتخذ مسيرها إلى الخرطوم، وهناك ينضم إليها 3 بواخر و25 مركبا شراعيا يعمل على تصنيعها للحملة جعفر مظهر باشا حكمدار السودان، وبالتالي يكون إجمالي الأسطول البحري المخصص للحملة 9 بواخر و55 مركباً، على أن السفن لم تتمكن من اجتياز "وادي حلفا" عند الشلال الثاني لانخفاض منسوب مياه النهر، فجاء الأمر بتفكيك سفن الأسطول الكبيرة ونقلها من "كروسكو" على ظهور الجمال عبر صحراء النوبة تحت الشمس الحارقة حتى الخرطوم في رحلة شديدة المخاطر، عبر تلال متماوجة من الرمال كانت تبدو أنها دون نهاية، بصحبة أدلة سود، وجناهم متآكلة من أثر حبات الرمل الذي تضرب الرياح به الوجوه فتترك فيها آثاراً غائرة، شاهدنا في طريقنا الورل، وهو نوع من العظايا الضخمة طولها مترين،

وبعض الغزلان الصحراوية، وثعالب الصحراء ذات الآذان الطويلة، بينما ركب الآخرون المراكب الشراعية الصغيرة.

أما صمويل بيكر فكانت رحلته أيسر، إذ سار بحراً من السويس إلى سواكن، حيث استقبله محافظها الضابط الشركسي، ومنها سافر إلى بربرة (19) في الجنوب على ساحل البحر الأحمر على ظهور الإبل، بصحبة خيول الحملة التي حملها معه في رحلته البحرية، ومن بربرة استقل باخرة نيلية بلغ بها الخرطوم، وقد لاقت الحملة في بدايتها الكثير من المصاعب، فبخلاف الشلالات التي لم تتمكن السفن الكبيرة من عبورها وعودة بعضها إلى القاهرة، كانت دهشة بيكر بالغة حين علم أن جعفر باشا لم يتمكن من تجهيز السفن اللازمة للحملة، والموجود منها رديئاً تقتل حباله من ألياف النخيل وليس الكتان، وكان يطلب فيها رغم ذلك ثمن فادح، كما أن السفن الشراعية الصغيرة التي تحركت من مصر لم يكن ينتظر وصولها قبل أشهر، وكانت تحمل في أغلبها منونة الجيش، على أنه وفي خلال أسابيع تم شراء وبناء 33 سفينة، وحين تجهزنا للإبحار اكتشفنا اختفاء البحارة والنواتية كي لا يشتركوا في الحملة بإيعاز من النخاسين الذين يسوؤهم لا شك أن تنجح الحملة في الوصول إلى غندكرو وتثبت أقدامها هناك، ورغم ذلك تمكن جعفر مظهر باشا من توفير البحارة والنواتية اللازمين بالقوة.

تحرك الأسطول بنا من الخرطوم عبر النيل الأبيض مكوناً من باخترين و31 مركباً شراعياً بعد أن اصطف على ضفاف النهر أورطتان من الجنود أطلقوا مدافعهم تحية للمسافرين، وفي صباح اليوم الخامس وصلنا إلى "فاشودة" محطة الحكومة المصرية في "بلاد الشلك Shillouks" عند ملتقى النيل بنهر السوبات، وآخر حدود الدولة المصرية جنوباً بمسافة تبعد ألف كيلومتر عن الخرطوم، فأكملنا المسير حتى وصلنا في اليوم السادس

إلى ملتقاه ببحر الزراف، وكنا طوال المسير نشاهد حشائش الإستبس الجافة، وسهول السافانا الواسعة، وأشجار السنط (الأكاسيا) تتلقف أوراقها الزرافات، كما شاهدنا كثيراً من الحيوانات الإفريقية كأفراس النهر، والتماسيح تسبح من حولنا، والحمير الوحشية، والغزلان، والجواميس، ووحيد القرن، والأسود، والفهود، والضباع المرقطة، والكلاب البرية، وذات مرة شاهدت شجرة ضخمة ومتفتحة غريبة الشكل أوراقها قليلة للغاية مقارنة بحجمها الضخم فاستفسرت عنها من أحد الملاحين وأجابني أنها أشجار البواباب، وهي نوع من الأشجار ذات أخشاب إسفنجية غير صالحة للاستخدام، وفي ثمارها لب يؤكل، أحياناً ما يحدث النخاسون والمهربون تجاؤيف في وسط جذوعها لاستخدامها كخزان لماء المطر، أو لتخزين مهرباتهم ومتاعهم.

بدأت سهول السافانا في الاختفاء ولاحت بعض القرى في الأفق قرب منطقة الغابات والأحراش، كان بحر الزراف يسير بنا متعرجاً بعرض 60 متر بين ضفاف عالية يبلغ متوسط عمق المياه عندها ثلاث أو أربع أمتار، اجتزنا مناطق القرى وكانت أرضاً مستوية تتناثر في أنحائها عدد من المستنقعات والحشائش والغابات الجافة، ويدل منظرها على أن مياه النيل كانت تغمرها في مواسم الأمطار، أصبح الإبحار صعباً في تلك المناطق فضاقت النهر وكثرت على جانبيه الأعشاب السابحة وأعواد البامبو العالية بارتفاع عشرة أمتار، والتي تشابك بعضها فصنع سدوداً طبيعية حرمتنا مع سكون الرياح الاندفاع في الإبحار، وبعد جهود شتى في محاولة شق الطريق، وإصابة بعض الجنود بتقرحات في سيقانهم من دودة غانا، قررنا العودة إلى بلاد الشلك في انتظار الفيضان القادم، واستغلال تلك الفترة الزمنية في زراعة الغلال واستكشاف الترع المنتشرة الصالحة للملاحة في بحر الغزال.

أقمنا المخططة على ضفة مرتفعة من النهر لا تعلوها مياه الفيضان، إلى الشرق منها الغابة لتكون ينبوعاً لا ينضب من الأخشاب والوقود، وصنعنا فيها المخازن وأماكن المبيت، مكثنا في المخططة الجديدة التي أسماها بيكر "التوفيقية" على اسم ولي العهد بضعة أشهر تجمعت لدينا فيها المراكب الشراعية البحيرة من خلفنا، وفي خلال هذه الفترة هاجمت الدوستاريا بعض أفراد الحملة لقرب المخططة من المستنقعات، وعصفت الريح بإحدى السفن التي تمكثنا من انتشارها بمساعدة أهالي الشلك، ولما حل موسم الفيضان ركبنا السفن والمراكب التي صار عددها 34 مركبا وتحركنا جنوباً صاعدين النيل، وفي 15 إبريل 1871 وصل أسطولنا أخيراً إلى غندكرو بعد فترة من الإبحار وحفر الخللجان وشق الطريق في مياه النهر الصعبة.

كانت غندكرو أرضاً مستوية يحفها النهر من جانب، والغابات من جانب آخر، وتكثر في نواحيها قرى لقليلة يقال لها البارين، وكان أهل القرية من الرجال والنساء شائهم شأن أغلب الأفارقة حفاة عراة لم يجعل الله لهم سترأ أكثر من خرقة أو بعض القش يسترون به عوراتهم السفلى، أقدامهم مقلطحة وبنيتهم قوية، أرسل سر صمويل بيكر في طلب زعيمها، فجاءه اللورون وهو رجل زنجي أربعيني، حافي القدمين، ذو ملامح شرسة، ضخمة الجثة، قوي البنية والساعدين متأزراً بقش يداري به عورته ويرتدي سلاسل من عظام وخرز ملون لاشك أنها تحدد رتبته وعلو منزلته في القرية. كان اللورون يقف وسط عدد من رجال القرية أمام سر بيكر وبينهما تومي الشاب العشريني الذي قدم معنا من بلاد الشلك ليعمل مترجماً، ابتداء بيكر الحديث قائلاً: إنه موفد من قبل جلالة الخديوي لمحاربة النخاسين ومنع وجودهم في هذه الجهات.

فقال زعيمهم: إن قبيلة لوكوياس أغارت على قريته ونهبتها بتحريض من أولئك التجار.

أجابه بيكر: أنه يعده أن يمد له يد المعونة ويحارب التجار ويبطل النخاسة تماماً في تلك المناطق، إذا هو عاد إلى منطقته واعترف بتبعيته للحكومة الخديوية وتعهده هو ورجاله بزراعة الحبوب وتشديد مساكن للجيش.

كان اللورون أثناء الترجمة ينظر إلى رجاله ويتسم باستهتار، ثم قال وهو يشير إلى بيكر موجهاً حديثه إلى تومي: هل يظن فعلاً أن بمقدوره إبطال النخاسة تماماً؟ وماذا يكون مصير تجار العبيد؟

أجابه البكاشي عبد القادر: يعملون في تجارة الحبوب وعاج الأفيال أو يعودون إلى بلادهم.

ما إن ترجم تومي ما قاله عبد القادر حتى ضحك الرجل بشراسة فاغراً فاه فتجلت أسنانه الصفراء المثمرة، وقال إنه في حالة عداء مع القبائل المجاورة، لذلك لن يجازف ويبحث عن خيزران لبناء المعسكر الآن، فقال له بيكر إنه إن لم يلتزم بتنفيذ أوامره سيكون مضطراً لأن يزل عساكره في قراه وبذا يكون هو وقريته عرضة للأمطار.

رحل اللورون وفي خلال أيام كان الجنود قد أعدوا عدداً من الأكواخ لمبيتهم دون مساعدة من اللورون ورجال قريته، فبدأ لنا جميعاً أن الرجل غير صادق في إخلاصه ونواياه، وسرعان ما أكدت لنا الأخبار مخاوفنا، فشركة العقاد التي سبق وأن استأجرت مركز الحكومة من سنين في غندكرو تحت ستار التاجرة في العاج ظاهراً والتاجرة في العبيد باطناً عندما أخبروا اللورون بوصول الحملة حذروه منها ومن التعامل معها، خاصة وأن

أهل القرية يشتغلون بالفعل مع أبو السعود مسئول الشركة في غندكرو ويؤدون لهم جلب العبيد من القرى البعيدة مقابل حفنة من الحرز الملون الذي يستخدمه التجار والرحالة الأوروبيون في إفريقيا بديلاً عن المال، وأن اللورون نفسه ليس سوى وكيلاً لأبو السعود ورجاله الذين بلغ عددهم قرابة الألف وثمان مائة رجل من قطاع الطرق مسلحين بالبنادق.

كان مخزون الغلال لدى الحملة قارب على النفاذ فطلب سير بيكر من اللورون عددا من رؤوس المواشي لإطعام الحملة يدفع له فيها ثمناً عالياً فعرض عليه بحيث أن يعطيه عددا من الأدلاء يدلونه على قطعان أحد جيرانه وعليه أن يستولى على قطعانه فتغنيه عن الشراء، فرفض بيكر وأجاب بأنه لا يريد أن يلحق الأذى بأي شخص لم يسبب له ضرراً، فأبى اللورون مساعدته، فما كان من بيكر إلا أن أمره ألا يدخل قطعانه في مراعيه وأن يراعها من الآن فصاعداً في جزر النهر المنخفضة.

وفي يوم 26 مايو 1871 كنا تمكنا من بناء الحطة التي أسماها بيكر "الإسماعيلية" في غندكرو، كما أقمنا بناء المعسكر حيث استخدم الرجال آلات تقطيع الاشجار البخارية دون مساعدة اللورون، وتجهز الجنود بملابس نظيفة، وتم الإعداد لحفلة ووليمة ضخمة دعا فيها بيكر اللورون ومشايخ قبيلته لإعلان ضم تلك النواحي إلى الحكومة المصرية، وكان ينبغي بذلك أن يلقي في نفوس مدعويه الرهبة فنصبت له منصة وضباط الحملة وأعضاء أركان حربه، وضيوفه من قبائل البارين، والشيرين، ومن جاورهم على مرتفع من النهر في سرادق بلغ ارتفاعه 25 متراً، وفي الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم سار الجنود أمام المنصة في تشكيلات من 1200 جندي و10 مدافع في سترات حمراء، وسراويل بيضاء، وفوق رؤوسهم كوفيات منسدلة على الأكتاف، بينما الموسيقى

تصيح أمامهم من قبل فرقة ارتدت كساوي حمراء وقفت أمام الخطة حتى وصلت إحدى مجموعاتهم إلى سارية ضخمة، وخرجت مجموعة أخرى من بين الأشجار الكثيفة وسط دهشة المشايخ والأهالي الذين تجمعوا للمشاهدة.

وقف الجند جميعاً قبالة السارية مشكلين مربعين ضخمين حيث تم قراءة إعلان ضم الناحية رسمياً إلى مصر باسم الخديوي، ورفع العلم المصري على السارية وأخذت تتلاعب به نسيمات عالية، وكنت في الميدان شاهراً سيفي فلما خفضته آذنا للجنود برفع أسلحتهم ذات الحراب اللامعة للسلام، أطلقت المدافع قذائفها تحية في اتجاه النهر، وما أن انتهى الإعلان حتى أمرت الجند فاصطفوا متهين للقتال وأطلقوا الطلقات من بنادقهم المصوبة، وهم نازلون إلى السفح الأقل انحذاراً المؤدي إلى المعسكر حيث الخيام التي أعدت فيها الوليمة، وما إن وصلوا إليها حتى نفخ في البوق ففضت الجنود صفوفها وتفرقت إلى أماكن الطعام.

من حسن إلى أحمد :

وصلني خطابك فسرعت كثيراً، وقرأته في البيت وسط عبرات أمك، وسعادة سعيد وزينب، وبكاء الصغير محمود ابن أختك، الحمد لله نحن جميعاً بخير وندعو لك أن يحفظك المولى من كل مكروه، وأن يعيدك إلينا سالماً.

لا أخفي عليك فبعد سماعي لقصتك التي قصصتها عليّ قبل سفرك بأيام قلائل ونحن جلوس في المقهى، تسربت إلى نفسي بعض الكراهية لذلك الباشا الذي حرمك من حبك وعائلتك وتسبب في نفيك إلى المهجول، فبدأت بحملة ضخمة ضده عبر صحيفة وادي النيل التي أكتب فيها، غير

أن هذه الكراهية لم تكن السبب الوحيد في حملتي عليه، فقد زادت شكوكي في صحة الحالة المالية التي يقدمها إلى مجلس شورى النواب في كل انعقاد، إذ لا يعقل أن تكون الحالة المالية للبلاد بهذه الجودة ونضطر مع ذلك إلى الاستدانة سنوياً وبشكل معتاد، ثم أنه لما نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا واضطربت كل الأسواق في أوروبا وقبضت كل البيوت المالية يدها عن الإقراض، لجأ الرجل إلى زيادة الضرائب.

ثم أنه لما وجد أن المعين لا يكفيه ابتدع ضريبة جديدة في 30 أغسطس 1871، أسماها ضريبة المقابلة أخذ إجماع المجلس الخاص عليها، وأمر بتوزيع نشرة لشرحها وفيها يقول أنه إذا دفع ملاك الأراضي الضرائب المربوطة على أطيافهم مدة ست سنوات مقدماً تعفي الحكومة أطيافهم على الدوام من نصف الضرائب المقررة عليهم، وأن هذا المجهود العظيم المطلوب من الأهالي إنما هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الوطن من مخالب المرابين، ورغم أن ذلك القانون بالاختيار إلا أن الحكومة دفعت الأعيان والباشوات إلى تنفيذه، وأكرهت عليه الفلاحين وصغار المزارعين بالضرب بالكراييج، حتى أن شاهين باشا وزير الحرية كان يطوف الوجه القبلي بنفسه للغرض نفسه، فكانت المسألة أقرب إلى كونها ضريبة جديدة أو سلفة غير مأمونة يكره عليها المواطنون.

فلما كتبت عن رأيي ذلك وفتحت نيراني على نظارة المالية جاء الأمر بإغلاق الجريدة محيياً للأمال، كنت أظن أن عبد الله أفندي سيفغضب مني لأني السبب في غلق جريدته، لكنني وجدته على العكس مستشاراً من الحكومة وقراراتها التعسفية، اكتب لي المزيد مما تراه في بلاد إفريقيا والمستجد فيها من أحداث فنحن نتابع ما تكتب بشغف.

كانت القاهرة قد تألفت وارتدت أفضل حلتها في هذه السنوات، فكان أثر مشاريع هاوسمان وعلي بك مبارك وشقهم الطرق وإنشاء الميادين الواسعة الرحبة، وإقامة الكباري والجسور والحدائق قد بدأت في الظهور، فقد تم تعمير المسجد الحسيني، وإصلاح ميدان الرميلة الواقع بجوار القلعة ووسع وغرست به الأشجار، كما أنشئ كوبري قصر النيل وجعل عند بدايته ونهايته سبعان من البرونز تحتهما الفنان الفرنسي ألفريد وقد سر الأهالي بتمثيل السباع كثيراً حتى أنهم أطلقوا على الخديوي لقب "أبو السباع".

وقف المحصل في أحد الأكشاك على الكوبري، ومن خلفه لوحة خشبية خط عليها رسوم المرور، فكان رسم عبور الجمل للكوبري قرشين، والدواب قرشا و15 بارة (20)، وعربات الكارو قرشين، وكلها أسعار للمحمّل منها، وأما الدواب والعربات الغير محملة فكانت ذات رسوم أدنى، وأما الأفراد من رجال أو نساء فجعل لهم 100 بارة مع إعفاء الأطفال حتى ست سنوات، ولما كنت خالي الوفاض دون عمل، لا أملك الكثير من المال لأضيّعه في التزّه آثرت الإكتفاء بالنظر إلى النيل والكوبري دون المرور عليه، ثم دار بخلي أن أمر بسعيد ونذهب للجلوس معاً على أحد مقاهي العتبة لأصرف بارائي هناك.

وفي العتبة كانت الحركة لا تهدأ في محلات أوروزدي باك Orosdi Back (عمر أفندي) لصاحبها أودلف أوروزدي الضابط المجري التي بدأت في غزو أسواق القاهرة، واسطنبول، وبغداد، وبيروت، وفي

البازارات، ومحلات المانيفاتورة، والرهونات التي يمتلكها اليهود، وكان الميدان يموج بحركة عربات الدوكار والحمير، وغير بعيد أحد الباعة على واحدة من عربات الكارو.

سألني سعيد: ألم يكتب لك أحمد رسالة جديدة؟

- لا، لم يصلني شيء بعد، لا أفهم لماذا كل هذا التأخير.

- المسافة بعيدة كثيراً يا حسن، ولا بد أن الأمر منوط بمواسم الأمطار، وحركة الجند أو السفن عبر النيل، وليس به.

- ربما.

- لماذا لا تعاود الوقوف في الحبل من جديد وتخرج نفسك من حالة الإكتئاب التي وضعت نفسك فيها؟

- ليس أكتئاباً يا سعيد، أنا فقط يحزنني أن أودع مهنة الصحافة التي أحببتها.

- لماذا لا تحدث أحد أصدقائك إذن عليهم يساعدونك؟

- لدي موعد في الغد مع رفاة بك طهطاوي، وأنا مستبشر خيراً.

- على خيرة الله، تعال لنرجع فأنا تعبت.

توقف حسن عن السير وأشار إلى بشر جلوس، ومتحلقون في أحد المقاهي فسأل حسن: فيم هذا التجمع؟

- وما أدراني.

- تعال لتتحقق.

كانت الحلقة حول شيخ ملتجٍ يرتدي عباءة ذات أكمام واسعة، وعمامة صغيرة خضراء مميزة، يبدو شعره الأسود المنسدل من تحت عمامته في سواده ونعومته، أنه ليس من أهل البلاد وإنما يلوح لك أنه قادم من جهات الهند أو باكستان.

كان الشيخ يتحدث عن الحرية، وحاجة مجتمعاتنا إليها بشرط ألا نخدش الحياء العام، أو أن تستغل فيما يغضب الله، ثم أشار إلى صبي في الثالثة عشر من عمره، وقال: كنت قد طلبت من بعض تلاميذي في الأزهر أن يكتبوا موضوعاً عن الحرية فلم أقرأ أفضل مما كتبه هذا الشاب، إن أردتم معنى هذا، فمثل ذلك لا يدل إلا على أن الحرية ناشئة بالفعل في مصر، طالما يجيد الكتابة عنها ناشئ مثل سعد، بوركت يا ولدي.

ثم ربت على كتف الصبي الذي ابتسم ابتسامة عريضة قابل بها جميع المتحلقين من حوله بعد أن جعله أستاذه في مواجعتهم، وكان يبدو عليه الفخر الكبير بحديث أستاذه الطيب عنه، واستطرد الشيخ من جديد: على أن الحرية تحتاج دوماً إلى الشجاعة والجرأة في طلبها والدفاع عنها لصيانتها من أي غتداء، سعد زغلول وأخوه الأصغر أحمد فتحي زغلول صبيان نابغان يدرسان في الأزهر، لكن أكثر ما أعجبني في سعد بحق حين علمت أنه ألف جماعة من إخوانه الطلاب الشجعان وكتبوا منشورا علقوه في سواد الليل على أعمدة الجامع يبينون فيه مواضع الخلل كما يرونها في الأزهر ويعددون وسائل الإصلاح.

حالما توجد جرأة المطالبة بالإصلاح الداخلي في أي مجتمع، تتولد الرغبة الحقيقية في النهوض والإصلاح الجذري للأمور، ولعل طلابي الأعزاء في الأزهر صاروا يعرفون تلك الحقيقة الآن فلما وجدت مطالبات الإصلاح، تولدت الرغبة لدى الإدارة العليا في الإصلاح فجاء الشيخ محمد العباسي

المهدي شيخ الأزهر، ومفتي الديار المصرية أطال الله عمره ليبدأ مرحلة الإصلاح بالفعل بإصلاحه التعليم ووضعه نظاماً لامتحان العلماء بواسطة لجنة مؤلفة من ستة من كبار العلماء، اثنان من الشافعية، هما الشيخان خليفة الصفطي، وأحمد شرف الدين المرصفي، واثنان من المالكية هما الشيخان أحمد الرفاعي، وأحمد الجيزاوي، واثنان من الحنفية هما الشيخان عبد الرحمن البحراوي، وعبد القادر الرفاعي.

مثل هذه التجربة من الممكن تكرارها في أي مؤسسة وفي أي مجتمع، لا بد أن نؤمن بقيمة الحرية، وأن نسعى لها ونطالب بها، ثم نستخدمها في الإصلاح، فنمتلك جرأة المطالبة بالحرية، والمطالبة بالإصلاح.

سألت أحد الجالسين: من هذا الرجل؟

فأجابني: جمال الدين الأفغاني، أحد المترددين على الأزهر، مناضل سياسي، وفيلسوف وواحد من دعاة الإصلاح.

- هل هو مصري أم أفغاني؟

- أفغاني من "أسعد آباد" إحدى قرى كابل عاصمة أفغانستان، يتصل نسبه بالسيد علي الترمذي المحدث المشهور ويرتقي إلى النسب الحسيني الشريف، سافر إلى الهند ومصر والحجاز وآستانة، وهناك كاد له شيخ الإسلام وألب عليه الناس حتى أخرجه منها، فعاد إلى مصر بدعوة من رياض باشا وياكرام من الخديوي إسماعيل الذي أجرى له راتباً شهرياً قدره ألف قرش كل شهر.

ابتسمت في سخرية وتساءلت في نفسي: هل استقدم الخديوي له إعجاب منه بآرائه السياسية والفلسفية، أم أنه استقدمه فقط ليقال إن مصر تحمي العلماء والفلاسفة الذين لا تطبق وجودهم فيها دار الخلافة؟!

استمر الشيخ يلقي درسه عن الحرية، قبل أن ينهض ويتفق مع الحضور على أن يكون الموعد ثابت كل أسبوع في نفس الوقت والمكان، نظرت إلى اسم المقهى وأنا خارج لأعرفه.

- مقهى متاتيا، لماذا يلجأ رجل دين مثله وأحد الدعاة لأن يعقد دروسه في أحد المقاهي؟

- من الممكن أن تصطدم دعاويه الإصلاحية والمنفتحة بأصوليين في المساجد والجوامع، أو ربما لأنه يود أن يوسع دائرة المستمعين له، من يدري!

- أقول لك أمراً، لقد شعرت وكأنه يخاطبني وكلامه كله ينطبق عليّ، أنا آمنت بالحرية ورغبت في الإصلاح، وكتبت رأياً لم يرض الحاكم والحكومة، فكان القرار يحظر الجريدة، مثل هذا اليأس الذي اعتراني لا يصح أن يتمكن مني، لطالما كانت شجرة الحرية تروى بالتضحيات، لا بد ألا نياس المطالبة بالحرية، أو نكفر بالرغبة في الإصلاح.

- صحيح، أنا أيضاً أعجبي الرجل كثيراً، لماذا لا نواظب على حضور دروسه؟

- كنت أنوي ذلك فعلاً.

عدت إلى البيت، وحين عدت وجدت خطاباً جديداً وصلني من أحمد كان هذا نصه:

" أخي العزيز حسن، حزنت كثيراً لما أصابك وإني أدعو الله أن يخفف عنك، أنت تملك موهبة فطرية يا حسن، وعليك ألا تستغنى عنها وتبحث عن عمل في مهنة الصحافة أو الأدب فأنت كاتب بالفطرة، سلم لي على الجميع وأعلمهم أنني بخير وإليك الأحداث الجديدة.

زادت الحاجة إلى توفير المواشي لإطعام الجيش، وكنا مستائين من الباريين الذين لم يوردوا المواد اللازمة لتشييد المحطة، أو الأغنام المطلوبة لغذاء الجيش، فأمر سير بيكر بحجز جانب من أغنامهم وإيداعها في المعسكر، وعلى أثر ذلك حضر وفد من مشايخهم ورجوا فك عقال المواشي البالغ عددها 200 رأس، فقابلهم بيكر وأعلمهم أنه عليهم تقديم الطاعة للحكومة وتنفيذ ما يأمر به، وبما أنهم لم ينفذوا أيّاً من طلباته التي طلبها منهم حتى الحين فقد قرر أن يحتفظ بماشيتهم ولا يردها إليهم إلا إذا أحضروا قشاً وأمدوا الحكومة بمعونتها مثلما يؤدون المساعدة لأبي السعود ورجاله، فلما تجادل المشايخ أعلن بيكر أن عدداً كبيراً من المشايخ لا يرضى على ما يبدو بزعامة اللورون وأنه يأمرهم بأن ينتخبوا من هذا المجلس شخصاً يكون نائباً عنهم بديلاً عنه ليتقلد زعامة القبيلة فانتخبوا من بينهم مريه، رجل في السبعين من عمره، الأكبر سناً بين الحضور، وكان خفيفاً تبرز عظام صدره وعظام وجهه أسفل محجري عينيه بما يعطيه عمراً أكبر من عمره، فقبل بيكر باختيارهم، واستغل الشيخ المسن الفرصة فطلب باسمه وباسم شعبه توطيداً لدعائهم الثقة أن يفرج الجيش عن المواشي، فقبل سير بيكر وقال إنه سيجرب إخلاصهم.

أحضر الباريون عقب ذلك حزم الخيزران وبعض القش لالتهاء من أعمال الإنشاء في المعسكر والمحطة، وصرفوا النظر عن تزويد الجيش بالمواشي، على أمل تجويع الحملة ورحيلها على ما يبدو، ولما كان ذلك أمر بيكر بعض الجنود فاقتادوا بعض الأغنام دون أن يشعر بهم الأهالي إلى المعسكر فجاء الوفد ثانية يضم مريه واللورون وعدداً من الرجال والمشايخ وأعلن لهم بيكر أنه سيحجز الأنعام ضماناً لحسن سلوكهم وأنه سيختار منها بعض الأبقار لجيشه ويدفع لهم ثمنها فأنصرفوا على وعود بالإخلاص،

على أن النفوس لم تصف بعد هذا الحدث وزاد التوتر بين القرية والمعسكر، حتى تسلل بعض شباب القرية ذات ليلة إلى المعسكر وأرادوا إطلاق سراح المواشي فأطلق الحراس أعينهم النارية على سبيل التحذير، وأعلن بيكر بعدها أن البارين شقوا عصا الطاعة وصار من اللازم استعمال القوة معهم فإذا ما نشبت معارك بين الطرفين يحظر عليهم أن يأسروا النساء أو الأطفال وكل من يخالف ذلك يحكم عليه بالإعدام.

ولم تمض خمسة أيام حتى تكرر الحادث الأول وألقي القبض على شخصين تجمعوا وسط الأعشاب المرتفعة قرب مجرى النهر، انسلا إلى حظيرة المواشي بقصد تحريرها، بينما تمكن آخرون من الفرار بالمواشي، فأعطى بيكر أوامره لي بالتجهز وخرجت بعد ذلك بليلة في سرية من ستين جندياً في خمس مراكب ونزلنا في الجهة الشرقية من الجزيرة، ونزل بلوكان على الجهة الغربية من الجزيرة بقيادة الطيب عبد الله، وبقي بلوكان آخرون على ظهر الباخرتين على ضفاف الجزيرة من ناحية المحطة وأعلنت التعبئة ودوى الطبل في المعسكر، وسارت المقدمة عدواً حتى وجدنا الأهالي وقد قادوا المواشي وبلغوا بها شاطئ النهر الشرقي ودخلوا منطقتهم آمنين ففاجأهم أن يجدوا جنودنا في أثرهم يطلقون عليهم الرصاص ففر البعض منهم وسقط الآخرون قتلى وعدنا بالمواشي مرة أخرى إلى المعسكر في أول اختبار للقوة بعد قرابة 14 ساعة من المطاردة عبر النهر وفي الجزيرة.

على أن الحوادث لم تنته بل اشتعلت شرارتها فقط، ففي خلال يومين هاجم الأهالي من قبيلة البارين وقبيلة بلنيان المعسكر من نواحي الغابة، وانقضوا على الحراس وقتلوا أحدهم بسهم وجرحوا آخر في ذراعه جرحاً بليغاً بضربة حربة، فأمر سير بيكر بمهاجمة قبيلة بلنيان وتأديبهم في اليوم

نفسه، فخرجنا أنا والبكاشي عبد القادر والملازم بيكر بصحبة أربعة بلوكات ومدفع مسافة ثلاثة كيلومترات دخلنا بعدها الغابة المظلمة بصحبة أحد الأدلاء اسمه مرجان، وكثيراً ما كان يعلق المدفع بين جذور الأشجار والنباتات المتشابكة ويضطر الجنود لرفعه، حيث هطل علينا المطر، فساءت الحزكة في الأرض الطينية الموحلة، حتى خرجنا من الغابة إلى أرض مستوية، وكانت الغيوم تددت والمطر قد انقطع، ولاحت لنا القرية عند بزوغ الفجر بعد خمس ساعات من المسير فوجدناها محاطة بحاجز خشبي مستدير، فلما رأونا الحراس أمطرونا بوابل من السهام أصابت واحداً فصبونا عليهم بدورنا وأمطروناهم بالرصاص ففروا هاربين إلى الغابة.

دخلنا القرية وتناولنا الفطور وغنمنا 600 رأس من الأبقار، ثم أمرهم البكاشي عبد القادر بإضرام النيران في القرية فاعترضت، لكنه أخبرني أن الأمر لازم لضمان عدم التجرؤ وتكرار حالات الاعتداء على الجيش من السكان المحليين، لكنه لم يكن محققاً فالاعتداءات لم تنته، هاجم رجال أبي السعود مواشي قبيلة "الشيرين Shris" وزعيمها نيانبوريه ونهبوها، وكانت تلك القرية من القرى التي رحبت بتبعتها للحكومة المصرية، والتي ترك بيكر فيها البكاشي أحمد رفيق وستة من الجنود لحفظ الأمن ومراقبة حركة التجار وزراعة الأهالي القمح لحساب الحملة، فلما علم بيكر وأتته الإخبارية ركب مركبه وانتقل إلى الضفة الثانية من النهر حيث وصل أبو السعود وشرع في إقامة معسكره قبالة معسكرنا على الضفة الثانية من النهر، وتجمع الباريون لمساعدته في إنشاء المعسكر في عمل أبوا أن يتموه لنا، وأبو السعود هذا أسمر البشرة، على أن سمرة ليست كسمرة سكان هذه المناطق، فهو أحد التجار السودانيين العرب، وأولئك سمر البشرة، بينما سكان الجنوب سود البشرة، يتخلل لحم وجهه علامات صغيرة غائرة تشبه العلامات التي تركها رمال الصحاري والقيافي بفعل احتكاكها بوجه

البدو الرحل فيها، خشن الشعر، كان إذا ما ضحك وفغر فاهه لاحت إحدى ضروسه الذهبية، يرتدي بنظالا أبيض وقميصا أبيض ومن فوقهما عباءة، ما إن هبط بيكر في جمع من جنده ورآه الباريون حتى لاذوا بالفرار، فأمر بمصادرة المواشي التي لديه وحذره من الاستمرار في نهب القرى وأعلمه أنه لن يتم تجديد تعاقد مع الحكومة المصرية وأنه عليه أن يخلي محطاته بعد انقضاء مدة تعاقد.

استمرت الهجمات متتالية من "الباريين"، و"البنينيين"، و"اللوكياس" يومية، وأغلبها ليلية بهدف سرقة المواشي، وكانوا كثيراً ما يعمدون إلى الصباح طوال الليل ليجعلوا الجنود وقوفاً متحفظين طوال الوقت في نوبات حراستهم، وذات مرة هاجموا المحطة فهاراً بالبنات فقتلوا جندياً وجرحوا آخر، ثم سرعان ما تفرقوا في الغابات حين أطلقنا الرصاص تجاههم. وكنا قد قتلنا أحدهم وأعدمنا آخر شتقاً على شجرة في طريق مهاجرتهم للمعسكر لعلهم يرتدعون دون جدوى، فأمر بيكر بحفر خندق حول المحطة وعمل منحدر من حولها لحمايتها محولاً المحطة إلى حصن متين ذي خندق ومتاريس، كنا ننظر إلى أعمال الحفر والبناء سعداء وقال لنا البكباشي عبد القادر ضاحكاً: الآن نفزوهم ولا يغزونا.

وفي ليلة 30 يوليو وصل نيايبوريه زعيم قبيلة الشيريين ومعه بعض رجاله منقطعي الأنفاس وقد أضناهم التعب، كأنهم قطعوا المسافة عدواً ليحملوا لبيكر خير مقتل خمسة من الجنود الستة الذين تركهم لديه على يد أهالي قبيلته، وكان أبو السعود قد نهب إحدى القبائل المجاورة وأراد أن يتقرب من البكباشي أحمد رفيق فأهداه بعضاً مما نهبه، مما أثار غضب أهالي قريته الذين طالبوا بطرد الجنود فرفض طلبهم فهاجموهم وقتلوا منهم خمسة، غضب بيكر كثيراً من الخطأ الذي وقع فيه أحمد رفيق وتسبب في

مقتل جنوده على أن غضبه الأكبر كان موجهاً لأبي السعود الذي حمله مسئولية ما حدث.

وفي 30 أغسطس 1871 خرجنا في حملة مؤلفة من 450 جندياً ومدفعين من مدافع رمي الصواريخ زنة الواحد منها ثلاثة أرطال بغرض تأديب العصاة وتجديد مؤونة الذرة التي نفذت، وكان ذلك الأوان أو ان الحصاد، فترلنا وادي بلنيان الذي يحده النهر من جهة ومن جهة أخرى مجموعة من التلال والجبال تترامى في أسفلها مئات من القرى المبعثرة يحيط بأغلبها حواجز خشبية مدببة الأطراف، ويحميها أهلها بعدد من البنادق حصلوا عليها من رجال أبي السعود، أو غنموها منهم في معارك سابقة، هجم جنودنا على إحدى القرى ففر الحراس وتسلقوا الجبال في سرعة ومهارة أشبه بمهارة القردة، وهم يطلقون الصيحات، ضربت إحدى القذائف مجموعة اقتربت من مؤخرة الجيش ففروا مذعورين، ثم أحرقنا الحواجز الخشبية واخترنا موضعاً في الخلاء فنصبنا فيه الخيام بعد أن تأكدنا من خلو المنطقة من الأهالي، وفي الصباح تقدمنا شمالاً في السهل واستولينا بالخراب على منطقة مزروعات هائلة مساحتها 15 كيلومتراً مربعاً حيث أقمنا حولها ثلاثة نقاط حصينة تبعد كل واحدة عن الأخرى مسافة كيلومترين، وبعد تحصين الجهات بدأنا الحصاد، على أن المعارك لم تتوقف، فسقط في إحداها البكباشي أحمد رفيق قتيلاً، وصرت بدلاً منه قائد الأورطة المصرية، وبعد 35 يوماً من العسكرة في هذه الجهات عدنا أخيراً إلى محطة "الإسماعيلية" في غندكرو ولدينا مؤونة من الذرة تكفينا شهرين."

- 14 -

من حسن إلى أحمد

&&&

لا تبتس ولا تحزن لحالي يا أحمد، " فمن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب"، أحمل إليك أخباراً سارة في خطابي هذا، قبل شهر توسط لي رفاة بك الطهطاوي ومحمد بك عثمان جلال، لأكتب في الوقائع المصرية فقبلوا توظيفي على أنهم نصحوني ألا أكتب في السياسة هذه الأيام حتى ينسى المتابعون اسمي، وما كان مني من مقالات نارية في وادي النيل فقبلت، واقترحت أن أكتب لهم عبر حلقات أخبار الحملة العسكرية في مديرية خط الاستواء أستمدتها من خطاباتك فأعجبوا كثيراً بالفكرة ورحبوا بها، لكنهم اشترطوا أن يعرضوها أولاً على مسئول عسكري ليختار منها ما هو صالح للنشر إخلاءً لساحتهم وساحتي، أما عبد الله أفندي فقد شغلته مساعدته لرفاعة بك الطهطاوي في ترجمة القوانين الفرنسية وكتابة بعض المقالات في الصحف الأوربية من أمثال البروجيه اجيسيان Le Progres Egptien والريفورم La Reforme

تحسنت حالتي المادية بفضل الله، وبدأت أملك تلح عليّ لأتزوج فعقدت كتابي على فتاة طيبة اسمها توحيدة، وهي من عائلة كريمة فأبوها هو محمد بك توفيق سليل عائلة الاسلامبولي، وأمها هي عائشة هانم سليمة عائلة تيمور، وقد اجتمع الأهل والأحباب في حفل الزواج الذي زفتنا فيه فرقة الشاويش محمد حسب الله أشهر فرق شارع محمد علي مستخدمين عددا من الآلات الموسيقية كالكلارينيت والترومبلي والترومبة والطلبة، كانت ليلة رائعة، لم ينقصنا فيها إلا وجودك بيننا.

من أحمد إلى حسن :

مبارك زواجك يا حسن، أسأل الله أن يتم لك بركاته، فكرة نشر مقالات عن الحملة فكرة طيبة، طالما أنها بإذن السلطات، وقد تحدثت مع المستر بيكر عن ما تود فعله فرحب ولم يرفض، وإليك ما حدث في الفترة الماضية:

كانت لدى بيكر مخاوف وشكوك وجبهة تجاه رؤوف بك، في أن لديه علاقة بأبي السعود، (لا تنشر ذلك) إذ كان كثيراً ما ييدي امتعاضه من الوضع ويقترح العودة إلى الخرطوم، في وقت كان يعمل بيكر دوماً فيه على تذليل العقبات التي تواجه استمرار بقاء الحملة، وفي 31 أكتوبر 1871 أرسل رؤوف بك خطاباً إلى بيكر وملحق به خطابان آخران موقع عليها من أغلب ضباط الحملة باستثنائي أنا والبكباشي عبد القادر رئيس أركانه ورئيس حرسه، يلتزمون فيه العودة إلى الخرطوم لندرة الحبوب والغذاء في هذه الجهات، فرأى بيكر أن يجهز لغارة جديدة على جزر الباريين في الجنوب من نهر جبل الرجاف ليبتل مكيدته، تحركنا جنوباً مسافة 12 كيلومتراً وكان النهر متسعاً في هذه النواحي ويصل عرضه إلى

450 متراً، وصلنا الشاطئ الغربي لإحدى الجزر ونزلنا فيها، وكانت جزيرة رائعة يلوح في أفقها تلال صخرية عالية، وتكثر بها الحصرة اليناعة التي تنحدر المنحدراراً لطيفاً فتشكل سهولاً واسعة تنتهي إلى الضفة الأخرى من النهر وتتفرق فيها أشجار باسقة دون غابات وأحراش، اقترنا من القرى وكنت أرثي لحال أهلها، كان عدد من الأطفال العراة جذبهم الفضول لمشاهدتنا فلم يفرّوا، وكانت النسوة تخرج من الأكواخ الطينية المسقوفة بالقش لتلقط أطفالها وتدفعهم دفعاً إلى الداخل ناهرات، وكان بعض الرجال يخرج إلينا صائحاً أو هازاً رمحه مهدداً في علامات عدائية، أو يلوح آخرون بتروسهم ومزاريقهم، فأمر بيكر تومي فترجم صائحاً في الأهالي أن الحملة ما أتت لتقاتلكم بل لتشتري الغلال فقط، وأن سير صمويل بيكر سيبادل الجوجو من السورجو ببقرة، والجوجو هو مكيال والسورجو هي الذرة، فقوبل العرض بالصياح الحانق والسياب والقول بأن الحملة لن تبعيهم مواشيهم التي سيحررونها بالقوة، فلم يبق لديه إلا أن أمر جنده فوقفوا بكيفية تمكنهم من إطلاق النار بينما قام الباقون بأخذ نسبة واحدة من الحبوب من كل قرية مروا عليها بالتساوي، ثم اتجه جنوباً وكرر ما فعله في الضفة الأخرى من النهر حيث أقام هناك محطتين آخرين ترك في كل واحدة منهما حامية بحيث يتكون من المخططات الثلاث مثلث من الأراضي الخصبة، حيث تمكنت الحملة من احتلال ثلاث جزر، كما أرسل حملة تآديبية على قبيلة الشيرين للثأر من الذين ذبحوا جنوده.

تحسنت بعد هذه الوقائع الأمور كثيراً مع كل القبائل المجاورة، حتى البارين أنفسهم خضعوا خضوعاً تاماً للسلطة الجديدة وتبادلوا الهدايا مع المعسكر وطلب اللورون السلام فقبل السير بيكر، ورغم ما حققه بيكر من نصر أراد به تثبيت أقدام الحملة إلا أن رؤوف بك انتهاز فرصة غيابه

فقام بترحيل 1100 شخص من بحارة وجنود ونساء وأطفال إلى الخرطوم، ادعى إن جميعهم مرضى، فانخفض عدد الجنود إلى 554 فقط بما في ذلك فرقة الموسيقى، والكتبة، والبحارة، نصفهم في الإسماعيلية والبقية موزعة على القرى والمخيمات الآخرين، ومثل ذلك العدد الضئيل غير كاف لإحراز أي تقدم واحتلال مساحات جديدة، ورغم ذلك تحركنا في حملة من 212 ضابطاً وجندياً جنوباً في مراكب بلغنا بها "شلالات فولاً" في 27 يناير 1872 وهناك قابل السير بيكر زعيم قبيلة المنطقة واسمه بيدن، ثم زحفنا جنوباً إلى "لابورية" حيث قابلنا زعيمها فقبل الدخول في طاعة الحكومة المصرية ووهبنا 700 من أهالي قريته يعملون لنا حمالين ورعاة للماشية توفيراً لقوة الجنود على قلة عددهم، ثم واصلنا المسير بصحبة الأدلة وكانت الأرض كثيرة المرتفعات والمنخفضات والغابات المسكونة من قبل "قبيلة المادي Madis" التي خربها النحاسون.

وفي 2 مارس وصلنا سهلاً جليلاً يبعد عن "لابورية" ستين كيلومتراً سماه سير بيكر "الإبراهيمية" ويسميه الأهالي "أفودو"، وفي 5 مارس عسكرنا على سفح "جبل شوا" الواقع على مسافة قريبة من "فاتيكو" والبالغ ارتفاعه 1200 متر، وكم كان هناك المنظر بديعاً من أعلى الجبل، وكم كان النسيم فيه منعشاً، وهناك تم استعراض الجيش أثناء دخوله "فاتيكو" فسار سير صمويل بيكر وزوجته والملازم جوليان في المقدمة على ظهر الجياد، يليهم خمسة جنود من الحرس، ثم أليهم أنا والبكباشي عبد القادر، ثم بقية الجيش، ثم الحمالون والرعاة، وكنا أثناء سيرنا نصعد التلال فيتراعى لنا ما تركناه من خلفنا ونشاهد النهر يشق الأرض والغابات في مشهد بديع قبل أن ننحدر نزولاً في أرض زلقة حفرها الأمطار الاستوائية

حتى وصلنا إلى سهل منبسط وجدنا فيه محطة من محطات أبي السعود، نفخ في البوق إيذاناً بالتحرك فتقدم الجند وأمامهم الفرقة الموسيقية حيث اختار بيكر موضعاً لبناء المعسكر وكنا قد ابتعدنا عن غندكرو مسافة 261 كيلومتر.

حضر أبو السعود يرجو من سير بيكر أن يتزل وجنوده في أكواخ خصصها لهم فرفض، فذهب أبو السعود وعاد بكمية كبيرة من القش لمساعدة الحملة على إنشاء معسكرها، وفي صباح اليوم التالي استعرض بيكر الجيش وأمر بعمل مناورة وهجوم على "جبل شوا" واحتلاله أطلق فيها بعض القذائف المدفعية على الجبل تلاها اقتحامه، ثم عادوا ونزلوا من الجبل يطلقون بعض الطلقات النارية، عاندين إلى معسكرهم، كان بيكر يريد بفعله استعراض القوة مثلما سبق وفعل في "غندكرو"، وقد نجح فقد اصطف بالفعل الأهالي من "قبائل الشولي Shouli" سكان إفرقيا الوسطى يراقبون الجيش المنظم في إعجاب، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يشاهدون فيها شيئاً كهذا.

أنشأ الجنود محطة جديدة في "فاتيكو" التي لم تكن سوى قرية ضمن بلاد الشولي الخاضعة لزعامة روت جرما الذي أتى وقدم خضوعه وتبعيته للسيادة المصرية، وأرسل بيكر من مقره الجديد في الغطة رسائل إلى جميع وكلاء أبو السعود يعلمهم فيها أن تعاقد أبي السعود سينتهي وأنه عليهم جميعاً مغادرة البلاد، أو أن يسلكوا مسلكاً شريفاً فيعملوا لدى الحكومة في زراعة جزر النيل الخصبة دون دفع ضرائب، أو أن يدخلوا في جيشه بصفتهم جنوداً غير نظاميين فيكون لهم راتب مساوٍ لراتب الجنود النظامية ويكون لهم امتياز خدمة ستة أيام فقط، وجاء أبو السعود يعلن أنه سينيهي

كل أعماله التجارية في البلاد فور انتهاء مدته وأنه لن يبقى إلا ريثما يجد وسيلة يشحن فيها شحنته الأخيرة من العاج.

استأنفت الحملة مسيرها إلى الجنوب باتجاه "مملكة أونورو" فوصلت إلى "فويرا" في 22 مارس عند "نيل فيكتوريا" المتفرع من "بحيرة ألبرت"، فوجدنا الماء رائقا وصافيا على عكس المياه البنية العكرة التي كنا كثيراً ما نشاهد تمرغ الأفيال والجواميس الوحشية فيها، وبينما نحن هناك قدم لزيارتنا كزونغبا أحد مشايخ الأونورو ومستشار ملكها كمرازي فلمن منه بيكر أن كمرازي توفي منذ عامين وأن موته سبب حرباً شرسة بين ثلاثة من المتنازعين على الملك هم ولديه كباريجا وكياميرو وابن عمه ريونجا انتهت بموت كياميرو وانتصار كباريجا وتقلده عرش أبيه، تحدث صمويل بيكر عن سبب قدومه للبلاد وأرسل مع كزونغبا هدايا إلى كباريجا فقبل الأخير هداياه وأرسل له بقرتين وملحاً وبعض الموز على سبيل الهدية، وفي هذه الأثناء انضم اثنان من وكلاء أبي السعود إلى الحملة المصرية هما سليمان وإدريس اللذان تعهدا أن يعملوا مدة سنة مع كامل رجالهما في خدمة الحكومة المصرية بعد أن وصلتهما رسائل بيكر التي يعلمهما فيها أن مدة عمل أبي السعود انتهت فسعد لذلك وجعل من محطتهم في فويرا محطة للحملة يضع بها حامية من رجاله ورجال سليمان وإدريس لحراسة سفنه ريثما يتجه هو لزيارة كباريجا في عاصمته "مازندي".

تحركت الحملة وكان المطر لا يتوقف عن الانهمار وكانت أشجار الموز منتشرة في كل مكان، وكانت الأرض طينية زلقة كثيراً ما توجد فيها الثعابين، وفي 14 إبريل جاءنا مرسال يعلمنا أن الملك كباريجا مشتاق لرؤية سير صمويل بيكر، وكنا كلما دخلنا قرية من قرى مملكته تقدم إلينا زعيم القرية للترحيب بنا، وفي 20 إبريل تمكنا من مشاهدة مياه بحيرة

ألبرت غرباً والتي يسميها الأهالي "نيانزا" من فوق مرتفع، وفي 25 إبريل وصلنا "مازندي" عاصمة الأونيورو العظيمة على تل مرتفع غير مستوي السطح، وكانت أكبر العواصم الإفريقية التي شاهدناها حتى ذلك الحين، يجذب أفقها الغربي سلسلة جبال ممتدة على شاطئ بحيرة ألبرت نيانزا، وهناك قدم كباريجا هدية مؤلفة من 29 كيساً محملاً بجبات يقال لها طلابون قرية الشبه بحبة الفاصوليا، وكمية وافرة من الموز والبطاطس وست عزات لمؤونة الجيش، فقبلناهم شاكرين، وكان الأهالي جهزوا بعض الأكواخ لمبيتنا، وفي اليوم الثاني ذهبنا أنا وعبد القادر والملازم جوليان بصحبة سير صمويل لمقابلة الملك الذي بدا صغيراً في العشرين من عمره يرتدي حلة جميلة من قشور الشجر مخططة بخطوط سوداء، فتحدث عن سعادته بقدومنا وقرار إيقاف عمل أبي السعود ورجاله في هذه الجهات، وذكر له بيكر أنه متأسف لما جرى من حروب أهلية في البلاد بعد وفاة كمرازي فقال كباريجا إنه لم يعد يخشى شيئاً على بلاده طالما ستدخل في حماية مصر.

وفي 27 إبريل أراد كباريجا أن يرد الزيارة ففرش الجند السجاجيد واصطفوا على جانبي الطريق بين قصر الملك ومقر سير صمويل ودوت الأبواق وقرعت الطبول وتقدم الملك الصغير في خطى واسعة غريبة الشكل لا تليق بملك، ولما اقترب من الأبواق فزع ودخل سرادق سير بيكر مرتعاً، حيث قدمت إليه المشروبات وأعطاه بيكر صندوقاً من الهدايا ضمنه ساعة حفر عليها اسم والده، فقبلها كباريجا شاكراً، وفي 29 إبريل شرع بيكر في إنشاء دار للحكومة وديوان عام وفي اليوم نفسه زار الحملة سفير من ملك أوغندا متيسا رحب بنا وبسير صمويل، وفي اليوم التالي جاءت مجموعة جديدة من هدايا كباريجا مؤلفة من 12 ناب فيل و41 حملا

من حبات طلابون و12 وعاء من شراب الموز و34 بقرة، فلم يكن من الممكن أن تكون الأحوال أفضل حالاً مما هي عليه، إذ كنا كلما نحل ببلاد جديدة سارعت في الاحتفاء بنا، ولم نجد لذلك تفسيراً إلا أن أخبار قوة جيشنا وأعماله العسكرية الناجحة في غندكرو لا شك سبقت مسيره وملاّت الآفاق.

وفي 14 مايو أقام بيكر احتفالاً حاشدا حضره مشايخ مملكة أونورو ونقل أخباره سفراء ملك أوغندا يعلن فيه ضم مملكة أونورو إلى الأراضي المصرية باسم خديوي مصر إسماعيل باشا، فرحب كيوجا والمشايخ ونحو ألف من الأهالي حضروا الاحتفال الذي انتهى بأن أرسل الملك 12 عزة دليلاً على قبوله ورضاه وسعاده بانضمامه إلى الدولة المصرية، ولما وجد بيكر أن الأمور هادئة على هذا الحد أرسل 25 من جنوده غير النظامية و300 من أهالي أونورو للقيام بمهام في محطة فويرا، بما يحفض عدد رجاله في الأونورو إلى 100 عسكري نظامي و4 بحارة و4 من البارين المسلحين، وهو ما عرضنا لمخاطر عظيمة كادت أن تهلكتنا وتقضي علينا نهائياً فيما بعد.

من أحمد إلى حسن :

لم يصلني أخبار جديدة منك فآثرت أن أكتب أنا إليك، لسبب لا نعلمه نشأت المظاهرات العدائية في البلاد من قبل الأهالي وكانوا أحياناً ما يحيطون بأفراد الحملة، فخشى بيكر على الرجال وأمرهم بتحسين الخطة التي أقاموها في العاصمة مازندي يجعلها على تلة مرتفعة فحفروا من أسفلها منحنى جعل صعوده صعباً، ثم حفر خندقاً حول الحصن عمقه متران وهو ما قوبل بالخوف والقلق من أهالي العاصمة وحاول بيكر أن يتداركه

بإعلامهم أن أعمال الحفر والبناء إنما يراد بها حماية مخازن البارود من الانفجار ومن ثم إحراق العاصمة.

وفي 4 يونيو جاءت رسل ملك أوغندا تحمل مكتوباً بالعربية يدعوه فيها لزيارة البلاد فشكرهم بيكر وحملهم بهدايا إلى الملك، وفي 7 يونيو نصبت مؤونة محطتنا في مازندي، رغم تكرار الطلب وكثرة الوعود وفي آخر النهار ورد المعسكر جانب من الغلال وشراب الموز الذي اتضح أنه مسموم، فأصيب بعض الجنود بحمة عاجلهم منها الطبيب، مرت الليلة هادئة تنذر بمبدء ما قبل العاصفة وفي الفجر هاجم الأهالي الحصن فردوا على أعقابهم بخسائر فادحة، وعلى اثر ذلك أمر بيكر بعض جنوده بإحراق العاصمة ففعلوا، أما كباريجا فهرب ولم يظهر إلا في اليوم التالي ليعلم أن ما حدث سوء تفاهم، لا يد له فيه وأنه سيعاقب المسئول عنه، فأظهر بيكر تصديقه وقبل بذلك حيث قدم كباريجا بقرتين هدية، وأرسل بيكر إلى كباريجا الذي انسحب إلى مدينة تبعد نصف يوم عن مازندي صندوق موسيقى هدية مع اثنين من المندوبين لم يعودوا، وكان قد أقام معسكراً خارج الحصن فأمر الجنود بدخول الحصن وعدم مغادرته، وفي تلك الليلة أحرق الأهالي المعسكر على أمل خروج الجند من الحصن فلم يخرج.

وفي 13 يونيو في العاشرة صباحاً هاجم الأهالي ماشية الحملة ورموا من بداخل الحصن بسهام مسمومة واستمر القتال خسروا فيه خسائر جسيمة، طارت في أثره العقبان في الأفق قبل أن تحط على الجثث والجيف تنهشها فمهاً، أيقن بيكر أن الأمر قد يتحول إلى مذبحة فتباحثنا واجتمعنا على أنه علينا أن نخلي الحصن ونسحب في أسرع وقت إلى "فويرا" فجمعنا الجنود

وأعلمناهم بما اتفقنا عليه وأن الانسحاب لن يكون يسيراً أبداً وستلاقي فيه الكثير من المصاعب فقبلوا وأعلمونا أنهم مستعدون أن يذهبوا معنا إلى أي جهة.

وفي 14 يونيو أحرقتنا الحصن بالكامل وكل الصواريخ التي لدينا، وقلنا للجنود أن الانفجارات ستجذب الأهالي لاشك وأنه علينا أن نكون مسرعين في انسحابنا وأن نترك كل ما يؤخر حركتنا، كانت النيران تأكل الأخشاب في طقطقة مسموعة، واللهيب والدخان يتصاعد إلى كبد السماء مكوناً سحباً من الدخان الأسود، وماهي إلا لحظات حتى بدأت الانفجارات تتوالى، هبطنا في الحشائش العالية وسرنا بما نحو كيلومترين بدأنا بعدها في سماع أصوات الأهالي الذين هرعوا إلى مكان الانفجار وكنا كثيراً ما نتأخر في مسيرنا بسبب المواشي التي كان من الصعب التخلي عنها طوال ذلك الطريق الطويل، خرجنا من الحشائش إلى درب ترابي معبد بين الحشائش، وبعد ساعات من المسير نفخ في البوق، وانتظم الجيش في تشكيل صوبوا فيه نيرانهم إلى عدد من الأهالي أخذوا يرموننا بالرماح، فلما أخلينا الطريق وشققنا لأنفسنا ممراً، تسلقنا الجبل صعوداً حيث قطعنا بعض الأشجار لنصنع منها حاجزاً واستخدمنا أوراق أشجار الموز لنحتمي بها من المطر الذي لم يتوقف انهماره طوال الليل، غمنا هذه الليلة في العراء فابتلت ملابسنا وساءت حالتنا وصارت فرائصنا ترتعد من البرد، وكان لدينا عدد من المراتب، تركناها في الصباح لنخفف من أحمالنا، وبعد مسير ساعة ونصف وصلنا إلى منحدر في نهايته أرض فسيحة يقطعها مجرى ماء، ما إن وصلنا إليه حتى قامت ضجة هائلة، كأنه الجحيم قد لفظ ما به من مرده وشياطين، خرج الأهالي من بين الحشائش وسط الصراخ والصفر والطبول يريدون رؤوسنا، فهاجمونا بأعداد غفيرة بالرماح، والحراب، والنبال

فأصاب إحدى رماحهم أحد الجنود وشقت بطنه وخرجت من ظهره، وأصاب أحد السهام وجه آخر فاخترقت فكاه من اليمين إلى اليسار فسقط يصرخ متألماً، صرخنا في الجنود أن ناموا على الأرض مشكلين دائرة ففعلوا وكانوا يصوبون نيرانهم في جميع الجهات حتى تفرقت جموع المهاجمين، ولا تسألني كم من الوقت مضى علينا على هذا الحال فقد بدت المعركة أنما دون نهاية.

عالجنا من ضرب بالسهم في وجهه، أما من أصيب في بطنه فلم يحتمل آلامه وما نزفه من دماء، وفارق الحياة، ولأنه لم يكن لدينا وقت لحمله أو دفنه، اضطررنا إلى تركه، تركنا أيضاً الكثير من الأمتعة وأشعلنا فيها النيران وأكملنا المسير، وكانت الشمس قد بدأت ترتفع في كبد السماء فجفت ملابسنا المبتلة، فاستمدينا بعض الدفاء.

كان مشهدنا مزرئاً بحق فالأوساخ الطينية متحجرة، والجراح الغائرة جفت آثارها على الملابس تاركة آثاراً بنية، وبينما نحن سائرون هوجنا مرة أخرى من المؤخرة، وحينها لاحظنا أننا استفدنا كثيراً من الذخيرة، وإذا استمر الحال على هذا المنوال فقد تنفذ الذخيرة قبل أن نصل إلى "فويرا"، فأمرنا الجنود بالاعتقاد في استخدام الرصاص وألا يخطئوا في مراميهم.

مررنا في طريقنا على وهاد إلى اليمين من الطريق فهاجمنا الأهالي من جديد واخترقت إحدى الحراب ذراع البكاشي عبد القادر الذي صرخ متألماً، فأسرعنا المسير حتى وصلنا إلى مكان تمكنا فيه من إقامة حاجز من فروع الأشجار حيث غمنا هذه المرة على الأرض في العراء، وفي الصباح الباكر أكملنا المسير حتى إذا ما بدأنا في عبور جدول أرضه موحلة وجدنا أننا ضحية كمين جديد، وخرج الأهالي من مكانهم فصوبنا بنادقنا عليهم

نصليهم ناراً، جعلتهم يتخبطون في دمائهم، على أنهم تمكنوا من قتل جندي
جديد بواسطة رمح اخترق عظام صدره.

قال جوليان: لعنة الله على هؤلاء الشياطين، نقتل منهم أكثر مما يقتلون
منا ولا يتوقفون عن الهجوم أبداً.

وبينما نعد للمبيت فتشنا الذخيرة المتبقية وكانت تقارب على النفاذ،
فأمرنا الجنود ألا يطلقوا طلقة واحدة دون أمر، إلا في حالات الضرورة
القصوى، وفي صباح اليوم الجديد أكملنا المسير وكان من المفترض أن
نصل في هذا اليوم إلى "قرية كوكي"، فلم نجدها واحترار السير بيكر فوق
حساباته وما يتذكره من طريق استكشافاته الجغرافية السابقة للحملة
فالمفترض أن نكون وجدنا القرية قبل ساعات بالفعل، ثم إنه لم يعد يذكر
أنه مر على تلك الأحراش الكبيرة التي نحترقها الآن، هل يمكن أن يكون
هذا الدرب المعبود قد أعد فخاً لنا لتضليلنا ووضع الأكملة طوال الطريق؟
بعد لحظات من التفكير لم يعد لديه شك أننا تجاوزنا كوكي بالفعل.

بينما نحن متخبطون في أفكارنا تطايرت الحراب من فوق الرؤوس من
جديد، كان شيئاً مريعاً، فلا نجد لأنفسنا حتى فرصة التفكير في الطريق
الصحيح، جرح الملازم مصطفى، وما هي إلا دقائق حتى خرجنا من
الأحراش المظلمة وانتشر الضوء ليضفي شيئاً من الأمل في النفوس، دخلنا
في وادٍ دائري رماله حراء كأنها مروية بدماء الأسبقين، ومحاط بالغابات من
كل جانب، يتوسطه بئر ماء عذب جدرانها رملية فأثرنا المبيت في المكان،
استمرنا في مسيرنا نقابل الكثير من الأكملة وفي يوم 19 يونيو وصلنا إلى
مزرعة بطاطا وكانت تبعد عن "فويرا" 33 كيلومترا فزلنا في المزرعة عدة
أيام نسترد فيها قوانا وحصناها وعالجنا جرحانا وقمنا بعمل محفوظات من

البطاطا، وبعد أربعة أيام تحركنا دون أن نصادف في طريقنا أكمنة أو أعداء، فلم نجد أحدا بانتظارنا ووجدنا الحطة محترقة.

كان اليأس والتوتر والغضب والألم كلها مشاعر تنوء بها كواهلنا، لكننا لم نستسلم إليها فالاستسلام لتلك المشاعر السلبية فيه القضاء علينا، شرعنا في إقامة محطة جديدة أقوى من الأولى حصناها تحصيناً قوياً، فغرست جذوع الخشب الضخمة في الأرض مسافات طويلة وسدت الفتحات بين الجذوع وبعضها، وصنعت طابيتان عند كل زاوية من زوايا الحطة المربعة بوضع منحرف، وما إن انتهينا من إقامة الحطة واستراح الجند حتى ذهبت لأطمئن على البكباشي عبد القادر فوجدت السر بيكر عنده.

قلت: لعل قائد الحطة الصاغقول أغاسي عبد الله وقع في شرك هو وجنوده.

قال بيكر وهو شارد بعينه في اللاشيء: لا يمكن أن نعول كثيراً على الصاغقول أغاسي عبد الله، فالله وحده يعلم ماذا حل بهم، أكثر ما أخشاه أن تكون أسلحتهم وقعت في أيدي كيوجا ورجاله.

تسائل عبد القادر: وماذا سنفعل إذن؟

فقال السر بيكر لفوره: سندعم ريونجا، المنافس الثالث على عرش كمرازي، لقد تبادلت الرسائل معه وهو في الطريق إلى هنا، سبقى يا عبد القادر لمعاودة ريونجا وتنظيم القوات الأهلية، وسأذهب أنا وأحد في الصباح بصحبة أربعين جندياً إلى فاتيكو لمعرفة ما حل بالمنطقة، ولننظم جيشاً أكبر من الجنود غير النظامية أرسلهم لاحتلال أونورو، فقد صار كياريجا بمفرده الآن، وتأديبه سيكون سهلاً، خاصة وأن ريونجا تحالف مع "الأومرين" و"النجين" لإسقاطه.

لم يرد ريونجا انتظار عودتنا وآثر أن ييكر بالهجوم والمباغطة بمساعدة حلفائه، وترك 50 من رجاله ليعملوا محالين معنا في طريقنا إلى فاتيكو، فتحركنا بعد أن تركنا كل ما معنا من خرز إلى عبد القادر ليشتري مؤونته، تحركنا في الصباح وبينما نحن في الطريق قابلنا ثلاثة من قبائل شولي، أمدونا بالأخبار، ذلك أن أبا السعود بعد مسيرنا إلى أونورو هدد زعيمهم روت جرما إن هو أرسل مؤونة لرجال الحملة في فويرا، فلم يهتم الرجل بتهديداته وأرسل جانباً من الغلال إلى الصاغقو آغاسي عبد الله فكان جزاؤه أن هاجمه واد الملك أحد رجال أبي السعود ونهب مواشيه، وحرق بعض القرى وقتل الكثيرين، ولما حاول عبد الله منعهم قوبل بالامتهان وأمر أبو السعود رجاله فأخذوا كل من التجأ إلى المعسكر من الأهالي المذعورين، وكتب عبد الله إلى السير ييكر يعلمه بما حدث لولا أن حامل الرسالة حين وصل إلى مازندي ووجد القتال مشتعلًا بيننا وبينهم عاد هارباً، وظن أننا ملاقون حتفنا لا محالة فسعد أبو السعود بالأخبار سروراً عظيماً وظن أننا هلكنا.

لم نرد أن نتأخر على الصاغقو عبد الله في فاتيكو، فاتجهنا إلى المحطة وسار خلفنا نحو ألف من أهالي شولي الذين هاجمهم أبو السعود ونفخ في البوق فاشترأبت الأعناق في المحطة وسعد الجند وعبد الله بعودتنا كثيراً، وفي هذه الليلة هاجم رجال أبي السعود المحطة في أول اعتداء مباشر على الحملة فكسرنا شوكتهم وقتلنا بعضهم وأسروا آخرين ومنهم قائدهم واد الملك نفسه، الذي أقسم على الولاء للحملة والحكومة المصرية، وفي 5 أغسطس كتب ييكر إلى أبي السعود يأمره بالثول بين يديه في رسالة أرسلها بواسطة أحد الأهالي الذي عاد وقال إن أبا السعود قابلهم بإطلاق الرصاص، وفي 7 أغسطس حضر أبو السعود بصحبة أربعين من رجاله، ولم يشأ دخول المعسكر دون أن يحصل من ييكر على إفادة خطية بعدم اتخاذ أسيراً، حيث أنكر كالعادة شروره وآثامه وأنه لم يأمر بمهاجمة المعسكر، وأن رجاله لم

يطلقوا النار على الرسول إلا خشيتهم من هجوم الأهالي عليهم، وأن أحداً لم يصب بأذى مع ذلك، وأنه يرحب بأن يعمل وكيلاً له، وأنه يستأذنه في السفر إلى "فابو" ليمده بالمزيد من الرجال، وكان يدري أن بيكر لن يصمد أمام إغراء كهذا لحاجته إلى الرجال فقبل بسفره وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي شاهدنا فيها أبا السعود الذي سافر إلى الخرطوم، على أن مشاكله انتهت أخيراً وبعد سفره قام الكثير من رجاله بتسجيل أسمائهم ليشتغلوا بالجندية لحساب الحكومة المصرية.

أما ريونجا فتربع على عرش أونورو، وذهب عبد القادر معه وصاحبه في مازندي، ثم أرسل بيكر في طلب عبد القادر لينضم إلينا في "فاتيكو" وجعل مكانه 66 رجلاً على رأسهم أحد الجنود الغير نظاميين واسمه علي جن نار، قمنا بعد ذلك بإجراء تعديلات في حصن فاتيكو وأنشأنا فيه مخازن للبارود جعلنا سقفها من الأسمنت المركب من خزف بيوت النمل، بعد أن نقع في الماء عدة أساييع وخلط بقش مغرى، وكان كثيراً ما يأتي إلينا الأهالي يرقصون ويغنون على رؤوسهم الغلال يفرغونها في مخازن الحصن فرحين بحالة السلم أخيراً، وفي هذه الفترة الهادئة تمكنت من مصادقة قرد صغير يسكن ضمن قطيع من القروود أعلى مجموعة من الأشجار القريبة من الحطة، كنا فيما سبق نسلي أنفسنا بمراقبتهم، ولأن ذلك القرد الصغير على حداثة سنه فضولي بطبعه كان أكثر جرأة من أقرانه، فكان كثيراً ما يقترب من المعسكر، وسط صياح وتقاقر باقي القروود، وبينما أحاول استمالته وعرض الطعام عليه يوماً بعد آخر، تجرأ ذات مرة واقترب مني، لأطعمه شيئاً من الفاكهة التي كانت لدي، فانهقدت بيننا أواصر الصداقة، وصار كثيراً ما يأتيني لأطعمه وألاعبه بعد أن ألقني واطمن لي، بوسعي الآن اعتباره الصديق الوحيد المقرب لي من سكان المكان الأصليين.

سراي عابدين

كان الخديوي يسر برفقة وزيريه إسماعيل باشا المفتش، ونوبار باشا منتشياً في سراي عابدين الجديدة التي انتهت أعمال بنائها أخيراً بجهد عدد كبير من المهندسين المعماريين، والحرفيين الذين عملوا بإشراف من ليوروسو رئيس المهندسين المعماريين في القصور الملكية، طوال تسع سنوات كاملة من البناء والتجهيزات قبل أن تصبح السراي مؤهلة تماماً لانتقال الخديوي إليها.

شيدت السراي وفقاً لأحدث الطرز الأوروبية، مكونة من طابقين مرتفعين، وأكثر من 370 غرفة، يشتمل الطابق العلوي على السلامك، جناح الرجال والاستقبال والاحتفالات، وفيه قاعات وصالونات لويسية مذهبة تتميز بلون جدرانها، فالصالونات الأبيض، والأحمر، والأخضر، تستخدم في المقابلات الرسمية، وفيه مكتبة ضخمة تحوى آلاف الكتب، كما تضم السراي مسرحاً يضم مئات الكراسي المذهبة، وفيه أماكن معزولة بالسائتر خاصة بالسيدات، ويشتمل الطابق الثاني على الحرمك، وفيه الجناح الخاص بالعائلة، وزوجات الخديوي، والأميرات، أما الطابق الأرضي فيضم مقر الحرس الخديوي، ومكاتب التشريف، والمخازن،

والمطاعم، وغرف الخدم، في ثورة على التقاليد المتبعة في إنشاء القصور الشرقية في مصر، بالفصل بين السلامك والحرملك في قصرين متقابلين.

للقصر العديد من البوابات العظيمة، أضخمها باب باريس، المدخل الرئيسي للحرملك، نسبة إلى الإمبراطورة الفرنسية أوجيني التي زارت نساء الباشا في فترة وجودها بمصر وتعى الباشا في قرارة نفسه لو أنه ألحقها بهم في الحرملك، وأما الفرش والرياش فحدث ولا حرج، فالقصر على سعته مملوء بالطنافس النادرة، والأبسطة الثمينة، والأرائك الذهبية، والمرايات البلورية، والزهريات النفيسة، والكراسي العاجية، والمقاعد المطعمة بالصدف والمحلاة بالجواهر، والطاولات الفضية الخالصة، والنحف الفخم الضخم ذي الألف وخمسمائة فينار، والآنية الذهبية والفضية والحزفية الفاخرة المرقوم عليها بماء الذهب بحرف I أول أحرف اسم الخديوي.

قال الخديوي مشيراً إلى التحف المتناثرة في كل أرجاء القصر وهو يتجه إلى غرفة اجتماعاته: هذا القصر العظيم رمز لتحولنا من أسوار قلعة صلاح الدين إلى القاهرة الزمن الراقي.

فقال نوبار باشا: القصر عظيم بحق جنابك، يخلد العصر الذهبي الذي تحياه مصر الآن في عهدك يا مولاي.

اغضب الخديوي لمديحه وقال: لولا خذلان ملوك وأمراء أوروبا لي في احتفالات القناة، لكنت أعلنت استقلال مصر نهائياً عن الدول العثمانية، تلك التبعية تؤخرنا.

قال المفتش: على الأقل تمكنا من إعادة المياه إلى مجاريها سموك مع السلطان العثماني.

- نعم، لولا الزيارة التي صحبتموني فيها إلى الآستانة والتي كلفتنا الكثير من الهدايا والرشى لما تمكنا من الحصول على فرمان سبتمبر 1872 وفيه التأكيد على المزايا التي سبق وأن حصلنا عليها، وسعى فرمان نوفمبر 1869 أن يحرمننا منها عقب احتفالات القناة مباشرة، لكنني أفكر بفرمان جديد جامع لكل المزايا التي نالتها مصر منذ تولية محمد علي باشا.

- وما المزايا التي تسعى ضمها في ذلك الفرمان جنابك؟

- توارث العرش في أكبر أنجال الخديوي، أملاك مصر في السودان وسواكن ومصوع، حقنا في سن القوانين، والاتفاقات الجمركية، والمعاهدات التجارية، والاقتراض دون استئذان، وزيادة عدد الجيش إلى أي عدد، وحق بناء السفن الحربية عدا المدرعات، فمثل هذا الفرمان سيثبت حقوق مصر في الاستقلال التام.

- بوسعنا أن نستغل حالة التوافق الحالية مع الآستانة في السعي لمثل هذا الفرمان السلطاني جلالتك.

- حسناً، أخبروني، هل استراح سير صمويل بيكر من رحلة عودته إلى القاهرة؟ أنا متشوق لأن أسمع منه شخصياً نتائج الحملة.

- سير بيكر وصل القاهرة بالفعل منذ ثلاثة أيام ويطلب مقابلتك يا مولاي.

- أرسل إليه إذن دعوة للمجيئ.

ذهب نوبار باشا يعلم الحرس برغبة الخديوي في مثول سير بيكر بين يديه، ثم عاد بينما الخديوي يسأل إسماعيل باشا صديق: ما أخبار الاستعدادات لحفل زفاف الأمراء يا باشا؟

- الطرق مزدانة بالأنوار، تم الاتفاق مع الموسيقين والمغنيين والراقصين والحواة، نحن على استعداد لإشارة البدء في الأفراح جلالتك.

- وماذا عن فرش ورياش الأميرات، هل ابتهن حاجتهن أم ينقصهن شيء؟

- طه باشا الشمسي ناظر الخاصة الخديوية جاءني بمناقصة توريد محل باسكال الفرنسي، وأنا أرسلت مندوبا لمعرفة القيمة النهائية لما ستحتاجه الأميرات.

- ولماذا محل باسكال؟ ألم يتقدم إلى المناقصة محل مصري وطني مطلقاً؟

- بلى يا مولاي، فقد تقدم ضمن آخرين محل مذكور ، لكن الأثمان التي قدموها في مناقضتهم مغالى فيها وتزيد خمسة وعشرين في المائة على الأسعار التي تقدم بها محل باسكال.

- فليأخذوا كل ما يحتاجون إليه من محل مذكور، وادفع له خمسة وعشرون في المائة فوق ما يطلب.

بهت المفتش، فأكمل الخديو قائلاً: يا إسماعيل، إذا كانت المحال التجارية المصرية لا تنتفع ولا تستفيد من أفراح أنجلي، فأفراح من برأيك سيستفيدون وينتفعون؟

- أدام الله عزك يا مولاي.

- هل وجدت يا نوبار باشا الشخص المناسب ليحل محل سير بيكر؟

- تعرفت في السفارة البريطانية في الآستانة على الكولونيل غوردون، وهو عضو بريطاني في قومسيون قهر الدانوب (21)، سألته عما إذا كان يعرف ضابطاً من مهندسي الجيش البريطاني على استعداد لأن يخلف السير

بيكر في رئاسة مديرية خط الاستواء، فوعدني بالتفكير في الأمر وأن يأتيني بالجواب فيما بعد، فوجئت به بعد أشهر يرسل لي خطاباً يعلمني فيه أنه على استعداد لأن يتولى بنفسه هذه المهمة إذا رضيت الحكومة البريطانية.

تدخل إسماعيل باشا المفتش قائلاً: ولماذا نعين شخصاً بريطانياً على آخر حدودنا يا مولاي؟ أنت بنفسك منذ قليل أخبرتني أنك تفضل استفادة العناصر الوطنية، فلماذا نعين عناصر غربية في مثل هذه الوظيفة الحساسة؟

- نحن بحاجة إلى صداقة بريطانيا، وبريطانيا تعتبر نفسها ساعدتنا في فتح تلك البلاد، وقد ألح لي القنصل البريطاني مستر بروس أن أتولى اختيار الشخص المناسب من الجيش البريطاني أو الجمعية الجغرافية البريطانية أو سلاح المهندسين البريطاني لتولي إدارة تلك الجهات بعد السير بيكر، فقبلت.

- أخشى أن يكون لبريطانيا أطماع في تلك الجهات، لعل جلالتك تذكر موقف بريطانيا من إلحاح الكونت بيسون علينا في إفاد حملة على بلاد الحبشة، وكيف أنهم اعترضوا حتى قبل أن نقبل.

- لا تخش شيئاً يا باشا، ثق أنني أتابع التطورات هناك أولاً بأول، اطلب يا نوبار باشا من الكولونيل غوردون أن يحضر إلينا، وسأتحدث بنفسني مع المستر بروس بخصوص تعيينه.

في هذه اللحظة دخل أحد الحراس يعلن عن قدوم سر بيكر، وابن أخيه الملازم جوليان، فأذن الخديوي لهما بالدخول، ودخل السير بيكر مرتدياً ملابسه التشريفية كاملة وكانت لحيته كبرت وتناثر فيها شعرات بيضاء واسمرت بشرته التي لوحتها الشمس، في إثره الملازم جوليان وكان يرتدي ملابس الجندي البحرية الملكية البريطانية.

- صمويل باشا بيكر، كيف حالك؟

فرض الخديوي من على أريكته مصافحاً إياه.

- بخير حال يا مولاي.

- وكيف حال جنودنا البواسل وأحوال البلاد هناك؟

قدم بيكر مجموعة من الخرائط إلى الخديوي وهو يقول: الجنود بخير يا مولاي، وتلك الخرائط والظروف فيها بيانات بخصوص الأراضي التي فتحناها في تلك الجهات، مرحلة الحروب انتهت والبلاد تنعم بالسلم، وتجارة الرقيق اختفت تقريباً من النواحي التي فتحناها.

- عظيم، كيف حالك مستر جوليان؟

- بخير ونعمة جنابك.

أشار الخديوي إلى أحد الخدم فأتاه حاملاً علبتين مبطنتين بقماش القطيفة فتحهما وتناول منهما عدداً من النياشين والأوسمة، أخذ يعلقها على صدر الرجلين وهو يقول: لقد قدمتما خدمات جليلة للدولة المصرية ونحن نشكركما على ما قدمتما، وها نحن ذا نقلد السير صمويل النيشان العثماني من الدرجة الثانية، والنيشان المجيدي من الدرجة الثانية، كما نقلد الملازم جوليان النيشان المجيدي من الدرجة الثالثة على ما أظهرتماه من الشجاعة والإقدام في سبيل إنجاح حملتنا في تلك الأصقاع لنشر الحضارة والإنسانية والمدنية ومحاربة الاتجار بالرقيق في هذه البلاد.

صافح الرجلان الخديوي الذي استطرد قاتلاً: وأما أبو السعود هذا فقد تم إلقاء القبض عليه، وسيحاكمه إسماعيل باشا صديق، ونوبار باشا، وشريف باشا في مجلس خصوصي على ما ارتكبه من جرائم.

- كنت أود وأتمنى أن أحضر تلك المحاكمة على سبيل الادعاء يا مولاي، لكنني مضطر للعودة إلى بريطانيا فقد أرسلوا في طلبى.

- مفهوم .. مفهوم .. في رعاية الله يا باشا، لكن قبل ذهابك، هل لديك أي مقترحات إدارية هناك؟

- بالتأكيد، المسافة بين الخرطوم والبحيرات جلالتك كبيرة، لذا أقترح أن يتم فصل تلك المنطقة إدارياً عن حكمدارية السودان، كذلك النيل الأبيض بحاجة إلى توسعة وحفر الخلجان لتطهير ترعه، والجنود النظامية بحاجة إلى زيادة، هناك أيضاً ضابطان وجندي اجتهدوا كثيراً في أحداث الحملة، وخاصة أثناء انسحابنا من مازندي وآمل أن يتم تكريمهم.

- من هم؟

- البكباشي عبد القادر قائد حرسى الخاص، والبكباشي أحمد السعداوي، واليوزباشي محمد ضياء.

- أحمد، الذي شغل وظيفة ياوران لدي؟

- نعم يا مولاي.

- أنا سعيد لسماع أخبار طيبة عنه، وإن كنت لا أزال أستغرب تفضيله الحرب والخدمة هناك عن الخدمة هنا في السراي.

تنحى إسماعيل المفتش قائلاً: ربما أراد أن يثبت جدارته في الحرب جلالتك، ويخوض تجربة جديدة.

- حسناً، اكتب إلى ولدنا الأمير حسين كامل ليأمر بترقية كل من أحمد بك وعبد القادر أفندي إلى رتبة قائمقام، وترقية اليوزباشي محمد ضياء

أفندي إلى رتبة صاغقول أغاسي ومنح مكافآت للعساكر الذين قاتلوا في مازندي وانسحبوا منها ذلك الانسحاب الشاق.

شكر صمويل بيكر الباشا ورحل ومعه الملازم جوليان مودعين.

ما هي إلا بضعة أسابيع حتى وصل الكولونيل غوردون إلى سراي عابدين في فبراير 1874 وكان أصغر سناً من سلفه، شعره أشقر وعيناه زرقاوان، فقابلته الخديوي ببشاشة وانشراح وطلب منه أن يعين بنفسه اشتراطاته، فأجاب غوردون أنه لا يحمل اشتراطات، وأنه يلتبس فقط أن يعطى راتباً قدره ألفان من الجنيهات سنوياً، فقبل الباشا وكان مبلغاً زهيداً مقارنة بما كان يأخذه صمويل بيكر من قبل.

- هل تطلب أن يشترك معك في مدتك رجال بعينهم؟

- أنا قابلت سمو الأمير حسين كامل، والجنرال ستون، كما شاهدت مدرسة أركان الحرب، وهناك تعرفت على القائمقام شاليه لونج أحد ضباط أركان الحرب العموميين، وأحد الضباط الأمريكيان الذين استقدموا مع الجنرال ستون، أتمنى أن يعمل معي رئيساً للأركان طوال مدة خدمتي هناك.

سأله الخديوي بنجبت: ألن يعترض القنصل البريطاني العام على اختيارك هذا ويشجعك على إشراك ضابط انجليزي بدلاً منه؟

ابتسم غوردون وقال: الحق أنه فعل، لكني أفضل التعامل مع الأمريكيان فقد سبق وخدمت معهم لدى إمبراطور الصين.

- حسناً يا مستر غوردون، ستخدم في الجيش برتبة أميرالاي وستكون حكامدارا عاما لمديرية خط الاستواء المصرية، التي ستكون منفصلة في

إدارتها عن حكمدارية السودان، ستكون حدودك من فاشودة شمالاً إلى منطقة البحيرات جنوباً.

هز غوردون رأسه موافقاً، فاستطرد الخديوي: فليوفقك الله، أعد نفسك إذن للسفر في أقرب فرصة.

استأذن غوردون لترتيب أموره وبقي الخديوي يذرع قاعة الاستقبال بخطوات واسعة جيئةً وذهاباً وهو متهيج هيجاً عصياً، حينما دخل عليه التشريفاتي بصحبة القائمقام شاليه لونج فسأله الخديوي: هل قابلت الأميرالاي غوردون؟

- نعم يا مولاي، لقد فاتحني في السفر معه.

- لقد وقع الاختيار عليك للمشاركة في جيشنا هناك بصفتك رئيس أركان حرب لعدة أسباب أهمها حماية مصالح الحكومة المصرية.

- بالتأكيد يا مولاي.

- ما الذي تعرفه عن دافيد ليفنجستون؟

- رحالة إنجليزي قام برحلة طويلة بدأها من "صحراء كلهاري" بجنوب إفريقيا مكتشفاً "بحيرة ناجامي" و"شلالات زامبيزي"، قبل أن يتوجه إلى البحيرات الكبرى ومنايع نهر النيل، ماراً بمختلف المدن والقرى الإفريقية وظل يكتب عن أحوال وعادات وطبائع أهل القارة وجميع ما يتعلق بالجغرافيا والمناخ والاقتصاد وغير ذلك من مظاهر الحياة، وكان جميع الأوروبيين يتبعون أخبار رحلته واستكشافاته باهتمام بالغ، قبل أن يختفي مدة ثلاث سنوات وتنقطع أخباره نهائياً.

- عظيم، والآن قررت إحدى الصحف الأمريكية الكبرى أن ترسل أحد مراسليها للبحث عنه في أواسط إفريقيا عند منابع النيل.

- هنري ستانلي.

- بالضبط، كثيراً ما تسبق الحملات العسكرية الكشف الجغرافيا، وبريطانيا تريد أن تكرر في إفريقيا تجربتها في أستراليا بعد اكتشاف الهولنديين لها، لذا اعلم أن البريطانيين في لندن على وشك أن يجهزوا حملة تحت قيادة ستانلي هذا المتستر بالجنسية الأمريكية، فهو في الظاهر ذاهب ليمد يد المعونة إلى الدكتور لفنجتون، وفي الباطن هو ذاهب ليرفع العلم البريطاني على أوغندا، عليك الآن أن تذهب إلى غندكرو ولا تضيع شيئاً من الوقت بل يمم في الحال إلى أوغندا واسبق الحملة الإنجليزية واعقد مع ملكها تحالفاً، هل كلامي واضح؟ (22)

- نعم جلالتك.

- توكل على بركة الله إذن.

استدار شاليه لونج ليذهب، فناداه الخديوي قائلاً: لونج .. ذلك الحديث الذي دار بيننا، لا أريد للأميرالاي غوردون أن يعرفه،

أوما لونج برأسه متفهماً، فاستطرد الخديو: مضر لن تنسى لك أبد الدهر هذا الجميل، اذهب وليسر عقبك النجاح إن شاء الله.

- بأمرك يا باشا.

- 15 -

حسن

&&&

انتظمت في حضور حلقات السيد جمال الدين الأفغاني، وعلمت عن سيرته الكثير، فقد نشأ في بلاط "دوست محمد خان"، وتقلد الإمارة من بعده ولده "شير علي خان"، ثم وقع الخلاف بين الأمير الجديد وإخوته، وأخذ يكيد لهم ويعتقلهم، فمال جمال الدين إلى "محمد أعظم" أحد الإخوة الثلاثة، الذي كانت الغلبة إليه في النهاية، فعظمت منزلة جمال الدين عنده وكان لديه بمنزلة وزيره الأول، على أن تقيد شير علي لم ينته، خاصة بعد أن عاضده الإنجليز وصار يغدق المال على رؤساء القبائل حتى انتهى الأمر إليه بهزيمة محمد أعظم، الذي فر إلى إيران.

على أن جمال الدين لم يهرب مثلما هرب محمد أعظم، وظل في "كابل" دون أن يمسه شير علي بسوء احتراماً لعشيرته، وخوفاً من انتقاد العامة عليه حية لآل البيت النبوي، وظل ثابتاً لا يتملق من انتصر ولا يهاب بطشه، فلما أحس بالضيق من مكائد شير علي، وشعر أنه صار يحتمل للغدر به، استأذنه في السفر إلى الحج فأذن له، فسار إلى الهند، وكانت شهرته تسبقه، فاستقبله أهلها بالترحاب في وقت لم يكن يخفى على الحكومة

الإنجليزية عداؤه لسياساتها، وما يحدثه مجيئه إلى الهند، فاستقبلته الحكومة بالإكرام، على أنها لم تسمح له بطول الإقامة في البلاد فركب إحدى السفن ونزل إلى السويس، وتردد على الأزهر، واتصل بكثير من الطلبة، وأقام في خان الخليلي، ثم تحول عزمه عن الحجاز وسافر إلى الآستانة، فلقي من السلطان عبد العزيز حفاوة، وجعل عضواً في مجلس المعارف، فلم تلق آراؤه إعجاب كثيرين وكان شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي أحدهم فكاد له حتى تم نفيه، وعاد إلى مصر.

سرت ماراً بمديقة الأزيكية حتى وصلت إلى مقهى متاتيا، وكان المتحلقون من حول الشيخ في كل درس من دروسه يزدادون مرة بعد المرة، حتى أنهم كانوا من الصفوة في مجالات مختلفة فلم يكونوا جميعهم من طلبة الأزهر بطبيعة الحال، وجدت هناك الشيخ محمد عبده أحد مشايخ الأزهر، وشابا سكندريا جريئا وصاحب حضور اسمه عبد الله مصباح الشهير بعبد الله النديم، وضابطا وسيما ذا شارب معقوف ويرتدي حلة موشاة بخيوط حريرية، تقدم إليه سعيد وعانقه، إذ كان على معرفة سابقة به، فانتحيا جانباً ودار بينهما حديث هامس كي لا يقطعا على المتابعين حلقة السيد جمال الدين متابعتهم.

- كيف حالك يا بارودي؟

- بخير حال، كيف حالك أنت يا سعيد؟

- نحمد الله، حلتك جميلة يبدو أنك ترقيت، انقطعت أخبارك منذ أن عدنا من الحرب.

- بعد عودتنا من الحرب، ذهبت لمقابلة الخديوي فأكرمني وعيني كبيراً لياوران الأمير توفيق.

- ذلك منصب عظيم، فالأمير توفيق ولي العهد، أعرفك بحسن صديقي، صحفي في جريدة الوقائع المصرية، وبالمناسبة أخوه - وكان زميلاً لي في مدرسة البيادة - عمل ياوراناً لجناح الخديوي.

- حقاً، ما اسمه؟ ربما أعرفه.

- أحمد السعداوي.

- بالطبع سمعت عنه، لكن أين هو الآن؟

- هو ضمن الحملة التي أعدت لفتح مديرية خط الاستواء، ومن يومها وهو لا زال هناك.

- تشرفنا يا سيد حسن، أحمد بك سمعته طيبة ومحمودة بين ضباط القصر.

- الشرف لي يا محمود بك، أشكرك.

قال سعيد مستغرباً: لكن منذ متى تأتي إلى هنا؟

ابتسم البارودي ورنا ببصره إلى جمال الدين وكان يتحدث في حلقة عن وحدة الإسلام في مواجهة أطماع الغرب، وقال: أحمد عراي، أحد زملاء مدرسة الحربية القدامى ممن أثق بآرائهم وأقدرها، شكر لي في جرائده وحديثه فأردت أن أذهب إليه وأحضر أحد دروسه، فأعجبني كثيراً، حتى أتى أفكر في دعوة الأمير توفيق لحضور أحد دروسه.

فسألت: وهل يمكن أن يحضر ولي العهد حلقات مثل هذه؟

- ولم لا؟ حلقات السيد جمال الدين الأفغاني صارت تجذب الكثير من صفوة الأدباء والمشايخ والقضاة وحتى ضباط الجيش من الوطنيين، من مصلحة ولي العهد أن يتقرب من أولئك جميعاً.

- نعم، لديك حق، وجدت بالفعل الكثير من زملاء مهنة الصحافة وعدد من الأدباء مهتمين بحلقات السيد جمال الدين.

- دعونا الآن نستمع إلى من جئنا للاستماع إليه، لكن لا تتعدوا بعد انتهاء الحلقة، سنكمل سهرتنا في قصري، ولن أقبل أعذاراً.

جلسنا نستمع إلى السيد جمال الدين، وبعد انتهاء الدرس تقدم البارودي من سعيد وتأبط ذراعه وخطا إلى خارج المقهى حيث كان الحوذي الخاص به في انتظاره، فركب وركبنا معه في اتجاه قصره، كانت أسوار القصر منارة بعدد من المصاييح، وكانت حديقة القصر وبهوه الداخلي مزينة بمنايل بديعة، وتبدل في المشهد الأمامي للصاعد إلى القصر ثريا فاخرة ضخمة، أجلسنا مضيفنا في صالونه وأمر لنا بمشروب بارد، ثم استأذن لتغيير ملابسه، وطلب أن نتصرف كما لو كنا في دارنا، ثم عاد من جديد مرتدياً روبا مثلياً أحمر من القطن المزين بساتان من نفس اللون.

قلت له: هل تسمح لي أن أسألك سؤال؟

فقال: بكل سرور، تفضل.

- أنت ثري، من عائلة شركسية، وتعمل في وظيفة مرموقة في السراي، جعلتك مقرباً من خديوي مصر وأسرته، فما الذي يهملك في دروس السيد جمال الدين الأفغاني الناقمة على بعض السياسات الداخلية في البلاد، ونفوذ الأجانب المتصاعد فيها؟

فابتسم البارودي وهز رأسه قائلاً: آه، فهمت.

ثم نظر إلى سعيد وقال له: هل تذكر أحاديثنا أنا وأنت وراشد حسني في كريت؟ هذا السؤال يذكرني بها.

هز سعيد رأسه مبتسماً، فاستطرد البارودي قائلاً: قل لي أولاً يا سيد حسن، هل تعتبرني أجنبياً لكوبي من عائلة شركسية؟

فلم أجد ما أقوله وكنت أعتبره أجنبياً بالفعل، ولو كان مثله عندي ليس بمزلة الأوربيين واليهود، فأكمل حديثه قائلاً: مصر ربما تكون أقدم مستعمرة في التاريخ، احتلها الليبيون، والهكسوس، والفرس، والروم، والعرب، والفرنسيون، وذابت فيها أقوام البربر الأمازيغ، والمغول، والمماليك، والأتراك، لا أظن أن الكثيرين من أهل البلاد بإمكانهم أن يشبّوا مصريتهم ونقاء أصولهم وأصالة عروقتهم ودمائهم، لذا فمسألة حب الوطن مقدمة على أصالة العرق والدماء، أنا ولدت هنا وعشت هنا وأنتهي إلى هذه البلاد، يحزنني ما يحزن أهلها ويسعدني ما يسعدهم، أليس هذا بكاف؟

- بلى كاف، أرجو ألا يكون سؤالى أخرجك أو ضايقك، لكن عليّ الاعتراف بأن ردك أفحمني وأسعدني في الوقت ذاته.

هز البارودي رأسه مبتسماً ومتفهماً.

سارت الليلة طيبة من بعد هذا، تحدثنا فيها حول الكثير من أمور البلاد، وتحدث سعيد ومحمود سامي البارودي عن صديقهم راشد حسني، وعن إعجابهم بالتوغل جنوباً في إفريقيا، وغزو هذه الجهات، وضمها إلى الأراضي المصرية.

يناير 1873

كانت لمصر أيام مجيدة نالت فيها حظاً عظيماً من الرخاء، والثراء، ومظاهر العظمة، وأبهة الملك وجلاله، بما يحسدها عليها ما عداها من الأمم والممالك، مرت مصر باحتفالات الفراعنة الفخمة على ضفاف النيل وهو معابدها وأعمدها السامقة وتمثيلها الضخمة، ومرت بزمين احتفالات البطالة المهيبة بنقل رفات الإسكندر الأكبر من بابل إلى الإسكندرية، ومرت بفخامة ملك كليوباترا وأنطونيوس، ومرت بزمين الطولونيين، وحقارويه، وقصوره الفخمة، وبركة الزيتق التي ما كان يحلو له النوم إلا على سطحها، ومرت بزواج أميرتها قطر الندى من الخليفة العباسي وموكبها العظيم من القاهرة حتى بغداد وما قيل في وصفه ووصف القصور التي كانت على الطريق بين العاصمتين محطات لراحة الأميرة، مرت بزهو أعياد الفاطميين التي لا تنسى وجلال جلوسهم على العروش، ومرت باحتفالات الانتصارات العسكرية الحافلة للمماليك البرجية والبحرية، ومرت بأيام دخول بونايرت القاهرة على رأس جيشه من تحت قبة باب الفتوح بين عزف الموسيقى ودق الطبول والاحتفالات التي أقامها في القاهرة تقريباً من أهلها، مرت باحتفالات خروج المحمل، والمولد النبوي، وأعياد النيل، على أنها رغم ذلك كله لم تشهد شيئاً مما شهدته في سنوات

الخدوي إسماعيل، ومظاهر الترف والبلذخ فيها من أمثال احتفالاته بقدم السلطان عبد العزيز، واحتفاله السنوي بجلوسه على الأريكة الخديوية، واحتفالات قناة السويس، واحتفالات زواج أنجاله.

ففي الأخيرة ازدانت شوارع الخروسة بالزينة والأنوار، وتألفت سرايات عابدين مقر الخديوي وحلوان مقر الوالدة باشا والقبه مقر الأمير توفيق والجزيرة مقر الاحتفالات المفضل بالزينات وأقواس النصر مختلفة الأنوار، ورصت الشموع في الطرقات تصل القصور ببعضها، وسطعت ملايين الأضواء أربعين ليلة متتالية هي زمن الاحتفال بأفراح الأنجال أحالت فيه ليل البلاد نهاراً، وأقيمت في الميادين جوقات موسيقية ونحوت الآلاتية تصدح وتعزف ليشدو فيها محمد عبد الرحيم المسلوب، ومحمد الشلشموني، وعبد الحامولي، ومحمد عثمان، و خليل محرم، وعبد الحفي حلمي، والميلاوي، وعلي القصبجي، وسلامة حجازي، وخطاب الكبير شيخ الآلاتية، كما نصبت المسارح المرتجلة، وجوقات الأراجوز، ومدت الحبال في الشوارع وأمام القصور وشبكت بصوارٍ عالية يلعب عليها البهلوانيون، ودوت الصواريخ تنثر ألوانها ونورها في السموات، وأطلقت المدفعية قدائفها.

وفي يوم 15 يناير بدأت الهدايا تخرج تباعاً من قصور الخديوي وزوجاته والأمراء والأميرات إلى قصور الأنجال يحفها صفوف الفرسان بأزياء عربية بديعة، ويتقدمها جنود البيادة بملابسهم البيضاء الناصعة، أمامهم فرق الموسيقى العسكرية، بينما الهدايا موضوعة في أسته مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب، على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس، يغطيها شاش يمسك بأطرافه أربعة من الجنود في كل عربة، يتبعهم ضباط بملابس رسمية وسيوف مشهورة، كانت الهدايا مجوهرات وقلائد

ماسية ومشغولات من الذهب الخالص وأقمشة مطرزة باللؤلؤ والزبرجد
والزمرد والعقيق والجمشت والبريل، وفساتين عليها رسم لأسماء الأميرات
بالجواهر والآلي، وآنية من الفضة، ومرايا، وفناجين قهوة بزخرفتها
الذهبية المحلاة بالجواهر، وأسرة كاملة من الفضة محلاة بعروق الذهب،
عواميدها مرصعة بالماس والياقوت والزمرد والفيروز.

وفي العباسية أحيى سباق للخيل، كان معظم الجوكره فيه من السود
يرتدون لباسا من الحرير الأحمر رصت بعده الأطعمة للمدعوين، وفي سراي
الجزيرة أقيم مرقص ضخم دعي فيه آلاف الأعيان والملوك والأجانب،
وزين الطريق من سراي عابدين إلى كوبري قصر النيل وحتى سراي
الجزيرة بالأنوار والزينات، وكان رجال التشريفات يقومون باستقبال
الزائرات ويقدمون لهن أيديهم ليتكنوا عليها حتى يوصلوهن إلى المضيف ثم
ينحنون ويذهبون للإتيان بزائرة جديدة، وكانت الأنوار تنبعث من حلي
المدعوات مقترنة بسطوع أكتافهن ونحورهن العارية، وكانت قاعات الرقص
تتمزج بين تألق الغريبات الثريات، ووقار وجمال الإسطمبوليات
والشركسيات، وأبهة ملابس كبار الموظفين الرسمية الساطعة بالنياشين
والموشاة بخيوط الذهب والقصب، وبجمال ملابس الضباط العسكرية
الملفوحة وجوههم من شمس فيافي السودان أو مفاوز اليمن أو وهاد
كريت.

وأمام كل القصور، وفي كثير من الميادين أقيمت السراقات
والصوواين لكبار الأعيان لمشاهدة الاحتفالات ولاعي السرك البريطاني،
ورصت الساحات بالفرش والطنافس العجمية، وفي دور الحرم والحرم ملك

كانت الرافصات تتمايل مزاحمت لشقيقة القبطية، وصفية، وعائشة الطويلة على غناء ألط الذي يطرب الآذان، وفي 23 يناير خرجت الأميرة أمينة هانم بصحبة الوالدة باشا خوشيار قادين من سراي الحلمية، وزفت في موكب مهيب من ثلاثة آلاي كاملة من الخيالة، الأول ذوو رماح ورايات مرفرفة ورؤوسهم مغطاة بخوذات الدراجون، والثاني آلاي عربي مدرع يتدلى من خوذاتهم أقمشة ملونة يلعب بها الهواء، والثالث آلاي صليبي مدرع ذوو خوذات بأقنعة تتدلى على الوجوه، سارت وراءهم عربات التشريفه يقودها حوذيون بملابس حمراء تخطها شرائب القصب والفضة بجوارب حريرية تصعد إلى الركبة، وجدائل شعور مستعارة كالتي استخدمت في القرن الثامن عشر بوفرة، يسير إلى جوارهم خدم بملابس مشابهة، وعلى رؤوسهم برانيط واسعة، ومن خلفهم الأغوات يمتطون صهوات الخيول، بينهم شيخ وقور، صار المتابعون يتهامسون بأنه أمين بك آخر الماليك وصاحب الوثبة المشهورة من فوق القلعة، وينهر جهلهم آخر يؤكد لهم أنه خليل أغا، وفي مواكب مماثلة خرجت الأميرات عين الحياة وخديجة إلى قصري زوجيهما الأمراء حسين وحسن.

أما موكب الأميرة فاطمة في القصر العالي فكان أهى وأعظم، كانت الجواري تحرس أو تخدم أو ترقص أو تعزف بصفات مختلفة فبعضهن جلسن على الطنافس وأقمشة الحرير يعزفن على العود والقانون أحياناً شرقية في أردية حريرية شفافة، وبعضهن ارتدين ملابس الرجال ووقفن بصفة حُجَّاب، وبعضهن ارتدين ملابس بسيطة واسعة، على رؤوسهن الطرايش الحمراء، شاهرات في أيديهن سيوفاً لامعة، وبعضهن ارتدين ملابس

عسكرية ساطعة كأئمن وصيفات الملكة زبيدة زوجة هارون الرشيد، وبعضهن أخذن يرقصن في إحدى الحجرات رقص الجوارى في القصور، وفي حجرة أخرى كانت العوالم يرقصن بالصاجات رقصاً مصرياً، وفي غرفة ثالثة كانت مجموعة أخرى يرقصن رقصاً بدوياً غريباً بالسيف.

قدمت الضيفات إلى الوالدة باشا في قاعة واسعة فكان يسرن وراء الجوارى المسلحات وتقدم التشريفية الفرنسية كلاً منهن باسمها إلى الوالدة باشا، التي أحاط بها عن يمينها ويسارها وصيفتها قوبسر هانم، وجارة سز هانم، وكلتاها على معرفة واطلاع عالٍ بعدد من اللغات الغريبة، ثم يجلسن في المكان المخصص لهن على آرائك ممدودة بطول الحائط يغطيها الحرير، وكان من بينهن أميرات البيت الخديوي وزوجات قناصل بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية، وعقيلات كبار الأعيان، وكبار الموظفين، والوزراء في الدولة، فلما انتظم المقعد بجميع المدعوات دخلت الراقصات والمغنيات يغنين ويرقصن فقدمت إليهن الهدايا الفاخرة من قبل الأميرات وزوجات الباشوات فيغنين بمديح الهدايا يشكرنهن بعد استئذان دولة الوالد في أصل قديم لعادة "الشوبش"، ثم ظهرت أخيراً الأميرة فاطمة على رأسها تاج ماسي ثمنه أربعون ألف جنيه، في ثوب حريري أبيض مرصع بالماس واللؤلؤ يتدل منه ذيل بطول 15 متراً رفعته الجوارى من خلفها وهن راكعات، ما كان للمدعوات أن يرين من قبل ثوباً مثله، أو مشهداً مثل ذلك المشهد.

سارت الأميرة وخطت بكعبيها على منسوج حريري موشى بماء الذهب فرش على الأرض لأجلها، بينما اصطف أغوات الحرملك، وأغوات المدعوات على الجانبين من أول السلم وحتى القاعة العظمى حيث جلست الوالدة باشا، وكل منهم ممسك بشمعدان فيه شموع مختلفة

الألوان، فتقدمت وعيناها مطرقتان بخطى متتدة، وبوقفة تلو كل خطوة، كأنها تقول للجمع المحتشد من حولها "ها أنا ذا جميلة متألفة كأني الشمس تشرق عليكم فاعجبوا بي" بين أغاني المغنيات، ورقص الراقصات ومدح المداحات من أمامها، فحالما وقعت أعين المدعوات عليها فمضن، وتقدمت هي كإلهة فرعونية من آلهة الزمن الغابر نحوهن بمعيتها وجواربها وحرسها، فصعدت درجات رخامية لعرش ذي ريش فاخر أعد لها في القاعة، فصارت تنثر عليهن خيرات ذهبية أعدت لها وضربت خصيصاً لتلك المناسبة فتعلق في ملايسهن ورؤوسهن، وامتألت القاعة على سعتها بالأميرات والمدعوات والجواري والراقصات، وتألفت كلها بالديباج الساطع والذهب الوهاج، ثم جلست الأميرة على عرشها العالي المكسو بالحرير الأبيض، وجلست الوالدة باشا خوشيار قادين على عرش عن يمينها، وجلست أمها شهرت فزا هانم على عرش عن يسارها، وجلست هي بينهما برهة قبل أن تصعد من جديد إلى غرفتها تاركة الحفل والرقص مستمراً.

دخلت الأميرة غرفتها وكانت رغم تألقها وجمالها، فيها شيء من الكدر والشحوب لم تفلح مساحيق الألوان في تغطيته، فدخلت في أثرها صديقتها الأميرة حواء في فستان فضي اللون، وكانت قد حضرت إلى القاهرة خصيصاً بصحبة والدتها لحضور حفل زفاف صديقتها الوحيدة.

تطلعت الأميرة حواء إلى وجه فاطمة المنعكسة صورته على إحدى المرايا وقالت لها: فيم الحزن يا عزيزتي؟ لقد أحاطك جلالة الخديو بعنايته، وخصك بحفل زفاف لم يخص مثله للملكة فيكتوريا نفسها، فماذا يقول إذا وجدك حزينة وغير راضية هكذا؟

- تعلمين يا حواء أن تلك الشكليات لا تهمني.

تنهدت حواء ثم قالت: أعلم، هل لازلت تفكرين فيه؟
أطرقت فاطمة برهة ثم نظرت إلى الأرض وهزت رأسها هزة طفيفة.
- لكنك ستصيرين زوجة رجل آخر، ولا بد أن تراعيه أمام الله وألا تخونه ولو في أفكارك.

سالت دمعة من عين فاطمة انسكب معها شيء من الكحل الأسود عن عينيها وهي تقول: وهل سأفلح؟

اقتربت منها حواء تمسح دمعها بمنديل من لون فستانها كان في يدها، وهي تواسيها قائلة: استعيني بالله واصبري يا عزيزتي، ثم إن الأمير طوسون وسيم وناجح في عمله ومحبوب من الجميع، وفوق كل ذلك يحبك وسيحسن معاشرتك.

- الأمير طوسون خلوق، طيب القلب بحق، ولا يستحق مني الإيذاء، أنا فقط لا أفهم لم هجري أحد بهذه الطريقة، وتركني كل تلك السنوات فجأة ودون وداع حتى، ما الذي فعلته كي أستحق منه هذا؟

- الله أعلم يا فاطمة، هل يمكن أن يكون تم تخديره أو إبعاده عن طريقك عنوة؟

- ومن يفعل شيئاً كذلك؟

- جناب الخديوي، أو الوالدة باشا، أو شهرت فزا هانم، أو حتى الأمير طوسون نفسه.

- غير صحيح، وإلا كنت شعرت بتغير في المعاملة من أي شخص فيهم، وفهمت أنه علم بما كان بيني وبين أحمد.

ثم قالت وهي تنظر إليها: لقد تخلى عني أحمد يا حواء.

- إن كان تخلى عنك فيجب أن تتخلي عنه أنت أيضاً، وتكفي عن التفكير فيه، وفي كل الأحوال لا يصح لبنات الملوك الفضليات أن يفكرن في غير أزواجهن، لقد صرت منذ اليوم يا عزيزي زوجة لآخر، ومجرد التفكير في غيره خيانة له، وللرباط المقدس الذي جمعكما الله به.

صمتت الأميرة حواء وهي تحاول أن تلمس تأثير كلماتها على صديقها ثم استطردت: انهضي يا حبيبي وانزلي إلى أهلك وصديقاتك، فالجميع سعداء بك، وفرحهم لأجلك صادق ومتجلى في عيونهم.

من حسن إلى أحمد :

الأحداث التي نالتك عظيمة، تقشعر لها الأبدان، وتشيب لها الرؤوس، ليست أقل من أن تورث، ليشدو بها ويبطولاها المطربون الرحالون في القرى والنجوع والكفور.

ياليت قومي يعلمون، حسبي وعزائي أنهم إن لم يعلموا بما تواجهونه في تلك الأصقاع اليوم فسيعلمون غداً، وسيخلد ذكراكم وشجاعتكم التاريخ لأجل إعلاء قيمة الوطن بين ما عداه من الأوطان، الحمد لله لأنك عدت في النهاية سالماً وانتهت تلك الحروب.

لا حديث في مصر الآن إلا عن زواج الأنجال الفخم الذي بدأت مظاهر الاحتفال به في يناير 1873، واستمرت أربعين ليلة، وزعت ونثرت فيه الهبات والجوائز من ذهب، وساعات، وخواتم، وملابس، وحلوى على المواطنين بمناسبة حفلات زفاف الأمراء توفيق ولي العهد، وحسين كامل ناظر الحربية، وحسن الذي أنهى دراسته في أكسفورد ثم سافر إلى برلين ليعمل هناك بصفة ملازم ثانٍ في فرقة الهوسار البروسية قبل أن يعود إلى

مصر بصفة مؤقتة ليتزوج، وطوسون ناظر المعارف، على الأميرات أمينة، وعين الحياة، وخديجة، وفاطمة.

والحمد لله ثانية، إذ يبدو أن الحالة المالية للبلاد تحسنت أخيراً وإلا لما تم الإعداد لحفل عرس عظيم كهذا، أتساءل متى تعود ونشهد عرسك لنفرح بك نحن أيضاً؟

من أحمد إلى حسن :

ولماذا أعود يا حسن؟ على قدر ما بعادكم يؤلني وشوقي لكم يجذبني، بقدر ما سيكون قربي من قصر من أحبتها محرقةً لباطني ومعتصراً لقلبي، ومفجراً لجراح لم تكو وتشف وتندمل إلا بتعاقب الأيام والليالي طوال السنوات الماضية، ثق أن وجودي في تلك المناطق الحارة تحت وهج الشمس المحرقة، ووسط الوحوش الضارية، مصارعاً الموت في كل لحظة، أفضل من أن أنعم بحياة هادئة لا تشغلني فيها الشواغل والمهمات، أكون فيها أقرب إلى التفكير في امرأة تخيلت نفسي بقرها يوماً ثم وجدتها في أحضان آخر. دع الآلام يا أخي، ولا تزدها وتثرها من جديد، أما هي فأسأل الله أن يهيء لها سعادة حرمت أنا منها، ويقر عينها بنوم هاني جافاني.

في 23 يناير 1873 وصلت رسل ملك أوغندا مسلحين بالبنادق ومصحوبين بحرس من الأهالي وجندين من جنود ريونجا فأدخلناهم إلى ديوان جديد بنيناه على شكل دائري وطليناه بدهان رمادي فاتح مخلوط برماد الخشب، وكان كبير سفرائه إلينا ويدعى علي يوسف أحد أهالي السواحلية، يرتدي ملابس قطنية أنيقة من صناعة بومباي في الهند، ليست

في حوزة ذويه من الأفارقة، فسكان هذه الجهات أبرع وأكثر حضارة وتمتدناً من غيرهم لاتصالهم بالهند وبإمارة زنجبار العربية القديمة (23)، ولقد شغلني كثيراً فكرة ضم أوغندا إلينا بفضل عواطف ملكها متيسا الودية معنا، ولا شك عندي في أنها فكرة لاحت للحدوي أيضاً، فمثل ذلك الأمر يفتح الطريق إلى زنجبار، غير أن الوقت لم يعد في صالح بيكر لأية مشاريع جديدة، فقد يم صوب "غندكرو" ومنها إلى "فاشودة" ثم الخرطوم وصولاً إلى القاهرة، وتولى الأمر من بعده الأميرالاي رؤوف بك في فترة لم يحدث فيها شيء من المنغصات، وفي بداية عام 1874 وصل الأميرالاي الإنجليزي غوردون ومعه قرار حدوي يجعله حكامدارا على مديرية خط الاستواء، ووزع عليّ، وعلى عبد القادر الترقيات فصرنا برتبة قائمقام، يصاحبه القائمقام الأمريكي شاليه لونج، أحد ضباط الأركان بصفته رئيساً لأركان الحملة، كما جاء مع غوردون بعض أقربائه وابناً لأحد لوردات بريطانيا وضباط آخرون من إيطاليا وألمانيا، وأبو السعود بنفسه الذي ألح غوردون في طلبه للاستفادة منه في الحملة حتى أخرجه من السجن وأتى به من جديد، فاستأننا جميعاً لخير مقدمه.

كانت الملاحاة بين غندكرو والخرطوم قد تم الاهتمام بها وإزالة الحشائش والسدود منها فوصلوا أسرع وبشكل أيسر من وصولنا الأول، وأثناء ذلك قدمت رسل متيسا ملك أوغندا من جديد على رأسهم رجل يقال له أبو بكر لمقابلة غوردون محملين بهدايا من العاج، وهدايا أخرى محلية مرسلة إلى الحدوي تحمل اسمه، ليعربوا عن رغبتهم في الارتباط مع مصر بعلاقات ودية وطلبهم في إرسال أحد العلماء ليعلمهم ويعلم شعبهم العقيدة الإسلامية حسب نصوص القرآن الكريم، فابتهجنا بهذا كثيراً، على أنه أرسل مع هداياه مجموعة من الأطفال لاتخاذهم عبيداً، كما أرسل ريونجا

رسلاً إلينا في غندكرو بالمعنى ذاته ليعلن على لسان ملك غينيا أن جاره راغب رغبة أكيدة في صداقة الخديوي، فأرسل غوردون إلى الخديوي يعلمه بما كان، فسر الخديوي وأرسل إلى متيسا عربة ملكية هدية، أمرنا غوردون أن نذهب أنا وشاليه لونج لتسلمها والذهاب بها إلى الملك في عاصمته وبصحبة رسوله أبي بكر، واثنين من الجنود السودانيين اللذين حاربنا في المكسيك ليعملا حراساً لنا، وإبراهيم أفندي المصري بصفة مترجم، وكلرمان العامل الزنجي أحد أهالي الألزاس، كان غوردون قد اصطفاه من الخرطوم ليعمل فراشا، وآدم الطاهي السوداني، وسليم أحد أهالي زنجبار الملمين بلغة أهل أوغندا.

تحركنا في 24 إبريل من غندكرو بعد أن عدنا من الخرطوم بمهدايا الخديوي، فسرنا في مناطق تكثر فيها المرتفعات والمنخفضات وتقطعها مجاري السيول حتى الساعة الثالثة ونصف مساءً، حيث شعرنا بقرب هبوب إعصار فوضعنا الرجال حتى هدأت الرياح وعادنا المسير في السادسة ونصف صباحاً ثم بدأنا في الارتفاع ناحية الجنوب، حيث نزلنا في قرية مهجورة للراحة، وفي يوم 26 مررنا ببلاد "ناشو" التي أبدى زعيمها ترحابه بنا، وفي 28 دخلنا بلاد "الموجي" وفي الرابعة عصراً بلغنا أقواما محتشدة تتظاهر بالعداوة وكان قد قتل في هذا المكان منذ عام ملازم وثلاثون جندياً، وقبل أن نتحرك من المعسكر الذي نزلنا فيه قرب بلادهم أتانا خبر ذبح ثلاثة من الحمالين لم يلتزموا بالبقاء في المعسكر كما أخبرناهم، فخرجنا لقتال القتلة ففروا، وبحسنا يومها كثيراً عن جثثهم دون جدوى.

وفي يوم 29 كثرت هجماتهم علينا دون أن يتمكنوا منا أو نضطر لإطلاق الرصاص عليهم ونرددهم قتلى، وفي يوم 30 سرنا في أرض ذات

حشائش عالية حتى وصلنا إلى لا بوريه موطن أكثر الحمالين، فجاء أهلهم للتسليم عليهم، وكان سلامهم غريباً، فقد أمسك أحد الحمالين برأس ابنه وبصق على جبينه وسط دهشتنا! وفي 2 مايو عبرنا نهر أسوا وكان عمقه متراً واحداً، وفي 5 مايو مات اثنان من الحمالين وبعض الذين كانوا عائدین إلى أوغندا من التعب، وفي 6 مايو وصلنا فاتيکو حيث استقبل أهالي القرية ذويهم من الحمالين وهم واقفون على الصخور بالترحاب، واستقبلتنا حاميتها استقبلاً عسكرياً ورحب بنا مديرها الصاغول أغاسي عبد الله وعلى صدره شارة اللجيون دونور التي قلده إياها الإمبراطور نابليون الثالث بعد حرب المكسيك، وهناك استرحنا خمسة أيام قبل أن نكمل المسير في 12 مايو حيث صحبنا واد الملك وعدد من جنود فاتيکو حتى فويرا.

وفي 16 مايو بلغنا نهر فيكتوريا الواسع، فعبناه باستخدام زوارق محلية من جذوع الأشجار المخوفة، حيث ارتحنا في محطة فويرا اسبوعاً، واكتشفنا في الطريق بحيرة جديدة أسماها شاليه لونج "بحيرة إبراهيم" ويسمىها الأهالي هناك "بحيرة كيوجا"، وفي 9 يونيو دخلنا الأراضي الأوغندية وكنا كلما توغلنا كلما ازدادت المناظر جمالاً، وكانت بعض الطرق يصل عرضها إلى 25 متراً توصل إلى قمة تلال مشرفة، وكانت الوفود تأتينا من متيسا تتقدمها الرايات والموسيقى محملة بالهدايا والمثونة وتحثنا على المسير للقاء الملك، وكان الأهالي يخرجون إلينا في الطرقات لمشاهدة الرجال البيض والحصانين اللذين نستخدمهما، ذلك الحيوان الغريب الذي لم يروه من قبل، حتى اقتربنا من قصر متيسا المقام على أحد التلال، فارتقى البعض تحت قدمينا يرجوننا أن نصعد إلى الملك على ظهر الحصانين غير أننا عدلنا عن رأينا حين وجدنا أن امتطاء الحصان يرهب الجمع المختشد.

ولشدة ذهولي وجدت العلم المصري يرفرف على قصره، دخلنا القصر واجتازنا فيه سبعة أبواب ثم دخلنا قاعة الملك فوجدنا متيسا فوق عرشه في الخامسة والثلاثين من عمره يرتدي ملابس عربية مثل التي يرتديها عليه العرب، ويتقلد حساماً تركياً محلياً بالذهب أهده له سلطان زنجبار، فسلم علينا واقفاً وأجلسنا إلى جواره بعد أن جلس.

بدأ لونج الحديث قائلاً: إننا أتينا إليه ياذن من قبل سلطان مصر الأعظم ليسلم على ملك إفريقيا العظيم وليعرب عما يكن له في قلبه من خالص الود فقبول خطابه بصيحات الفرح من الحضور قائلين: كورنجي!! كورنجي!! أي حسناً حسناً.

ثم خر الشيوخ والمستشارون ركعاً وجثياً متشابكي الأيدي صارخين: يانزج!! يانزج!!

نظرت إلى سليم مستفسراً فقال: هم يشكرون متيسا لأنه أحضر لهم أمراء عظاماً.

وكان يقصدي أنا ولونج بذلك، وما هي إلا لحظات حتى رأيتهم يأتون بثلاثين رجلاً مكبلين بالحبال ثم فصلوا رؤوسهم عن أجسادهم أمام عيوننا احتفاءً بقدمنا!

كان مشهداً مفاجئاً يدعو إلى الغيظ إلا أننا كبجنا جراح مشاعرنا، رغم ما اعترانا من دهشة ورغبة في القبي وأبدينا اللامبالاة كي لا نعرض أنفسنا للسخرية أو ضياع النفوذ.

ولما هممنا بالانصراف ألح علينا متيسا أن يرينا نساءه اللواتي بلغ عددهن مائة، على أن ما بدا بعد ذلك أنه كان يريد أن يرينا لنسائه لا

العكس، فقد أحاطت بنا النسوة وأخذن يفحصن ويلمسن بأيديهن كسوة التشريفة التي ارتديناها وما فيها من زخارف ذهبية أعجبتهم.

وفي اليوم التالي رصت صناديق الهدايا التي أتينا بها تحت أقدام الملك وكانت تشتمل على أقمشة قطنية وأخرى ذوات ألوان قرمزية، وحلي وأساور وعقود ومرآة كبيرة مذهبة وصندوق موسيقى فقبلت الهدايا بفرح شديد، على أن أكثر ما أعجبه بندقية، وفي ختام اليوم تم ذبح عشر مساكين آخرين بنفس الطريقة السابقة، كان شاليه لونج يعلق على ذلك فيما بعد ضاحكاً بقوله: لو كل يوم نقضيه في ضيافة الملك سيذبح فيه عشرة مساكين فإنه يفضل الذهاب الآن على التسبب في انقراض الشعب المسكين!

أقمنا في ضيافة الملك عدة أيام أعربنا خلالها عن رغبتنا في زيارة بحيرة فيكتوريا والتي يسموها نيانزا، ومنها نعود إلى غندكرو بطريق النهر، فقوبل الطلب بعدم الرضا من الوزراء لأنهم يظنون أن البحيرة تسكنها شياطين مكلفة بمحاربتها وأن أولئك الشياطين كثيراً ما أمسكوا بأهالي من أوغندا وأهلكوهم، وبعد إلحاح قبل الملك لكنه رفض ركوب النهر لأنه يخشى علينا الموت لأنه إذا قتلنا فإن سلطاننا سيأتي إليه ويقتله أيضاً.

على أننا لم نلتزم بكلامه وركبنا المراكب بالفعل في النهر بعد أن أمرنا سليم أن ينتظرنا بالخیل في مروي، ولما دنونا من اليابسة قرب مكان اللقاء، وأطلقنا الرصاص فوجئنا بين نباتات البردي بعدة مراكب مشحونة برجال مسلحين بالمازاريق، فبدأ أنهم يتربصون بنا ويراقبون حركتنا في النهر منذ فترة ليست قليلة، وفي الحال دوى صوت البوق ودقت الطبول فانسحبنا إلى النهر، وكان خلفنا زهاء 400 رجل من الأونيورو في 40 مركبا، فلما

وجدنا أن مراكبهم توشك أن تلتحق بنا ربطنا مراكبنا ببعضها وكان قائدهم واقفاً في مركبه ييدي حركات العدوان.

حاولنا أن ننبه أننا على علاقة طيبة بملكه إلا أنه لم يستجب فاضطررنا لإطلاق النيران، وكان أول من أردناه قتيلاً، على أن رجاله لم ينسحبوا ويكفوا عن ملاحقتنا إلا بعد أن قتلنا منهم كثيرين، أبحرنا في النهر حتى وصلنا إلى فويرا، ومنها أرسلنا إلى كباريجنا نستفهم منه عن سبب مهاجمة رجاله لنا، فلم يصلنا رده، وإنما وصلنا من سليمان رجلنا لديه وكان رداً ملتبساً مبهماً، وأثناء إقامتنا في فويرا فوجئنا ذات ليلة بثعبان ضخيم تسلل ليلاً إلى مخازن الطعام، في حياتي لم أرى مثله، اجتمع عليه الجنود طعناً بحراب بنادقهم فصار يتحرك بسرعة ويحطم بعض ما لدينا من كراسي ومناضد خشبية، ولعلك لا تصدق إن أخبرتك أن طوله لا يقل عن تسعة أمتار، أخبرنا الأهالي أن مثله يقتل فريسته بالالتفاف حولها وعصرها وتشميم عظامها بعضلاته القوية، ثم ابتلاعها من الرأس نزولاً إلى باقي الجسد.

مقر قيادة القوات المصرية - نظارة الحربية

كان الخديوي برفقة الأمراء توفيق وحسين كامل والجنرال ستون ينظر إلى الخارطة الجديدة التي أعدها له ضباط أركان الحرب الجدد حين أخذ نفساً عميقاً أخرجه بانتشاء قبل أن يشير إلى الساحل الشرقي لإفريقيا على خليج عدن، والمحيط الهادي بكلتا يديه وهو يقول بحماسة: أما الآن وقد توغلنا حتى منابع النيل في أوغندا، وأصبح نهر النيل كله في أيدينا مصرياً، فعلينا الآن أن نسيطر على السواحل الإفريقية الشرقية أيضاً للسيطرة على كل طرق التجارة في القارة، نحن نسيطر بالفعل على كل البحر الأحمر منذ أن ضمنا سواكن ومصوع إلى أراضينا، والآن وبعد الفرمان العثماني الجديد أصبحنا نسيطر على سواحل خليج عدن، لم يعد يبقى سوى سواحل المحيط الهندي لنفتح طرق تجارة بحرية مع أوغندا ومديرية خط الاستواء، ثم أشار بكلتا يديه إلى الخارطة وهو يقول: بهذه الطريقة ستكون طوقنا الحبشة من كل الجهات، وخنقناها خنقاً ييسر علينا ابتلاعها إذا شئنا فيما بعد.

قال الأمير حسين كامل وكان قد تولى نظارة الحربية خلفاً لشاهين باشا: الحبشة لا تنفك عن إثارة المشاكل، هم يشتكوننا للإنجليز باستمرار

ويؤكدون لهم حاجتهم لميناء بحري، وأنها بسيطرتنا على كل الساحل الشرقي نرهقهم بالضرائب الجمركية التي لم يكونوا يدفعونها قبل إحكام سيطرتنا على تلك المناطق، كما أنهم اعترضوا لما أردنا أن نصل بين مصوع، وكسلا بخط سكة حديدي يمر بـ "سنهيت" لتيسر المواصلات بين السودان والبحر الأحمر معتبرينها أرضاً حبشية.

قال الأمير توفيق: ولكن الخديوي بعد توسط القنصل البريطاني، أخبر مبعوث يوحنا إمبراطورهم أنه على استعداد لعقد اتفاق لتنظيم الجمارك معهم.

فقال الخديوي: يوحنا لا يريد مزايا تجارية، يوحنا يود انتزاع الأراضي المصرية على الساحل الإفريقي ليتسنى له الحصول على السلاح بسهولة واستخدامه ضدنا إن أراد، فهو يقلقه ويوتره كثيراً اقتراب حدودنا من حدوده، حتى أنه لا يضيع فرصة مرور الرحالة الأجانب في أراضيه إلا ويشتكى لهم ويبلغهم بمتاعبه مع مصر.

- كان علينا أن نضم الحبشة من قبل.

تتحنج الجنرال ستون وقال: كان الوقت مناسباً حين ساءت علاقتهم بالبريطانيين بعد اعتقال إمبراطورهم السابق تيودور للقنصل البريطاني وعدد من التجار، والمبشرين البريطانيين البروتستانت هناك، أما الآن وبعد حملة الإنجليز التأديبة للإفراج عن أسراهم والتي ساعدناهم فيها لوجيستياً وسمحنا لهم بالمرور في أراضينا، ومنحناهم الدواب والمواد التموينية، ووضعنا الأسطول في البحر الأحمر تحت تصرفهم، وسمحنا لهم بإنشاء خط تلغرافي بين مصوع وسواكن، نهايةً بهزيمة تيودور وانتحاره سنة 1868، ودعم بريطانيا ليوحنا من بعده، وتركهم كمية من السلاح والذخيرة له

وأحد عسكريهم في الحملة هو الجنرال جون تشارلز كيركهام لتدريب جيشه، فالأمر الآن أصبح أكثر تعقيداً وصعوبة.

قال الخديوي بضيق: أرسلت لتيودور بعد اعتقاله البريطانيين أحذره، لكنني خشيت إن أنا استغللت الفرصة وجردت حملة عليه وقام بقتل أسراه، أن أنال غضب بريطانيا في النهاية بدلاً من دعمها، حتى لو كنا دعمنا أحد المرشحين الآخرين لخلافة تيودور غير يوحنا ففرصة الصدام مع الإنجليز وأطماعهم في تلك الجهات كبيرة.

ثم استطرد قائلاً: حتى أنهم كانوا يطمعون بامتلاك أوغندا لولا أن رجلهم ستانلي ذهب إلى هناك وقابل متيسا فوجد رجائنا في بلاطه يعملون مستشارين لديه ومندوبين عن الحكومة المصرية، حتى أني اتقاءً لأطماعهم هذه أصدرت أوامري إلى شريف باشا أن يرسل مذكرة إلى الدول الكبرى يعلمهم فيها بضم مصر منطقة البحيرات إلى أملاكها، بعد تأسيس غوردون خطة جديدة في "أورندجاني" على "نهر السومرست" بالقرب من "بحيرة فيكتوريا"، وأخرى على البحيرة نفسها قرب "شلالات ريون"، بوسعي الآن أن أطمئن على أملاكنا في منابع النيل وأوغندا وأعتبر أن الإنجليز لم يعد ييدهم حيلة، والآن دعونا لما جمعتمكم من أجله.

ثم أشار إلى سواحل الصومال على الخريطة وقال: أرسلوا لقواتنا التي أرسلناها في "زيلع" و"بربرة" (24) كي يزحفوا على "إمارة هرر" الإسلامية المجاورة لهم، وينتزعوها من يد أميرها محمد عبد الشكور ويضموها إلينا، تلك البلاد المسلمة متمدينة، وتقع قرب أراضي يوحنا، وقبائل الجلا، فدعونا نضمها إلينا قبل أن يتلعبها هو، أريدك يا ستون أيضاً في نفس وقت الحملة على "هرر" أن تجرد حملة سريعة لفتح بقية شواطئ الصومال ابتداءً من "بربرة" على خليج عدن وحتى سواحل المحيط الهندي

حتى رأس حافون (جردفون) والسير جنوباً بمحاذاة ساحل المحيط حتى مصب "نهر جوبا"، ومن هناك تبدأ في المسير غرباً بصحبة سيمانة أسرة سودانية تسكنهم في المناطق التي تدخلونها لفتح الطريق إلى أوغندا وبحيرة فيكتوريا، على أن يقابل رجالك في الطريق ويعاونك على أداء مهمتك غوردون الذي سيسير إليك شرقاً، بهذه الطريقة سن عزل إثيوبيا ونحيط بها إحاطة تامة، ونكون قد وصلنا أراضيها في منطقة البحيرات بالبحر والنهر معاً.

- بأمرك يا باشا، ما رأي جلالتك في أن تكون الحملة على الصومال حملة بحرية بقيادة الأميرال ماكيلوب باشا مدير الموانئ والمنارات المصرية؟ بينما أرسل رؤوف باشا مساعد غوردون وصمويل بيكر من قبله في منطقة البحيرات والذي قلده جلالتك محافظاً لبربرة مسئولية فتح هرر؟

- فكرة طيبة، الاختياران يضمنان الإسراع في تنفيذ الحملتين، أرسلوا لهم الأوامر فوراً وجهزوا المدد فربما يحتاجونه.

ثم فكر قليلاً قبل أن يستطرد: أما بخصوص "سنيته" التي يدعي الأحباش أنها أراضيهم فأصدر أمراً إلى مترنجر باشا مدير شرق السودان أن يزحف بجيش من 1500 رجل لفتح "سنيته" و"إقليم البوغوس" ليتسنى لنا إنشاء خط السكة الحديدية، وليختبر قوة الأحباش وجغرافيا أراضيهم في الأماكن التي سيمر بها، واعهدوا إليه أيضاً بشراء مقاطعة "إيلت" الواقعة بين "مصوع" و"الحماسين" من حاكمها الذي على خلاف مع يوحنا.

قال الأمير حسين كامل: بوسع هذه الحملات الثلاث جلالتك أن تزيد من توتر إمبراطور الحبشة.

فقطب الباشا حاجيه ثم ابتسم وهز رأسه وهو يقول بثقة: عليه أن يتوتر.

من أحمد إلى حسن :

كان لطول المدة التي قضيناها أنا وشاليه لونج في الترحال معاً أن انعقدت بيننا أواصر الصداقة، فأطلعني على تكليف الخديوي له بالسفر إلى أوغندا منذ أن كان بمصر، ومخاوف الباشا من تحركات بريطانيا هناك، ومخاوف لونج من ولاء غوردون الأول للتاج البريطاني، ثم ولائه الثاني للحكومة المصرية، وما قد يستتبعه ذلك من تضارب في المصالح، إن تعارضت مصالح البلدين وتوحدت أطماعهما وتطلعاهما في القارة الإفريقية، وكان محقاً في رأيه، فشغلت فترة من الزمن بما قاله، حتى اكتشفت ذات يوم ما أكد مخاوفي.

بعد عودتنا من أوغندا وسفرنا الذي استمر قرابة الثمانية أشهر، وجدنا غوردون قد أتم الكثير من الأعمال في هذه الفترة، فقد قام برسم خريطة للنيل الأبيض من الخرطوم إلى "الرجاف"، كما قام بتأسيس محطة "سوبات" عند مدخل نهر السوبات و "الناصر" على النهر ذاته فألقى القبض على الكثير من السفن المحملة بالعاج والعبيد، وصادر العاج بوصف تجارته حكراً على الحكومة، وأطلق سراح العبيد، كما أنشأ العديد من المخططات والقلاع الجديدة في البلاد مستخدماً أربعة بلوكات من الجنود المصريين مسلحين ببنادق رمنجتون يقودها مترنجر بك الحاكم عام للسودان الشرقي، كما شرع بشق الطريق بين "غندكرو" والبحيرات الكبرى للملاحة، ونقل عاصمة الحكمديارية من "غندكرو" إلى "اللاذو" وهي

إحدى المحطات الجديدة التي بناها واختارها لطيب هوائها بعد أن تعرض الكثير من الجنود المصريين الجدد للأمراض، كما علمنا بعد عودتنا أن رؤوف بك رحل إلى القاهرة بعد أن حن كثيراً إلى العودة، واضطر غوردون لإجابة طلبه مضطراً وعين مكانه اليكباشي الطيب عبد الله أفندي مديراً على غندكرو ورقاه إلى رتبة قائمقام.

كنا نسمع في هذه الأثناء أخباراً مثيرة عن الحملات المتتالية، فعلمنا أن علي أبو عموري أحد تجار نجع حمادي المشتغلين بالسودان اشتغل تحت يديه رجل من قبيلة الجميعاب اسمه "الزبير رحمت" بلغت شهرته الآفاق بعد انتصاراته على زعماء "بلاد قولو"، و"بلاد شككا"، و"بلاد النمانم"، و"بلاد الرزيقات" الواقعة بين بحر الغزال ودارفور، فصار شأنه شأن الملوك، وهؤلاء الرزيقات يقال إنهم استقدموا فقيها اسمه عبد الله محمد آدم تورشين من قبيلة التعايشة ليقرأ لهم من الأذكار ما يقبض به على سلاح الزبير، ولا يجعل ناره تنطلق في حربه معهم، وتعهدوا له في المقابل ببقرة، وإنه لأمر محزن أن يستشري الجهل والتخلف بين المسلمين إلى هذا الحد، بينما الأوروبيون يسبقوننا في كل شيء، المهم أن صاحبنا الزبير هذا جعل تقدمته للبلاد التي فتحها إلى السيادة المصرية والتي تكونت منها مديرية بحر الغزال دليلاً على ولائه للخديوي، فقلده الخديوي إدارتها من قبل الحكومة المصرية ومنحه الباكوية، مقابل جزية سنوية، ثم فتح الزبير سلطنة دارفور، والفاشر، وهزم ملكها السلطان إبراهيم في أكتوبر 1874، ليسر بعد ذلك غرباً إلى سلطان ودداي، ويورد إليه كتاباً يدعو إلى الطاعة وتأدية الجزية إلى الخديوي، فورده رده بقبول الطاعة، قبل أن يأتيه مرسال من إسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان يأمره بالرجوع فوراً إلى دارفور فعاد

متأسفاً على ضياع الفتح السهل، وكان سلطان ودداي قد أرسل وزيره إلى مصر عن طريق سيوة مشتكياً للخديوي فأمر برجوع الزير الذي اكتفى بما أحرزه من انتصارات.

وقد أردنا أن نصل حدودنا الشمالية الغربية بحدوده فأرسلنا تجريدة عسكرية لإخضاع قبائل "ينباري" و"مكراكا"، وأولئك الينباريون يزرعون حول قراهم أحد نباتات الصبار السامة، فإذا ما قدم أحد مهاجمتهم غمسوا رماحهم ونبأهم فيه حتى تكتسي بطبقة من عجينة لينة من سائله السام فإذا ما أصابوا جندياً من الجنود قتلوه في الحال، وهم في طريقة استخدامهم للسم على أسلحتهم بهذه الطريقة يميزون بين شعوب وقبائل إفرقيا.

كما سمعنا عن ضم "زيلع" بلد عبد الرحمن الجبرتي، و"بربرة"، و"بولهار"، وفتح "هرر" في 11 أكتوبر 1875، والسيطرة بذلك على منتجات البن، والصمغ، وريش النعام، والزعفران، والزبد، والجلود، ثم وردتنا الأنباء أن الأسطول المصري أبحر من السويس إلى "بربرة"، ثم أقلع ثانية إلى المحيط الهندي فوصل إلى "رأس حافون"، وركز الرجال العلم المصري هناك ودعوا القبائل إلى الدخول في طاعة الحكومة المصرية فقبلوا، ثم وصلوا إلى بلدة "براوه" شرق "نهر جوبا" في جنوب الصومال، فأذعنت القبائل للحكم المصري، وترك ماكيلوب باشا هناك حامية من الجند وعين عليها محافظاً قبل أن يسير بباقي جيشه إلى بلدة "قسمايو" الواقعة على مصب النهر في المحيط، ففتحها وسار غرباً إلينا قاصداً بحيرة فيكتوريا، وكان علينا أن نتجه شرقاً إليهم وفقاً لخططة مرسومة من قبل، على أن غوردون لم يحرك ساكناً، وهو ما أثار شكوكي تجاهه في أنه تلقى أوامر من الحكومة الإنجليزية بعدم المساعدة في الحملة، وما هي إلا شهور حتى وردتنا أخبار انسحاب حملة ماكيلوب باشا عن "قسمايو" التي كانوا قد أسموها

"بور إسماعيل" و "براوه" بعد احتجاج بريطانيا لدى الحديوي على تحركات الجيش الأخيرة. (25)

وفي هذه الأثناء سافر ارنست دي بلفون إلى أوغندا بصحبة الشيخ عمر الذي قدم من مصر لتعليم الأهالي هناك الدين الإسلامي، وهناك قابل الرحالة الأمريكي ستانلي، واتفق مع ملك أوغندا على قبول بلاده الحماية المصرية وإقامة مراكز ومحطات وقلاع فيها بما في ذلك العاصمة نفسها، وتم التجهيز لإبحار جيسي واكتشافه لبحيرة ألبرت في واحدة من البواخر البخارية المفككة التي قدمت بها الحملة.

من حسن لأحمد :

الجهل والتخلف موجود في كل مكان، والأديان تربة خصبة لينسج من حولها الأساطير والخرافات، وإن كان الرزيقات أرادوا ببعض الأذكار ما يقبض به على سلاح الزبير، فقد ذكر الكثير من الكاثوليك من قبل أن السلاح كان يسقط من جنود نابليون بوناپرت في حربه على روسيا لأنه تعدى على البابا بيوس السابع، صحيح أن المعجزات موجودة لكن الله يرسلها مع أنبيائه ورسله ليدخلوا أقوامهم في حظيرة الإيمان به وتوحيده، ولا يجب أن نكون أسرى وضحية الخرافات والخرعبلات والقوى الغيبية، بل علينا الاهتمام عوضاً عن ذلك بالعلم والعمل.

فهل الغريون دوماً هم الحل الأنسب والاعتماد عليهم هو الأصح ليساعدونا في اللحاق بركب التقدم؟ كنت مقتنعا بذلك، وكذلك اقتنع رفاة الطهطاوي من قبلي، على أيّ ورّما كل مصري الآن أصبحنا متشككين في سلامة الاعتماد عليهم، وها أنت بنفسك لمست تضارب

المصالح لدى بعضهم لديك وعملهم لغير صالح الوطن إن تضاربت مصالحه مع مصالح أوطانهم.

حال البلاد يسوء، وبات الكثيرون يشككون في الموقف المالي للبلاد، وقدرتها على دفع أقساط القروض التي غرقت في فوائدها، والحديث عن سوء العلاقة بين الخديوي وإسماعيل باشا المفتش يعلمه الجميع، حتى أن البعض يقولون إنه أمره بملازمة بيته، وعدم خروجه منه، وأما الأميرة المسكينة فاطمة فنشر أن زوجها الأمير طوسون مات غريقاً، بينما هم في الإسكندرية يحتفلون بعيد ميلادها الثالث والعشرين، بعد ثلاثة أعوام فقط من زواجهما، فهل لازلت لا تجد الوقت مناسباً لعودتك يا أحمد؟

أحمد

أعدت قراءة خطاب حسن ثلاث مرات وكنت في كل مرة أتوقف عند سؤاله الأخير الذي ذيل به خطابه "هل لازلت لا تجد الوقت مناسباً لعودتك يا أحمد؟" وكأنه يريد أن يخبرني أن تلك هي اللحظة المناسبة التي لابد لي أن أظهر فيها، وأستعيد روحي، وعافيتي، أستعيد مرحي، ونشاطي، وحيويتي، وربما حيي القديم.

أكثر من ست سنوات قضيتها في إفريقيا منفياً بطوعي ومحض إرادتي، حاملاً أوزاراً لا يد لي فيها، وها أنا الآن أشعر بنشوة غريبة تسري في أوصال جسدي حرمت منها طيلة السنوات الماضية، حتى نسيت الإحساس بمثلها، كانت الرسالة أشبه بريح باردة طيبة أثلجت صدري وعزلتني عن الرطوبة الحانقة ولدغات البعوض في المكان فصرت أرى ما حولي جنة كل ما فيها جميل، رنوت ببصري إلى السماء العالية وابتسمت للنجوم المرصعة

على صفحتها، وكأنها المرة الأولى التي أنظر فيها إليها، وسألت نفسي هل يمكن بعد كل هذه السنوات أن تظل فاطمة على عهدنا كما تركناها مخلصاً لحبنا القديم؟ في تلك الفترة زوجها لآخر ربما أحبته وأحبها، فهل يمكن أن ترحب بي في عالمها من جديد؟ هل يمكن أن تراني كمن ينتشلها من حزنها وكمدنها فترحب بإعادة بناء ما تكالب على هدمه الزمان؟ أم أنها ستري مقدمي محيراً ومربكاً لحساباتها؟ هل يمكن أن تسامحني وتفهم ما مر بي؟

لم أدر بنفسني إلا وأنا أقفز إلى مدخل المعسكر، وأجري موعلاً في الساحة، صاعداً الدرج الموعج إلى غرفة غوردون، فوجتها دون استئذان غائص الفؤاد، ولدهشتي مما فعلته تسمر لساني، ولم أدر ماذا عساي أن أقول، وكان غوردون يقف قرب مكتبه يقلب في بعض الأوراق حتى بوغت بدخولي عليه فصار ينظر إليّ قبل أن يسألني: هل من خطب ما يا أحمد؟

- نعم، أود أن أنزل مصر في الحال.

- هل حدث مكروه لا سامح الله؟

- لا، أبداً، فقط اشتقت إلى أهلي كثيراً.

- غريبة، معظم زملائك القدامى عادوا إلى أهلهم وأنت وحدك ظننتك لن تطلب مني هذا الطلب أبداً.

ثم اتجه لي وربت على كتفي مبتسماً وهو يقول: عيناك تشعان نوراً، والحماسة بادية على وجهك، ليتك ترى هيأتك، حسناً يا أحمد، لن أخيب رجاءك، فأنت أخلصت في خدمتك للحملة وأديت لها الكثير من العمل الجليل، وأنا لا يسعني أن أقابل طلبك الآن بالرفض، ولو أنني كنت أفكر في

إرسالك على رأس فريق للإبحار على ظهر سفينة بخارية في بحيرة ألبرت
بصحبة جيسي، لكن لا عليك سأرسل إلى القيادة أطلب فيها الإذن
برحيلك.

- ألا يمكن أن أسافر من الغد، وأسلم نفسي هناك في نظارة الحربية
وترسل لهم بخبر إيفادي إلى القاهرة؟

ابتسم غوردون وقال: أنت على عجلة شديدة.

ثم أضاف: حسناً، أنت تستحق ذلك.

- أشكرك.

- بل أنا من يشكرك.

ثم سلم عليّ بكلتا يديه، وتركته منسحباً وأنا لا أكاد أصدق ما حدث
للتو.

في الصباح الباكر سلم عليّ الجميع بعيون باكية، وأدى الجند تحتهم
العسكرية، حيث ركبت أحد المراكب من "اللاذو" إلى الخرطوم فبلغتها في
اليوم الثالث عشر، ونزلت فيها للراحة يومين، وكانت قد تغيرت كثيراً عن
ما تركتها عليه حين قدمت إليها أول مرة، فقد تم تشييد دار للحكومة،
وتحولت الكثير من الأراضي المقفرة إلى حدائق تطرب في ربوعها الجماهير
كل مساء الموسيقى العسكرية، وأقيمت المساجد، ومدت الآلات البخارية
على ضفاف النيل لري الأراضي الزراعية ومزروعات القطن فيها،
والخرطوم ككل تم إنشاؤها من العدم في عهد محمد علي باشا عام 1821،
وكانت في البداية مجموعة من المعسكرات للجند، ثم تحولت مع الوقت إلى
أكبر مدن الجنوب، وعاصمته في عهد الحكمदार عثمان جركس باشا
البرنجي سنة 1824.

دخلت أحد المطاعم التي تزخر بها المدينة، وكان بسيطاً ذا واجهة زجاجية، تتراس بداخله مقاعد وطاولات خشبية وجدت عليها بضعة نفر من الأهالي بعضهم يمضغ السعوط ويصقونه أرضاً وآخرون يعقرون خمر المريسا، والعرقى بجانب الطعام ويعبونه عباً، وكنت لطول مكوثي مع الضباط والجنود السودانيين تعرفت على بعض عاقم وأطعمتهم فطلبت طبق ملاح الويكه النعيمية، وتصنع من خضار البامية المجففة مضافاً إليها صلصة الطماطم، ويمكن أن يضاف إليها اللبن الرائب فتسمى ملاح روب، وبينما أنا كذلك منتظراً طلبي سمعت جلبة بالخارج وشاهدت الكثير من الجنود يرتدون أسماً بالية، وأحذية مثقوبة، كأنهم عادوا لتوهم من حرب ضروس هزموا فيها شر هزيمة، خرج النادل السوداني يستفسر عن الأمر وعاد فسألته عن ما وجده فأجاب بأنهم جنود حملة الحبشة، قد عادوا منهزمين.

خرجت لفوري إلى الخارج فوجدت قافلة من المجندين محتشدين في الطريق، هرولت إليهم الأمهات والزوجات والأطفال باحثين عن ذويهم، واتخذ آخرون سبيلهم إلى أهلهم، وسمعت بعض أصوات النحيب لنسوة تلقين خبر وفاة أبنائهن وأزواجهن، فتأثرت كثيراً بالمشهد الذي تخيلته سيتكرر في كل قرى مصر ونجوعها، حين يعود زملاؤهم المصريون إلى أوطانهم، وبينما أنا كذلك شاهدت ضابطاً أسمر ضخماً عريض الجبهة، عظيم الشارب، مصري الملامح يحمل رتبة قائم مقام فناديت عليه وطلبت منه أن يجلس إلى طاولتي ففعل، طلبت إليه طبقاً مثل طبقى فلم يمانع.

قدمت نفسي إليه وقلت: أحمد السعداوي .. قائم مقام في حكمدرية خط الاستواء، وفي طريقي إلى القاهرة أخيراً بعد إجازة طال انتظارها.

فأجابني: أحمد عرابي .. قائم مقام ومأمور حملة مصوع على الحبشة، أنا أيضاً في طريقي إلى القاهرة.

- هل هزم يوحنا جيشنا حقاً؟

- يوحنا لم يهزم جيشنا يا صديقي، الخيانة هي من هزمتنا.

- كيف هذا؟

- لعلك تذكر أن الخديوي تدخل لحماية الإرسالية الكاثوليكية الأوربية في الحبشة من بطش يوحنا، بعدها طالب مشايخ إقليم "البوغوس" بالحماية المصرية لأراضيهم فقبل الخديوي وأمر مترنجر باشا بالزحف من مصوع على إقليم البوغوس، وضمها إلى مصر.

- نعم أذكر.

- أرسل يوحنا رسوله محمد ناصب الجبرتي إلى الخديوي إسماعيل يطلب منه الجلاء عن الإقليم ويبين له أنه أرض إثيوبية، فاحتجزه الخديوي عنده مدة سنة كاملة، في نفس الوقت الذي أرسل فيه إمبراطور الحبشة مستشاره الإنجليزي العسكري إلى النمسا وروسيا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا ليؤلبهم على مصر، ويطلب مساعدتهم في انسحابنا من "البوغوس"، وحصوله على ميناء "أمفيلا" (26)، وسهول الملح، فأرسلت بريطانيا قنصلها ستانتون للاستعلام فأخبره الخديوي أن المنطقة لم تكن يوماً خاضعة إلى إثيوبيا، وأنها خاضعة إلى مصر منذ أن ضم محمد علي باشا إقليم "التاكا" إلى السودان، ولا أساس لما يطالب به يوحنا من ممتلكات على الساحل لأنه خاضع كله من السويس إلى "بربرة" للسيادة المصرية، وأن إنجلترا نفسها استأذنت الباب العالي ومصر عندما أرسلت حملتها في عهد تيودور لكي يسمح لها بالمرور منه إلى الحبشة، ولما حاول مترنجر باشا

ترسيم الحدود مع يوحنا، رفض الأخير وقيل إنه أخذ ضمانات بالمساعدة في حالة نشوب حرب بينه وبين مصر، فدفع بمجموعة من الخيالة والمشاة المسلحة للهجوم على "إماسا" السودانية فقتلوا عدداً من الأهالي، وضباط المنطقة، وأسروا عدداً من النساء والأطفال

وسرقوا الماشية، ثم تكررت غاراتهم على باقي القرى السودانية الحدودية.

- حقاً؟ وماذا حدث بعد ذلك؟

- أرسلنا تعزيزاتنا إلى "مصوع"، وبعث الخديوي برسالة إلى يوحنا يدعوه فيها إلى السلام مقابل رد الماشية والأسرى، فجاءه الرد بعد ثمانية أشهر برفض العرض وتمسك يوحنا بأراضي "البوغوس"، وإقليم "إيليت"، والساحل الشرقي الإفريقي مدعياً أنه أرض إثيوبية، فلم يكن لذلك معنى إلا الحرب، احتلت قواتنا إقليم "حاسين" لفتح ممر إلى الأراضي الإثيوبية، وجهزت لـحمتين على الحبشة في آن واحد، الأولى تهاجمها شمالاً من ناحية مصوع بقيادة أرندوب بك أحد ضباط أركان الحرب الدنماركيين لدينا مؤلفة من 3200 مقاتل، وبطارتين من المدافع، وحملة أخرى من الجنوب من ميناء "تاجوره" الواقع على خليج عدن بقيادة مرتنجر باشا النمساوي.

- وبعد؟

كان النادل قد بدأ في رص الأطباق بينما أكمل عرابي حديثه قائلاً: تقدم جيش أرندوب إلى "جونديت" فقابله الأحباش بجيش أكبر عدداً فهزم في 11 نوفمبر 1875 ولم يتج من جيشه إلا الزر اليسر، إذ قتل أرندوب، وإراكيل بك نوبار محافظ مصوع، أما جيش الجنوب فأبحر من مصوع على رأس ثلاثة بلوكات من الجنود المصرية والسودانية ونزل في

"تاجوره" ليستكمل منها معدات الحملة من الإبل، ثم أقلع مزنجر باشا في صحبة قوة صغيرة من الجند بصحبة بورو أحد معارضي يوحنا من الأحباش، ونزل في رأس "جيلاجيفو" وقصد بحيرة "أوسا" في الجنوب الشرقي من الحبشة منتظراً باقي جيشه هناك، حيث قابل ابن الشيخ محمد الحدة أمير ذلك الإقليم فتظاهر له بالولاء للحكومة المصرية، فاطمأن له مزنجر واتخذة مرشداً، وبينما هم نيام قرب البحيرة في 15 نوفمبر 1875 هجم عليهم رجال القبائل غيلة بقيادة محمد الحدة وقتلوهم جميعاً بما في ذلك مزنجر نفسه وزوجته، دون أن ينبجو من الجيش سوى 150 مقاتلاً فقط.

- يالها من هزيمة قاسية، لو كنت مكان الخديوي لما لجأت إلى حرب كهذه.

- وتتخلى عن أرضك؟ كل تلك الأراضي أراض مصرية، بالفعل كانت الهزيمة قاسية، أصابت كبرياء الخديوي والحكومة المصرية في مقتل، في وقت كانت فيه في أمس الحاجة لمواردها المالية، لذا تحاملت على نفسها وأرادت تصحيح الخطأ وغسل الإهانة التي ألت بها بإرسال حملة جديدة مكونة من 4 آلاي من البيادة وآلاي من السواري وبطاريتي ميدان نحاس وصلب، وبطاريتي جبل، وبطارية صواريخ، وآلاي بيادة من السودانيين، وخمس فرق من الفارين في جيش بلغ تعداده النهائي 12 ألف مقاتل، تم الاختلاف كثيراً حول من يقوده فنوبار باشا يؤيد إسناد القيادة إلى الغربيين، وشريف باشا وإسماعيل باشا المفتش يؤيدان إسنادها إلى عناصر تركية أو جركسية، خاصة أن محاربة الأحباش لنا استغل فيها الطابع الديني بوصفها حرباً مقدسة بين المسيحيين والمسلمين، وهم شعوب مسيحية

أرثوذكسية لا يخفى عليك تطرفهم، فقد سبق وأن هاجوا كثيراً الإرساليات الكاثوليكية في بلادهم، أسندت القيادة في النهاية إلى السردار راتب باشا الجركسي نسيب شريف باشا وكان قصيراً نحيلاً أديماً شديد السمرة، وعين أحمد ابن أخت إسماعيل المفتش محافظاً لمصوع، خلفاً لأراكيل بك ابن أخي نوبار باشا الذي قتل، ثم سرعان ما انضم الأمير حسن إلى الحملة وكان قصيراً سمياً في الثانية والعشرين من عمره، قد عاد لتوه من ألمانيا في إجازة ليلتحق برئاسة أركان الجيش رغم أنه لم يكن سوى ملازم أول في فرقة الهوسار في ألمانيا، ثم أن الحملة كانت أشبه بسفينة نوح تضم مختلف أجناس الأرض، فبخلاف راتب باشا الجركسي، والجنرال الأمريكي لورنج رئيس الأركان وباقي زملائه من الأمريكان، كان هناك أيضاً ضباط إيطاليون، وغمساويون، ومصريون، وسودانيون.

- من شأن هذا التنوع أن يكثر من المشاكل بين الطرفين.

- وهذا ما حدث، لحظ الجميع استخفاف القيادة بإرشادات أركان الحرب، وبدأت الحملة كما لو كانت نزهة تضم فريقين شرقي وغربي، البعض يخرج للقتل والبعض يلعب الشطرنج، وكل طرف يرفض التعاون مع الطرف الآخر، فكانت الهزيمة حتمية لجيش مثل هذا، بينما على النقيض كان الطرف الآخر مستعداً ومتحمساً، حتى أنه أرسل بعض أسرى الحملة السابقة إلينا في مصوع بعض أن قام بإخصائهم.

- يريد من وراء ذلك إضعاف معنويات الجند.

- بالضبط، على أن الخيانة كانت هي الطامة الكبرى التي قضت على الجيش وضرته في مقتل في النهاية.

- كيف ذلك؟

- كنا أثناء الثلاثة أشهر التي عسكرنا فيها في مصوع قبل بدء القتال، نلاحظ تردد أحد المبشرين الفرنسيين في الحبشة كل يوم على الجنرال الأمريكي لورنج رئيس الأركان، أما السبب فقد ظل خفياً علينا، إلى أن اتضح جلياً، حينما فوجئنا عند بدء القتال في 13 سبتمبر 1876 بجميع الضباط الأوروبيين والأمريكان يلقون طرايبشهم الرسمية على أرض القتال، ويرتدون قبعات رعاة البقر الأمريكان، ويربطون حول أعناقهم مناديل بيضاء، كإشارة خفية تميزهم عن غيرهم من جنودنا، وتحفظهم من حراب الأحباش عند التلاحم في القتال، وهو ما حدث فقد أخذ عساكر يوحنا يضربون حرايم المدببة في عساكرنا المتعبة، إلا من كان منا على رأسه قبعة، أو حول عنقه منديل أبيض، أما من أسرع يركض بجواده للهرب، فكان مثل راتب باشا، أو مثل الأمير حسن ابن الخديوي الذي هرب مع الجنرال الأمريكي رئيس الأركان، بعد أن تسبب بخيائته لنا في الهزيمة والخذلان.

كادت اللقمة التي أمضغها أن تسد حلقي حين وصل إلى تلك النقطة، فاعتراي الهمة واكتراي الكدر فجأة وقلت له بصوت هادئ: أنت ذكرتني بموقف مشابه، حين أرسل الخديوي حملة على جنوب الصومال بقيادة ماكيلوب باشا، كان على غوردون باشا حكمدار مديريةية خط الاستواء الإنجليزي أن يتحرك بنا إليه شرقاً لنتم فتح هذه الجهات، لكنه لم يحرك ساكناً فبدا كما لو أن الأوامر جاءتة بعدم التحرك، وما هي إلا شهور وعلمنا بانسحاب ماكيلوب باشا وحملة بعد احتجاج إنجلترا، ثم إن هذا لم يكن الموقف الوحيد، فلما طلب متيسا ملك أوغندا من جنود أقرب محطتنا وقلاعنا إلى حدوده أن يقيموا محطتهم في بلاده، أحسست بضيقه وعدم رضاه ورغبته في الاستجابة لطلب الحماية المصرية. (27)

ابتسم أحمد عرابي في سخرية وقال بمرارة: كيف تنتظر من الأمريكي والإنجليزي والفرنسي بل وحتى التركي والشركسي أن يحب وطنك مثلما تحبه، أو أن يدافع عنه باستماتة إن تعرض لهجوم مثلما ستدافع عنه أنت؟
تهتدت ووافقته على قوله، ثم قلت له اسمع: هل أدبت مهمتك هنا؟
- بإمكانك أن تقول هذا، فمهمتي الأساسية أن أصل هؤلاء الجنود إلى الخرطوم.

- سترافقني إذن إلى القاهرة، لدي سفينة سنبحر بها في الصباح الباكر.
- حسناً، ذلك وقت كاف لأقابل الحكمدار وأهني مهمتي هنا.
- نتقابل إذن في السادسة صباحاً في نفس المكان.
- اتفقنا.

رافقني أحمد عرابي في رحلتي النهرية إلى القاهرة التي استمرت عشرين يوماً، لم أشعر بالملل فيها أبداً، فقد جمعت الصداقة بين قلوبنا وآخت بيننا هذه الأيام، وطوال تلك المدة عرف قصتي، وعرفت قصته، وكم المظالم التي تعرض لها على يد الضباط الأتراك، والجراكسة، والألبان الأرناؤوط، فقط لأنه أول مصري ينال رتبة قائم مقام في زمن سعيد باشا، ومن الخديوي إسماعيل لأنه اعتبره من رجال سلفه ومن المقربين منه، رغم العرضحالات التي قدمها مراراً وطلب فيها إنصافه، ورفع الظلم عنه دون فائدة ترجى، كان ساخطاً على العناصر الأجنبية في الجيش وشديد الإيمان بأحقية الضباط المصريين والسودانيين في الترقى، وحين وصلنا سلمنا على بعضنا البعض وتبادلنا العناوين على وعد باللقاء.

- 17 -

بعد انتهاء السنوات الخمس العجاف التي حظر على الخديوي فيها عقد قروض جديدة بموجب فرمان عثمانى في أعقاب احتفالات قناة السويس، ثم صدور فرمان جديد يبيح الاستقلال المالي لمصر ويعطيها من جديد الحق في عقد القروض دون الرجوع إلى الآستانة، وفور الانتهاء من أفراح الأمراء التي تكلفت مبالغ طائلة، علم المصريون أن حكومتهم في هذا العام اقترضت أكبر قرض في تاريخها من الخارج، وكان يبدو أن إسماعيل المفتش والخديوي إسماعيل يريان في هذا القرض الضخم الوسيلة الوحيدة للخروج من مأزق تفاقم الديون، واضطرار المالية المصرية إلى دفع فوائد قدرها 14% على مبلغ الدين السائر، علاوة على دفع فوائد الديون الثابتة كل عام (28) وذلك باستخدام قيمة القرض الجديد في دفع الديون السائرة، ومن ثم تحويل الدين السائر إلى دين ثابت معلومة فائدته ومحددة أوقات دفعه.

بلغت قيمة القرض الإسمية 32 مليون جنيه من بنك أوبنهايم الإنجليزي، تسدد على 30 سنة بفائدة قدرها 7%، دخل الخزانة من القرض أقل من 21 مليون بعد خصم النفقات والسمسرة والخصومات، ثم أن الحكومة المصرية لم تسلم المبلغ نقداً، وإنما تسلمت فقط 12 مليوناً

مجزأة على أربع دفعات، وأما التسعة ملايين الأخرى فجعلت سندات للخزانة المصرية.

دخل المنافسة على عقد هذا القرض الضخم أحد البنوك الفرنسية بشروط أفضل من شروط البنك الإنجليزي، فلما أعلم إسماعيل المفتش مندوب البنك الإنجليزي بذلك، بوغت بوقاحة رد فعل المندوب الإنجليزي الذي هددته باستعلاء قائلاً "إن ما للملأ من ثقة بمالكك إنما هو تحت رحمتنا، فإن عدلت عن الاتفاق معنا، هدمنا تلك الثقة وحلنا دون أن يهب أحد لمساعدتكم بنس واحد"، ولما كان المندوب اليهودي الذي أرسله البنك الإنجليزي لعقد الاتفاق مع الحكومة المصرية يعلم الخوف الذي بات عليه الوزير المصري، ومدى تحبط المالية المصرية في الآونة الأخيرة تركه وخرج وهو على ثقة أنه سيدعوه في الغد للتوقيع على العقد، وهو ما حدث!

وقد رهن لسداد هذا القرض إيرادات السكك الحديدية وقدرها 750 ألف جنيه في السنة، والضرائب الشخصية والضرائب الغير مقررة وقدرها مليون جنيه، وعوائد الملح وقدرها 200 ألف جنيه، ومليون جنيه من ضريبة المقابلة، وكل الموارد المخصصة للقروض السابقة متى أصبحت حرة، وقد كانت أغلب تلك المرهونات إما مرهونات في قروض سابقة، أو ضرائب ألغيت لم يعد لها وجود أصلاً، أو واردات لم يكن بالإمكان الاعتماد عليها لأداء استحقاقات القرض، ورغم كل ذلك لم يستغل القرض في تحويل الدين السائر إلى دين ثابت كما كان المخطط، إنما امتدت يد الخديوي إليه في رحلته إلى الآستانة، إذ لم يكن يليق به أن يسافر إلى هناك دون أن يكون لديه معين من المال.

وفي 13 يناير 1874 لم تدفع الحوالات التركية مستحقة الدفع للبنوك البريطانية الدائنة، فاهتز السوق المالي واضطربت المعاملات، وجرت

التكهّنات في الأسواق العالمية حول مصير ممائل في مصر، حتى أن الخديوي لما أراد أن يكمل تحديثاته المستمرة وكان يدرس إمكانية حفر ترعة تسير من مصر الوسطى شمالاً بمحاذاة سلسلة جبال البحر الأحمر ثم تجتاز القاهرة في تجاريف المقطم الوسطى بما يمكنه من إنشاء جملة من الشلالات يستطيع استخدام قوة دفع المياه عندها في تحريك آلات عدد من المصانع الجديدة، ويزرع بواسطتها أراضي جديدة، لم يتمكن من إيجاد مالىين لتنفيذ مشروعه، ثم أنه أراد إيجاد وزارة جديدة في حكومته هي وزارة التجارة، خاصة بعد اتساع أراضي الدولة المصرية فأرسل إلى بريطانيا يطلب منها إيفاد موظفين من ذوي الخبرة لمساعدته في مسعاه ففعلت، ولما كانت الحلقة تضيق باستمرار على رقبة إسماعيل المفتش ورقبة المالية المصرية، وكانت الأملاك الخديوية مشتبكة بصعوبات الخزانة المصرية ومهددة بما يهددها، لدرجة اضطرت الخديوي معها أن يعقد في سنة 1870 قرضاً بضمان ممتلكاته من مصانع السكر و100 ألف فدان من أطيانه الخاصة، أشار إسماعيل المفتش على الخديوي ألا يبقى اسمه على شيء من ممتلكاته باستثناء ما سبق رهنه، فامثل الخديوي لنصيحة وزيره وأنشأ دائرة جديدة سماها "دائرة الأمراء" وكلف قاضي القضاة، ومفتي الديار، ورجال الشرع، وقضاة المحاكم بنقل أملاكه لزوجاته وأبنائه طوال شهرين كاملين شغلت فيهما المحاكم الشرعية بهذا الأمر.

ولما ظهرت الحاجة ملحة من جديد للمزيد من المال لجأ المفتش إلى استثمار أموال مصلحة الرزنامة (المعاشات) بفوائد 9% لم يدفع منها سوى جزء من فوائد السنة الأولى فقط، وقيل أن تنقضي السنة لجأ إلى الاستيلاء على ما في خزائن بيت المال والأوقاف الخيرية من الأموال المودعة لحساب الأيتام وخلافه، ورغم كل هذا الجهد الجهيد في البحث

عن أي مصدر للمال لم تفلح الحكومة في الخروج من ورطتها وباتت لا تقدر على توفير رواتب الموظفين، ومعاشات المسنين، ومطلوبات التجار، والمقاولين، وفي فبراير 1875 لجأت إلى الاستدانة من المرابين الأجانب من جديد بفوائد 12% ازداد معها الدين السائر تضخماً.

وفي 5 نوفمبر 1875 أعلن الصدر الأعظم محمود نديم باشا إفلاس تركيا وعجزها عن سداد القروض، فاضطربت الأحوال وهبط الجنيه التركي وتبعه الجنيه المصري وتأثرت مصر بذلك الهبوط كثيراً، وسعت الحكومة المصرية عبر الصحافة البريطانية للتأكيد على لسان كل من خدمها من أمثال صمويل بيكر، وفولر المهندس البريطاني الاستشاري أن اقتصادها قوي ومنفصل عن الاقتصاد العثماني لطمأنة المالكين والمرابين ورجال الأعمال، وكان دخل الدولة العثمانية قبل إفلاسها بثماني سنوات 380 مليون فرنك، يقطع منه 300 مليون فرنك أقساط للضرائب، ويتبقى 80 مليوناً فقط لكافة مصاريف الدولة، فتزامن إفلاسها ومحاولة دفع مصر لمخاوف المالكين من إفلاسها أيضاً مع نشوب الثورات على الحكم العثماني في البوسنة والهرسك بمساعدة الروس والصرب، ومطالبة السلطان العثماني الدعم من الخديوي بنجدة من الجيش المصري، فأرسل له الأخير قوة من سبعة آلاف مقاتل، كلّفوا الخزانة المصرية المزيد من الأعباء فساءت الأحوال في مصر لدرجة لم يعد لدى الحكومة المصرية من أوراق أخرى للعب سوى ورقة أخيرة، هي قناة السويس.

وظلت الأخبار السيئة تتوالى من الآستانة، وصارت الكثير من الصحف العالمية تنبأ السيء في مقابلة السلطان العثماني للجنرال الروسي اجناتيف،

وعلق آخرون على ما قد يحدث على الحدود الفاصلة بين تركيا والنمسا
من توترات، واهتم الجميع بخطبة رئيس الوزراء البريطاني وفيها تحدث عن
المصائب التي قد تجرّها نكبة تركيا المالية.

ذهب نوبار باشا إلى زيارة إسماعيل صديق المفتش فوجده في همه كمن
بلغ من العمر عتياً، حتى أنه لم يقو على النهوض للترحيب به في مدخل
قصره مثلما كان يفعل دوماً واكتفى بالجلوس في الصالون حزناً شاردأً،
حتى اقترب ضيفه منه.

- كيف حالك إسماعيل باشا؟

- نوبار باشا؟ متى جئت؟

- لتوي، نادتك الخادمة مرات لكنك كنت شاردأً.

لم يعقب المفتش وعاد إلى صمته فقال له نوبار: جئت لأطمئن منك
على الحالة المالية للبلاد، هل لإفلاس تركيا مضار علينا مثلما يتوقع بعض
المالين؟

- اقتصادنا غير مرتبط كثيراً بالاقتصاد العثماني ليكون التأثير مباشراً،
لكننا نضررنا لاشك من أخبار إفلاسها، بخلاف ما نواجهه من مشاكل من
اليداية.

- ماذا تقصد؟

التفت المفتش إلى صديقه بعيون زائغة وقال بصوت متهدج: لم يعد
لدينا في الخزانة من النقود إلا ما يكفي لسداد احتياجات بضعة أيام فقط.
هت نوبار وصعق للرد الذي لم يتوقعه وقال جزعاً: حقاً؟ وهل أعلمت
الخدوي بذلك؟

- ليس بعد، لا أدري كيف أخبره بذلك.

فقال نوبار بعصية: ذلك عذر أقبح من ذنب يا إسماعيل، علينا أن نجد حلاً لتلك المصيبة.

بإدله المفتش عصية بعصية قائلاً: ذلك ما أحاول فعله، إيجاد حل.

- وهل لديك أية أفكار؟

- لم يعد لدينا إلا حل واحد، إصدار سندات بضمان أسهم قناة السويس، أنا اتفاوض مع البنك الإنجليزي المصري بهذا الخصوص.

- المزيد من الدين السائر؟

- ليس لدينا بديل، وعلى كل أنا طالبتهم بتحويل تلك السندات إلى قرض حالما تفرغ من تسديد قرض 1864.

- وبعد؟

- المفاوضات طالت كثيراً ولم يأتي ردي.

- وماذا سنفعل إن لم يوافقوا ويأتونا بمعين فوري من المال؟

- حينها لن يعود لدينا إلا خياران، الخيار الأول أن نفعل مثلما فعل العثمانيون ونشهر إفلاسنا، وإن كنت لا أحبذ تلك الخطوة لأن موقفهم إزاء إفلاس الباب العالي لن يكون مماثلاً لموقفهم إزاء إفلاسنا، المقتضيات السياسية لديهم تقتضي مراعاة المالية العثمانية مراعاة خاصة لا أظنها موجودة في الحالة المصرية، أطماع الروس والإنجليز والفرنسيين القديمة في أملاك العثمانيين جعلتهم يقررون إطالة عمرها على ضعفها أطول فترة ممكنة تجنباً للصراع حول تقسيم إرثها.

- والخيار الثاني؟

- أن يتقدم الخديوي بنفسه إلى طلب مراقبة أوربية على ماليته خاصة بعد حملات التشكيك القوية هذه لإثبات استقامة الحكومة وحسن نيتها في تسديد ما عليها، ربما تدرأ مثل هذه الخطوة أية شبهة، وتوجد شيئاً من الطمأنينة لتباحث من خلالها في إعادة هيكلة للديون.

- قم يا باشا، ارتد معطفك وهلم بنا إلى السراي، لا بد من وضع الخديوي في الصورة والتباحث معاً في الأمر من كل جوانبه.

"أخي العزيز أندريه درفيو

بلغنا أن الحالة المالية في مصر تسير من سيء إلى أسوأ، وأنها رهنت في سبيل القروض المتلاحقة أغلب مصادر دخلها، وأن المصريين بحاجة فورية إلى معين من المال، لذا اترك الإسكندرية فوراً واتجه إلى القاهرة واطلب مقابلة الخديوي مثلاً لبنكنا واعرض عليه فكرة بيع أسهم مصر في قناة السويس، وبالطبع راع أن تكون مباحثاتك سرية.

أخوك إدوارد درفيو

5 نوفمبر 1875"

"أخي العزيز إدوارد

ذهبت إلى القاهرة، وقابلت وزير المالية إسماعيل باشا صديق وعرضت عليه الفكرة، فأحسست أنه ارتاح لها، وأبدى شيئاً من القبول الحسن يوحى بإمكانية إنعام الصفقة، ووعد بعرض الأمر على الخديوي في أقرب فرصة، وإعلامي برده.

أندريه درفيو

11 نوفمبر 1875

"عزيزي إدوارد"

قابلت اليوم الخديوي فرحب بالبيع، وعلمت أنهم بحاجة إلى 100 مليون فرنك لكنني اتفقت معه على البيع مقابل 92 مليون فرنك فقبل، آمل أن تتمكن من جمع وتأمين المبلغ المطلوب في أقرب فرصة.

أندريه درفيو

12 نوفمبر 1875

"عزيزي أندريه"

أقوم هذه الأيام بمباحثات شاقة مع رجال المال في باريس، لتوفير المبلغ المطلوب، وقد اقتربت من إنجازه، سأرسله لك في حوالة سريعة في غضون أيام فلا تقلق.

إدوارد درفيو

13 نوفمبر 1875

"عزيزي إدوارد"

اكتشفت اليوم أن الحكومة المصرية كانت مدينة لشركة قناة السويس بعدة ملايين من الفرنكات تعهدت بأدائها من خلال التنازل عن أرباح أسهمها مدة خمسة وعشرين سنة تنتهي في سنة 1894، فاقترحت في المقابل على الخديوي أن يدفع فائدة سنوية مقدارها 12% يعوض علينا الحرمان من الربح، لكنه لم يقبل إلا بفائدة قدرها 8% بضمان إيراد جمرك بورسعيد، وترك لنا خيار القبول في خلال 48 ساعة.

أندريه درفيو

14 نوفمبر 1875"

"عزيزي أندريه

هل يمكن إطالة مد أجل الخيار ثلاثة أيام أخرى تنتهي في 19 نوفمبر؟
لازلت أجد بعض الصعوبات في إقناع رجال المال هنا.

إدوارد درفيو

15 نوفمبر 1875"

"قنصلنا العزيز الميجور جنرال ستانتون

علمت حكومة جلالة الملكة أن نقابة من المالين الفرنسيين عرضت
على الخديوي شراء أسهمه في قناة السويس، وأن الصعوبات المالية التي
تكتنف سموه تجعل قبوله في حيز الإمكان، فالمرجو أن تتحققوا من صحة
هذا النبأ.

اللورد دربي

وزير خارجية إنجلترا

16 نوفمبر 1875"

"مستر دربي

فور ورود رسالتكم صبيحة يوم الثلاثاء 16 نوفمبر، توجهت لفوري
إلى وزير الخارجية نوبار باشا وطلبت مقابلته على وجه السرعة، وسألته
عن حقيقة الأمر فأكد المعلومات التي لديكم، فأبدت له دهشتي من أن
الحكومة المصرية لم تكشف حكومة إنجلترا بنأ هذه الصفقة، وأن تنازل
الخديوي عن أسهمه في الشركة لا يمكن أن تقابله إنجلترا بعدم الاهتمام،
وأنه إذا كان الخديوي راغباً حقاً في البيع فمن المحقق أن إنجلترا ستعرض

عليه أعلى ثمن، وكان رده أن الحكومة المصرية بحاجة إلى أربعة ملايين من الجنيهات بما يعادل 100.75 مليون فرنك، ولكن ليس ثمة ما يضطرها لبيع هذه الأسهم من أجل الحصول على هذا المبلغ، ويكفي أن تقرضها البنوك قيمته بضمانة الأسهم المذكورة، وقد قابلت الخديوي في اليوم نفسه وطلبت منه وقف المفاوضات مع بيوت المال الفرنسية إلى أن أتلقى رأي الحكومة الإنجليزية، فوعدني بوقف المفاوضات 48 ساعة تنتهي يوم الخميس 18 نوفمبر.

ستانتون

16 نوفمبر 1875*

"مستر دري"

قابلت اليوم نوبار باشا ثانية، ولمست في الحديث تغيراً وجدت أنه من المهم أن أفضي إليكم به، إذ علمت شدة اضطراب الحكومة المصرية إلى المبلغ المطلوب لتدفع السندات المستحقة عليها في ديسمبر المقبل، ورأيت لديه ميلاً إلى إثارة بيع الأسهم على رهنها، فبدأ لي أنهم اقتنعوا أن الأسهم حتماً مآلها إلى الضياع في حالة الرهن، لذلك فضلوا البيع.

ستانتون

17 نوفمبر 1875*

"جنرال ستانتون"

اهتم رئيس الوزراء بنفسه لورد بيكنسفيلد بنجامين دزرائيلي بالأمر، ولأن الوقت لا يسمح بتأجيل الصفقة أو انتظار عقد البرلمان فقد بادر مشكوراً بالاتفاق مع البارون روتشيلد على أن يدفع المبلغ المطلوب عن

الحكومة الإنجليزية مقابل فائدة يتم الاتفاق عليها، وعليه أبلغ الخديوي قبول حكومة جلالة الملكة شراء الأسهم المصرية بشروط معقولة.

ديري

18 نوفمبر 1875"

"مستر دييري

عرضت على الخديوي قبولنا بالشراء لكنه اعتذر عن القبول، قائلاً إنه ينبغي تحويل الديون السائرة إلى دين ثابت، وأنه في حاجة إلى تقديم هذه الأسهم ضماناً لهذا التحويل، على أنه إذا عدل عن رأيه وآثر البيع فإنه يفضل الحكومة الإنجليزية على سواها.

ستانتون

18 نوفمبر 1875"

"مسيو دي كاز وزير خارجية الحكومة الفرنسية المحترم.

علمت من أصدقاء لي أن بنك درفيو يسعى لشراء أسهم الحكومة المصرية في قناة السويس، وقابلت أعضاء من الحكومة المصرية لشراء الأسهم لكنني لم أتمكن من جمع المبلغ المطلوب، ثم علمت أن الحكومة البريطانية وبدعم من البارون روتشيلد تنافس أيضاً في عملية الشراء هذه، أتمنى أن تستخدم نفوذك لإتمام الصفقة لصالح البنك الفرنسي، أو الحكومة الفرنسية لما فيها من الخير المضمون للوطن، ولحساسية زيادة النفوذ البريطاني في مصر وفي القناة على السياسة الفرنسية في هذه المنطقة من العالم.

المخلص فرديناند ديليس

18 نوفمبر 1875"

"عزيزي إدوارد

علمت أن الحكومة الإنجليزية تسعى إلى شراء الأسهم، فعرضت على الخديوي قرضا بقيمة 85 مليون فرنك بضمان الأسهم، على أن تصبح ملكاً للمقرضين إذا لم ترد قيمتها في ثلاثة أشهر، وحررت معه في ذلك عقدا ابتدائيا، أنتظر جمعكم للمبلغ المطلوب.

أندريه درفيو

18 نوفمبر 1875"

"مستر ديربي

أخبرني نوبار باشا اليوم أن الخديوي يقبل البيع بالمبلغ المذكور.

ستانتون

23 نوفمبر 1875"

"ميجور جنرال ستانتون

أبلغ الخديوي أن الحكومة البريطانية ستشتري الأسهم المصرية مقابل 100 مليون فرنك يتعهد بنك روتشيلد بأداء 25 مليون فرنك في أول ديسمبر والباقي خلال شهر ديسمبر ويناير، في مقابل التزام الحكومة المصرية بأداء فائدة سنوية قدرها 5% عن قيمة الثمن مقابل حرمان الحكومة الإنجليزية من أرباح الشركة حتى عام 1894، وبشرط ألا يتم الدفع إلا بعد تسليم الأسهم.

ديربي

23 نوفمبر 1875"

"مستر ديربي."

أبلغتهم شروط الحكومة الإنجليزية، وتم قبولها وتحرير عقد البيع بتاريخ
25 نوفمبر 1875

ستانتون"

في صباح يوم 26 نوفمبر 1875 اصطحب إسماعيل باشا المفتش سبعة
صناديق كبيرة في عدد من العربات وسط حراسة الجيش قاطعاً شوارع
القاهرة إلى مبنى القنصلية البريطانية، وكانت تحوي الأسهم المصرية في
شركة قناة السويس محتومة بأختامه، وأختام القنصلية البريطانية، ومحكمة
القنصلية البريطانية، وكان في مقابلته القنصل البريطاني الجنرال ستانتون
مبتهجاً بما أذاه لوطنه من خدمة، حيث دعاه لشرب احتفالي بإتمام الصفقة
فاعتذر إسماعيل باشا متعللاً بأشغاله، وفي أوائل ديسمبر أصدرت البحرية
الملكية البريطانية أوامرها إلى الباخرة الإنجليزية ملابار **Malabar** أن
توجه إلى الإسكندرية قادمة من الهند، وما إن وصلتها في منتصف الشهر،
وعلم الجنرال ستانتون بوصولها حتى استقل قطاراً خاصاً من القاهرة إلى
الإسكندرية وحمل معه الأسهم محفوظة في أربعة صناديق مصفحة بالزنك
تحت الحراسة، حيث نقلت إلى الباخرة التي أقلعت رأساً إلى "بورتسموث"،
فبلغتها يوم 31 ديسمبر، وفي 1 يناير 1876 جاء موظف من الخزانة
البريطانية وتسلم الصناديق من قبطان الباخرة حيث باتت الأسهم ليلتها
هذه في بنك إنجلترا.

وقد أذاعت الصحف العالمية نبأ الصفقة فقبولت في فرنسا بالألم
والاستياء، واعتبرت هزيمة للسياسة الفرنسية التي اضطرت للتنازل عن

الصفقة للإنجليز لحاجتها إليهم بعد خروجها مهزومة من الحرب السبعينية التي تمخضت من خلالها ألمانيا (بروسيا) قوة جديدة لا تفتأ على توعد فرنسا بالحرب وتبغي الغارة عليها لتحول دون استعدادها لدورها وعافيتها، وقابلتها ألمانيا بالسرور لأنها وجدت فيها سبباً لفتور العلاقات الفرنسية البريطانية، واستاءت منها روسيا التي وجدت فيها خطوة كبيرة خطتها بريطانيا لتحقيق أطماعها في المنطقة، أما في مصر فلم يكن هناك بلد حالته أسوأ منها.

وتوالى المقالات والتحليلات وكتب المسير شارل مازاد في مجلة العالمين **Revue des Deux Mondes** الفرنسية في 1 ديسمبر 1875 يقول " إن هذا العمل سياسي محض، وهنا وجه الخطر فيه، فإذا لم يكن في ذاته احتلالاً لمصر، فإنه الخطوة الأولى لهذا الاحتلال، والآن وقد أصبح لإنجلترا عميل يحتاج إلى أن تعطيه 100 مليون فرنك لتسديد ديونه، فهي لن تتركه وشأنه، بل تراقب ماليته، وتقرضه وتبذل له المال من جديد، وستطلب منه بالطبع ضمانات وتأمينات أخرى، وهكذا بعد أن كانت إنجلترا تعارض في إنشاء القناة تحولت سياستها إلى العمل لامتلاكها"

أحمد

خطوط خطواتي في شوارع القاهرة كغريب ضل طريقه وغاب عن وطنه عشرات الأعوام، كان شوقي بالغاً لشوارع القاهرة ومساجدها وحواريها، راعني الحدائث التي زحفت في ربوع العاصمة طوال فترة غيابي، شاهدت المسارح، والمقاهي، ومكاتب رهانات سباقات الخيول في العباسية، ومحال البقالة يتوسطها اليونانيون ينقدهم فيها الأهالي بالأجل وعلى النوتة، شاهدت نسوة أرمنيات، وشابن يهوديين يعبران الطريق، وموظفين مصريين،

ورجالاً أوروبيين يتبعهم خدم نوبيون، شاهدت نسوة ترتدي اليشمك،
وأحد الخبثاء يتابع كعب إحداهن الملتصع بخلخال ذي رنين منتظم، اتجهت
إلى القاهرة القديمة ومنها إلى الغورية، بخاناتها القديمة وصحونها ومساجدها
وأسبلتها، وما إن خطوت بضعة خطوات حتى اشتممت رائحة التوابل
النافذة، وبخورها الطيب السابح في فضاءها، شاهدت بائعي العرقسوس
يضربون بالطارات في ضجة غابت عن مسامعي كثيراً، شاهدت أحد
الجمالين يحمل ثمار البطيخ على ظهر جملة وينادي لبييعها، شاهدت بائعي
أقمشة الكتان والصوف والموسلين والكاليكو والحرير.

ما أحلى الرجوع إلى الوطن، اتخذت سبيلي مهرولاً إلى البيت كي لا
يلحظني أحد الأهالي قبل أمي وإخوتي، وكأني أود لو احتفظت لهم بتلك
اللحظة، طرقت الباب ففتحت أمي الباب، وكان الكبر قد نال منها وسبح
الشيب على رأسها، فتوقفت بغتة مصدومة وكأنها تسأل نفسها: أهو هو؟

- أمي، وحشتيني يا أمي.

- أحمد .. ابني .. حبيبي.

تلقفتني في حضنها وصارت تقبل وجنتي، وجبهتي، وعيني، وكل ما
تصل شفاهها إليه.

- خالي أحمد جيه.

صاح بها أحد الأطفال الصغار.

- ده محمود ابن سعيد وزينب؟

- أيوة، تعالى يا محمود سلم على خالك.

أتاني الطفل الصغير ومد لي كفه الصغير فرفعته وقبلته ولاعبته.

- اجري يا محمود، انده خالك حسن وقل له بيعت لأبوك وأمك.

- حاضر يا نينه.

أنزلت الطفل الصغير أرضاً، فهرول على السلم يكاد يتعثر في جلبابه مسابقاً الريح لإبلاغ رسالة جدته، وما هي إلا دقائق حتى اجتمع شملنا من جديد، فقد أتى حسن وبصحبه زوجته توحيدة، وأتى كل من سعيد وزينب وكانت فرحتهم جميعاً بي لا توصف، في هذه الليلة وزع سعيد شربات رجوعي في الحارة على الأهل والأحباب، الذين توافدوا تبعاً بعد الغداء الفخيم الذي أعدته الوالدة وساعدتها فيه كل من زينب وتوحيدة العروس الجديدة التي لم تعد جديدة، قصت لي زينب بعضاً من أخبار أهل الحارة وطرائفهم ولما أتت على ذكر "بدرية" وكانت تسميها "العايقة" نظرت إلى سعيد بطرف عينيها فضحكنا كثيراً لأنها لازالت تذكر مشاغلها القديمة له قبل زواجهما.

وفي المساء اجتمعنا من جديد للسمر والتضاحك، وكانوا كثيراً ما يعلقون ضاحكين على السمرة التي أصبحت عليها، قبل أن تنهض أمني وتوحيدة وزينب لغسيل الصحون، ويتركن الرجال لمجلسهم على الأريكة في سطوح البيت، المطل على المآذن السامقة، تحت ضياء القمر.

- لكم كنت مشتاقاً لمثل هذه الجلسة.

- المرء لا يشعر بجمال ما بين يديه إلا حين يحرم منه، وأنت حرمت من الكثير طوال السنين الماضية.

سألني سعيد عما أنويه فأجبته أني في إجازة ثلاثة أشهر، سأسلم نفسي بعدها إلى مقر القيادة في نظارة الحرية، فسر لسماح ذلك.

وسألتهم عن حال البلاد فأجابوني أن حالها من سيء إلى أسوأ، وأن البلاد توقفت عن دفع قروضها وأنها مضطرة رغم ذلك إلى الدخول في حرب جديدة قد يدعى إليها سعيد.

- أي حرب تلك؟

أجابني سعيد بأن الثورات نشبت من جديد في البلقان على حدود الصرب، وأن الدولة العثمانية عاجزة عن إخمادها، فطلبت من الخديوي إمدادها بنجدة، فأعد قوة جديدة من سبعة آلاف مقاتل بقيادة الفريق راشد باشا حسني، أحد زملائه في حرب كريت.

- عد إلينا سالمًا يا سعيد.

- بمشيئة الله يا أحمد، قدرنا هكذا، أن تأتي أنت، وأن أذهب أنا، على الأقل قابلتك بعد طول غياب، قبل أن أسافر.

- ياذن الله لن تتأخر، هذه المرة.

- كله بمشيئته.

سألتهم: هل من أخبار عن الأميرة فاطمة؟

فابتسما كليهما ونظرا إلى بعضهما البعض، وقال سعيد: هل لازلت تحبها حقًا يا أحمد؟

- وهل هذا سؤال يا سعيد؟ بالطبع أحبها، وما غربي طوال تلك السنوات إلا لأجل هذا الحب.

- وهل تظن أنها لازالت على حبها؟

فصمت قليلاً وشردت ببصري وقلت: ذلك أمر لا أملك نفيه أو تأكيده.

أراد حسن أن يخفف عني وطأة سؤال سعيد فقال: حاول إذن يا أحمد، واذهب إليها، افعل ما تأخر ست سنوات، أظنك في كلتا الحالتين سواء استجابت لك أم لم تستجب ستكون رابحاً، لا بد لك من أن تستعيد حياتك التي توقفت عند هذا الأمر.

فوافقه سعيد على رأيه.

في الصباح ارتديت سترة عسكرية تشريفاتية حمراء موشاة بالقصب، وسروالاً أبيض نظيفاً، وخرجت حليق الذقن، متعطراً، واثق الخطى، هادئ الأسارير والقسمات، لأركب إحدى العربات وأمر حوذيها أن يقلني إلى قصر الأميرة فاطمة في الدقي، وكان حسن هو الذي أعلمني بإقامتها هناك هذه الأيام، يكاد قلبي أن يرفرف بجناحيه من السعادة، غير أنني ما إن اقتربت من القصر وهبطت من العربة ونقذت الحوذي أجره حتى كاد قلبي أن يقفز من صدري انفعالاً، مضيت في طريقي إلى البوابة الحديدية وأخبرت الحارس أنني أود مقابلة الأميرة فصحبني في طريق متعرج، تحيط به الزهور من كل جانب، داخل حديقة مزدهرة يانعة، وجعلت أحدث نفسي " ينبغي أن أحفظ بهدوني! مثل هذا الانفعال والتوتر الذي أشعر به ليس ثمة ما يدعو إليه! لماذا أوتر نفسي فمثل ذلك حماقة؟"، على أنني كنت كلما زجرت قلبي المتلاحق الحفقات، تعالت خفقاته وازدادت شدة، وهتت أنفاسي في محاولة لأن تجاريه.

ولما أشرفنا على غاية الحديقة، وانبسبت الأرض أمام البصر مزينة بنافورة رخامية جميلة تحتل موضعها أمام المدخل، سرعان ما نحت عيني فاطمة في الشرفة تتناول فطورها دون أن تلحظني، رأيتها بقلبي قبل أن

أراها بعيني، أدركت أنها هناك من فرط الاضطراب والذعر الذي تملك قلبي فجأة، وخشيت أن أبدية أمام الحارس الذي صحبني إلى بوابة خشبية مزخرفة من الزان، طرقها فظهرت من خلفها جارية قال لها وهو يشير إلي: أحمد بك، يود مقابلة سمو الأميرة.

ظلت الجارية في مكانها وعيناها حائرتان فقلت لها: فقط عرفني لسمو الأميرة بوصفي صديق قديم.

مضت الجارية إلى سيدتها تخبرها بالقادم، بينما وقفت ملاصقاً لباب القصر كي لا ترائي من شرفتها، حتى أذنت لي الجارية بالدخول ودعتني إلى الجلوس في صالون واسع، وأعلمتني أن سمو الأميرة ستقابلني في الحال.

طفت في البهو الداخلي للقصر، أجيل عيني فيه حتى توقفت أمام صورة زيتية بديعة رسمت لفاطمة، اقتربت منها وجرفني الشوق لأن أركز في تفاصيلها، فلم أدر بفاطمة إلا وهي خلفي قد هبطت إلى صالون الاستقبال وتتمتم داهشة: أحمد؟!!

التفت إليها فإذا هي قد ازدادت جمالاً على جمالها، ولا يشوه وجهها العذب إلا هالة رمادية تكاد تكون غير ملحوظة حول عينيها من أثر اضطراب النوم، وربما البكاء.

- كيف حالك سمو الأميرة؟

- ما الذي تفعله هنا؟

علت وجهي ابتسامة، ومددت يدي مصافحاً وأنا أقول: جئت لأراك.

أحسست بانفعالها، وخفقان قلبها، واضطراب خوارطها وأفكارها وقد أثبت أن تستقر على شيء، كان صدرها يعلو ويهبط، وقلبها ينبض بعنف

وبشدة، مثلما نبض من قبل بعد رقصتنا في الإسماعيلية، نظرت إلى يدي الممدودة، ورفعت أصابعها المرتعشة إلى جبهتها، وكأنها تلح على أفكارها أن تهدأ، ثم سرعان ما قالت بصوت متهدج، وهي تغالب دمعاً فياضاً لم تتمكن من كبحه: أين كنت؟! لقد بحثت عنك في كل مكان، لقد تركتني دون مقدمات وها أنت تظهر في حياتي مجدداً فجأة ودون مقدمات!

أشفقت عليها، وتأثرت بدمعها، وخطوت خطوة إليها فتراجعت أخرى، وأنا أقول: صدقيني لم يكن الأمر بيدي، لقد حال بيني وبينك ما هو عظيم.

أردفت وكأنها لم تسمعي: لقد سألت عنك زملاءك، وكل من يعرفك فلم أوفق إليك، أجلت زواجي من الأمير طوسون ثلاث سنوات، لعلني أتمكن من الوصول إليك، لكنك خذلتني.

- أرجوك، هوني على نفسك، ولا تسيئي بي الظنون، لطالما أحبيتك، وأخلصت لحبك، لقد تم إرسالني إلى الحرب في إفريقيا، ولم أرجع إلا الباردة فقط.

كفكفت دمعها وجلست على أقرب المقاعد وهي تقول: يا إلهي، لم تعد إلا بعد سماعك خبر وفاة الأمير طوسون أليس كذلك؟ كيف تفعل بي هذا؟

قلت متأثراً: تذكرني ما كان بيننا من بهجة وحنين، ولا تظني أنني عشت حياتي بسعادة وهناء، لقد عذبت طوال تلك السنوات عذاباً يفوق قدرة البشر على احتماله، أجبرت على السفر، وهجران حبك، وهجران أهلي، تعرضت للظلم والنفي والمخاطر في بلاد بعيدة.

نظرت إليّ بعينين صافيتين كانت قد عاودت السيطرة عليهما، وقالت بصوت هادئ: إن كنت تظن أنه بالإمكان أن أعود إليك من جديد، فعفواً هذا غير ممكن.

كان ردها عفيف الأثر على نفسي، فمنذ لحظة واحدة شعرت أن وجودي غزا كيافها كله، وترك لديها مشاعر متباينة قوية بين الحنين وآلام الاشتياق، على أني لم أفكر للحظة أن الكبرياء لديها قد يهزم تلك المشاعر مجتمعة.

أطرقت رأسي يائساً وقلت بنبرة حزينة دون أن أنظر إليها: كان ينبغي أن أتوقع هذا.

وقبل أن أتأهب للانصراف هبطت شهرت فرا هامم أمها، وما أن تعرفت عليّ حتى اضطربت وأحست بالفرع إذ رأتنا منفردين، ثم سرعان ما هدأت حين أخبرها حدسها بجفاء فاطمة في مقابلتي، ورأت اليأس والحزن وقد اعتراني على ما بذلت من جهد جهيد لإخفائه، ابتسمت الهانم بترحاب غير حقيقي وسألتني عن أخباري، وفيما كان اختفائي، وما الذي أشغله الآن، وكنت أجيئها على مضض، وباقتضاب، فلما لم يعد لدينا ما نقوله تململت، ونهضت مستأذناً في الخروج من هذا الجو الخانق، وانحنيت أحييها، وأحيي فاطمة التي لم يصدر عنها حركة أو قول، بينما صحبتني أمها إلى الباب الخشبي وودعتني.

كان الخديوي قد طلب في 10 نوفمبر 1875 من الحكومة البريطانية قبل البيع إرسال عدد من كبار موظفيها لمراقبة المالية المصرية، فقبلت إنجلترا مسرورة وكانت تسعى سعياً حثيثاً لأن تترث كل دور فرنسي رائد في مصر بعد هزيمة فرنسا في الحرب السبعينية، فجاءت البعثة برئاسة ستيفن كيف **Steven Cave** القاضي العام والكونونيل جون ستوكز **John Stokes** في 16 ديسمبر 1875 بصحبة لجنة بريطانية ضمت رجالاً من وزارتي الخارجية، والمالية البريطانيتين استقبلت استقبالاً طيباً، وبالغ الكثيرون في أمانيتهم، على مرارتها حتى سرت الشائعات أن بريطانيا ستسد الديون المصرية كلها في مقابل التنازل عن إدارة السكك الحديدية وبعض الموانئ المصرية أو ما شابه ذلك، وفحصت اللجنة مالية الحكومة المصرية خلال شهرين، حتى انتهت من تقريرها، وفي سراي عابدين استقبل الخديوي "كيف" وأعضاء بعثته في وجود نوبار باشا، وشريف باشا، وإسماعيل صديق المفتش، ومصطفى رياض باشا مهردار الخديوي.

صافح الخديوي المستر "كيف" وكان رجلاً قصيراً طاعناً في السن، قاتم اللون، أنيقاً في ملابسه، والكونونيل جون ستوكز صاحب الوجه المكتثر،

الدموي، وكان أحد الرجال الذين شاركوا في حرب القرم مرتدياً زياً عسكرياً مزخرفاً، وقد أطلق سوافقه عريضة على جانبي وجهه، وحلق الشعر الموجود أسفل ذقنه، على طريقة امبراطور النمسا فرانسيس جوزيف، فيما كان يطلق عليها حينها موضة شرائح الضأن.

- مستر كيف وكولونيل ستوكز، يسعدني مجيئكما، هل انتهيتما من إعداد التقرير؟

- انتهينا جناب الخديوي، من إعداد التقرير في نسختين، واحدة أتينا لتقديمها إلى سموك والثانية أرسلناها إلى الحكومة الإنجليزية.

تناول الخديوي التقرير وأخذ يقلب في صفحاته وهو يقول: وكيف وجدتم الحالة المالية للبلاد؟

- سبب سوء الحالة المالية في البلاد يرجع في معظمه إلى فداحة الشروط التي عقدت بها القروض المتوالية، وإلى الإسراف في إنفاق مبالغ جسيمة في وجوه معدومة النفع، وحملات حربية قليلة الجدوى، واختلاس عدد من الأفاقين الماليين والسياسيين والموظفين الفاسدين للأموال بطرق غير شرعية.

- وهل من مقترحات للخروج من الأزمة الحالية؟

- استعمال محصلات ضريبة المقابلة لدفع ديون أعوام 1864 و 1865 و 1867 قصيرة الأجل، وتحويل جميع الديون السائرة إلى دين موحد قدره 75 مليون جنيه يسدد في خمسين سنة بفائدة 7%، كما نقترح أيضاً ضرورة خضوع المالية المصرية إلى المشورة الأوربية.

قطب الخديوي حاجبيه وتساءل: وكيف ذلك؟

- من الممكن أن تنشئ الحكومة مصلحة للرقابة على ماليتها من الخبراء الماليين الأجانب ولا تعقد قروضاً إلا بموافقتها، لدى الحكومة البريطانية الكثير من الخبراء وأنا على ثقة أنها لن تبخل بهم عليكم.

- أشكر لكم مجهودكم يا سادة، وموقف الحكومة الإنجليزية الصديقة، ذلك وأرجو أن تبلغوا شكري الشخصي إلى صديقيّ المستر بنجامين دزرائيلي رئيس الوزراء، والمستر نورثكوت وزير المالية.

كانت الكلمات هذه إشارة إلى انتهاء الاجتماع، لكن المستر كيف أراد أن يستبقه دقائق أخرى ليستشف ما لديه فقال: أتساءل، ترى ما الحلول التي قدمتها الحكومة الفرنسية لجلالتك عبر المسيو فيليه **Villet**؟

كان الخديوي يفهم مرامي سؤاله، ويعلم بحالة التنافس القائمة بين فرنسا وبريطانيا، فأراد أن يستثمرها لصالحه عله يحصل على أفضل العروض، دون أن يغلب كفة أيّ من البلدين إلا في الوقت المناسب فقال: الحكومة الفرنسية أرادت مساعدتنا فأرسلت المسيو فيليه يحمل مشروعاً لتوحيد الدين السائر، شبيه بمشروعكم، سندرس كافة الأفكار وكلا المشروعين لنختار أيهما أفضل، وإن كنت أفضل لو عمل رجال البعتين معاً.

ابتسم الكولونيل ستوكز ابتسامة هزلية وهو يقول: وما المانع؟ ربما يحدث هذا.

ثم سلم على الخديوي وانصرفوا جميعاً، فاتجه رياض باشا إلى الخديوي وسأله: ما الذي تراه لجلالتك؟

- الفرنسيون مشروعاتهم أفضل لا شك، فهم سيقدمون إلينا من أصل المطلوب لتثبيت الدين السائر ثلاثة ملايين جنيه، عوضاً عن إنشاء بنك

أهلي رأس ماله من أربع إلى خمس ملايين يناط به جمع كل إيرادات القطر المصري ويستبعد ما يلزم منها لخدمة الدين، ويسلم الباقي إلى الحكومة.

ثم توجه بحديثه إلى إسماعيل صديق المفتش وكانت العلاقة قد ساءت كثيراً بينهما بعد هذه النكبات وقال بلهجة آمرة: وقع مع الفرنسيين العقد المالي للحصول على المبلغ المطلوب.

فhez المفتش رأسه صاغراً علامة القبول.

"مستر كيف

وصلتنا أخبار بأن وزير المالية المصري وقع اتفاقاً مع مسيو فيلييه برعاية البنك العقاري الفرنسي، وأن المسيو باستري سافر إلى باريس لإتمام الصفقة مع رجال المال الفرنسيين، الرجاء التحقق من صحة المعلومة، وإن صحت ذكر الخديوي أننا نملك نشر تقرير الحالة المالية المصرية

بنجامين دزرائيلي

17 فبراير 1876"

"مستر دزرائيلي

المعلومة بكل أسف صحيحة، وقد فعلت ما أمرتني به فاستاء الخديوي كثيراً، وقال إن الاتفاق معه كان على ألا يذاع التقرير.

ستيفن كيف

18 فبراير 1876"

في 23 مارس 1876 اجتمع مجلس العموم البريطاني، في قصر وست منستر وقف حايم دزرائيلي يخطب خطبته، حينما قاطعه أحد الأعضاء وسأله عن ميعاد نشر تقرير لجنة كيف التي سافرت إلى مصر فأجابه أنه

شخصياً ليس لديه مانع من نشر التقرير، وأن الخديوي هو من يعارض النشر، وكان من آثار نشر الصحف العالمية لقول رئيس الوزراء البريطاني أن هبطت أسعار السندات المصرية هبوطاً حاداً، فكان لقوله وطأة أكبر من نشر التقرير نفسه، لم تتمكن الحكومة المصرية معها من تهدئة المخاوف حتى بعدما طالب الخديوي بنشر التقرير لطمأنة المالكين من أن الاقتصاد المصري وإن كان يواجه صعوبة فمن الممكن تعافيه إن ساعدته قوة أكبر على النهوض، وأن الصورة ليست كارثية أو ظالمية إلى الحد الذي تصوره بعض الأقلام الصحفية، أعقب ذلك توالى المبعوثين من الحكومتين الفرنسية والإنجليزية على العاصمة المصرية ووصل باستريه موفداً من فرنسا، وإيليو وجرينفيلد وريفرس ويلسن موفدين من إنجلترا، في محاولات لإنقاذ سمعة المالية المصرية بعد أن تدخل الخديوي بنفسه واتصل بالفرنسيين والإنجليز، في وقت استمر فيه إسماعيل المفتش في إصدار أذونات على بياض لبعض البنوك، والمالكين بما يساعده على دفع المزيد من الاستحقاقات، أحس معها نوبار باشا أن المفتش بأفعاله سيهدم المعبد فوق رؤوسهم جميعاً فسافر فجأة في 21 مارس دون أن يُعلم أحداً بسفره أو وجهته، وكانت كل الدلائل تشير إلى أن المركب وكانت تميد بالجميع بدأت رحلتها إلى القاع بالفعل.

وفي يوم 8 أبريل 1876 علق في بورصة الإسكندرية مرسوم خديوي بتأجيل دفع السندات والأقساط المستحقة على الحكومة المصرية في إبريل ومايو ثلاثة أشهر، ولم يكن هذا التأجيل إلا حفاظاً على المظاهر فقد علم الجميع أن مصر توقفت عن الدفع وأعلنت إفلاسها بذلك، فتضاعف الغضب والسخط تجاه الحكومة المصرية والخديوي الذي نزعوا صورته من مقر البورصة وأخرجوها بالخارج، مطالبين بعزله، وفي 2 مايو استجاب

الخديوي إلى مطالب وكلاء الدائنين وأنشأ صندوقاً للدين يتولى إدارته أجنبى ليكون خزانة فرعية للخزانة العامة تتولى دفع الديون وخصص لها إيراد مديريات الغربية، والمنوفية، والبحيرة، وأسيوط، وعوائد الدخولية في القاهرة، والإسكندرية، وإيراد جمارك الإسكندرية، والسويس، وبورسعيد، ورشيد، ودمياط، والعريش، وإيراد السكك الحديدية، ورسوم الدخان، وضريبة الملح، ومصائد الدقهلية، ورسوم الكبارى، وعوائد الملاحة النيلية، وإيراد كوبرى قصر النيل، وأطيان الدائرة السنية فكانت بذلك أغلب موارد الخزانة المصرية، وقدرها 6 مليون ونصف جنيه إنجليزى، وفي 7 مايو أصدر الخديوي مرسوماً ثانياً بتحويل ديون الحكومة والدائرة السنية والديون السائرة إلى دين موحد قدره 91 مليون جنيه إنجليزى بفائدة 7%، وفي 11 مايو أصدر مرسوماً ثالثاً بإنشاء مجلس أعلى للمالية برئاسة السنيور شالويا أحد أعضاء مجلس الشيوخ الإيطالى، مؤلف من عشرة أعضاء، خمسة منهم أجنبى، وخمسة وطنيون، مقسمين إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول يراقب خزائن الحكومة، والثاني يراقب الإيرادات والمصروفات، والثالث يتحقق من الحسابات، ويبدى المجلس رأيه في ميزانية الحكومة السنوية التى يضعها وزير المالية قبل نهاية كل سنة بثلاثة أشهر، فعينت فرنسا مندوبها المسيو دي بلنير، وعينت النمسا مندوبها كرىمر، وعينت إيطاليا مندوبها السنيور بارافللى، وامتنعت إنجلترا وحدها عن تعيين مندوب لها غير راضية على هذه التسوية، وهى ترمى بذلك إلى خطة بديلة سبق التخطيط لها لتجعل مصر أكثر خضوعاً، وأوفدت إلى فرنسا أحد

أعضاء برلمانها مستر جوشن وكان وزير سابقاً في الحكومة، كي يتفق معها على التعديلات التي ترى بريطانيا لزومها.

وفي أكتوبر 1876 حضر إلى مصر جوشن المندوب البريطاني، ثم جوبير المندوب الفرنسي للضغط على الخديوي وجعله يذعن إلى مطالبهم، مستغلين في ذلك نفوذ القنصلين الإنجليزي واللورد فيفيان الذي خلف الجنرال ستانتون، والفرنسي البارون دي ميشيل، حيث طالبوه جميعاً بتعيين مندوبين عن الحكومتين الإنجليزية والفرنسية في وزارة المالية بصفة مراقبين، ووضع السكك الحديدية، وميناء الإسكندرية تحت إدارة لجنة أوربية مختلطة لضمان استغلال مواردهما في دفع الدين.

وكانت العلاقة بين جوشن وإسماعيل صديق في غاية السوء، حتى أن جوشن لما وصل إلى مصر تعمد أن يزور جميع الوزراء باستثناء إسماعيل المفتش، بخلاف أنه لم يكن يترك مناسبة تمر إلا ويعلن فيها عن حتمية إقالة إسماعيل المفتش من منصبه لينجح في مهمته، فوجد لكلامه هوى في نفوس حساد المفتش، من كبار الموظفين، وبعض الوزراء، بل ومن الأمراء الصغار أنفسهم توفيق، وحسين كامل، وحسن، ذلك لأنهم كانوا يرونه متسلطاً على قلب أبيهم حائزاً على عطفه، تسلطاً سمح له أن ينال من القوة والنفوذ ما لم ينله باشا مصري من قبله، ولأنهم شباب ذوو حماسة، رأوا أن إبعاده من شأنه أن يفسح لهم الطريق، لإثبات جدارتهم في قيادة أمور الدولة الجسم، فيتسنى لوالدهم الاعتماد عليهم، ويعلو بذلك شأنهم، فكانوا يحقرونه فيما بينهم، ويغضبون لإكرام أبيهم له، وكان الأمير حسين كامل إذا غضب يقول عنه محدثاً إخوته: فلاح، ابن فلاح، صعلوك الأصل،

طالما مد أجداده، بل أبوه نفسه، بالكرباج، وازرقت أرجلهم ودفقت دماً
من ضرب السياط، ابتسمت له الدنيا، بمصاحبة أفندينا، فنسي نفسه،
وصار كالطاووس يمشي محتالاً يأمر وينهى.

انقسمت معية الخديوي إلى فريقين، فريق معاضد لإصلاحات جوشن
وجوبير يرأسه الأمراء الثلاثة، ونوبار باشا، وفريق معارض للتدخل
الأجنبي برمته على رأسه إسماعيل باشا المفتش، وشريف باشا، ويميل إليهما
إسماعيل راغب باشا ناظر الزراعة والتجارة، فأحال الخديوي إليهم الأمر
لينظروا فيه في المجلس الخصوصي ويتداولوا ويخبروه بما توصلوا إليه، وفي
المجلس حاول إسماعيل المفتش أن يشرح وجهة نظره فقال: قبول مقترحات
جوشن وجوبير، معناها ضياع سلطة الخديوي، وتعريض استقلالية البلاد
إلى الخطر، فكيف نرضى بتعيين مراقبين أجانب على وزارة المالية، وإسناد
إدارة ميناء الإسكندرية والسكك الحديدية إلى حكومات أجنبية؟ أنا أرى
أن إشهار الإفلاس مهما تكن العواقب، مع تمسك الخديوي بسلطته،
والحكومة المصرية باستقلالها السياسي أقل ضرراً من قبول مقترحات
المندوبين الإنجليزي والفرنسي.

أشاح الأمير حسن بيده وهو يقول: أنت تقاوم مقترحات جوشن فقط،
لأنك تكرهه، ولعلمك أنه يرمي إلى عزلك.

وأوماً كل من الأميرين توفيق وحسين برأسيهما علامة الموافقة على
كلام أخيهما، فلاحت ابتسامة ساخرة على شفقي إسماعيل المفتش وقال:
لازلم صغاراً، وتحكمون على الأمور من ظواهرها.

اشتاط الأمير حسين كامل غضباً وكان سريع الانفعال، وصفعه على وجهه صفعة شديدة تدلت لها نظارته الذهبية على وجهه وهو يصيح به: صغاراً؟ كيف تجرؤ على مخاطباتنا بهذه الطريقة الوقحة؟ لابد أنك جنت!

وقال الأمير توفيق بضيق: ما أوقح هذا الرجل!

بينما صدم شريف باشا وإسماعيل راغب باشا من رد فعل الأمير حسين العنيف، بينما تخرج نوبار باشا وأشفق على زميله، أما المفتش فأمسك بنظارته، وأخذ يصلح سلكها المتلوي بهدوء، وهو يقول: إنما أتحدث عن المصلحة العامة للبلاد يا أمير، ولا دخل للأمور الشخصية كما تقولون في المسألة، المسألة ليست إقالة وزير، بل إلغاء وزارة وطنية سيادية كاملة والتسليم بإدارة أجنبية لها.

أراد نوبار باشا التلطيف فقال: لماذا تعظم الأمور يا إسماعيل باشا وتعطيها ما لا تستحق؟ أنت تستحق سوء النيات يا صديقي، حالما ندفع ما علينا من ديون لن يكون هناك داعٍ من بقاء المراقبين، فالمراقبون وجودهم مسألة وقتية فقط، مطلوبة الآن لتهدئة خواطر الدول القلقة على مصالح رعاياها من الدائنين.

- علمتني الأيام يا نوبار باشا أن الأجانب لا أمان لهم، فتحنا لهم بلادنا وأقمنا لهم الاحتفالات وأولئناهم، فلم يذكروا لنا صنيعاً طيباً، وسرعان ما انقلبوا علينا مسعورين، حين علموا أن فوائد ما أقرضونا من أموال، قد لا يتمكنون من الحصول عليها في الوقت المناسب، كل من كان يهرول خلف جناب الخديوي منهم لينال رضاه، ولينعم عليه بلقب، أو وظيفة، أو بالاقتراض منه، تجرأ نهاية الأمر عليه.

- قال الأمير حسين كامل: "بلادنا" و "أولئهاهم"؟! البلاد بلاد أفندينا المعظم وحده، هو من يهب، وهو من يجزل في العطايا، وهو من يؤم، جميعكم بدأت حياتكم معدومين، ثم جعلكم الخديوي من كبار رجال الدولة، وأكبر أعيانها، أنت نفسك كنت مسير ركائب، فجعلك الخديوي مديراً لمزرعته، ووزيراً للمالية طوال ثماني سنوات، أطول فترة مكنتها وزير مالية في تاريخ البلاد، جعلك مفتشاً عمومياً، وعهد إليك بإنشاء خطوط السكك الحديدية، وبناء المدارس في الأقاليم.

- فضل مولاي الخديوي معلوم لا نحجده يا سمو الأمير، لكني كنت أيضاً على قدر المسؤولية في كل مهمة أوكلها لي، كنت له نعم الأخ والمعين، قمت بمد خط السكة الحديدية، وأقمت 4500 مدرسة، ووطنت العربان ومنعت غاراتهم على الفلاحين، ونظمت المالية.

صاح الأمير قائلاً: بل فشلت في تنظيمها، وإلا لما اجتمعنا هنا اليوم.

- افعلوا ما ترونه مناسباً، سأرسل استقالتني في الحال إلى جناب الخديوي.

ثم سار مبتعداً، وهو يشعر أن كبرياءه جرح، وكرامته امتهنت، يغالب دمه فيغلبه، لتنفلت من مقلتيه دمة حارة أعقبها بحر من الدموع، كتب استقالته وهو يكفكه، ثم طوى الاستقالة، وأعطاهما لأحد الخدم، وكلفه بإيصالها إلى جناب الخديوي، وقفل عائداً إلى بيته، قرأ الخديوي خطاب التوصية الصادر عن المجلس الخصوصي بقبول مقترحات جوشين، وجواب استقالة إسماعيل صديق، فلم يشأ أن يبيت في أي من الأمرين قبل أن يجتمع بوزيره، الذي طلب مقابلته في المساء في سراي عابدين، وكان قد سأل وزيره نوبار عما حدث في المجلس فعلم منه ما جرى بين إسماعيل والأمراء، غير أن الشائعات ما لبثت أن انتشرت في السراي في أن الأمير حسين

كامل سيغدو وزيراً للمالية خلفاً لإسماعيل المفتش، والأمير حسن سيغدو وزيراً للحرية خلفاً للأمير حسين كامل، حتى وصلت إلى آذان المفتش نفسه.

وفي المساء ذهب إسماعيل المفتش إلى السراي، ودخل على الخديوي فوجده جالساً على الأريكة، فنهض من عليها واستقبله ببشاشة ولطف فوق المعتاد، وقال له: اجلس هنا بجانبني يا إسماعيل.

وأجلسه بقربه، ثم قال له: كيف حالك؟

شرد المفتش ولم يدر بما يجب فكرر الخديوي مبتسماً سؤاله: أقول لك كيف حالك يا إسماعيل؟

فقال المفتش متهكماً: تسألني عن حالي؟ أنت أدرى بحالي يا مولاي، أنا كما يقضي عليّ واجب العبد تجاه سيده ومليكه.

- أراك حزيناً يا صديقي، لكنك مخطئ، فأنا لم يعد لدي حيلة إلا قبول مقترحات جوشن وجوبيير.

- لماذا يفعلون معنا ما لم يفعلوه مع الأتراك أو البرتغاليين؟ لسنا أول ولن نكون آخر من يتعثر في تسديد قروضه!

- لقد سبق وأن قلت بنفسك لنوبار إنهم لن يفعلوا معنا ما يفعلونه مع الأتراك.

- وهل قبلت جلالتك بمطالبهم؟

- وهل لدي خيار آخر يا إسماعيل؟ أنا لجأت إلى كل وسيلة ممكنة كي لا نصل إلى تلك اللحظة، مهما كانت وسيلة بائسة أو يائسة لجأت إليها، أكدت لهم أنه من مصلحة الحكومة الإنجليزية أن تظل مصر قائمة لتحمي

مصالح الإنجليز الاستراتيجية، سايرهم فيما يتعلق بمصالحهم في إفريقيا الوسطى، لجأت إلى الفرنسيين وأكدت لهم أننا أصدقاءهم في المنطقة، حاولت الحصول على مساعدة كل شخصية أوروبية بارزة تبدي تعاطفها معنا، بل حتى حاولت استغلال العاطفة الوطنية لدى المصريين وشعورهم الديني لإثارة غضبهم من طريقة الأوربيين في ابتزازنا، كل هذا بسببك، وفشلك في إدارة مالية البلاد.

- ليسمح لي مولاي أن أخالفه في فكره، وأن أختلف مع رأيه، وأرى غير ما يراه سموه.

- يدهشني ذلك منك، ألم تفهم قصدي بعد من جعل الوزارة الجديدة عائلية محضة؟

- كلا، واسمح لي يا مولاي، أن أتحدث معك بصراحة.

- بالتأكيد، تكلم، تكلم بصفتك صديقي، لا بصفتك وزير.

- أنا إذاً، أرى أن سموك أخطأت مرتين، مرة لحملي على الاستقالة، ومرة في تعيين أحد الأنجال مكاني، فأما حملي على الاستقالة فأنا لم أسمع بحد علمي أن ملكاً ضحى من قبل بوزيره ليفتدي نفسه، وأما تعيين أحد الأنجال مكاني، فقلة خبرة الأمراء لا تخفى على أحد.

- كلامك صحيح يا صديق، وأنت تعلم أنني لم أتخل عنك أو أفندي نفسي بك مثلما تقول بطيب خاطر، وأني سبق وأن رفضت التضحية بك حين أكثر القناصل الأوروبيون، والمندوبان الإنجليزي والفرنسي من طلب إقالتك، الصحف البريطانية والأوروبية تشن عليك حملة كبيرة، التايمز اعتبرتك العدو الأول للإصلاح، وباقي الصحف تصورك في صورة الباشا

الشرقي، فاقد الضمير، غليظ القلب، الخائن، والمتعصب، رغم ذلك لم أهتم، لكن الأمر اختلف الآن، فاجلس الخصوصي نفسه تخلى عنك.

- ليس المجلس الخصوصي كله، بل أولاد جلالتك، وأنا لست ناقماً عليهم، لأنهم يجهلون ما ندرية، سموكم وأنا من أنه هناك تضامنا بينما لا يمكن هدمه، لقد قلت لسموك من قبل، وها أنا أعيدها على جلالتك مرة أخرى، لو كان هلاكى وحدي يكفي لإنقاذكم، فأنا لها، لكني لا أرى الأمر بهذه الصورة، فالخلاص للبلاد لن يتأتى إلا ببقائنا متحدين ومتعاضدين.

ثم سكت برهة يريد أن يستشف تأثير كلامه على الحديوي، لكنه لم يوفق في قراءة تعابير وجهه، إذ لم يبد الحديوي أي ردة فعل وقال له: أكمل حديثك.

فقال: إني أقبل يا مولاي أن أتحمّل المسؤولية كاملة وحدي، وأن أعلن أي خالفت أوامرَكَ بدلاً من تنفيذها، فهل سيصدقني أحد؟ أقبل أن أسلم جنابك خاتمي الآن لتوقع به كل الأوراق التي تريدها، إثباتاً لأن الذنب ذنبي وحدي، فهل يصدقني أحد؟ الكل يا مولاي يعلم أن الحديوي له السلطة العليا وأنا جميعاً آلات بين يديه، ثم إني صحيح لا أحل الجنسية الألمانية مثل نوبار باشا، أو الجنسية الفرنسية مثل شريف باشا لكني مشير عثماني، قد قلدتني جلالتك النيشان العثماني، لا أحاكم في المحاكم المصرية، أو الأجنبية، بل أحاكم في الآستانة، وهب أي تنازلت عن حقي هذا، فهل يتنازل عنه الباب العالي؟ برأيك ما الذي ستكون عليه نتيجة محاكمتي هناك؟ وأي فضيحة قد تسببها لنا الآن؟

ضحك الحديوي وقال: صحيح أنت مشير عثماني، كنت نسيت هذا الأمر، ذلك لقب فيه الأمان لك.

ثم ابتسم واستطرد: ولا يسعني الآن إلا الموافقة على كل ما ترضاه، وترى وجوبه، على أننا والحمد لله لم نبلغ هذا الحد بعد، فكلامك يبدو لي منطقيًا، ولا يوجد فيه ما يخرجني، إنما الصعوبة يا إسماعيل في كيفية خروجنا من المأزق بكيفية ترضينا معاً، لذا اجتهد وابحث لنا عن مخرج آخر، وأنا أعدك أن آخذ به، بدلاً مما ارتأيت في قبول استقالتك، والموافقة على مقترحات جوشن.

فتنهّد المفتش، ورفع نظارته، ليمسح بطرف منديله دموعه طفرت من جانب عينيه، ولثم يد الخديوي وهو يقول: قد استعدت الآن سيدي وملاذي.

ثم استطرد قائلاً: الوسيلة جلالتك للخروج من المأزق جاهزة.

فابتسم الخديوي وسأله: بهذه السرعة؟

فقال المفتش: بوسعنا جلالتك أن نسدد ما علينا من ديون وفق مرسومكم الخاص بتوحيد الدين على أن تكون الفائدة 5% وليست 7% دون أن نجر الخراب على البلاد، وذلك ما لا يريده المرابون الأجانب.

فأوماً الخديوي برأسه، واستطرد المفتش قائلاً: جلالتك تعلم أن الإسلام ينهى عن الربا، وينذر المتعاملين به، كل ما علينا فعله أن نستشير الأهالي بفكرة أن معظم ما يؤخذ من خزانة البلاد ويحجى من ضرائبهم يذهب إلى جيوب المرابين الأجانب في صورة ربا، وأن الحكومة مضطرة إلى فرض الضرائب الكبيرة لأجل ذلك، فنحول بذلك غضبهم بدلاً من الحكومة إلى الأجانب والمرابيين، والقناصل الأجانب، لعلهم تحت وطأة الغضب الشعبي يقدمون تنازلات فيقبلوا برأس المال الذي استدناه منهم

دون فوائد، أو على الأقل بفوائد غير محققة، ثم لاشك أن الباب العالي سيساندنا إذا رأى ذلك الحراك الشعبي لدينا فهو يواجه نفس مشكلتنا.

- فكرة جيدة، لكن كيف سنغذي لديهم تلك المشاعر.

- تلك مسألة بسيطة، دعها لي جلالتك، يكفي أن نكلف علماءنا وقضائنا ومفتيينا بهذا الأمر، فمتى هبت الأمة للتمسك بنواهي القرآن الكريم فإننا سننخذ مطالبها سلاحاً نجبر به الآستانة أن تقف إلى جانبنا فيه، ونرهب به خصومنا من المرابين، ونجعلهم يمثلون للحل الأمثل الذي نراه.

ابتسم الخديوي وقال: فكرة طيبة، بالتوفيق في تنفيذها.

في هذه الأثناء كان جوشن ينقب خلف المفتش بعد أن علم أنه خرج من عند الخديوي متهجأً، وبدا كما لو كان استعاد قلب مليكه ونفوذه لديه من جديد، حتى وجد عجزاً قدره 40 مليون فرنك، فرفع دعوى قضائية ضد إسماعيل المفتش في المحاكم المختلطة، فلما أبلغ نوبار باشا المفتش نبأ الدعوى ابتسم، وقال له: قل لجوشن إنه لن يستطيع أن ينال مني، مهما حاول، وسترى المحكمة عند تحقيقها ما هو سبب ذلك العجز وما هي حقيقته.

فلما بلغ الخديوي ما فعله جوشن، ورد المفتش عليه، خشي إن نظر الأمر في المحكمة أن يلقي المفتش باللائمة على الخديوي فأخرج من خزانته الخاصة 14 مليون فرنك، أرسلها إلى جوشن باسم المفتش، وطلب منه أن يوقف الدعوى القضائية، وبينما هو كذلك جاءه زكي باشا التشريفاتي وأخبره أن شيخ الإسلام، وقاضي القضاة، ومفتي الديار المصرية، ومجموعة من المشايخ أنوا لمقابلته، فابتسم الخديوي وأيقن أن المفتش أسرع بتنفيذ ما وعد به، ودعا المشايخ للدخول.

سلم الخديوي عليهم، وسألهم عما دعاهم للحضور، فقال أكبرهم: إن ما جاء بنا جلالتك، هو مقابلة تمت بيننا وبين وزير المالية إسماعيل صديق فابتسم الخديوي وقال: إن إسماعيل صديق رجل في منتهى الذكاء، وتوقد الذهن.

فقال الشيخ: بلي، هو رجل خطر، فقد أتانا بالأمس زاعماً أن أفندينا والبلاد في ضيق شديد بسبب الإفرنج، وأخبرنا أنهم يتقاضون من حكومة سيادتكم ربا فاحش، وأنه يجدر بنا إهاجة الجموع على الدائنين، كي لا يأخذوا من الخزانة المصرية سوى النقود التي أقرضونا إياها دون زيادة.

- وماذا كان ردكم عليه؟

- رددنا عليه، بما يجب أن يرد العبيد المخلصون لسموكم، قلنا له نحن نعلم أن الفرنج أصدقاء سموكم، وأن الأموال أموال سموكم، وأنا جميعاً بمالنا ونسائنا وعيالنا عبيدكم المخلصين، فأدركنا أنه من الخائنين، إنما يريد إشعال فتنة في البلاد.

قطب الخديوي حاجبيه، وفهم أن المفتش لم يفلح في آخر ورقة من ورق اللعبة كانت بين يديه وسأل المشايخ: هل بإمكانكم أن تكتبوا ذلك الذي قصصتموه وتوقعوا عليه؟

فانكب المشايخ في كتابة عريضة بما دار، ووقعوا عليها مجتمعين، وانصرفوا شاكرين، وما أن اختفى آخرهم، حتى دخل من خلفه الأمير توفيق وقال حانقاً: هل رأيت جلالتك، ما الذي أراده إسماعيل المفتش من إثارة خواطر الناس، وإشعال فتنة في البلاد، وإفساد العلاقة بيننا وبين المندوبين الأجانب؟ لولا تدخلني في الأمر وإفهامي العلماء مرامي سياسته الوضيعة لصدقوا أنه رسولكم إليهم.

تتهد الخديوي وارتكز إلى مكتبه، وصار يحك جبهته بيده الأخرى، وقد أيقن أن ابنه توفيق بتصرفه هذا أفسد آخر فرصة أراد المفتش بها أن يقتدي رقبته ويحل عن طريقها مشكلة الديون المتفاقمة، قبل أن يقول: استدع أخويك حسين وحسن فوراً.

فلما اجتمع الإخوة مع الخديوي، كان موضوع تباحثهم، ما عليهم فعله إزاء المفتش، فقال الأمير توفيق: نأمر مصطفى فهمي باشا محافظ العاصمة فيذهب في ألف من العساكر ويحيطون بالسراي الخاصة به في ميدان الإسماعيلية.

وقال الأمير حسن: يكفي ضابط وبضعة عساكر، فلسنا بصدد حرب.

أما الخديوي فقال: لسنا بحاجة إلى ضباط أو جنود، سأقوم بالأمر بنفسي، كل ما أريده منكم أن تأمروا المحافظ فيجهز مركباً بخارياً عند مرسى سراي الجزيرة، وأن تخطرأ أعضاء المجلس الخصوصي بالاجتماع غداً في الحادية عشر صباحاً، وفي حضور العلماء الذين شهدوا على المفتش، ليسمعوا شهادتهم شفاهةً ويقرأوها كتابةً.

وفي التاسعة من صباح اليوم التالي، وكان يوم جمعة يوافق 8 نوفمبر 1876، أرسل الخديوي يطلب حضور إسماعيل المفتش إلى سراي عابدين، ليتناول الفطور معه، وكان المفتش ينتظر الدعوة على أحر من الجمر، ليعلم بنتيجة المفاوضات مع وفد المشايخ، فقدم إلى الخديوي، وجلس قربه يتنادمان، ويتناولان فطورهما، وكان يمسك بيد مليكه ويقبلها مراراً ويقول: والآن وبعد أن تأكدت من أن قلب مولاي، ورضاه عني قد عاد لي، فليأمرني لأبعد عنه ما يزعجه.

ربت الخديوي على يد المفتش وقال له: لا يزعجني شيء، فقط أحب أن نتزه معاً مثلما كنا نفعل من قبل، ما رأيك في الذهاب إلى حدائق الجزيرة؟

- بكل سرور يا مولاي، سأمرهم بتجهيز عربة سموكم في الحال.

وما هي إلا دقائق وكانت العربة الخديوية المكشوفة تجتاز الشوارع وفيها الخديوي وعلى يساره إسماعيل المفتش، يتهامسان ويتضحكان، وكان المفتش في قرارة نفسه يتمنى لو رآهما جوشن على هذا الحال ليغتاز ويوقن، أنه لن يقلح في معاداته، لقربه من قلب مولاه، وأنه لا سبيل إليه إلا مهادنته واحترام منزلته، والرجوع عن المطالبة بإقالته.

سأله الخديوي: كيف حال ولدك؟

- بخير يا مولاي.

- ما رأيك أن نمر على بيتك في ميدان الإسماعيلية، قبل أن نذهب إلى سراي الجزيرة؟ لعلني أجده هناك، فأوصيه بالأميرة فايقة خيراً، فأنت تعلم معزتما عند الوالدة باشا، وزوجتنا جنائير هانم، ومنزلتها عندهم.

- سيكون ذلك أمراً طيباً جلالتك.

مرت العربة أمام سراي المفتش وسلم الخديوي على ابنه الذي كان يستعد للخروج، ثم اتخذا طريقهما إلى سراي الجزيرة، وعبرا فوق كوبري قصر النيل، فمر بهما تيار من الهواء البارد ينذر بشتاء قادم قارس البرودة، وتعالى إيقاع وقع حوافر الخيل المنتظم تدق الطريق دقاً، وصوت الإطارات الخشبية للعربة تصطك بالأرض من خلفها.

كان الجند المكلفون بالحراسة يتململون في مجالسهم، ويتثاقبون، إذ كانت نوبة حراستهم انقضت دون أن يصل زملاؤهم بعد، حين قطعت العربية الخديوية الطريق وتوقفت أمامهم ليهبط منها الخديوي، فيصيح الضابط المسئول في جنده أن يقدموا التحية، ففعلوا.

أوماً الخديوي إلى الضابط أن يأتيه، فلما دنا منه، أمره أن يلقي القبض على المفتش، فضحك الأخير لاعتقاده أن الخديوي يمزح، ولكن الضابط أجاب الأمر، وأمر الجنود فأمسكوا بالمفتش من عنقه وتلايب ملابسه، وجروه إلى الهو الخارجي للسراي وهو يهتف مذعوراً: مولاي! .. مولاي! .. إنهم يقبضون عليّ .. مولاي!

على أن الخديوي لم يلتفت وسار في طريقه إلى داخل السراي، بينما أخذ المفتش إلى قبو داخلي، في الفناء الخلفي للسراي، حيث سجن هناك، وما هي إلا دقائق أتم فيها الخديوي بعض الأمور، وأمر الحراس بالحفظ على الباشا ريثما يصلهم أحد الأمراء، ثم ركب عربته، وعاد إلى سراي عابدين من جديد، حيث كان المجلس الخصوصي على وشك الانعقاد، فلما انعقد المجلس قرأ الأعضاء العريضة التي كتبها المشايخ، وتحدثوا معهم شفاهة عما جرى، وأعلمهم الخديوي أن وزيره قدم استقالته بألفاظ لا يجسر وزير على إبداء مثلها للملكه، وأنه لا بد وأنه كان سكراناً حين كتبها، فهو لا ينفك عن تجرع الخمر طوال النهار، فاتفق أعضاء المجلس الخصوصي على خيانة المفتش وتأميره على الخديوي، وقضوا بنفيه إلى دنقلة، وتولي الأمير حسين كامل مسئولية وزارة المالية من بعده، وتولي الأمير حسن مسئولية وزارة الحربية، بينما توالى البرقيات المرسلة من المديرية تأكيد الحكم بخيانة المفتش.

وما أن انفض المجلس حتى أمر الخديوي ابنه الأمير حسن بالذهاب إلى سراي الجزيرة وإنهاء الأمر، فذهب الأمير وهناك سأل عن الضابط المسؤول فجاءوا له بضابط اسمه اسحاق، كان قد تسلم نوبته منذ نصف ساعة، وعلم أن إسماعيل المفتش محتجز في القبو الخلفي للسراي، ما إن وصل إلى الغرفة الموجودة تحت الأرض حتى وجد الأمير حسن هناك، يقف قرب باب الغرفة، وإسماعيل باشا المفتش متكوماً على الأرض في أحد الأركان، مجرداً من الملابس، عارياً كيوم ولدته أمه، كان المفتش ينظر إلى الأمير بعينين دامعتين لا تكاد تبصران، بينما شريط ذكرياته يمر أمام عينيه، تذكر أيام الصبا واللعب بصحبة أخيه الخديوي، تذكر دروس الموسيقى التي كان يصحبه إليها لمشاهدته وهو يعزف، ودروس الفروسية التي دأب على تشجيعه فيها، تذكر ترحيب أخيه به حين أتى لزيارته بعد توليه الولاية خلفاً لعمه سعيد باشا، وتذكر ثناءه عليه أمام أقرانه البشوات لحسن قيامه بما يعهد إليه من أعمال، تذكر ما دار بينهما من حوار حين أحس بعاطفة الحب لدى أخيه تجاه إمبراطورة فرنسا، وتذكر تهدئته لحاظره بعد أن حاول الأمير عبد الحليم قتله.

نظر الأمير إلى المفتش بازدياء شامتاً ثم أشار إلى الضابط بيده، فاقرب منه، بعد أن أدى التحية العسكرية، وهمس الأمير في أذنه: ستتولى مسؤولية نقل المفتش ليلاً إلى الباخرة التي أعدت لنقله إلى دنقلة في السودان.

ثم استطرد مكماً وهو يقول ببطء له مغزى: إلا إذا مات قبل ذلك.

فأدرك الضابط أن المطلوب قتله، ثم ذهب الأمير وأمسك بذراع المفتش واقتاده إلى الضابط وسلمه إياه وهو يقول: لقد أصبح في عهدتك. فأوماً الضابط برأسه متفهماً.

ما إن رحل الأمير حتى ألقى الضابط المفتش على ظهره، ووجد كلتا يديه ورجليه مكبلتين، فكممه بيده اليسرى، وأخذ بخصتيه بين راحة يده اليمنى يعتصرهما عصرًا، بينما المفتش يقاومه مقاومة عنيفة، وكأنه على ضعفه وهزال جسده في تلك اللحظة قد أوتي قوة عظيمة، عض المفتش إهام الضابط الأيسر وقطعه بأسنانه، فصرخ الضابط متألمًا، ثم شدد ضغط راحته اليمنى عليه، وهو يسبه بأقذع الألفاظ بينما المفتش يحاول جاهدًا التملص من الآلام الشديدة التي اعترته قبل أن يحبس أنفاسه من شدة الآلام، ويحمر وجهه ويكفهر، حتى خارت قواه، فسقط جثة هامدة، ودقت رأسه بالأرض فشجت ونزفت، وفي الليل حملت جثته في قماش على ظهر المركب، وربطت في حجر ضخم، وما إن جاوزت المركب جزيرة الروضة حتى طرحت الجثة في النيل، فاستقرت في القاع بفعل الثقل الضخم الذي ربط بها.

وفي صباح اليوم التالي نشرت الوقائع المصرية خبر خيانة المفتش وقرار المجلس الخصوصي بشأنه، وأبرقت الآستانة تأمر بإرسال الوزير المتهم إليها لمحاكمته، فانتظر الخديوي أسبوعين دون أن يجيب الطلب، قبل أن يرسل إلى الآستانة يعلمها أن خبر وفاة إسماعيل المفتش قد أتاه من دنقلة متأثرًا بانفجار في الزائدة الدودية من كثرة التهامكه في شرب الخمر، حيث بيعت ممتلكاته في مزاد علني شهده قناصل الدول الأوروبية بيعت فيه أكثر من سبعمائة جارية.

حزن الخديوي رغم ذلك على اضطرابه لقتل إسماعيل المفتش الذي كان له أخًا وصديقًا على أنه كان يهون على نفسه الأمر بوصفه لم يفعل ذلك إلا مضطرًا، وأن القدر وحده هو ما أفسد خطته الأخيرة مع رجال

الدين، وبالتالي فموته مقدر، كان كثيراً ما يتذكر الحديث الذي دار بينهما بعد أن علم بالخطاب الذي أرسله الأمير مصطفى فاضل إلى السلطان العثماني، ونصيحة إسماعيل صديق له بأن يأمن شره ويتخلص من خطره، واعتراضه على ذلك بأنه لن يلوث يديه بدماء إخوته، ثم يذكر نفسه بما فعل، وأنه لوث يديه بالفعل بدماء أخيه، وناصحه الأمين، ورفيق دربه، فيكي وحده نادماً على ما اقترفه من إثم عظيم.

وفي 18 نوفمبر 1876 أصدر الخديوي مرسوماً يقضي بفرض الرقابة الأجنبية على المالية المصرية من خلال مراقبين بوظيفة مفتشين عموميين أحدهما إنجليزي هو المستر رومين لمراقبة الإيرادات العامة، والثاني فرنسي هو البارون دي مالاربه لمراقبة المصروفات، واعتماد صندوق الدين ليقى هيئة دائمة له إيراداته المنفصلة عن الخزنة العامة، إلى أن يسدد كامل الدين العام، لأعضائه أن يتسلموا إيراداته ويرسلوها رأساً إلى بنكي إنجلترا وفرنسا، وأسندت إدارته إلى الميجور إفلن بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) مندوباً لإنجلترا، والمسيو دي بلنير مندوباً لفرنسا، وفون كريمر مندوباً للنمسا، والسنيور بارفليي مندوباً لإيطاليا، كما تم إسناد إدارة السكك الحديدية وميناء الإسكندرية إلى لجنة مختلطة مؤلفة من خمسة مديرين، منهم اثنان إنجليزيان، أحدهما الجنرال ماريوت رئيساً لها، واثنان مصريان، وواحد فرنسي، ليتولوا تسليم الإيرادات أولاً بأول إلى صندوق الدين، فابتهجت بذلك الحكومة الإنجليزية كثيراً وانعكست سعادتها بالتخلص من إسماعيل المفتش على مراسلاتها مع قناصلها ومندوبيها في مصر.

أحمد

عدت إلى البيت، وفي اليوم التالي قدم لزيارتي أحمد عرابي، حيث أخبرني أنه أسس جمعية سرية باسم "مصر الفتاة" ضمت بعضاً من الضباط والأدباء، من ضمنهم علي الروي مؤسسها، وعلي فهمي، ويعقوب صنوع الذي تولى إصدار جريدة "أبو نضارة" لتكون لسان حال الجمعية التي تهدف للتخلص من الطبقة الجركسية التركية المتحكمة في الجيش، ومناوءة النفوذ الأجنبي الأوربي الآخذ في الانتشار في البلاد، حيث عرض علي المشاركة فرحبت.

تحدثنا عن الثورة التي شبت في تركيا، ومظاهرات طلاب المعاهد الشرعية في إسطنبول، وعدد من رجال الدين الذين انضم إليهم مدحت باشا وزير الحربية، قبل أن ينضم إليهم الوزيران خليل باشا، ودوريش باشا ضد السلطان العثماني عبد العزيز، بسبب تبذيره وإطلاقه أيادي روسيا في شئون السلطنة العثمانية، وما أعقب مظاهراتهم تلك من إقالة الصدر الأعظم محمود نديم باشا، ونقل السلطان العثماني ثروته إلى روسيا بالتنسيق مع السفير الروسي إجناتيف، عن طريق إحدى البوارج الحربية الروسية، كان أحمد عرابي يقص تلك الأنباء متفعلاً ويعد مثل ذلك الفعل من أفعال الخيانة العظمي، ثم يعرج بحديثه على الخديوي، ويظن أنه إن أتيحت له الفرصة لفعل المثل، فاختلف معه وأقول له: إن الخديوي ليس بخائن وأنه محب بحق للبلاد، ولا أظنه يفعل أمراً مثل هذا، وأن سوء إدارته، وإدارة وزيره هي ما وضعتنا في هذه المرحلة، فيتأفف ويقول بضيق: بل أنت تدافع عنه لأنك سبق وأن عملت ياوراناً لديه.

ويود حسن التلطيف فيسأله: وماذا بعد عملية نقل الأموال هذه؟

فيجيب: تمكن حزب مدحت باشا من استمالة شيخ الإسلام خير الله أفندي، وإقناعه بمحاسن خلع السلطان، فقبل في النهاية وأصدر فتواه بخلع السلطان، وأبلغ بها الصدر الأعظم، الذي لم يملك إلا أن ينضم إلى الحزب المطالب بعزله، رغم أنه لم يعض على حلفه يمين الإخلاص للسلطان سوى أيام، وطالبوه بالتنازل عن جزء من ثروته لدفع رواتب الجيش المتأخرة لمعجز الميزانية عن ذلك فرفض، وفي اليوم التالي أبلغ السلطان صدره الأعظم أنه ينوي إغلاق المعاهد الدينية، ونفي طلابها خارج الآستانة، فاتفق الوزراء المنضمون إلى حملة خلع السلطان مع سفيري إنجلترا والنمسا قبل تحركهم وأخبروا الأسطول الإنجليزي أن يتدخل لإنقاذ قادة الحركة إن حدث أي طارئ، وفي مساء 29 مايو توجه سليمان باشا رئيس المدرسة الحربية إلى ثكنات الجيش، وتوجه أحمد باشا إلى الأسطول العثماني، وقاموا باحتلال الطريق المؤدي إلى قصر دولما باهتشا، بينما أغلق الأسطول حركة القوارب في البحر بعد اشتباكات خفيفة مع خفر الحرس السلطاني انتهت بتسليمهم سلاحهم، ثم ذهبوا إلى قصر جراغان حيث يقيم الأمير مراد وابلغوه بارتقائه العرش، ونقلوه إلى مبنى وزارة الحربية، حيث كان الوزراء، وكبار الضباط، وشيخ الإسلام، وشريف مكة في انتظار الخليفة الجديد، حيث قرأت فتوى خلع السلطان، وأطلقت المدفعية السلطانية مدافع الجلوس، وسار المندوبون في الشوارع يخبرون بمحدثي الخلع والارتقاء فابتهج البعض، وحزن آخرون.

قال حسن: تلك هي المرة الأولى التي يخلع فيها سلطان من آل عثمان! إن كانت السلطنة العثمانية العجوز تسير من قبله إلى نهايتها بعربة يجرها حصانان، فهي تسير الآن إلى نهايتها بسرعة قطار بخاري!

وقلت: وماذا حدث للسلطان عبد العزيز؟

فأجاب: أحاط الجند بقصره ونقلوه إلى قصر الباب العالي، ومعه أولاده وحرمة وجواريه، وذهب السلطان مراد الخامس إلى قصر دولمة باهتشة، وفي اليوم الرابع وكان السلطان عبد العزيز قد طلب نقله إلى قصر جراغان، انتحر بقطع عروق يده، ويقول آخرون بل تم قتله.

- نسأل الله حسن الخاتمة، أخشى أن تتعرض البلاد لمصير مماثل.

فقال عراي: بغض النظر عن الخديوي فمشكلتنا الأساسية بحق في البطانة السيئة، والأجانب الذين صاروا يتحكمون في البلاد كما لو كانوا سادتها.

تعددت جلساتنا وكثيراً ما كنا نجتمع في المساء معاً بصحبة حسن وسعيد الذي عاد من حرب البلقان إلى حلقة جمال الدين الأفغاني في قهوة متاتيا، وكنا نجد هناك عبد الله النديم، ومحمود سامي البارودي صديق أحمد عراي وسعيد الذي عاد من حرب البلقان ليتولى مديرية الشرقية، بعد أن أنعم الخديوي عليه بعد عودته من الحرب برتبة لواء، كما كنا نجد الصديقين سليم النقاش المؤلف الشامي المسرحي، وأديب زالماتيان الصحفي الشامي الأرمني، أو كما صار يعرف في مصر بأديب إسحاق، أصحاب جريدة "مصر" التي تجلت فيها روح المجتمعين والمتحلقين من حول جمال الدين الأفغاني الوطنية والحماسية، كما كان يحضر المنتقى بعض صحفيين جريدة الأهرام، أما عبد الله أبو السعود أفندي صديق حسن فعلمنا أنه عاد ليحرر القسم السياسي من جديد في جريدة "روضة الأخبار" التي أصدرها ابنه محمد بك أنسي، بعد تعطيل الحكومة صدور جريدته "وادي النيل".

كانت الأحاديث في حلقات الأفغاني تدور دوماً حول الأحداث الأخيرة في مصر، يتجلى فيها مدى الغضب المتنامي من تسلط الأجانب على خديوي البلاد ورقاب العباد، وذات يوم وبينما نحن نتحدث عن لجنة التحقيق الأوربية التي أصر الرقيبان الإنجليزي والفرنسي على تأليفها من فرديناد ديلسيس، والسير ريفرس ويلسن، ورياض باشا، ودي بلنير، وبارافللي، وبارنج (كرومر)، وفون كرمير، لفحص شئون المالية المصرية، وأنها صارت تنتقل في الوزارات والمصالح المختلفة مدققة في حساباتها ومصروفاتها، وتفرض على الموظفين الحضور للتحقيق معهم، دخل علينا البارودي وخلع طربوشه وسألنا: هل علمتم بآخر أخبار اللجنة؟

فقال له عرابي: هات ما لديك.

- اللجنة أرادت استجواب شريف باشا وزير الحقانية والخارجية، في نوع من أنواع استعراض العضلات، لما أبلغها بعض الخبثاء بعدم رضاه عن تدخل الدول الأوربية في شئون مصر بهذا الشكل المهين، ولا إذعان الخديوي لطلباتها الجائرة، فأرسلت إليه تستدعيه، فعرض عليهم أن يجيب على ما يودون السؤال عليه كتابة، فرفضوا وأصرروا على حضوره.

- باللوفاحة، ماذا فعل شريف باشا؟

- رفض أن يذهب، ووقعت أزمة بسبب ذلك، انتهت باستقالته من الوزارة.

قال جمال الدين الأفغاني: بورك الباشا.

أما عرابي فنهض من على كرسیه وهز رأسه في أسى وقال: هل بلغنا من الضعف، أن نفرح ونهلل لوزير وطني يرفض الاعتراف بسلطة الأجانب عليه في بلاده؟

وقلت: كأننا بتنا بلداً محتلاً حقاً، نعجز معه على إعادة الأمور إلى مسارها الطبيعي.

فقال الشيخ محمد عبده: ما الحل إذن؟

- الحل أن نغذي الشارع بالغضب من سياسات الأجانب على أرضه، أن ندعم الخديوي ليتخذ موقفاً مناوئاً منهم، أن نكتب في الصحف ونخطب في المصلين من على المنابر، وندعو المصريين لتلك الوحدة.

ابتسم سليم النقاش وقال: قرأت يوماً قصة للشاعر الدغاري هانز كريستيان أندرسن يتحدث فيها عن الإمبراطور الذي خدعه اثنان من الخياطين بملابس جديدة، كانت من الروعة بحيث لا يستطيع أن يراها الحقيقى من الناس، هكذا تظاهر جميع من في القصر بأنهم يرون تلك الملابس التي لم تكن موجودة في الحقيقة، وراحوا يزايدون في امتداحها خوفاً من اتهامهم بالحق، ومن ضمنهم الإمبراطور نفسه الذي قبل أن يسير في الشارع عارياً على أن يعترف بأنه لا يرى الملابس، في الطريق هتف فتى صغير: "الإمبراطور لا يرتدي شيئاً!" فانفجرت فقاعة الكذب، التي منعت الجميع من الكلام فتهاشم الناس وضحكوا على الإمبراطور، وربما على أنفسهم أيضاً، تلك القصة تلخص الحالة المصرية، المشكلة لم تكن في الخياطين الانتهازيين، معدومي الضمير وحدهم، وهم في حالتنا الأجانب والمرابون، ولم تكن في بطانة الإمبراطور من المنافقين الذين لم ينصحوه وسايروه إلى الهاوية وحدهم، وهم في حالتنا وزراء الخديوي ورجاله، ولم تكن في الإمبراطور الغر وحده، وهو في حالتنا الخديوي الذي

وجد نفسه في هذا الموقف السخيف الذي لا يحسد عليه، فتعزى من سلطاته، واستقلاليته، ونفوذه، ومهابته، المشكلة فيهم جميعاً، وستكون فينا أيضاً إن لم نأت بفعل مناسب.

- الخديوي نفسه لم يكن يوماً بهذا الضعف، وأي موقف مناوئ قد يتخذه من الممكن أن يكلفه عرشه.

فنصمت ونلجم، ونحزن على وطن سادت سماءه غريان سود، وحطت على مزروعاته، حتى لم يعد لدى أصحاب الأرض ما يطعمون به أولادهم.

ثم ينهض عبد الله النديم صائحاً في الجميع: ما هذا اليأس الذي أراكم فيه؟ والله إني أرى الفرج قريب، أنا عائد إلى الإسكندرية وكنت أنوي جمع التبرعات لإقامة مدرسة قومية لتعليم الأيتام، هل تعلمون ما أول الأنشطة التي سأدفع الأطفال لدي إليها؟

صمتنا فاستطرد: التمثيل، مسرحية بعنوان "وطن" .. تظهر فيها آفات المجتمع وكافة الأخطا التي ذكرها سليم النقاش من أجنب وحاشية وحاكم، وسأدعو لمشاهدتها الجميع، سأجعلهم يرون عيوبهم وعيوب مجتمعهم وآفاته، سأعالج بالضحك مشاكل البلاد، وألفت النظر إليها.

ابتسم الأفغاني وقال: تعجبي حماسك يا عبد الله، هذا ما نريده، كل منكم في مضماره يا أبنائي بوسعه أن يخدم وطنه ويعالج مشاكل وطنه بطريقة.

رفعت اللجنة تقريرها إلى الخديوي في 23 أغسطس 1878، وكانت قد أحصت ديوناً جديدة متأخرة على الحكومة لتجار ومقاولين وموظفين وأرباب معاشات فبلغت 6 مليون ومائتي ألف جنيه، بخلاف الدين العام، فعرض الخديوي عليهم أن يتنازل عن أطياف الدائرة السنية الخاصة به،

و288 ألف فدان من أطيان عائلته لسداد الدين، فاعترضوا لكون الدائرة السنية مرهونة لقرض سابق وطلبوا منه أن يتنازل عن أطيان أخرى فقبل طلبهم وتنازل وبعض الأمراء والأميرات عن أطيانهم لسداد الدين الداخلي، وطلبت منه اللجنة أن يحدث تغييراً في نظام الحكم ويتنازل عن سلطاته المطلقة إخلاءً لمسئوليته في المستقبل عن العجز في ميزانية الدولة فقبل، وأرسل إلى نائب رئيس لجنة التحقيق رسالة يقول فيها:

"سير ريفرس ويلسن المحترم

قرأت تقرير لجنة التحقيق، وهو مملوء بالبيانات التفصيلية، ولئن أعوزكم الوقت للتعلم في بعض المسائل، فهذا لا يقلل من جزيل شكري لكم ولزلماتكم الذين أسفت لسفرهم، وكنت أود أن أشكرهم بنفسي، فأرجو منكم أن تبلغوهم تشكراي الجملة.

فيما يتعلق بالنتائج والمقترحات التي انتهت إليها، فإني أقبلها، وطبيعي أن أفعل ذلك، فإني أنا الذي رغبت في هذا العمل لصالح بلادي، وعليّ الآن أن أنفذ هذه المقترحات، وكن على يقين بأني عازم على ذلك عزمًا جدياً، إن بلادي لم تعد في إفريقيا، بل نحن الآن قطعة من أوروبا، فطبيعي أن نطرح الأغلاط الماضية، وأن نسير على نظام يتفق وحالتنا الاجتماعية ونستري عن قريب تغييرات هامة تحدث بأسهل مما تظنون، وقوامها وضع الأمور في نصابها واحترام القانون، ومن الواجب أن لا نكثر من الكلام، وأنا من جهتي قد اعترمت أن أتوخى الحقائق العملية، وإني بادئ عملي بتكليف نوبار باشا أن يؤلف لي وزارة لكي أفتح العهد الجديد، وأبلغ ما أنا عازم على عمله.

وقد يبدو أن هذا التغيير ليس من الأمور الهامة، ولكن سترون أنه إذا حسن فهمه سينشأ منه الاستقلال الوزاري، وليس هذا بالأمر الهين، فإنه أساس نظام جديد في الحكم، وهو خير ما أعطيه من التأكيدات والضمانات على مبلغ ما أنتويه من العمل بمقترحاتكم، وأريد أن تعتقدوا أنكم إذا كنتم قد واجهتم عملاً شاقاً فإن مجهوداتكم لن تذهب عبثاً، لأن كل عمل ينتج ويؤتي ثمره في تلك الأرض الأزلية التي تظللها سماء مصر.

إسماعيل خديوي مصر"

" مسيو وادنجتون وزير خارجية الحكومة الفرنسية المحترم

أكتب إليك لأخبرك بالجديد في عمل لجنة التحقيق الأوربية، كما جرى الاتفاق، سفر رئيس اللجنة المسيو ديلسيس المتكرر إلى باريس، جعل السير ريفرس ويلسن يتصرف كما لو كان الرئيس، وهو لا يرى في مصر موظفين أكفاء سوى مواطنيه الإنجليز، وأنه من الواجب مضاعفة عددهم، ووضع المصريين تحت حماية إنجليزية، وفي خلال اجتماع لجنة التحقيق ذاعت في القاهرة شائعة بأنه بعد الانتهاء من عمل اللجنة ستظهر في الأفق فكرة تعيين وزير أجنبي، وأن هذا الوزير سيكون السير ريفرس ويلسن ذاته، فهذه الأخبار وغيرها جعلتني قليل الثقة في مقاصد حلفائنا، فإن المسألة موضع النظر ليست في الواقع مصالح الدائنين وتسوية الشئون المالية، بل صارت تتناول مصير مصر بأكملها، من أجل ذلك يبدو المستقبل أمامي في صورة تدعو حقاً إلى أشد القلق.

دي ميشيل

القنصل الفرنسي العام في مصر"

"بارون دي ميشيل قنصلنا العام في مصر

تلقيت رسالتك باهتمام بالغ، وقد تفاوضنا مع حلفائنا الإنجليز وجرى الاتفاق على مطالبة الخديوي بتعيين وزيرين فرنسي وبريطاني في الحكومة المصرية بدلاً من مراقبين للمالية، اتفق على أن يكونا المسيو دي بلينير وزيراً للأشغال، والسير ريفرس ويلسن وزيراً للمالية

وادنجتون

وزير الخارجية الفرنسية"

وفي 28 أغسطس طلب الخديوي من نوبار باشا أن يختار وزراءه، وينشئ مجلساً للنظر يكون رئيسه، ويخول إليه مسؤولية الحكم والتصرف، وكان اختياره لنوبار باشا دقيقاً لميوله الأوروبية، وراحة الأوربيين في التعامل معه، لدرجة دعمهم أن يرشحوه لمنصب حاكم بلغاريا قبل ذلك بعام، لولا اشتعال حرب البلقان بين الروس والعثمانيين، بعكس وزيريه شريف باشا، والمرحوم إسماعيل باشا صديق من قبله فكانا دائمي الصدام بالأوربيين، عرض نوبار باشا على شريف باشا أن يشترك في الوزارة متولياً وزارة الحرية فلم يقبل لوجود عضوين إنجليزين، وتكونت الوزارة من نوبار باشا رئيس النظر وناظر الخارجية والحقانية، وراتب باشا ناظر الحرية، ورياض باشا ناظر الداخلية، وريفرس ويلسن ناظر المالية، ودي بلينير ناظر الأشغال، وعلي باشا مبارك ناظر المعارف والأوقاف.

حيث قام ويلسن بإسناد جميع المناصب الإدارية في وزارته إلى الأوربيين وبالأخص الإنجليز حيث أغدقت عليهم الرواتب الضخمة، على أن أول أعمال الوزارة الجديدة كانت عقد قرض جديد من بنك روتشيلد الإنجليزي، بشروط مجحفة فكان كالحيل الذي ترك ليلنف حول عنق الدولة المصرية، فكان مقداره الإسمي 8 مليون ونصف جنيه، بينما قيمته الحقيقية أقل من 6 ملايين، استخدم لدفع بعض أقساط الديون، دون أن

تسدد الرواتب المتأخرة للموظفين، أو أن يخصص منه شيء لمرافق البلاد، وما هي إلا بضعة شهور حتى قررت الوزارة إنقاص عدد الجيش وإحالة 2500 من الضباط إلى الاستيداع بعضهم لم يتلق راتبه من عشرين شهراً، وكان من بينهم عرابي الذي كان حينها برشيد فصدرت إليه الأوامر بالعودة إلى القاهرة وتسليم عهده من الأسلحة والمهمات، شأنه شأن باقي زملائه في مخازن القلعة وثكنات العباسية، وتسريح الجنود الموجودين تحت إمرته، فنفذ عرابي الأمر، غير أن رد فعل باقي الضباط في القاهرة كان عنيفاً فقد غادر نحو 600 ضابط وألف جندي ثكناتهم وساروا بصحبة طلبة المدارس الحربية وعدد من أساتذتها، في 18 فبراير 1879 متوجهين إلى وزارة المالية، سرعان ما انضم لهم أربعة من أعضاء مجلس شورى النواب يركبون حميرهم، فلما وصلوا إلى وزارة الخارجية التي كانت على مقربة من المالية لحوا نوبار باشا خارجاً منها راكباً عربته فأحاطوا به وسدوا عليه الطريق، فأمر سائقه بالمسير، وضرب السائق الجياد بسياطه، فأنهال عليه الضباط ضرباً وألقوه عن مقعده، وهجموا على نوبار باشا وأمسكوا بتلابيه، وطرحوه أرضاً، واعتدوا عليه بالضرب، فلما شاهدهم ريفرس ويلسن وكان قاصداً المالية، أقبل لنجدته، وضرب المتظاهرين بعصاه، فلم يكن منهم إلا أن هجموا عليه وأحاطوا به أيضاً، وشدوه من لحيته، وأدخلوه هو ونوبار باشا إلى الوزارة التي اقتحموها واحتلوها، حيث حبسوا كل من نوبار باشا ورياض باشا والسير ريفرس ويلسن والموظفين الأجانب في إحدى غرف الدور العلوي.

طار القنصل الإنجليزي فيفيان بعربته إلى سراي عابدين، وقص على الخديوي ما حدث وطلب منه التدخل الفوري وإنقاذ الموقف، فركب الخديوي عربته بصحبة القنصل الإنجليزي، ومن حوله الحرس الخديوي

وسار إلى مكان المظاهرة، فلما شاهده المتظاهرون هدأت ثائرتهم واستشعروا هيئته وأفسحوا له الطريق، فوقف بينهم وهدأ من غضبهم ووعدهم بحل مشاكلهم، وصرف رواتبهم، حتى إن اضطر لدفعها من جيبه الخاص، فصاح أحد الجنود مطالباً بالحل الفوري، فعلا هياج البعض من جديد، وأراد أحد الجنود أن يمسكه من ذراعه، فأجفل الباشا وأمر بفض المظاهرة بالسلاح، فأشهر الحرس سلاحهم، وحدث تراشق بالنيران بين الطرفين، وأصابت ضربة سيف من أحد الضباط التشريفاتي المصاحب للخدوي، وانتهى الأمر بتفريق المتظاهرين في الشوارع وتم إطلاق سراح الرهائن، وأمر الخديوي بعودتهم إلى منازلهم في حراسة حرسه الخاص.

أعادت الحادثة الأمل للخدوي أن يسترد سلطاته ومجده الماضي الذي انتزعه منه المراقبان الأوروبيان ونظارة نوبار، فصارح القناصل أنه لا يمكن له أن يكون مسئولاً عن الأمن العام دون أن تعود له سلطاته ويستقبل نوبار باشا، فاستقال نوبار باشا، واستدانت الحكومة 400 ألف جنيه من بنك روتشيلد دفعت بها متأخرات الضباط، وأقر المجلس العسكري التأديبي ببراءة كل من اشترك في الثورة.

طلب الخديوي أن يتولى بنفسه رئاسة الوزارة الجديدة لكن القنصلين عارضوا الطلب، فأسند الخديوي الوزارة إلى نجله وولي عهده الأمير توفيق في 10 مارس 1879 ققبلا، على أنهما رفضا حضور الخديوي جلسات المجلس، تبع ذلك اجتماع الخديوي مع عدد من الضباط في سراي عابدين كان من بينهم عرابي الذي عين ياوران بعية الخديوي، ثم قائداً للآلاي الرابع المستجد.

وفي 22 مارس تألفت الوزارة بعضوية الأمير توفيق رئيساً، رياض باشا للدخالية والحفانية، السير ريفرس ويلسن للمالية، ذو الفقار باشا للخارجية،

أفلاطون باشا للحرية، علي باشا مبارك للمعارف والأوقاف، ودي بلينير للأشغال العمومية، وتقدم مجلس شورى النواب بالعديد من طلبات الاستجواب لناظر المالية فلم يحضر، وعهد إلى رياض باشا أن يتوجه إلى المجلس ويعلمه أن مدة نيابته قد انتهت بحسب المرسوم الخديوي فنار النواب لعدم الاستجابة لطلبات الإحاطة قبل انتهاء مدة انعقاد المجلس، وظهرت المطالب بإسقاط الوزارة التي يسيطر عليها الأوربيون وإقامة وزارة وطنية جديدة، وفي 2 أبريل 1879 اجتمع عدد من نواب المجلس والأعيان والعلماء في دار إسماعيل راغب باشا، وفي حضور شريف باشا الذي بات ينظر إليه كبطل شعبي مخلص، وشاهين باشا، حيث اتفقوا على وضع لائحة وطنية تتضمن مشروع تسوية مالية تقوم على أساس أن إيرادات الحكومة تكفي مصروفاتها وأداء أقساطها، معارضين بذلك خطة ويلسن لإعلان إفلاس البلاد واستمرار نفوذ المراقين الأوربيين فيها، كما طالبوا بتعديل نظام مجلس شورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها في المجالس النيابية الأوربية، حيث وقع المجتمعون على اللائحة وأرسلوها إلى الخديوي فقبل الخديوي باللائحة وأمر بترجمتها وإرسالها إلى قناصل الدول، ووقع على النسخ مندوبون عن فئات الأعيان والنواب والعلماء والضباط.

تمهيداً لذلك استقال الأمير توفيق وعهد الخديوي إلى شريف باشا تأليف وزارة جديدة، وفي 7 إبريل اجتمع الخديوي بالقناصل الأوربيين في وجود المندوبين عن طوائف الأمة، وأبلغهم في الاجتماع بتفاصيل اللائحة الوطنية التي رفعت إليه وقبلها، وأن الأمير توفيق رغبة منه في عدم مصادمة عواطف الأمة استقال من رئاسة الوزارة وأنه عهد إلى شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة، فاحتج الوزيران الأوربيان، ولم يكثرث الخديوي لاحتجاجهما، وأمر شريف باشا في اليوم نفسه بتشكيل وزارة وطنية لا

وجود فيها لعناصر أجنبية، فألف وزارة جعل على ماليها إسماعيل راغب باشا، وشاهين باشا للجهادية، وزكي باشا للأشغال العمومية، وذو الفقار للحقانية، ومحمد ثابت باشا للمعارف والأوقاف، وعمر لطفي باشا لتفتيش عموم الأقاليم البحرية والقبلية، واحتفظ شريف باشا لنفسه برئاسة وزارتي الخارجية والداخلية في 8 إبريل، وفي 9 إبريل ابتهج المصريون وأقيمت الاحتفالات، وتوجه الأعيان والتجار والنواب والمشايخ وبطريك الأقباط بعد الظهر إلى سراي عابدين لتقديم واجب الشكر للخديوي، وشرع شريف باشا في إقامة أول دستور لمصر كان من مبادئه أن يخول لسكان السودان حق انتخاب ممثليهم في مجلس النواب الذي اتسعت صلاحياته فصار جمعية تأسيسية تضع الدساتير، وينظر في ميزانية البلاد ويقرها، وفي يوم 10 إبريل تقدم أعضاء لجنة التحقيق الأوروبية باستقالة جماعية احتجاجاً على تأليف وزارة وطنية تخلو من العناصر الأوروبية.

وفي 22 إبريل أصدر الخديوي مرسوماً بتسوية الديون طبقاً لما قرره اللانحة الوطنية، وظلت كل من فرنسا وإنجلترا عاجزتين قرابة شهرين أمام الدعم الشعبي الذي استجاب له الخديوي، ولم يستفهما ويدعوهما للتحرك إلا ألمانيا التي كانت أول من تحرك وهي تريد بذلك أن ترفع من شأنها كإمبراطورية جديدة بأن تحقق انتصارات سياسية، بعد انتصاراتها العسكرية في أوروبا، فقدم القنصل الألماني في 18 مايو احتجاج حكومته على المرسوم الخديوي، تبعه القنصل النمساوي في 19 مايو، ثم القنصل الإنجليزي في 7 يونيو، ثم القنصل الفرنسي في 11 يونيو، ثم القنصل الإيطالي في 15 يونيو، ثم أرسلت إنجلترا وفرنسا قنصليهما السير فرانك لاسل، والمسيو تريكو

لإبلاغ الخديوي نصيحتهما له بالتنازل عن العرش والرحيل عن مصر، وأثما متفتتان في حالة قبوله نصيحتهما أن يضمنا له مخصصات سنوية لاثقة به، وأن لا يحصل تغيير في نظام توارث العرش، ففوجئ الخديوي بالتطور الذي لم يتوقعه، وطلب مهلة يومين ليفكر في العرض، ولما انقضى اليومان جاءه القنصلان فأجابهما أنه عرض الأمر على السلطان وينتظر رده، ثم جاءه قنصلا ألمانيا والنمسا وطلبا منه التنازل فأجابهما بالمثل، وأوفد طلعت باشا أحد رجال حاشيته ليستميل رجال المابين لجانبه وزوده بالمال، لكن السلطان العثماني الجديد عبد الحميد الثاني نأى عنه.

وفي ليلة 24 يونيو ورد إلى المسيو تريكو برقية من الآستانة فحواها أن الباب العالي قرر عزل الخديوي، توجه على إثرها السير فرانك لاسل القنصل الإنجليزي، والمسيو تريكو القنصل الفرنسي، والبارون دي سورما القنصل الألماني إلى سراي عابدين، بصحبة شريف باشا، وطلبوا مقابلة الخديوي، وكان بشر أغا هو من أيقظ الخديوي وأعلمه بمطلب القناصل الأوربيين في مقابلته بعد منتصف الليل، فنهض الباشا من على سريره وغسل وجهه وطلب الشماشرجي الذي ساعده على ارتداء ملابسه، وبينما هو خارج من غرفته إلى ردهة داخلية فوجئ بوالدته خوشيار قادين، وعدد من زوجاته، وبناته في أثواب نومهن يرجونه ألا يذهب، وأنهن يخشين عليه مكروها، وأثما ربما تكون مكيدة للتخلص منه، فطمأنهن وهبط الدرج قلقاً وسألهن: خيراً؟

فأجابه القنصل الإنجليزي: أنهم أتوا إليه ليطلبوا منه التنازل عن العرش. دارت عيناه في وجوههم وسألهن: هل جئتم في تلك الساعة المتأخرة من الليل لتطلبوا مني ذلك؟

فأجابه القنصل الفرنسي إيجاباً.

نظر إليهم بتمعن حتى أيقن أن الأمر حتماً جاد ولا بد أنه جاءهم أخبار جديدة فقال في إباء: جوابي إذن هو رفض مطالبكم.

انسحب القناصل وسأل الخديوي شريف باشا مستفهماً عما حدث، فأجابه أنهم مروا بمزله، وطلبوا منه أن يصحبهم في طريقهم إلى السراي، وأنه لديهم أوامر مشددة لا تقبل التأخير على مطالبة الخديوي بالتخلي عن الحكم، فاغتم الباشا وانقبض وأيقن أن أيامه في ولاية مصر ربما باتت معدودة، فلم يرد التراجع عن موقفه الداعم لللائحة الوطنية، ويخسر ما حازه، وما تبعه قراره من ارتياح شعبي عام في البلاد.

وفي صباح يوم 26 يونيو وفي غرفة زكي باشا السرتشريفاتي، بالدور الأرضي من سراي عابدين، وفي حضور خيري باشا المهردار، استلموا تلغرافاً من الآستانة، انقبضوا حين قرأوا أول سطوره، وكان نصه:

"إلى سمو إسماعيل باشا خديوي مصر السابق.

إن الصعوبات الداخلية والخارجية التي وقعت أخيراً في مصر قد بلغت من خطورة الشأن حداً يؤدي إستمراره إلى إيجاد المشاكل والمخاطر لمصر والسلطنة العثمانية، ولما كان الباب العالي يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهلين من أهم واجباته ومما يقضي به فرمان الذي خولكم حكم مصر، ولما تبين أن بقاءكم في الحكم يزيد المصاعب الحالية، فقد أصدر جلالة السلطان إرادته بناء على قرار مجلس الوزراء بإسناد منصب الخديوية المصرية إلى صاحب السمو الأمير توفيق باشا، وأرسلت الإدارة السنية في تلغراف آخر إلى سموه بتنصيبه خديوي لمصر، وعليه أدعو سموكم

عند تسلمكم هذه الرسالة إلى التخلي عن حكم مصر احتراماً للفرمان السلطاني"

اربد وجه زكي باشا وأشار إلى خيري باشا بالبرقية قائلاً: خذها إلى جناب الخديوي.

فأشاح خيري باشا بيديه متراجعاً إلى الخلف: لا أستطيع أن أحملها إليه، إن هذا من شأن الوزراء.

وبينما هما على جدالهما يعجزان عن حل الخبر المشؤم إلى الخديوي، دخل عليهما شريف باشا فتركزت إليه أبصارهما في وجوه مصفرة، فسألهما: ماذا حدث؟

ناوله زكي باشا الرسالة التلغرافية وهو يقول: وصلت الآن من الآستانة.

قرأ شريف باشا السطور بسرعة، فحزن لما قرأه، ووجد أنه من واجبه أن يسلمها بنفسه إلى الباشا فسألهم: أين الباشا الآن؟

فأجاباه: في مكتبه بالدور الثاني.

صعد شريف باشا درجات السلم الرخامية بخطوات متتدة، حتى وصل إلى الغرفة المكتيبة للخديوي فوجد بابها مفتوح، على أنه طرقه طرقات ثلاث، فانتبه إليه الخديوي، وقال: تفضل، يا شريف باشا.

دخل شريف باشا على الخديوي في خطوات بطيئة يحمل في يده ورقة مطوية، فبدا لوهلة كمن يؤدي فقرة في مشهد جنائزي، جعل القلق يسري في نفس الخديوي من الهيئة التي قدم بها الرسالة إليه، ففضها وقرأها في

هدوء، فتجلد ورفع عينيه دون أن يبدي أية ردة فعل وقال له: ادع الأمير توفيق للحضور في الحال.

فخرج شريف باشا إلى سراي الإسماعيلية حيث كان الأمير توفيق هناك فوجده ممسكاً برسالة فحواها:

"إن جلالة مولانا السلطان قد أصدر إرادته الهمايونية بتعيينك خديوي مصر، وسوف يرسل لك الفرمان الشاهاني بالكيفية الرسمية المعتادة، وقد كلف إسماعيل باشا بتلغراف آخر بالانسحاب من شئون الحكومة، فيلزمك بناء على ذلك، حالما تصل الرقية إليك أن تستدعي جميع العلماء، الموظفين ووجهاء البلاد وأعيانها ومستخدمي الحكومة، وتبلغهم مضمون الإرادة الشاهانية الخاصة بتعيينك، وتباشر شئون الحكم حالاً، فإن هذا التعيين السامي العادل مكافأة لكفاءتك، وسيكون ارتقاؤك السدة الخديوية بدء عهد نظام ورقيّ يسود على القطر الملقاة زمام شئونه إلى حكمتك"

كان الأمير يجاهد في إخفاء سعادته، حين دخل عليه شريف باشا وانحنى لتحيته باسماً وقال له: جناب الباشا والدمك ينتظركم في سراي عابدين.

ركب الأمير توفيق بصحبة شريف باشا وبقي شريف باشا في الدور الأرضي بينما صعد الأمير توفيق إلى غرفة أبيه في الدور العلوي، وكان لا يزال جالساً على كرسيه، فلما أحس بوقع خطوات تقترب رنا ببصره فإذا هو ولده الأمير توفيق قد أقبل عليه فنهض إليه باسماً وأخذ يده ولثمها قائلاً: إني أسلم على أفندينا!

فتأثر الشاب كثيراً بترحاب والده، وأراد أن يقبل يده فمنعه، وربت على كتفه وهو يقول: أعلم أنك ستجعلني فخوراً بك، ثم قبله على وجنتيه، وقال له بتأثر: أتعنى أن تكون أوفر حظاً وأكبر سعادة من أبيك.

قبل أن ينحني أمامه، وينسحب إلى دائرة حريمه، تاركاً ابنه من خلفه يكاد يبكي تأثراً من موقف أبيه.

ثم أصدر إسماعيل أوامره الأخيرة إلى حاشيته قبل أن يختلي بنفسه، أن يتم الإعداد لمراسم تقلد السلطة في قلعة الجبل ليلاً، وفي حضور مندوبين عن القطر المصري مثلما أمرت الإرادة السلطانية، وفي المساء دوت المدافع طلقاتها واستقبل الخديوي الجديد المهنيين، من كبار الأعيان، والقناصل الأوروبيين، في القاعة ذاتها التي استقبلهم فيها والده منذ ست عشرة سنة، وفي تلك الليلة وبعد انتهاء الاحتفالات أخطر إسماعيل ابنه أنه يود السفر في 30 يونيو إلى قصره الذي اشتراه في الآستانة، أو إلى أزمير، على أن السلطان عبد الحميد الثاني، خشي من جبرته، وتدخلت الخارجية الإنجليزية متوسطة، فلما علم ملك إيطاليا امبرتو برفض عبد الحميد استضافة إسماعيل رحب به في بلاده وكان صديقاً لوالده فوضع تحت تصرفه قصر الفافوريتا بيوريتشي في نابولي.

وكان يوم رحيله يوماً مشهوداً فقد ازدحمت سراي عابدين منذ الصباح بالكبراء والأعيان، وكان بصحبة ابنه توفيق منذ الصباح، وفي الحادية عشرة خرج متوكناً على نجله، كأن الحزن أضعفه فجأة وفت في عضده، وأمضه، وركب العربّة والخديوي توفيق إلى يساره، ثم توالى الأمراء والكبراء في ركوب عرباتهم في أثرهما، وسار الموكب حتى بلغوا محطة القطار، وكان الجند طوال الطريق إلى المحطة مصطفين على الجانبين، فترجل إسماعيل ووقف توفيق يودعه بعينين مغرورتين بالدموع، فقال له بعد أن عانقه وهو يجهش بالبكاء: لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون يا

أعز البنين خديوي مصر، فأوصيك ياخوتك، وسائر أهلك برأ، واعلم أي مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المضاعب التي أخاف أن توجب لك الارتباك، على أي واثق بمزكم وعزكم، فاتبع رأي ذوي شورك، وكن أسعد حالاً من أبيك.

ثم التفت إلى الحاضرين وقال: إني وأنا تارك مصر أعهد بالخديوي ابني إلى ولائكم وإخلاصكم.

فتقدم منه توفيق وقبل يده مودعاً، فاحتضنه أبوه، وسلم على الأمير فؤاد وكان في الحادية عشر من عمره، بينما صحبه الأميران حسن وحسين، أما إبراهيم حلمي فكان في إنجلترا، ثم ركب القطار بين نجيب نسوته، وزغاريد بعض نسوة إسماعيل المفتش الشامة، وتحرك به القطار يقطع سهول الدلتا الخصبة، فيجول الباشا بعينيه المغرورتين بالدمع فيها مودعاً، حتى إذا ما وصل إلى الإسكندرية، هبط في محطتها واتجه إلى يخت الخروسة، وكان في انتظاره كبار رجال الجاليات الغربية فسلم عليهم وشكرهم، ثم استأذنهم فدخل مخدعه ودفن همه وحزنه في غرفته، وما هي إلا نصف ساعة حتى رفعت الخروسة مراسيها، وأطلقت إحدى الطوابي المصرية مدافعها، وكذلك فعلت إحدى السفن الإنجليزية، تحية للمسافر الذي توارى نجمه مع غروب الشمس.

لم تعد الأميرة فاطمة منذ لقائها الأخير بأحمد إلى عهدها المنصرم أبداً،
فقد انفجر الفؤاد بعيون الشوق، وانبجس في الحشى ما اندمل من جراح،
واستبدت بالجسد الناحل تباريح الهوى وويلات العشق، فعصف بها الحزن
مثلما يُعصفُ السَّافُ من الريح.

كانت تظن أنها تخلصت نهائياً من حبه بعد كل تلك السنوات، ثم عاد
إليها فجأة في لحظة لم تكن مستعدة أو متقبلة فيها ظهوره المفاجئ، فامتنعت
وأحجمت عنه.

كان عليه أن يدرك ما تمر به ولا ييأس أو يقنط من طلبها، كان عليه
أن يكون أكثر إلحاحاً وإصراراً. لم يكن عليه أن يعاود الإختفاء مثلما سبق
وفعل. ظلمها مرة بإختفائه وهاهو يظلمها مرة أخرى.

ترى أين أنت الآن يا أحمد؟ هل كتب علينا أن نظل على شقائنا إلى أبد
الآبدين؟ قضت الشهور الأخيرة تحاول أن تتلمس أخباره مرة أخرى فلم
تجد من يعرفه، جميع من كانوا زملائه بالقصر قديماً تغيروا بعد كل تلك
السنوات.

فرت دمعة متمردة من عينيها وهي بالشرفة ذابلة العود، ذوت شعلتها
كشمس يظللها الغمام، جامدة تطالع قمراً تخنقه الغيوم، دون أن تشعر
بأمها التي وقفت تراقبها وتطالع فيها تصاريف الوجد والصبابة بعينين
فاضتا دمعاً لواماً أيقظ لديها حنان الأم وحدها على ابنتها، وهي التي
كانت تظن أن عشق ابنتها الغريبة لا بد له أن يبرئه تعاقب الأثرمان (الليل
والنهار) ودوران الزمان.

اتجهت شهرت فزا هانم بخطوات وثيدة إلى ابنتها حتى حاذتها وأراحت
باطن يدها على ظهرها فاقشعرت فاطمة لفورها واركد بصرها فجأة إلى
أمها التي بادرتها بصوت يحمل الكثير من الألم: لم أكن أدري أنك تحبينه إلى
هذه الدرجة.

طفرت الدموع من مقلتيها دون أن تحجب، حاولت أن تمنعها وتتجلد
دون أن تفلح فاستسلمت نهاية الأمر إلى صدر أمها الدافئ تسقيه دمعاً
منهمراً فياضاً.

- آه يا حبيبي .. سامحي أمك المسكينة .. لم أدرك كنه ما تمرين به ولم
أتخيل أنك معلقة به إلى هذا الحد.

- القلب محطم بين غياب الأب، وهجران الحبيب.

أمسكت شهرت هانم بذقن ابنتها الدقيق بين أصابعها لتنظر في وجهها
ملياً وهي تقول: أما الأب فبوسعك أن تزوريه متى شئت، وأما الحبيب
فخير لك أن تتزوجيه .. من يدري فربما تحمل لك تلك الزيجة راحة القلب
وهناء الحال.

أطرقت فاطمة وأطلت من عينيها نظرة حيرانة قبل أن ترتد كسيفة
البال وهي تقول: محال أن يسمح أخي توفيق بهذه الزيجة.

- اتركي توفيق لي .. سأحدث معه ومع أمه فهي صديقتي، سأخبرهما أنه من شأن زيجة كهذه أن تهدئ من العلاقة المضطربة بين الخديوي والجيش بعد ثورتهم الأخيرة عليه وتعيدها إلى ما كانت عليه.

- هل تظنين أنه قد يقبل حقاً؟

- لازلت لا تقدرين أملك حق قدرها.

- لكنني لا أدري شيئاً عن مكانه أو عنوانه.

- أما ذلك فأمره سهل، سأرسل في طلب محمود سامي البارودي ناظر الحربية، وأسأله عنه، لا بد أن لديهم سجلات بأسماء جميع الضباط. أنا حتى بلغني أن الخديوي سيعهد إلى البارودي تأليف الوزارة الجديدة، وأن هذا سيعين أحمد عرابي نفسه خلفاً له في النظارة.

- ألم يكن عرابي قائد التمرد؟

- صحيح .. الأمور في سبيلها للتحسن، لذا أجد أن الفرصة مناسبة.

ابتسمت فاطمة وأطل السرور من عينيها أخيراً وأفعم قلبها بالسعادة فاغرورقت عيناها بالدمع وأغرقت وجه أمها بالقبلات وهي تتقافز فرحاً وتمني نفسها بعمر جديد بصحبة حب لا يشيخ.

كانت الأيام توحى أن الخديوي الجديد قد لان أخيراً، وقبل بمطالب الضباط في دستور جديد كالذي تقدم به شريف باشا، والسماح لمجلس النواب بمناقشة الميزانية، وزيادة عدد أفراد الجيش، وفتح باب الترقى أمام المصريين، حتى أنه قبل بارتقاء عرابي نفسه كأول مصري نظارة الحربية.

وابتسمت الحياة أخيراً أمام تلاميذ جمال الدين الأفغاني الذي سارع الخديوي توفيق في بداية عهده إلى اعتقاله في 24 أغسطس سنة 1879 وهو ذاهب إلى بيته بصحبة خادمه حين بات ليلته في الضبطية دون أن يتمكن من أخذ ثيابه، وحمل في الصباح في عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديدية، ومنها نقل تحت الحراسة إلى السويس، ثم إلى باخرة أقلته إلى الهند، فهاهو البارودي قد صار رئيساً للنظار، وهاهو عرابي قد صار ناظراً للحرية، وهاهو عبد الله النديم ويعقوب صنوع قد صارا صحفيين مخلصين وكاتبان لا يشق لهما غبار.

وبالنسبة لكبار ضباط الجيش من أمثال أحمد، وراشد حسني، وعبد القادر زميله في مديريةية خط الاستواء، وعبد العال رفيق دراسته القديم الذي اشترك مع الآلاي السوداني في محاصرة سراي عابدين خلف عرابي، فقد اختمر الأمل في نفوسهم أخيراً لأجل مستقبل أفضل للبلاد، على أن المرء لا يدرك كل ما يتمناه، ولطالما أتت الرياح بما لا تشتهي السفن.

ما إن علمت إنجلترا وفرنسا بترقي عرابي وزملائه النظارات حتى أرسلتا أسطولييهما إلى الإسكندرية وقدمتا مذكرة بتاريخ 25 مايو 1882 تطالبان فيها بإقالة وزارة البارودي وإبعاد عرابي عن مصر فاستجاب الخديوي للمذكرة واستقال البارودي احتجاجاً، وشكلت وزارة جديدة برئاسة راغب باشا ظل فيها عرابي ناظراً للحرية، وفي 11 يونيو 1882 استغلت إنجلترا وقوع مشاجرة في الإسكندرية بين مكاري من مالطة ومصري راح ضحيتها عدد من المصريين والأجانب فاقم الإنجليز عرابي بأنه وراء ما حدث ووجهوا له إنذاراً أخيراً لفك بطاريات المدافع من طواحي المدينة، فرفضت الحكومة المصرية وقابل الخديوي توفيق أحمد عرابي وشجعه على الجهاد، في وقت راسل فيه سرّاً القوات البريطانية وطلب منها

القضاء على تهديد عرابي الذي شرع في إقامة التحصينات عند كفر الدوار ودمنهوور.

استدعى عرابي فرديناند ديلسيس وأخيره باعتزامه ردم مدخل القناة ليحول دون دخول الإنجليز البلاد، لكن الأخير تعهد له ألا يتزل الإنجليز قواهم إلى القناة أو يخرقوا حرمتها الدولية وإلا أنزلت فرنسا قواها إلى جانب مصر، وفي فرنسا نشب النزاع حين تقدم دي فريسنيه رئيس وزراء فرنسا إلى مجلس النواب في باريس بفتح اعتماد لإعداد الحملة الحربية للدفاع عن القناة، فلم يجبه المجلس إلى طلبه فاستقال في أول أغسطس سنة ١٨٨٢.

وفي 11 يوليو، الساعة 7:00 صباحاً، كانت المدرعة الإنجليزية أليكساندرا أول من قصف طواحي المدينة. حمى الوطيس بين حاميات مريوط، والمكس، وصالح، وقلعة الفنار، ورأس التين، وحصن قايتباي، وحصن نابليون، وبين المدرعات الإنجليزية الضخمة، وذهل السكان وفرغوا لسماع أصوات القذائف المتتابعة، فصاروا يجمعون عتادهم ويهربون مذعورين، لا يلوون على شيء، كفراخ حبيسة دخل عشها وحش مفترس، وقد بهتوا وفجعوا لمرآهم مسجد قايتباي يتهدم.

توالى الضربات الإنجليزية المتتابعة على استحكامات المدينة، فتطايرت الحجارة ومزقت الأجساد إلى أشلاء، هدمت جميع الطواحي وبقيت طابية صالح وحدها تكافح في إطلاق قذائف يائسة عبر مدافع دون مساطر لقياس المسافات، فأصلاها الأسطول الإنجليزي سعيراً حتى ارتجت وهدت جثة هامة كبقية القلاع، وفي 13 يوليو نزلت القوة البحرية الإنجليزية

المدينة، وتحصن عرابي وجيشه في كفر الدوار قاطعاً عليهم الطريق إلى العاصمة، وفي 24 يوليو استقبل الخديوي توفيق في قصر الرمل بالإسكندرية الأمiral بوشامب سيمور قائد الأسطول البريطاني حيث وضع سلطته لخدمة القوات البريطانية وأرسل إلى عرابي يستدعيه كي يمثل أمامه في قصر رأس التين الذي انتقل إليه وسط حماية الفرقة الكندية، فلما رفض عرابي المثول بين يديه، أعلنه الخديوي خائناً ومتمرداً.

صمدت استحكامات عرابي في كفر الدوار أمام الهجوم الإنجليزي خمسة أسابيع مما استدعى الحكومة البريطانية إلى إرسال قواتها بقيادة ولزلي المؤلفة من 24 ألف جندي بريطاني من قبرص ومالطا و7 آلاف جندي هندي من عدن مقابل 15 ألف من الجنود النظاميين المصريين والسودانيين ووحدة سلاح الإشارة التلغرافية وأغلبها من العاملين في مكاتب البريد التطوعين للقتال. رأت بريطانيا أنه لا سبيل لها لاختراق البلاد من الشمال لذا اتجهت بجيشها إلى الشرق وأنزلتهما في منطقة القناة التي تم احتلالها بـ 40 سفينة حربية دون تدخل من فرنسا.

ما إن علم عرابي وقادته بالزول البريطاني في القناة حتى تحرك بجيشه وهاجمهم في القصاصين في 10 سبتمبر فأربكهم، وما إن وصلت إليهم إمدادات لواء المرتفعات الأيرلندي وقوات الحرس السابع حتى انسحب ومركز جيشه في صحراء التل الكبير، قام الفلاحون بمساعدة محمود باشا فهمي كبير المهندسين في رص المدافع وإقامة استحكامات ومتاريس من رمل وطن وهم يغنون الأناشيد ويلقون النكات على الإنجليز الذين سبق وأن هزموا في مصر أيام فريزر، وحينما انتصفت الشمس في كبد السماء أناخ الشيخ سعيد الطحاوي دليل الجيش وزعيم قبيلة الطحاوية التي

أعادها الخديو إلى البلاد بعد أن أجلاها سلفه سعيد، جملة وربطه من رسنه ليرفل في عبائه البدوية ويقدم ولانه إلى أحمد عراي ويخبره أن أدلته أكدوا له أن الإنجليز لن يبادروا إلى الهجوم قبل أسبوع.

جنى الليل وأسدل ستائره الداكنة التي انبسطت على أرض يبابا كثوب برقشته خيام الجيش وبضع شعلات تناثرت من حولها وضمت سامري الليل وحراس المعسكر. لف السكون الأرجاء وهددت الحركة فخلت الصحاري إلا من زواحف أو قوارض خرجت لتصيد، أو صوت ربح في دوامات هوائية صغيرة أخذت تلهو بذرات الرمل وخفيف الحصباء فتشتت وتوعد في مهدها قبل أن تنمو وتعلو وتفيض.

وعلى إحدى الآكام الترابية المترامية جلس أحمد متكئاً على مخلاته، سادراً في ملكوت الله، شاخصاً إلى السماوات الغبشاء، يناجي القمر فتشاغله النجوم، ويغازل النجوم فيزاوره القمر تغنجاً. وكان كلما كرر هذه المطالعة البهية، والغزل السحري ترف على شفثيه سحابة ابتسامة نشوانة.

- من وجد أحبابه، نسي أصحابه.

تطلع أحمد إلى سعيد القادم بصحبة عبد العال، ومحمود سامي البارودي فابتسم مرحباً وهو يقول: من لديه أصدقاء مثلكم، لا يمكن أن ينساهم. فبادره البارودي قائلاً: ستسنانا يا عزيزي، كلها أيام وتزوج سمو الأميرة وتشمخ بأنفك عن مصاحبتنا.

- لكنت أنت شمخت بأنفك يا بارودي حين توليت رئاسة النظار.

فقال سعيد: أخيراً بات منالك قريب التحق يا صديقي، شهرت فزا
هانم سلمت بزواجك من ابنتها، والحدوي الخائن سيطلب الشعب
ياعدامه فور انتصارنا على من خالفهم وباع لأجلهم دينه ووطنه.

وأردف عبد العال: عراي يستحقها، فهو لا يطلب جاها ولا يهمه من
هذه الدنيا إلا صلاح وطنه.

سألهم أحمد: أين هو الآن؟

فأجاب البارودي: تركته في خيمته يقرأ الأوراد والأذكار، ولما طلبت
منه أن ينام أجابني أنه سيغفو قليلاً بعد أن يصلي الفجر.

- نحن في الهزيع الأخير من الليل وقد اقترب أذان الفجر.

- دعونا نتوضأ لنصلي معاً إذن.

غير بعيد أمر ولزلي قواته أن يتركوا المشاعل في المعسكر كما هي،
ويتحركوا في الظلام بصحبة أبناء قبيلة الطحاوية المسلحين خلف شيخهم
سعيد الطحاوي الذي شروا ذمته بمجنهات من الذهب سرعان ما
سيكتشف أنها نحاس مطلي، فمروا من طريق أخلاه لهم إبراهيم عبد الرحمن
حسن قائد فرقة استطلاع السواري، والقائم مقام راغب ناشد وقد أنارته لهم
مصاييح علي يوسف باشا التركي قائد قلب الجيش، وكانوا جميعاً قد
وعدوا بالذهب الإنجليزي.

استمر مسير الجيش الغازي حتى دان لهم المعسكر الآمن في خيامه،
فأمطروهم بوابل من سبعين مدفع، أحالت ليل المعسكر الهادئ جحيماً،
سقطت إحدى القنابل على خيمة عراي الذي كان يصلي الفجر على ربوة
قرية، ففزع هو وقادته وامتنطوا الجياد وقد أذهلهم أن فزع جندهم وفروا

مذعورين، فوقفوا يستحثوهم على الثبات وهم شاهرو السيوف بخناجر
بجت بين أصوات انفجارات متتابعة، كانت تسقط الواحدة منها فتدفن
الجنود وتوارى بهم الثرى، ثم تسقط أخرى فتكشف جثامينهم من جديد.

"الولز كسر عرابي يا ولاد"

امتطى أحمد فرسه بعد أن أعاد جمع بعض الجنود وساقهم لمناجزة فرقة
من سلاح الفرسان البنغالي، أصابته وفصيلته قذيفة انقلب معها حصانه
فدفن تحته وكسر كاحله وقد أصيب بشظايا في مواضع مختلفة بصدرة
ورأسه فانبجس منه الدم وانداح، تائها في الملاء المحتشد، أخذ يفكر في
فاطمة وأمه وإخوته في سكراته الأخيرة، أهي نهاية عشق أم نهاية وطن؟
تذوي حياته أمام عينيهِ بغتة، كعبه سافل ونجمه آفل.

صَفَار في الذهاب وفي الإياب

هذا كل شأنك يا عرابي؟

عفا عنك الأبعاد والأداني

فمن يعفو عن الوطن المصاب؟

وما سألوا بَنِيكَ ولا بَنِيَنَا

ولا التفتوا إلى القوم الغضاب

فَعَشِش في مصرَ موفورَ المعالي

رفيعَ الذكرِ مُقْبِلَ الشباب

أَفَرَقَ بَيْنَ سِيلَانَ وَمِصْرَ
وَفِي كَلَّتَيْنِهِمَا حُمُرُ الثِيَابِ؟
يَتُوبُ عَلَيْكَ مَنْ مَنَّفَاكَ فِيهَا
أَنَاسَ مِنْكَ أَوَّلَى بِالْمَتَابِ
وَلَا وَاللَّهِ مَا مَلَكَوْا عِتَاباً
وَلَا مَلَكَوْا الْقَدِيمَ مِنَ الْعِقَابِ
وَلَا سَاوَوْكَ فِي صِدْقِ الطَّوَايَا
وَبِإِنْ سَاوَوْكَ فِي الشَّيْمِ الْكَذِبِ
حُكُومَةَ ذِلَّةٍ وَسَرَاةً جَهْلٍ
كَعَهْدِكَ إِذْ تُحَيِّكَ الطَّوَايِي
وَإِذَا ضَرَبُوا وَسِيفُكَ لَمْ يَجِرْ
وَإِذَا دَخَلُوا وَنَعَلُكَ فِي الرِّكَابِ

أحمد شوقي أمير الشعراء،
حفيد القلقا غمراز هاجياً أحمد عراي في قصيدة نارية

11 يوليو 1901

ولا تعقيب إلا ارتعاش الكاتب والقارئ وارتجافهما ارتجاف العصفور،
لا الذي بلله القطر، بل بللته الدموع وعرق الخجل!!

محمد لطفي جمعة منحدثاً عن الخيانة التي أحاطت بعراي - جريدة
الدستور - 5 أبريل 1947

حين وصل الخديوي إسماعيل إلى نابولي في إيطاليا ظل مقيماً في اليخت 15 يوماً دون أن ينتقل للقصر الذي خصصه له ملك إيطاليا، حتى أنذرتة الحكومة الخديوية بأنه إن لم يترك اليخت حجزت على مرتبه السنوي ومنعته عنه، فامثل مضطراً، وسكن في القصر الذي أعد له، مشرفاً على جبل فيزوف، وأخذ ينتقل في مختلف العواصم الأوروبية، على أنه كان يتزل في نزل حقيرة ليست كالقصور العظيمة التي كان يتزل فيها من قبل، دون أن تفارقه آماله في العودة إلى عرش مصر، خاصة بعد اشتداد الصعاب على توفيق في مصر، وظهور أن البلاد بحاجة إلى حاكم قوي مثله، فلم ينل بذلك إلا أن استدعى حتى ابنه وغضبه عليه. رحل إلى الآستانة سنة 1888 في قصر ميركون الذي اشتراه على البوسفور، والذي صار يعرفه الأهالي الأتراك منذ أن حل به باسم أميرجان، قرب قصر عمه الأمير عبد الحليم، محاطاً بجواسيس السلطان عبد الحميد الثاني يعدون عليه أنفاسه، وهناك قابل حفيده عباس حلمي الثاني في زيارته الأولى للآستانة بعد تقلده الحكم خلفاً لأبيه توفيق، فطلب منه أن يسمح له بالعودة إلى مصر، لكنه لم يجب طلبه، وفي 2 مارس 1895 فاضت روحه إلى بارئها وله من العمر

خمس وستون سنة، فنقل جثمانه إلى مصر ودفن في مسجد الرفاعي بالقاهرة، بجوار مدفن أبيه إبراهيم باشا، وقرب مدفن جده محمد علي في جامعته أعلى سفح المقطم.

كان إسماعيل بحسناته وسيئاته آخر حكام أسرة محمد علي الأقوياء إن لم يكن أهمهم بعد جده، شهدت حياته الطويلة الكثير من المخططات الدرامية والانتصارات والهزائم السياسية والعسكرية.

أما الأميرة فاطمة فقد خرت مغشياً عليها حين أنبت بمقتل القائمقام أحمد السعداوي، واكوت شهور طوال من ألم لم تبرا منه، أخت فيها عليها أمها بالزواج من جديد فتزوجت من محمود سري باشا سنة 1883 وأنجبت منه ثلاثة أولاد وبتاً، وكان لديها قصران واحد في بولاق الدكرور صار فيما بعد مبنى كلية الفنون التطبيقية، وآخر في منطقة الدقي تبرعت به للجامعة المصرية ثم تحول فيما بعد إلى المتحف الزراعي، وفي يوم 3 يوليو 1913 قررت الأميرة فاطمة أن توقف أملاكها في الأعمال الخيرية، فخصت الجامعة المصرية التي كانت مشروعا قومياً حينها بخمس أطيافها، ثم قامت ببيع مجوهراتها لصالح تكاليف البناء، وفي 18 نوفمبر 1920 توفيت الأميرة فاطمة عن عمر يناهز الثامنة والستين عاماً، بعد أن وهبت ثروتها البالغة مليوني ليرة ذهبية إلى جامعة إسطنبول.

أما الإمبراطورة أوجيني التي عشقها الخديوي إسماعيل، فبعد هربها إلى إنجلترا، لحق بها زوجها وابنها لويس، فمات الزوج بعد ثلاث سنوات فقط من سقوط إمبراطوريته، ومات الابن وهو في ريعان الشباب، وظلت أوجيني وحدها تحيا حياة كئيبة، وفي عام 1905 حنت لزيارة مصر ونزلت عدة أيام متنكرة في فندق سافوي في بورسعيد، في زمن عباس حلمي الثاني، ثم كررت زيارتها بشكل سنوي، وكانت تبدأ زيارتها في القاهرة بزيارة

أرامل الخديوي إسماعيل، وفي عام 1920 توفيت في إسبانيا ولديها من العمر أربعة وتسعين عاماً.

وأما أحمد عرابي والبارودي وعبد الله النديم الذي صار خطيب الثورة العربية فقد تم نفيهم إلى سريلانكا، ولم يعد الأول إلى مصر إلا بعد عشرين سنة اشتد عليه المرض فيها، ولم يعد الثاني إلا بعد 18 سنة لاقترب وفاته وإصابته بالعمى من شدة التعذيب، وأعيد نفي الثالث إلى يافا ومنها إلى الآستانة حيث مات ودفن هناك دون أن يوفق أحد من الباحثين في الوصول إلى قبره حتى يومنا هذا.

وأما علي الروي فقد نفي إلى مصوع عشرين سنة، وأما الإمام محمد عبده فقد نفي إلى بيروت، وأما أديب إسحاق فقد سافر إلى باريس بعد أن ضيقت عليه السلطات المصرية وأغلقت جريدته "مصر" و "التجارة"، ولم يعد إلى القاهرة إلا بعد أن استدعاه شريف باشا ليتولى نظارة ديوان الترجمة والإنشاء، فلما نشب الخلاف بين شريف باشا والعرايين انحاز إلى صف شريف باشا.

لم يكن أحمد شوقي وحده الذي اعتبر عرابي والعرايين أس البلاء الذي أدى إلى الإحتلال الأجنبي للبلاد دون أن يمعن في الحياتات التي تعرض لها عرابي، وإلى السياسات الخديوية الخاطئة التي زادت من التدخلات الأجنبية، فقد هاجمه كثيرون من بينهم المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي، وهذا شأن الكثير من الثوار الذين لا تنجح ثوراتهم لأسباب أكثرها خارج عن إرادتهم، ظلت صورة عرابي بهذه الكيفية ولم تتبدل بعض الشيء إزاء هذا النقد إلا بعد قيام ثورة 23 يوليو وانتسابها إلى عدد من الرموز الوطنية جعلوا بينها أحمد عرابي.

وأما محمد رؤوف بك الذي صاحب أحمد في مديرية خط الاستواء فقد صار محافظ زيلع، ثم فاتح هرر، وحاكمها العام، ثم حاكم دار عموم السودان من 21 يناير 1880 إلى 21 فبراير 1882 وفي عهده ظهر المهدي واستفحل أمره في السودان، ثم عاد من السودان إلى مصر حيث رأس المجلس العسكري الذي حكم على عرابي بالإعدام قبل أن يحفف الحكم إلى النفي.

وأما شاليه لونج رفيق أحمد في رحلته إلى متيسا ملك أوغندا، فقد رحل ورفاقه الأمريكيان عن مصر بعد أن عمدت سياسة المندوبين الأوربيين إلى تفريغ الجيش المصري من الخبراء الأجانب، وكان آخرهم الجنرال استون الذي رحل في العام الذي تعرضت فيه مصر للاحتلال، وتعددت مقالات لونج فيما بعد التي يحتج فيها على إطلاق الأطلال الحديثة الأسماء الإنجليزية "فيكتوريا"، و"ألبرت"، و"إدوارد" على بحيرات منابع النيل، دون أسمائها الإفريقية الأصلية، واستعمالهم الأسماء التي قررها مكتشفوها الأجانب، وتعمدهم رغم ذلك عدم ذكر الإسم العربي "بحيرة إبراهيم" التي اكتشفها هو أسوة بغيرها من البحيرات المكتشفة، وذكرهم إسمها الإفريقي بدلاً من ذلك "بحيرة كيوجا".

وأما سعد زغلول فقد توثقت علاقته بالشيخ محمد عبده بعد رحيل جمال الدين الأفغاني، فكان يكتب معه في الوقائع المصرية، واشتركا معاً في الثورة العربية حتى جعلته حكومتها التي رأسها البارودي معاوناً في نظارة الداخلية، ثم ناظراً لقلم الدعاوى بمديرية الجيزة، فلما ضرب الأسطول الإنجليزي الإسكندرية، نادى بالجهاد الديني وطالب في صحيفة "المفيد" بالتصدي لسلطة الخديوي توفيق بعد انحيازه للإنجليز ضد وطنه، فلما

فشلت الثورة واحتل الإنجليز البلاد طرد من وظيفته وجرى اعتقاله ثلاثة أشهر قبل أن يفرج عنه لعدم كفاية الأدلة، حيث عمل بالخاماة، ثم القضاء، ثم ناظراً للمعارف وناظراً للحقانية (العدل)، ثم وكيلاً للجمعية التشريعية، ولما انتهت الحرب العالمية الأولى أنشأ حزب الوفد وأخذ يطالب مع صديقيه علي شعراوي، وعبد العزيز فهمي برفع الحماية البريطانية عن مصر وإنهاء الاحتلال، ليتم نفيه هو وزملائه وتشتعل البلاد بثورة عارمة تقتف بحياته.

وأما أخوه الأصغر أحمد فتحي زغلول فقد شارك في الثورة العربية أيضاً، وكان من خطبائها حين كان طالباً بالمدرسة، وعندما فشلت واحتل الإنجليز مصر أقيل من المدرسة بقرار من وزير المعارف، فقام بتغيير اسمه والتحق بمدرسة الألسن عام 1883، وسافر في تلك السنة لدراسة القانون في أوروبا، وعاد ليعين في القضاء ويتدرج في المناصب حتى أصبح رئيساً لمحكمة مصر، وكانت بينه وبين اللورد كرومر علاقات قوية، حتى أنه شارك كقاضٍ في محاكمة دنشواي السورية سنة 1906 وكان هو الذي صاغ حثيات الحكم الذي ندد به مصطفى كامل بعد أن قضى بإعدام عدد من الفلاحين أمام ذويهم لمطاردتهم عدداً من الجنود الإنجليز سقط أحدهم ميتاً بضربة شمس كما ذكر الطبيب الشرعي.

وأما حسن وسعيد وزينب فالخديث عنهم وعن نسلهم وما مر بهم من حوادث ونوازل فقد يحتاج إلى رواية أخرى.

الهوامش

- (1) إمارتان تابعتان للدولة العثمانية تكونت منهما رومانيا فيما بعد.
- (2) منطقة حدودية تنازعت عليها روسيا وأوكرانيا مؤخراً.
- (3) كبير الجيش بالفارسية.
- (4) ضمن ممتلكات المملكة العربية السعودية الآن.
- (5) ضمن الأراضي الليبية الآن.
- (6) إقليم يشمل ولاية كسلا في جمهورية السودان الآن ويمتد إلى الحدود الإريتيرية.
- (7) جغرافي وضابط بحري مصري ذو أصول تركية، ولد في كريت، وخدم في جيش محمد علي، وكان من أوائل مستكشفي منابع النيل في العصر الحديث قبل البعثات الأوروبية، انتهت رحلاته إلى مفترق نهري النيل الأبيض والأزرق.
- (8) شارع عبد العزيز التجاري بوسط البلد.
- (9) إحدى الولايات العثمانية وهي الآن جزء من كوسوفو واليونان ومقدونيا وألبانيا.
- (10) أنشئت في ديسمبر 1869 بجوار المسجد الحسيني بالجمالية كمدرسة وتكية ثم تحولت إلى مدرسة ابتدائية سنة 1905، وفي 29 يناير 1928 انتقلت إلى مبنى جديد بني على

طراز السرايات السلطانية في شارع فاروق (شارع الجيش حالياً) وافتتحها الملك فؤاد، ولا يزال مبناها قائماً حتى الآن.

(11) قبائل تركية كانت تشغل حوض نهر الفولغا في الجنوب الشرقي من روسيا الآن، حيث كانت منذ الاجتياح المغولي لروسيا وأوكرانيا في القرن الثالث عشر المصدر الرئيسي للرقيق الذي اعتمدت عليه الدول الإسلامية في تكوين جيوشها، ومنها قدم أغلب الممالك البحرية، بينما قدم أغلب الممالك البرجية من إقليم تشركسيا التابع لروسيا أيضاً الآن.

(12) في الجنوب الغربي من كردفان، ضمن حدود جمهورية السودان الآن.

(13) جنوب جمهورية جيبوتي.

(14) ضمن حدود إريتريا الآن، وسمهر هو شخصية أسطورية عربية قديمة تنسب إليه الرماح السمهرية، كثيراً ما تحدث عنه شعراء الجاهلية في أشعارهم.

(15) أختاه بالتركي وكانت تقال بين الزوجات وبعضهن البعض في القصر.

(16) مازالت صورة البعثة التي كانت في عهد الإمبراطور الياباني مييجي أمام أهرام الجيزة محفوظة ضمن الوثائق الهامة لمكتبة البرلمان الياباني "الدايت"، وعقب البعثة أوفدت حكومة مييجي العديد من الباحثين لدراسة أسباب القوة والضعف في دولة محمد علي، ولماذا انهارت الدولة الحديثة في مصر بالاحتلال البريطاني عام 1882م،

كما شجعت حكومة اليابان المثقفين على إجراء أبحاث ودراسات عن النظام القضائي والقانوني في مصر ليستفيدوا من الخبرة المصرية في كيفية مواجهة مشكلات مماثلة في اليابان، وخصوصاً مشكلة الأجانب، ومن ثم ظهر كتاب "المحاكم المصرية المختلطة" الذي كتبه هارا كيه عام 1889م، وهو الشخص نفسه الذي أصبح رئيساً لوزراء اليابان بعد سنوات قليلة من صدور كتابه، ثم صدر كتاب (KAJINNOKIGU) في عام 1890م الذي كتبه توكاي سنشي الذي أصبح من أكثر الكتب شعبية آنذاك وفيه يصف حال العالم العربي في ظل الحكم الاستعماري، ويتعاطف بشكل واضح مع العرب باعتبارهم شعوباً مغلوبة على أمرها، لكن سرعان ما تغير هذا الشعور لدى اليابانيين بعد انتصارهم على روسيا عام 1905م، والذي جعل من اليابان واحدة من القوى الخمس العظمى في العالم الراغبة في التمدد الاستعماري.

(17) مصمم كوبري أبو العلا، وبرج إيفل، وتمثال الحرية الذي كان مقدراً له أن يكون في مدخل القناة ببورسعيد.

(18) نقل بعد الثورة إلى مدخل المتحف الحربي في القلعة ووضع بدلاً منه تمثال طلعت حرب.

(19) مدينة في الشمال الغربي للصومال، وكانت لقرون عاصمة بلاد الصومال.

(20) عملة مصرية تم إيقاف إصدارها سنة 1885، وكان القرش يتكون من 40 بارة.

(21) قومسيون ألف من جراء تعدي روسيا على الملاحة في مدخل نهر الدانوب من البحر الأسود، وشمل أعضاء من فرنسا وإنجلترا وروسيا وتركيا وبروسيا وسردينيا.

(22) وقد التقى ستانلي بليفنجستون في قرية أودجيبي بالفعل، وتناقلت جماهير الناس في أوروبا أخبار هذا اللقاء التاريخي، لكنه لم يعد بعد هذا اللقاء فقد ثبتت صحة مخاوف الخديوي إسماعيل في استانلي التي كتب عنها شاليه لونج في مذكراته بوصفه رجل الحكومة الإنجليزية ، فبعد ذلك بسنوات وفي زمن الاحتلال الإنجليزي لمصر، تحديداً سنة 1889 توجه استانلي على رأس قوة إنجليزية بزعم إنقاذ الدكتور الألماني إدوارد اشتنزر الذي أسلم وصار اسمه أمين باشا آخر حكمدار لحكمدارية خط الاستواء المصرية فاضطره إلى الجلاء وجنده عنها، وفي سنة 1893 احتلت إنجلترا أوغندا ووضعتها تحت حمايتها وألحقت بها الجزء الجنوبي من مديرية خط الاستواء فصارت تلك حدودها التي استمرت عليها حتى الآن.

(23) إمارة عربية بحرية عظيمة أسسها حكام عمان القدامى منذ القرن الأول الهجري في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بعد أن أرسل إليهم جيشاً لفتح البلاد، فهاجروا إلى إفريقيا واستمر وجودهم هناك، احتلها البرتغاليون بداية من القرن السادس عشر، وبداية من سنة 1624 وحتى 1741 حارب اليعاربة حكام عمان البرتغاليين حتى تمكنوا من إجلائهم عن سواحل عمان، وتعقبوهم في سواحل الهند، وإفريقيا، ثم غزاها الفرس في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، وحررها البوسعيديون منهم سنة 1741، وفي عام

1798 وقعت البلاد تحت الحماية البريطانية، وصلت حدود البلاد وعاصمتها زنجبار إحدى جزر البهار التنزانية في أعظم اتساع لها حين توفي السلطان سعيد بن سلطان بن أحمد البوسعيدي سنة **1856** إلى ملاوي، وهضبة البحيرات في أوغندا، ومومباسا في كينيا، وجزر القمر، والسواحل الشمالية من جزيرة مدغشقر، والأهواز في إيران، والإمارات، والبحرين، وفي عام **1862** انقسمت مملكة عمان الكبرى إلى دولتين يحكمها ابنا الحاكم السادس في أسرة بوسعيد ثويني، وماجد، فرع آسيوي عاصمته مسقط في عمان، وفرع إفريقي عاصمته زنجبار، يشمل أغلب السواحل والجزر الإفريقية، نالت الدولتان الاعتراف الدولي من انجلترا وفرنسا في بيان مشترك، وفي عام **1886** وقعت بريطانيا مع ألمانيا معاهدة أصبحت بموجبها تنجانيقا تحت الحماية الألمانية، وزنجبار تحت الحماية البريطانية، وفي عام **1905** تنازلت بريطانيا عن مقديشو عاصمة الصومال الحالية لإيطاليا، وعقب الحرب العالمية الأولى سيطرت بريطانيا على تنجانيقا حتى عام **1961**، وفي عام **1963** ضمت كينيا مومباسا إليها، وفي عام **1964** قام المسيحيون الأفارقة في زنجبار بالتمرد على السلطان جشميد بن عبد الله آخر سلاطين المملكة بزعامة عبيد أمانى كرومي، ومساندة مرتزقة أوغنديين بزعامة القس جوليوس نيريري، وارتكبوا مذابح راح ضحيتها قرابة الـ **23** ألف عربي مسلم، صور التلفزيون الإيطالي أحدها في تسجيل نادر ضمت أعمال قتل وإحراق جثث، ومقابر جماعية، لينتهي حكم الأسرة البوسعيدية في إفريقيا، وينشأ اتحاد بين تنجانيقا وزنجبار تكونت على إثره جمهورية تنزانيا الاتحادية الحالية.

(24) من بلاد الصومال التي دانت للحكم المصري سنة 1875، بعد أن تنازلت الدولة العثمانية عنها للخديوي إسماعيل مقابل زيادة الجزية قدرها 15 ألف جنيه عثماني، وفي سبتمبر 1877 وقعت الحكومة الإنجليزية ممثلة في قنصلها العام فيفيان مع الحكومة المصرية ممثلة في شريف باشا ناظر خارجيتها اعترافاً من إنجلترا بامتلاك مصر بلاد الصومال الشمالية الواقعة على خليج عدن حتى رأس حافون على المحيط الهندي، وقبولها أن تبقى مصر بربرة وبلهار ثغرين حربيين في مقابل أن تعامل مصر رعايا إنجلترا في هذه الجهات معاملة دولة ممتازة، على أن الحكومة المصرية أكرهت في مارس 1885 بعد الاحتلال الإنجليزي على التنازل عنها شأن باقي ممتلكاتها في السودان وإفريقيا بعد تحجج الإنجليز بنشوء الثورة المهدية في السودان لتحتل إنجلترا منذ ذلك الحين السودان وموانئ زيلع وبربرة، وتحتل فرنسا تاجوره (جيبوتي) وملحقاتها، وتحتل إيطاليا رأس حافون وجميعها كانت أراضي مصرية.

(25) كتب شابي لونج بعد ذلك في كتابه مصر ومديرياتها المفقودة أن إغضاء غوردون الطرف عن تحريك الجيش ربما يكون إلى احتمال وصول تعليمات من الحكومة الإنجليزية توجب عليه عدم التعاون مع هذه الحملة، كما نشر الأمير عمر طوسون عددا من رسائل غوردون إلى أخته قال فيها "أنه رغماً عن تكليف الخديوي ماكيلوب باشا وشابي لونج بك بانتظاره على نهر جوبا فإن انتظاره سيكون على غير جدوى!"

(26) ضمن أراضي اريتريا الآن.

(27) ذكر غوردون في رسائله إلى أخته التي نشرت فيما بعد أن الملك متيساً أقسم يمين الولاء لمصر في مارس 1876 وأنه (غوردون) كان يتمنى أن يبقى ملكاً أوغندا مستقلاً، ولكنه هو الذي دعا الحماية المصرية التي كان غوردون معتمراً جعلها في أوردجاني إلى الاستقرار في عاصمة أوغندا دوباجا.

(28) الدين الثابت هو قرض يحصل اكتتاب فيه بواسطة أحد البنوك بفائدة ثابتة ويسدد في مواعيد معينة وبضمانات معينة، أما الدين السائر فهو خراب ينشأ نتيجة معاملات مدنية بنوعية بونات أو كمبيالات تكتب بقيم مختلفة موقعاً عليها من وزير المالية، تستحق الوفاء في ميعاد محدد، وكانت توضع في الخزائن فيأتي الراغبون ويطلبون شراءها بعد مساومات على سعر الفائدة، ثم يتجرون بها، وعند حلول موعد الدفع يقدمها مالكوها إلى الخزانة ويأخذون قيمتها، وكان سر خطورتها أنه لم يكن لها حساب معروف، بل كان الخديوي أو الوزير كلما احتاجا إلى المال استدانا بهذه الطريقة لأنها أسرع وأنجز من معاملات البنوك، على أن فوائدها تكون أكبر أيضاً، حتى أنها وصلت إلى 20% و 24% في بعض الأحيان، وقد قدرت قيمة الدين السائر في مصر هذه الأيام بمبلغ يتراوح بين 25 مليون و 28 مليون.